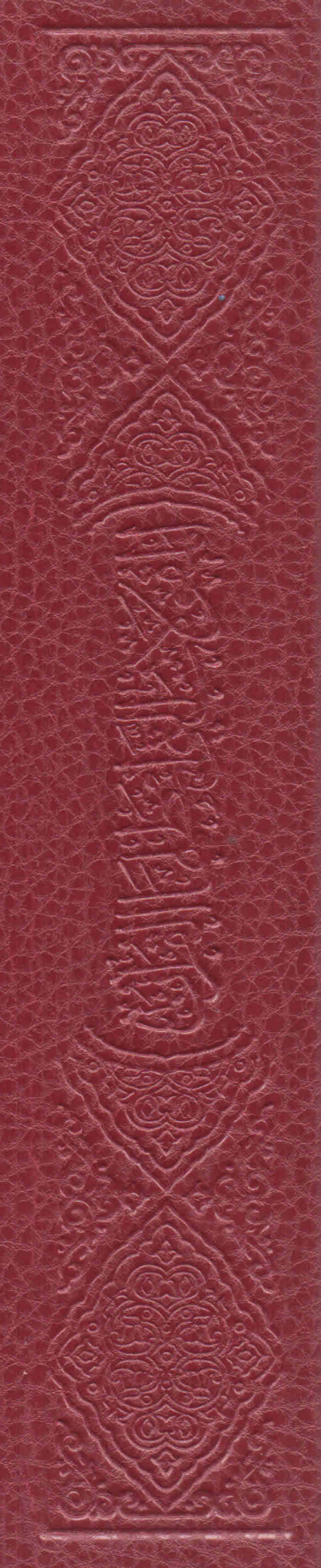




الإصدار الثامن عشر

المقولات التي أبطلها القرآن ومنهجه في إبطالها

دراسة تأصيلية، موضوعية

تأليف
د. وليد بن عبد المحسن العمري
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

كرسي القرآن الكريم وعلومه
جامعة الملك سعود



ح) كرسي القرآن الكريم وعلومه بجامعة الملك سعود، ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العمري، وليد بن عبد المحسن بن أحمد
المقولات التي أبطلها القرآن ومنهجه في إبطالها: دراسة تأصيلية، موضوعية. / وليد بن عبد المحسن بن أحمد العمري.- الرياض، ١٤٣٦هـ
٥٢٨ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٧ - ٨ - ٩٠٥٩٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - مباحث عامة ٢ - العقيدة الإسلامية - دفع مطاعن أ. العنوان
ديوي ٢٢٩ ١٤٣٦/٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ

يهتم الكرسي بنشر البحوث المتميزة والجادة
في التفسير وعلومه تحقيقاً ودراسة

جامعة الملك سعود - كلية التربية
هاتف: ٠٠٩٦٦١١٤٦٧٤٧٤٤ - ص.ب. ٢٤٢١٩٩ الرياض ١١٣٢٢
بريد إلكتروني: quranchair@ksu.edu.sa - الموقع: http://c.ksu.edu.sa/quranchair
تويتر: @quranchair

منافذ البيع
الرياض: ٤٤٥٦٢٢٩ / ٠١١ - مكة المكرمة: ٠١٢/٥٧٦١٣٧٧ - المدينة النبوية: ٠١٤/٨٤٦٧٩٩٩



مُقَدِّمَةُ كُرْسِيِّ القُرْآنِ الكَرِيمِ وَعُلُومِهِ

وَرَدَ في القرآنِ الكريمِ الكثيرُ من مَقُولاتِ المعارضينَ والمكذِّبينَ للحَقِّ التي حكاها اللهُ عنهم، وقد أبطَلَهَا اللهُ وردَّ عليها، وكشَفَ زَيْفَها، وقد تَفرَّقَتْ هذه المَقُولاتُ على امتدادِ سُوَرِ القرآنِ الكريم؛ فجاء هذا البحثُ الذي بين يَدَيْكَ أيها القارئُ الكريمُ؛ فجمَعَ هذه (المَقُولاتِ التي أبطَلَهَا القرآنُ)، وأوضَحَ لك في دراسةٍ متأنِّيةٍ رصينةٍ منهجَ القرآنِ الكريمِ في الرَّدِّ على المَقُولاتِ الباطلةِ التي ورَدَتْ، ويُقاسُ عليها كُلُّ المقولاتِ الباطلةِ التي تَتكرَّرُ في شَكْلِها وتتفقُ في جَوْهَرِها.

وهذا الجانبُ التأصيليُّ مفيدٌ للباحثين الذين يَتصدَّوْنَ للانتصارِ للقرآن، والانتصارِ للإسلامِ في الطريقةِ المثلى للرَّدِّ على تلكَ المقولاتِ الباطلة، وهذا الجانبُ ما يزالُ في حاجةٍ إلى مزيدٍ من الدراساتِ والبحوث الجادَّةِ العميقةِ مع شِدَّةِ الحاجةِ، وتكاثُرِ الشبهات، ووقوعِ كثيرٍ من أبناءِ المسلمينَ في أَسْرِها لأسبابٍ كثيرةٍ.

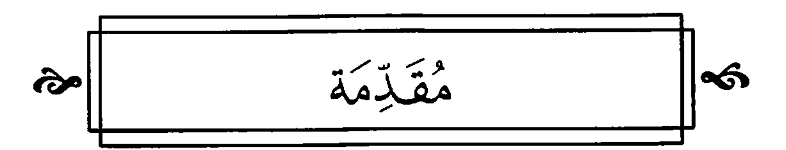
كما تَتَبَّع الباحثُ في الجانبِ الثاني من بَحْثِهِ جميعَ المقولاتِ التي أبطَلَهَا القرآن، فقام بتقسيمها على حَسَبِ موضوعاتِها التي تَناولَتْهَا في أبوابٍ وفصولٍ ومباحث، فجاء البحثُ وافيًا بحقِّ الموضوعِ مِنْ جانبيه

التأصيليِّ والتطبيقيِّ، وهو بحثٌ قيِّمٌ يُعَدُّ إضافةً مميَّزةً للمكتبةِ القرآنيَّة، في جانبِ الدراساتِ الموضوعيَّةِ القرآنيَّة، وفي جانبِ الانتصارِ للقرآنِ والدفاعِ عنه أمامَ شُبُهاتِ الكفَّارِ والمنافقين.

وقد رأينا في كُرْسِيِّ القرآنِ الكريمِ وعلومِهِ بجامعةِ الملك سُعُودٍ نَشْرَ هذا البحثِ؛ خِدْمةً للقرآنِ وعلومه، وإبرازًا لِمَا فيه مِنَ العلمِ الذي نرجو أنْ يكونَ مِنَ الصدقةِ الجاريةِ لمؤلِّفه ولكلِّ مَنْ شارَكَ في نشره.

أ.د. عبدُالرحمن بن مُعاضة الشهري

المشرف على الكرسي



مُقَدِّمَة

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ الله.

أَمَّا بَعْدُ: فإنَّ خيرَ ما أُنفِقَتْ فيه الأنفاسْ، واشتَغَل به الصالحونَ الأكياسْ: فَهْمُ كلام الله تعالى، وتدبُّرِهِ، واستخراجُ فوائِدِه وآدابِهِ وعلومِهِ.

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

ومن طرق التدبُّرِ المحمود: تتبُّع حديث القرآن عن موضوع معيَّن، وسَلْكُ الآياتِ الواردة فيه؛ حيث يفسِّر بعضُها بعضًا.

ولـمَّا كانت «**المقولاتُ التي أبطلها القرآن**» من المواضيع التي أولاها القرآنُ عنايةً كبيرة؛ حيثُ ذكَرَ أقوالَ المعارضين والمعاندين، وفنَّدها مبينًا زيفها، وتهافُتَها بمنهجيَّةٍ ومنطقيةٍ رائدة؛ سنح في خاطري أن أقومَ بدراسةِ هذا الموضوعِ دراسةً تأصيلية، وموضوعيةً تحليلية، لا سيَّما وأنه من المواضيع التي لم يسبقْ أن تناوَلَها ـ حسب علمي القاصر ـ أحدٌ من العلماء أو الباحثين بالدراسة، وإن كانوا تناولوا مواضعَ متفرِّقةً منه بحسب تآليفهم.

فمَنْ كَتَب في الحوارِ، أو الجدلِ، فلا بد أن يتطرَّق لأساليب القرآن في الجدل والحوار، ولا بد أن يشير إلى الحوارات الواردة في القرآن، ولكنَّ دراسةَ المقولاتِ التي أبطلها القرآن، دراسةً موضوعية،

وتحليلية، واستقصاءَ طريقةِ القرآنِ في إبطالِ تلك المقولات، والتعرُّفَ على أساليب القرآن في عرض المقولات التي يبطلها ـ: كلٌّ ذلك وغيره مما تفترقُ به هذه الرسالةُ عن الأطروحات المشابهة.

وقد أشار بعضُ الأئمة إلى هذا الموضوع، ومنهم: الإمام ابن قيم الجوزية(١)؛ حيث قال: «والأقوال التي ذمَّها اللهُ في كتابه أكثرُ من أن تُعَدَّ؛ كالقولِ الخبيثِ، والقولِ الباطلِ، والقولِ بما لا يعلمُ القائلُ، والكذبِ، والافتراءِ، والغِيبَةِ، والتنابُزِ بالألقاب، والتناجي بالإثمِ والعدوانَ...».

وأصَّل الإمامُ أبو إسحاق الشاطبي(٢) أنواعَ الحكاياتِ الواردة في القرآن، وما يستفاد منها في كتابه الكبير: «الموافقات».

فلذلك اخترتُ هذا الموضوعَ ليكونَ أطروحةَ مرحلةِ الدراسةِ العَالِمِيَّةِ العالية: «الدكتوراه»، والله أسألُ التوفيقَ والإعانةَ فيما آتي وأذر.

اسم البحث: المقولاتُ التي أبطَلَهَا القرآنُ، ومنهجُهُ في إبطالها، دراسةٌ تأصِيليَّةٌ موضوعيَّة.

أهمية البحث:

تظهر أهميةُ هذا البحثِ من خلالِ مِحْوَرَيِ الدراسةِ: جانب التأصيل، وجانب التطبيق:

أما الجانب التأصيلي، فقد رَغِبْتُ أن أصلَ من خلاله إلى تقعيد وتأسيس لمنهج القرآن العظيم في الرد على المقولات الباطلة؛ وترجع أهمية ذلك لعدة أمور، منها:

---

(١) كشف الغطاء، عن حكم سماع الغناء (ص١٥١ ـ ١٥٢)، ويُلاحظ أن كلام ابن القيم هنا يشمل المقولات التي أبطلها القرآن ـ وهو موضوع هذا البحث ـ ويشمل الأقوال التي نهى القرآن عنها.

(٢) في الموافقات (٣/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤).

١ ـ أنَّ القرآنَ العظيمَ لم يهملْ مكايدَ أعداءِ الدين، وما كانوا يفترونه بشأنِ صدقِ الرسالةِ الإلهية، بل اهتمَّ بحصرِ شبهاتهم، وسَبْرِ أغوارها، وبيانِ جذورها بمصداقيَّةٍ تامَّة؛ مما يؤكِّد أهميةَ الإجابةِ عن الشبهاتِ التي تعترضُ مسيرةَ الدعوةِ، وتجليةِ الحقِّ للمخالفِ والموافقِ على حَدٍّ سواء؛ لأنَّ الحقَّ لا بدَّ أن يَبِينَ حتى تقومَ حجةُ اللهِ ناصعةً بينةً لا يعترضُها غَيْمٌ ولا قَتَرٌ.

٢ ـ إظهارُ حججِ القرآنِ في إبطالِ الشبهات، وأنَّ القرآنَ العظيمَ اشتمَلَ على أنواعِ الحججِ والبراهين، فإلى جانبِ اهتمامِهِ بالأدلةِ الشرعيةِ السمعيَّةِ وبيانها، كانَتْ أغلبُ الردودِ القرآنيةِ على الشبهاتِ تَنْحَى المنحى العقليَّ المنطقيَّ الذي يَشْترِكُ في فهمِهِ الصغيرُ والكبير، والعالمُ ومَنْ دُونَهُ في العلمِ، مع الاهتمامِ بالأدلَّةِ الحسيةِ التي لا يجادلُ فيها إلا مكابر؛ ولذا ما زال العلماءُ يقولون: إن القرآن اشتمَلَ على جميعِ أنواعِ البراهينِ والأدلة، وأوضحِها وأقواها، وما مِنْ برهان، ولا دلالة، ولا تقسيم، إلا والقرآنُ ناطقٌ به؛ لكن على عاداتِ العربِ في الكلامِ دون تشقيقاتِ طرقِ المتكلمين[1].

٣ ـ ومما يتفرَّع عما قبله: أن كثيرًا من المتكلِّمين لمَّا غفَلَ عن استدلالاتِ القرآنِ وأدلته، وبراهينِهِ الجليَّةِ في تقرير العقائد والشرائع، وحججِهِ في إبطالِ الشبهات، والردِّ على المخالفين؛ تنكَّب طريقةَ القرآنِ في الاستدلال إلى طرقٍ عقيمة، وجدالاتٍ سقيمة، وغموضٍ مَقِيت، فلم يستفدْ من كتاباتهم إلا الواحدُ تلوَ الواحدِ من الأجيال.

---

(١) انظر: مقدمة الأصفهاني (ص٧٥)، قواعد التفسير، للكافيجي (ص٦٩)، الإتقان، في علوم القرآن (٢/ ١٣٥).

وأما الجانبُ التطبيقيُّ للمقولاتِ التي أبطلها القرآن، فيمكنُ إجمالُ أهميته في التالي:

١ - قيامُهُ على استقصاءِ المقولاتِ التي أبطلَهَا القرآن، وسَلْكُها في نظامٍ واحد، يبيِّن شبهاتِ أصحابها، وطريقةَ القرآنِ في الجواب عن هذه الشبهات.

٢ - تحرِّي منهج القرآن في معالجةِ هذه القضيةِ المهمة، في وقت نحنُ أحوجُ ما نكونُ فيه إلى اقتفاءِ منهجِ القرآن في التعاملِ مع الأقوالِ الباطلة، ومحاورةِ أصحابها، والمنهجِ الصحيحِ في الرد عليهم.

فأسألُ الله تعالى أن يجري الحقَّ على لساني، ويوفِّقني لإصابة الحق.

وهذا بيانٌ تفصيلي لِخُطَّةِ البحث، ومنهجِ كتابته.

خطة البحث:

قسمتُ البحثَ إلى مقدِّمة، وبابين، وخاتمة.

المقدمة: وتشتمل على أهمية البحث، وخطة كتابته، والمنهج المتبع في كتابته.

الباب الأول: منهجُ القرآنِ العظيمِ في إيرادِ المقولاتِ الباطلة، ومنهجُهُ في إبطالها، **وفيه فصلان:**

الفصل الأول: موقفُ القرآنِ العظيمِ من الشبهات، **وفيه مبحثان:**

المبحث الأول: خطورةُ الشبهات.

المبحث الثاني: حكمُ إيرادِ الشبهاتِ بين المنع وعدمه.

الفصل الثاني: منهجُ القرآنِ العظيمِ في إيرادِ المقولاتِ الباطلة، ومنهجُهُ في إبطالها، **وفيه مبحثان:**

المبحث الأول: منهجُ القرآنِ العظيمِ في إيرادِ المقولاتِ الباطلة.

المبحث الثاني: منهجُ القرآنِ العظيمِ في إبطالِ المقولات.

الباب الثاني: موضوعاتُ المقولاتِ التي أبطَلَها القرآنُ العظيم، **وفيه ثلاثةُ فصول:**

الفصل الأول: المقولاتُ المتعلِّقةُ بالعقائدِ، **وفيه خمسةُ مباحث:**

المبحث الأول: المقولاتُ المتعلِّقةُ بالخالقِ سبحانه، **وفيه ثمانيةُ مطالب:**

المطلب الأول: إنكارُ وجودِ الله تعالى.

المطلب الثاني: دعوى الربوبية، أو نسبتُها لأحدٍ من الخلق.

المطلب الثالث: نسبةُ الولَدِ لله تعالى.

المطلب الرابع: ادعاءُ المشركينَ أنَّ شفعاءَهُمْ ينفعونهم عند الله.

المطلب الخامس: إنكارُ المشركينَ لتسميةِ اللهِ تعالى بالرحمٰن.

المطلب السادس: وصفُ الله تعالى شأنُهُ بالبُخْل.

المطلب السابع: وصفُ الله تعالى شأنُهُ بالفَقْر.

المطلب الثامن: سوءُ الظنِّ بالله تعالى.

المبحث الثاني: المقولاتُ المتعلِّقة بالإيمانِ، **وفيه خمسة مطالب:**

المطلب الأول: المقولاتُ المتعلِّقةُ بالنفاق.

المطلب الثاني: تركُ الإيمانِ تقليدًا للآباءِ والمتقدِّمين.

المطلب الثالث: تركُ الإيمانِ بحجةِ ضَعْفِ أتباعه.

المطلب الرابع: تركُ الإيمانِ تشاؤمًا.

المطلب الخامس: تركُ الإيمانِ تعنتًا وعنادًا.

المبحث الثالث: المقولاتُ المتعلِّقةُ بالكتبِ الإلهية، **وفيه ستةُ مطالب:**

المطلب الخامس: تحريمُ اللبن وأجنةِ الأنعامِ على النساء.

الفصل الثالث: المقولاتُ المتعلّقةُ بالسلوكِ والأخلاقِ، **وفيه اثنا عشر مبحثًا:**

المبحث الأول: القولُ على اللهِ بلا علمٍ.

المبحث الثاني: القولُ المُغايِرُ للفعلِ.

المبحث الثالث: نسبةُ النِّعَمِ لِلنَّفْس.

المبحث الرابع: القَسَمُ بالله كذبًا.

المبحث الخامس: التمنِّي بُدونِ عمل.

المبحث السادس: تركُ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكر.

المبحث السابع: مدحُ النفس.

المبحث الثامن: كثرةُ الأسئلة.

المبحث التاسع: الاغترارُ بالدنيا ونعيمها.

المبحث العاشر: التعلُّقُ المُطْلَقُ بالدنيا.

المبحث الحادي عشر: ادعاءُ العبدِ منزلةً لم يصلها.

المبحث الثاني عشر: المنُّ بالعملِ الصالح.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج.

منهج البحث:

١ ـ محورُ البحثِ في المقولاتِ التي ذَكَرها القرآن، فأبطَلَهَا على اختلافِ مشاربِ قائليها، وأسبابِ شبهاتهم.

٢ ـ شرطُ البحثِ أن تكونَ المقولاتُ الباطلةُ ناشئةً عن شبهةٍ قادحة، أو تكونَ من قبيلِ الاقتراحاتِ التي يرادُ منها التعنُّتُ والتنطُّعُ في الغالبِ؛ **وعليه: فليس من شرطِ البحث:**

أ ـ المقولاتُ الناشئةُ عن وَهَمٍ، أو عن ظَنٍّ، كما في **قوله تعالى**: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]، **وقولِهِ عن نبيه موسى** عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ب ـ أو الناشئةُ عن خطإٍ لفظيٍّ؛ كما في **قوله تعالى عن نبيه إبراهيمَ** عليه السلام: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، **وفي قوله**: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

ج ـ أو الناشئةُ عن استصحابٍ للأصلِ العقليِّ؛ كما في **قوله تعالى عن نبيِّه عُزَيْر** عليه السلام: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

د ـ أو الناشئةُ عن استصحابٍ للمعلومِ الحسيِّ؛ كما في **قوله تعالى عن ملائكتِهِ الكرام** عليهم السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ﴾ [البقرة: ٣٠]، **وفي قوله عن نبيه إبراهيم** عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ

إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٣ ـ ٥٦]، **وقوله عن زكريا** عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]، **وفي قوله عنه أيضًا:** ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨].

وقولِهِ عن زوج إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣]، **وقولِهِ عن مريمَ بنتِ عمْران:** ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠]، وقال كذلك: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ﴾ [آل عمران: ٤٧].

فكلُّ هذه المقولاتِ لم تنشأْ عن شبهةٍ مستحكمةٍ في النفس، وإنما لأمرٍ عارض، ومع هذا فإنَّ القرآنَ العظيمَ قد استَدْرَكَ على القائلين قيلهم، وبيَّن وجهَ الحقِّ في مقولاتهم.

٣ ـ **ومن شرط البحث:** ذكرُ كلِّ مقولةٍ أبطَلَها القرآنُ العظيمُ، سواءٌ صرَّح بها ـ كما هو غالبُ المقولاتِ المذكورة في البحث ـ أو كان القولُ فيها مقدَّرًا؛ كما في **قوله تعالى:** ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]، **وقولِهِ:** ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، **وقولِهِ:** ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ﴾ [الحجرات: ١٧].

٤ ـ ما أذكرُهُ في طريقةِ القرآنِ في الردِّ على المقولةِ الباطلةِ لا يقتصرُ على الآيةِ التي هي مَصَبُّ البحث، بل يتجاوزُها إلى كلِّ آيةٍ في

نفسِ الموضوع، هذا في جانبِ النقضِ والإبطال، وأما في جانبِ التقريرِ فلم ألزمْ نفسي بتتبُّعِ الآياتِ التي قررتِ الموضوع، وقد أنشطُ أحيانًا، أو أستحضرُ دليلًا في جانبِ التقريرِ فأذكره؛ لكنه ليس نفسًا متصلًا على طولِ البحث!

٥ ـ قدمتُ ببابٍ تأصيليٍّ لبيانِ منهجِ القرآنِ العظيمِ في إيرادِ الأقوالِ الباطلة، ومنهجِهِ في نقضها.

٦ ـ جمعْتُ تلك الآيات، ودرستُها دراسةً موضوعية، تبيِّنُ مَحاوِرَها، وتُحدِّدُ موضوعاتِها.

٧ ـ قدَّمتُ في كلِّ مطلبٍ الآيةَ الدالَّةَ على عنوانه، ثم علَّقتُ على الآية تعليقًا يوضِّح معانيها، مع الإشارةِ إلى سببِ نزولها إنْ وجد، والقراءاتِ الواردةِ فيها مما له تأثيرٌ على المعنى، مع الحرصِ على الاعتمادِ على تفسيراتِ السلفِ الصالحِ؛ فهم أكثَرُ الأمةِ علمًا، وأدقُّهم فهمًا، وأحسنُهم سيرةً وسريرة.

٨ ـ عزوتُ الآياتِ المستشهَدَ بها إلى سورها، مع ترقيمها في صلب البحث؛ منعًا لتضخم الحواشي.

٩ ـ خرَّجتُ الأحاديثَ الواردةَ في الرسالة من مَظانِّها، فما كان في الصحيحَيْن أو أحدهما، اكتفيتُ بعزوه لهما أو له، مع الإشارةِ للكتابِ، والباب، ورقم الحديث، وما كان خارجَ الصحيحين؛ فاجتهدتُّ في ذكر مخرِّجه حسَبَ استطاعتي، مشيرًا إلى رقم الحديث فقط، مع الحرصِ على نقلِ حكمِ أئمةِ هذا الشأنِ في الحكمِ عليه.

١٠ ـ خَرَّجْتُ الآثارَ من الكتب المسندة، خاصَّةً كتبِ التفسير؛ كتفسيرِ عبد الرزاق، والطبري، وابن أبي حاتم، مع الإشارة لمن أخرجه من أصحابِ السُّنن، أو المسانيدِ، أو المُعجَماتِ، أو المصنَّفات.

١١ - وَثَّقتُ القراءاتِ مِنْ كتبِ القراءاتِ المعتمدة، مع الإشارةِ إلى مخرجِ قراءات النبيِّ ﷺ وقراءاتِ الصحابة، مع الاهتمامِ بتوجيهِ القراءات من كتب التفسير.

١٢ - عَرَّفتُ بالأعلامِ غيرِ المشهورين ممَّن ذكروا في متن البحث.

وإنِّي لَأَشْكُرُ الله - جلَّ في علاه - وأحمدُهُ على نعمِهِ الظاهرةِ والباطنة، عليَّ، وعلى كل خلقه، وأسأله المزيدَ من نعمه في الدنيا والآخرة، وأنْ يوفِّقني لما يحبُّ ويرضى، وأن يسدِّد رأيي، ويَشْرَحَ صدري، ويجعلَ بحثي هذا عونًا لي على طاعته، وأن ينفعَ به كاتبَهُ، وقارئَهُ، وكلَّ مَنْ أعان على إخراجِهِ وطباعتِهِ والمسلمين.

وصلَّى الله وسلَّم وبارَكَ على نبينا محمَّد، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أجمعين.






البَابُ الْأَوَّلُ

منهجُ القرآنِ العَظِيمِ في إيرادِ المقولاتِ الباطلةِ، ومنهجُهُ في إِبْطَالِها

وفيه فصلان:

- الفصل الأول: موقفُ القرآنِ العظيمِ من الشبهات.
- الفصل الثاني: منهجُ القرآنِ العظيم في إيرادِ المقولاتِ الباطلة، ومنهجُهُ في إبطَالِهَا.



ٱلْفَصْلُ ٱلْأَوَّلُ

موقفُ القرآنِ العظيمِ مِنَ الشُّبُهات

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: خطورةُ الشُّبُهات.
- المبحث الثاني: حكمُ إيرادِ الشُّبُهاتِ بينَ المنعِ وعَدَمِه.



المَبْحَثُ الأَوَّلُ

خُطُورَةُ الشُّبُهَاتِ

الشُّبُهَاتُ: جمعُ شُبْهةٍ، و«الشبهةُ: الالتباسُ، وأمورٌ مُشْتَبِهَةٌ، ومُشْبِهَةٌ: مُشْكِلَةٌ يُشْبِهُ بَعْضُها بَعْضًا»(١).

والشبهاتُ: هي الأمورُ المُشْكِلات، والمُتشابِهاتُ المُتماثِلاتُ المُلْبِسة، **سُمِّيتْ بالشبهات**؛ للتشابُه الذي يحصُلُ عند سماعها، فلا يظهرُ وجهُ الحق فيها؛ ولذلك قيل: إن الفتنةَ تُشْبِهُ مُقبِلةً، وتَبِين مُدْبِرةً(٢).

قال ابن القيم(٣): «وكان السلفُ يسمُّون أهلَ الآراءِ المخالِفةِ للسُّنَّةِ، وما جاء به الرسولُ في مسائلِ العلمِ الخبرية، ومسائلِ الأحكام العمليَّة، يسمُّونهم: أهلَ الشبهاتِ والأهواء؛ لأنَّ الرأيَ المخالِفَ للسُّنَّةِ جهلٌ لا علم، وهَوىً لا دين، فصاحبُهُ ممن اتبع هواه بغيرِ هدىً من الله، وغايتُهُ الضلالُ في الدنيا والشقاءُ في الآخرة، وإنما ينتفي الضلالُ والشقاءُ عمن اتبع هدى اللهِ الذي أرسَلَ به رسلَهُ، وأنزَلَ به كتبَهُ؛ **كما قال تعالى**: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

والشبهاتُ أصلُ كلِّ بلاءٍ، وفتنةٍ، وهي أصلُ ضلالِ العبد، وشقائِهِ في الدنيا والآخرة.

---

(١) لسان العرب، لابن منظور، مادة: (شبه) (١٣/ ٥٠٣).

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) إغاثة اللهفان، لابن القيم (٢/ ١٣٩).

ولذلك نهى الشرعُ عن تتبعِ الشبه، والتعرُّضِ لها، دون بصيرةٍ ورويَّةٍ وعلم، ودَلَّ على أسبابها، وآثارها، وسبل النجاة منها؛ فإن القلوب ضعيفة، والشبهَ خَطَّافة[1].

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

فأمر بالإعراضِ عمن يخوضُ في آيات الله، ووصَفَ فاعلَ ذلك بالظالمِ؛ ترهيبًا، وتحذيرًا من فعله.

قال في اللسان[2]: «وأصلُ الخوض: المشيُ في الماءِ وتحريكُهُ، ثم استُعمِلَ في التلبسِ بالأمرِ والتصرُّفِ فيه...

والخوضُ: اللبسُ في الأمرِ، والخوضُ من الكلام: ما فيه الكذبُ والباطل».

والخوضُ في آياتِ اللهِ على صور، منها: التكذيبُ بها[3].

ومنها: الطعنُ في القرآن، وفي النبي ﷺ؛ وفي ذلك يقولُ السُّدِّيُّ: «كان المشركونِ إذا جالسوا المؤمنينِ، وَقَعُوا في النبيِّ ﷺ والقرآنِ، فسبُّوه، واستهزؤوا به، فأمرهم الله: ألَّا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره»[4].

ومن الخوضِ في آياتِ الله: المراءُ والجدالُ فيها بلا علم؛ وقد

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (٧/ ٢٦١).

(٢) لسان العرب، مادة: (خوض) (٧/ ١٤٧).

(٣) وبهذا فَسَّره قتادة؛ كما رواه عنه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢١٢) عن معمر، عنه، به.

(٤) أخرجه الطَّبَري، قال: ثنا محمد بن الحسين، قال: ثنا أحمد بن المفضل، قال: ثنا أسباط، عنه، به (٧/ ٢٢٦).

روى عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده[١]، قال: «خَرَجَ رسولُ اللهِ ﷺ على أصحابِهِ وهم يختصمونَ في القَدَرِ، فكأنما يُفْقَأُ في وجهِهِ حَبُّ الرمانِ من الغضبِ، فقال: (**بِهَذَا أُمِرْتُمْ، أَوْ لِهَذَا خُلِقْتُمْ؟! تَضْرِبُونَ الْقُرْآنَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؟! بِهَذَا هَلَكَتْ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ**)».

قال: فقال عبد الله بن عمرو: «ما غَبَطْتُ نفسي بمجلسٍ تَخلَّفتُ فيه عن رسولِ الله ﷺ ما غَبَطْتُ نفسي بذلك المجلسِ وتخلُّفي عنه»[٢].

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه عن رسولِ اللهِ ﷺ قال: (**المِراءُ في القُرْآنِ كُفْرٌ**)[٣].

قال أبو حاتم[٤] رحمه الله: «إذا مارى المرءُ في القرآنِ، أدَّاه ذلك

(١) عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما إمامٌ محدِّث، فقيه، احتج به أصحاب السنن، وبعض أصحاب الصحيح؛ كابن خُزيمة، وابنِ حبان في بعض الصور. انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ١٦٥)، تقريب التهذيب (ص٤٢٣).

(٢) أخرجه النسائي، باب المراء في القرآن، رقم (٨٠٩٣)، وأبو داود، باب النهي عن الجدال في القرآن، رقم (٤٦٠٣)، وابن حبان في صحيحه، باب: ذكر خبر تاسع يدل على صحة ما ذكرنا أن العرب تطلق اسم المتوقع من الشيء في النهاية على البداية، رقم (١٤٦٤)، ورواه القطيعي في زيادات المسند، رقم (٦٨٤٥)، قال في مجمع الزوائد (١/ ١٥٧): «رجاله موثقون»، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١٤): «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات».

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم (٧٩٧٦)، وابن حبان في صحيحه (٤/ ٣٢٥)، وأبو داود، رقم (٤٦٠٣)، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم (٨٠٩٣)، وأخرجه الطبراني في الكبير عن زيد بن ثابت، رقم (٨٤٧٠)، بسند قال عنه في مجمع الزوائد: «رجاله موثقون» (١/ ١٥٧)، وصَحَّحَهُ الألباني في السِّلسِلة الصحيحة بشواهده (٥/ ٥٤٥).

(٤) هو: الإمام محمد بن حبان بن أحمد، أبو حاتم التميمي البُستي، قال الحاكم: «كان من أوعية العلم في الفقه والحديث واللغة والوعظ، ومن عقلاء الرجال، وكانت الرحلة إليه»، توفي سنة (٣٥٤هـ). انظر: لسان الميزان، لابن حجر (٥/ ١١٢)، طبقات الحفاظ، للسيوطي (ص٣٧٥).

- إنْ لم يعصمه الله - إلى أن يرتابَ في الآي المتشابهِ منه، وإذا ارتاب في بعضه، أداه ذلك إلى الجَحْد، فأطْلَقَ ﷺ اسمَ الكفرِ الذي هو الجحدُ على بدايةِ سببِهِ الذي هو المِرَاءُ»[١].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «أَمَرَ اللهُ المؤمنينَ بالجماعة، ونهاهم عن الاختلافِ والفُرْقة، وأخبرَهُمْ أنه إنما هَلَكَ مَنْ كان قبلهم بالمِرَاءِ، والخصوماتِ في دِينِ الله»[٢].

وكان ابنُ سيرين[٣] يرى أن هذه الآيةَ نَزَلَتْ في أهلِ الأهواء[٤].

وقال سبحانه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

والإشارةُ هنا بما نزَّل للآية التي قبلها؛ لأن آيةَ الأنعامِ مكية، وهذه مدنية[٥].

وقال النبي ﷺ: **(مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْءَ عَنْهُ؛ فَوَاللهِ! إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ، مِمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ)**[٦].

---

(١) صحيح ابن حبان (٤/ ٣٢٥)، قال ابن عطية في تفسيره (٢/ ١٢٥): «وفي هذه الآية دليل قوي على وجوب تجنب أهل البدع، وأهل المعاصي، وألا يجالسوا».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١٣١٤) من طريق علي بن أبي طلحة، عنه، به، وأخرجه الطَّبَري من نفس الطريق (٧/ ٢٢٩).

(٣) محمد بن سيرين، أبو بكر الأنصاري، إمامٌ حجة، رأى ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ، من رجال الكتب الستة. **انظر**: الثقات، لأبي حاتم (٥/ ٢٤٩)، تهذيب التهذيب، لابن حجر (٩/ ١٩٠).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١٣١٤) من طريق ابن عون، عنه، به.

(٥) **انظر**: الإتقان، في علوم القرآن، للسيوطي (١/ ٤٩).

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم (١٩٨٨٨)، وأبو داود في سننه، باب خروج الدجال من كتاب الفتن، رقم (٤٣١٩)، والحاكم في مستدركه، رقم (٨٦١٦).

وتظهر خطورةُ الشبهاتِ من خلال هذه النقاط:

١ ـ أنها فتنةٌ قد تُرْدِي مَنْ يتعرَّض لها:

فتكونُ سببَ ضلالهم وزيغهم؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

فأخبَرَ أن من يبتغي الفتنةَ؛ يَعْمِدُ للآياتِ المتشابِهات؛ فَيَضِلُّ، ويُضِلُّ.

وقد فسَّر مجاهد رَحِمَهُ اللهُ[١] الفتنة هنا بالشُّبُهات[٢].

قال قتادة رَحِمَهُ اللهُ[٣]: «طَلَبَ القومُ التأويلَ، فأخطؤوا التأويل، وأصابوا الفتنةَ؛ فاتَّبعوا ما تَشابَهَ منه؛ فهلَكُوا من ذلك»[٤].

---

(١) هو: الإمام مجاهد بن جبر المخزومي، مولى السائب بن أبي السائب، إمامٌ في العلم، والتفسير، ثقةٌ، حجةٌ، روى له أصحاب الكتب الستة، أخذ التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقرأه عليه ثلاثين مرة، توفي سنة (١٠٤هـ). انظر: الكاشف للذهبي (٢/ ٢٤٠)، تقريب التهذيب، لابن حجر (ص٥٥٠).

(٢) الدُّر المنثور (٢/ ١٤٨).

(٣) هو: قتادة بن دعامة السدوسي، إمامٌ، مفسر، قدوة، من أوعية العلم، ويُضرب به المثل في الحفظ، توفي سنة (١٠٧هـ)، أخذ عن أنس بن مالك، وعبد الله بن سَرْجِس، وعن سعيد بن المُسَيَّب، والحسن البصري. انظر: الثقات، لابن حبان البستي (٥/ ٣٢٢)، سير أعلام النبلاء، للذهبي (٥/ ٢٧٠).

(٤) أخرجه الطَّبَري (٣/ ١٨٧) من طريق بشر، قال: حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعيد، عنه، به، وهذا الطريق من أصح الطرق عن قتادة.

وسعيد: هو: ابن أبي عَرُوْبَة، واسمه سعيد بن مهران اليشكري، ثقةٌ حافظٌ، عيب بكثرة التدليس، والاختلاط؛ إلا أنه من أثبت الناس في قتادة، توفي رَحِمَهُ اللهُ سنة (١٥٦هـ). انظر: تهذيب التهذيب (٤/ ٥٦)، تقريب التهذيب (ص٢٣٩).

ويزيد: هو: ابن زُرَيْع، أبو خالد البصري، ثقةٌ ثبتٌ في الحديث، توفي رَحِمَهُ اللهُ =

عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسولُ اللهِ ﷺ هذه الآيةَ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

قالت: قال رسولُ الله ﷺ: **(فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ)**[١].

«يعني: أن الذين في قلوبهم زيغٌ يَغْلُونَ في طلبِ التأويلِ للمتشابه، فيقعون على التأويلِ المظلم؛ فذلكَ ابتغاءُ الفتنة؛ لأن مَنْ غلا في الدين، وطلَبَ تأويلَ ما لا يعلمه إلا الله، يَقَعُ في الفتنة، ويكونُ مفتونًا، وخيرُ الدينِ النمطُ الأوسطُ الذي ليس فيه غلوٌّ، ولا تقصير»[٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٢، ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر: ٣١]؛ أي: اختبارًا، وامتحانًا[٣].

«فبيَّن أن إضلالَهُ للعبدِ يكونُ على هذا الوجه مِنْ إنزالِهِ آيةً مُتشابِهة،

= سنة (١٨٢هـ). انظر: التهذيب (١١/ ٢٨٤)، تقريب التهذيب (ص٦٠١).

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب منه آيات محكمات، رقم (٤٢٧٣)، ومسلم في كتاب العلم، باب النهي عن اتّباع متشابه القرآن، والتحذير من متبعيه، والنهي عن الاختلاف في القرآن، رقم (٢٦٦٥).

(٢) تفسير السمعاني، للإمام أبي المظفر (١/ ٢٩٥).

(٣) معاني القرآن، للنحاس (٤/ ٤٢٧).

أو فعلًا مُتشابِهًا، لا يَعْرِفُ حقيقةَ الغرضِ فيه، والضالُّ به هو الذي لا يقفُ على المقصود، ولا يتفكَّرُ في وجهِ الحكمةِ فيه، بل يَتمسَّكُ بالشبهاتِ في تقريرِ المجملِ الباطل»[1].

وكما أنَّ الآيةَ تدلُّ على أن مُتَّبِعَ المتشابهِ ممَّن في قلبه زيغ، فتدلُّ كذلك على أن مَنْ يتعرَّضُ للشبهات، فإنه معرَّضٌ لأن تصيبه الفتنة.

فلما كانتِ الشبهاتُ سببًا في زيغِ القلب وانحرافِهِ، كان من دعاء المؤمنين ـ كما أخبر الله تعالى ـ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٧، ٨].

٢ ـ أن فيها تحريفًا للكَلِمِ عن مواضعِهِ؛ وذلك بالتأويلِ الفاسد:

ويدل عليه قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧].

فمعنى: ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾؛ أي: تصريفِهِ للوجهِ الذي يريدون ويطمعون؛ وذلك لأن القرآن العظيم ذو وجوهٍ محتملةٍ في التأويل، فكلُّ مبطلٍ يتأوَّلُ المعنى الذي في قلبِهِ من الزيغ والضلال.

وفسَّره محمد بن جعفر بن الزبير[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بأنه «ابتغاءُ تأويلِ ما تشابَهَ من آي القرآن، يتأوَّلونه؛ إذْ كان ذا وجوهٍ وتصاريفَ في التأويلاتِ على ما في قلوبِهِمْ من الزيغ، وما ركبوه مِنَ الضلالة».

---

(١) التفسير الكبير (٢/ ١٢٩).

(٢) أسنده عنه ابن جرير الطَّبَري في جامع البيان (٣/ ١٨١)، ومحمد بن جعفر بن الزبير بن العوام القرشي، كان من فقهاء أهل المدينة وقرائهم، توفي سنة مئة وبضع عشرة، انظر: الثقات (٧/ ٣٩٤)، التقريب (ص٤٧١).

قال ابن جزي[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: يبتغون أنْ يتأوَّلوه على ما تقتضي مذاهبهم، أو يبتغونَ أنْ يَصِلُوا من معرفةِ تأويلِهِ إلى ما لا يصلُ إليه مخلوق».

٣ ـ أنها سببٌ للتفرُّقِ المنهيِّ عنه:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وتفرُّقُهم ـ بعدَ مجيءِ البيِّناتِ لهم ـ لا يكونُ إلا بصارفٍ يَصْرِفُهم عن اتباعِ بَيِّنِ القولِ إلى مُتشابِهِه.

٤ ـ حبوطُ العَمَلِ في الدنيا والآخرة:

وهذا أمرٌ مخوفٌ ينبغي للعبدِ أن يحذره؛ فإنَّ الشبهاتِ قد تصلُ إلى أصلِ اعتقادِ العبد؛ فتنزعه مِنْ محله، والعياذُ بالله!

قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩].

فالاستمتاعُ بالخَلَاقِ: هو التمتُّعُ بالشهوات.

فإنَّ الخلاقَ: «هو النصيبُ والحظُّ؛ كأنه الذي خُلِقَ للإنسان، وقُدِّرَ له، والخوضُ: الدخولُ في الباطلِ واللهوِ»[٢].

---

(١) في تفسيره: التسهيل، لعلوم التنزيل (١/ ١٠٠)، وابن جُزَيٍّ هو: محمد بن أحمد بن جُزي الكلبي المالكي، أبو القاسم، كان فقيهًا، أصوليًا، برع في علوم شتى. انظر: طبقات المفسرين، للداوودي (٢/ ٨٥).

(٢) الكشاف، للزمخشري (٢/ ٧٥) بتصرف.

فجمَعَ سبحانه بين الاستمتاعِ بالخَلَاق، وبينَ الخوضِ بالباطل؛ لأنَّ فسادَ الدينِ: إمَّا أن يقعَ بالاعتقادِ بالباطلِ والتكلُّم به؛ **وهو**: الخوضُ، أو يقعَ بالعملِ بخلافِ الحقِّ والصوابِ؛ **وهو**: الاستمتاعُ بالخلاق.

فالأول: البدعُ، **والثاني**: اتباعُ الهوى، وهذان هما أصلُ كلِّ شرٍّ وفتنةٍ وبلاء، وبهما كُذِّبتِ الرسل، وعُصِيَ الرب، ودُخِلَتِ النار، وحَلَّتِ العقوبات.

فالأول: من جهة الشُّبُهات، والثاني: من جهة الشَّهَوات[1].

فأخبر سبحانه: أن في هذه الأمةِ مَنْ سوف يخوضُ كخوضِ أهلِ الباطلِ من السابقين، وأخبَرَ عمَّن خاضَ من الأوَّلين بحبوطِ أعمالهم، وخُسْرانِهم في الدنيا والآخرة، وسكَتَ عن المخاطَبِينَ ترهيبًا، وترغيبًا؛ فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩].

هذا ما تيسَّر استنباطُهُ من آيِ القرآنِ العظيمِ في خطورةِ الشبهات، أسألُ الله تعالى أن يعصمنا، وإخوانَنا المسلمينَ من الشُّبُهاتِ ما ظَهَر منها، وما بطَنَ!

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم (١/ ٧٨)، مفتاح دار السعادة، له أيضًا (١/ ٤٠)، أضواء البيان (٤/ ١٨٦).





المَبْحَثُ الثَّانِي

حكمُ إيرادِ الشُّبُهاتِ بينَ المنعِ وعَدَمِه

تواتَرَتْ أقوالُ السلفِ في التحذيرِ من الشبهاتِ وأصحابها، وكانوا أشدَّ الناسِ ابتعادًا عنها، وخوفًا من مَغَبَّةِ الخوضِ فيها، وفي المقابلِ وقَفَ كثيرٌ من علماءِ السلفِ من الشبهاتِ موقفَ الدافعِ لها، والمحذِّرِ منها، والمتصدِّي لها ببيانِ ضلالها، ومخالفتها للعقلِ والنقل.

ولما كان بعضُ الباحثين لا يأخُذُ في هذه المسألة من أقوالِ السلفِ إلا الأقوالَ التي كانت تُحذِّرُ من سماعِ الشبه، وتنهى عن مجالسة أصحابها، **فسوف أستعرضُ في هذا المبحثِ مطلبين:**

أولهما: بعضُ الأقوالِ المأثورةِ عن السلفِ في التحذيرِ من البدعِ والشبهات.

ثانيهما: توجيهُ أقوالهم، وتبيينُ مَصَبِّها.

المطلب الأول

بعضُ الأقوالِ المأثورةِ عن السَّلَفِ في التحذيرِ مِنَ البدعِ والشُّبُهات

لا يُعْوِزُ الباحثَ الوقوفُ على مئاتِ النصوصِ عن علماءِ السلف، من الصحابةِ، والتابعينَ، ومَنْ جاء بعدهم في التحذيرِ من الشبهات، وأصحابها.

فعن سُلَيْمانَ بن يَسَارٍ[1] رَحِمَهُ اللهُ: «أن رجلًا من بني تميم يقالُ له: صَبِيغُ بنُ عِسْلٍ[2] قَدِمَ المدينةَ، وكانتْ عنده كتب، فجعَلَ يسألُ عن متشابِهِ القرآن، فبلَغَ ذلك عُمَرَ رضي الله عنه، فبعَثَ إليه، وقد أَعَدَّ له عراجينَ النخلِ، فلما دخَلَ عليه وجلَسَ، قال: مَنْ أنت؟ قال: أنا عبد الله صَبِيغ، قال عمر: وأنا عبدُ اللهِ عُمَر، وأومَأَ عليه، فجعَلَ يَضْرِبُهُ بتلك العراجين؛ فما زالَ يَضْرِبُهُ حتى شَجَّهُ، وجَعَلَ الدمُ يسيلُ عن وَجْهه، قال: حَسْبُكَ يا أميرَ المؤمنين! فقد ـ واللهِ ـ ذَهَبَ الذي أَجِدُ في رأسي»[3].

---

(١) هو: سليمان بن يسار المدني، الفقيهُ، العَلَمُ، أحدُ فقهاء المدينة، أخذ عن عائشة، وأبي هريرة، وزيد بن ثابت، وابن عباس، وميمونة رضي الله عنهم أجمعين. توفي سنة (١٠٧هـ). انظر: تذكرة الحفاظ (١/ ٩١)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٤٤).

(٢) هو: صَبِيغ بن عِسْل التميمي البصري، وفَدَ المدينة في خلافة عمر، قال في تاريخ مدينة دمشق: «وَفَدَ عَلَى معاوية، ولم يَزَلْ بِشَرٍّ؛ يعني: بعد جلْد عمر، حتى قُتِلَ في بعض الفتن». انظر: الإكمال، لابن ماكولا (٥/ ٢٢١)، تاريخ مدينة دمشق، لعلي بن حسن الشافعي (٢٣/ ٤٠٨).

(٣) رواه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (٤/ ٦٣٥).

وقال أبو قِلَابَة[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تُجالِسوا أهل الأهواء؛ ولا تجادلوهم؛ فإنِّي لا آمَنُ أن يغمسوكم في ضلالتهم، أو يَلْبِسُوا عليكم ما كنتم تعرفون»[٢].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تُجالِسوا أهلَ الأهواء، ولا تجادلوهم، ولا تسمعوا منهم»[٣].

وقال الفضيل بن عياض[٤] رَحِمَهُ اللَّهُ: «آكُلُ مع يهوديٍّ ونصراني، ولا آكُلُ مع مبتدع، وأحبُّ أن يكون بيني وبين صاحبِ بدعةٍ حِصْنٌ من حديد»[٥].

قال رجلٌ لأيوب السختياني[٦] رَحِمَهُ اللَّهُ: يا أبا بكرٍ، أسألُكَ عن كلمة، قال: فرأيتُهُ يشيرُ بيده ويقول: ولا نِصْفَ كلمة، ولا نِصْفَ كلمة[٧].

---

(١) هو: عبد الله بن زيد بن عمرو، أو عامر الجرمي، أبو قلابة البصري، محدِّثٌ، ثقةٌ، حدَّث عن سَمُرة بن جندب، وابن عباس، توفي سنة (١٠٨هـ) هاربًا من القضاء. انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٦٨)، تقريب التهذيب (ص٣٤٥).

(٢) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ١٢٠)، وابن المستفاض في القدر (ص٢٤٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٦٠)، وفي الاعتقاد (ص٢٣٨).

(٣) أخرجه الهروي في ذم الكلام (٤/ ٢٩٦)، واللالكائي في أصول الاعتقاد (١/ ١٣٣)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٢/ ٤٦٤).

(٤) هو: الإمام الفضيل بن عياض بن مسعود، إمامٌ، ثقةٌ، حجةٌ، قدوةٌ. انظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٢١)، طبقات الحفاظ (١/ ١١٠).

(٥) أخرجه ابن بطة في الإبانة (٢/ ٤٦٠)، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السُّنَّة (٤/ ٦٣٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ١٠٣).

(٦) هو: الإمام أيوب بن كيسان السختياني، إمام كبير، كان من سادات أهل البصرة، وعبَّاد أتباع التابعين وفقهائهم، ممن اشتهر بالفضل، والعلم، والنسك، والصلابة في السُّنَّة، والقمع لأهل البدع، مات (١٣١هـ). وانظر: الجرح والتعديل (٢/ ٢٥٥)، مشاهير علماء الأمصار، لأبي حاتم البستي (ص١٥٠).

(٧) رواه الدارمي في سننه (١/ ١٢١)، وابن المستفاض في القدر (ص٢٤٩).

وكان ابنُ سيرينَ رَحِمَهُ اللَّهُ إذا سَمِعَ كلمةً من صاحبِ بدعة؛ وضع إصْبَعَيْهِ في أُذُنَيْه، ثم قال: «لا يحلُّ لي أن أكلِّمه حتى يقومَ من مجلسه»(١).

وقال له رجلٌ: إنَّ فلانًا يريدُ أن يأتيك، ولا يتكلَّمُ بشيء! قال: «قل لفلان: لا، ما يأتي؛ فإنَّ قلبَ ابنِ آدمَ ضعيفٌ، وإني أخافُ أن أسمعَ منه كلمةً؛ فلا يرجعَ قلبي إلى ما كان»(٢).

ودَخَلَ عليه رجلانِ من أهلِ الأهواء، فقالا: يا أبا بكرٍ نحدِّثك بحديث؟ قال: لا، قالا: فنقرأُ عليك آيةً من كتاب الله؟ قال: لا، قال: تقومانِ عني وإلَّا قمتُ، فقام الرجلانِ فخرَجَا، فقال له بعضُ القوم: ما كان عليكَ أن يَقْرَأا عليكَ آيةً؟ قال: «إني كرهتُ أن يَقْرَأا آيةً فيحرِّفانها؛ فيَقَرُّ ذلك في قلبي»(٣).

وقال مَعْمَر(٤) رَحِمَهُ اللَّهُ: كان طاوسٌ(٥) رَحِمَهُ اللَّهُ جالسًا، فجاء رجلٌ من المعتزلةِ فجعَلَ يتكلَّم! قال: فأدخَلَ طاوسٌ إصبَعيْهِ في أُذُنَيْهِ، وقال لابنه: «أيْ بنيَّ، أَدخِلْ إصبَعيْكَ في أذنيك، واشْدُدْ، ولا تسمعْ

(١) أخرجه ابن بطة في الإبانة (٢/ ٤٧٣).

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة (٢/ ٤٤٦).

(٣) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ١٢٠)، وابن المستفاض في القدر (ص٢٤٩). وانظر: حلية الأولياء، لأبي نُعيم (٩/ ٢١٨).

(٤) هو: معمر بن راشد الأزدي البصري، الإمام، شيخ الإسلام، قال ابن حبان: كان فقيهًا متقنًا حافظًا ورعًا، توفي سنة (١٥٣هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ٥)، طبقات الحفاظ (ص٨٩).

(٥) هو: طاوس بن كيسان اليماني، إمامٌ ثقةٌ، فقيهٌ، كان من فقهاء اليمن، وساداتهم، توفي بمنى سنة (١٠٦هـ). انظر: رجال صحيح البخاري، للكلاباذي (١/ ٣٧٦)، تقريب التهذيب (ص٢٨١).

من كلامِهِ شيئًا»[١].

وقال يحيى بن أبي كَثير[٢] رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا لَقِيتَ صاحبَ بدعةٍ في طريق، فخُذْ في طريقٍ آخر»[٣].

وقال عبد الرزاق[٤] رَحِمَهُ اللَّهُ: قال لي إبراهيم بن أبي يحيي[٥]: «إني أرى المعتزلةَ عندكم كثيرًا.

قال: قلتُ: نعم، ويزعمونَ أنك منهم!

قال: أفلا تَدْخُلُ معي هذا الحانوتَ حتى أكلِّمك!

قلت: لا، قال: لِمَ؟

قلت: لأنَّ القلبَ ضعيفٌ، وإنَّ الدين ليس لمن غَلَبَ»[٦].

وذكر أبو الجوزاء[٧] رَحِمَهُ اللَّهُ أهلَ الأهواءِ، فقال: «لَأَنْ تمتلئَ داري

---

(١) أخرجه معمر بن راشد في الجامع له (٢/ ١٢٥)، وعبد الرزاق في مصنفه (١١/ ١٢٥)، واللالكائي في أصول الاعتقاد (١/ ١٣٥).

(٢) هو: يحيى بن أبي كثير اليمامي الطائي، ثقةٌ ثبتٌ، لكنه كان يدلِّس، من رجال مسلم، توفي سنة (١٢٩هـ). انظر: رجال مسلم (٢/ ٣٤٨)، تقريب التهذيب (ص٥٩٦).

(٣) أخرجه ابن المستفاض في القدر (ص٢٤٩)، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السُّنَّة (١/ ١٣٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٦٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٦٠).

(٤) هو: الإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني، كان من أوعية العلم والفضل، توفي سنة (٢١١هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٩/ ٥٦٤)، طبقات الحفاظ، للسيوطي (ص١٥٨).

(٥) هو: أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى الأسلمي، محدِّثٌ؛ لكنْ تركَهُ كثيرٌ من علماء الحديث لكثرة ما تلبَّس به من البدع، فكان جامعًا لضروب من البدع. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٥٠)، تهذيب التهذيب (١/ ١٣٧).

(٦) أخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السُّنَّة، للالكائي (١/ ١٣٥). وانظر: تاريخ مدينة دمشق (٣٦/ ١٨٦).

(٧) هو: أوس بن خالد الربعي، روى عن أبي هريرة، وسمرة، وأبي محذورة، توفي رَحِمَهُ اللَّهُ مقتولًا سنة (٨٣هـ). انظر: التاريخ الكبير، للبخاري (٢/ ١٨).

قِرَدَةً وخنازيرَ أحبُّ إليَّ مِنْ أن يجاورني رجلٌ من أهلِ الأهواء»[(١)].

وكان الإمامُ مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ يَعيبُ الجِدَالَ، ويقول: «كلَّما جاءنا رجلٌ أجدَلُ من رجلٍ أرادنا أن نَرُدَّ ما جاء به جبريلُ إلى النبي ﷺ؟!»[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن المستفاض في القدر (ص٢٤٩)، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السُّنَّة (١/ ١٣١)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٧٨).

(٢) **انظر**: الشريعة (٥/ ٢٥٤٥ ـ ٢٥٤٦)، ذم الكلام (٥/ ٦٨)، أصول اعتقاد أهل السُّنَّة (١/ ١٤٤).

المَطْلَبُ الثَّانِي

توجيهُ أقوالِهم، وتبيينُ مَصَبِّها

قبلَ أن أشيرَ إلى فقهِ الأقوالِ المتقدِّمةِ عن بعض السلف في التحذيرِ من المجادَلةِ والمناظَرةِ، والامتناعِ عن سماعِ الشُّبُهاتِ، **لا بدَّ من تقريرِ أصلَيْن:**

أولهما: أنَّ المناظَرةَ والمجادَلةَ ليستْ محمودةً على الإطلاق، وليستْ مذمومةً على الإطلاقِ كذلك.

فمِنَ المجادَلةِ: مجادَلةٌ محمودةٌ؛ جاء بها القرآنُ، وأمَرَ بها، وعَمِلَ بها النبيُّ ﷺ وصحابتُهُ من بعده.

ومِنَ الأدلةِ على هذا الأصل:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

قال مجاهدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنْ قالوا شرًّا، فقولوا خيرًا، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾؛ فانتَصِرُوا منهم»[1]، ولا تُقاتِلوا إلا مَنْ قاتل، ولم يعطِ

(١) أخرجه ابن جرير الطَّبَري في تفسيره (١٥/ ٣٦٥) من طريق ورقاء عن ابن أبي نَجيح، عنه، به، وهو إسنادٌ صحيح. فابن أبي نَجيح رَحِمَهُ اللَّهُ، **هو:** عبد الله بن أبي نَجيح بن يسار الثقفي، سمع التفسير عن مجاهد، وعطاء، وهو من الأئمة الثقات في الحديث، قال علي بن المديني رَحِمَهُ اللَّهُ: «أما الحديث، فهو فيه ثقة، وأما الرأي، فكان قدريًّا معتزليًّا»، قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هؤلاء ثقات، وما ثبَتَ عنهم القدر، أو لعلَّهم تابوا»، قال يحيى القطان رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم يسمعِ التَّفسيرَ كلَّه من مجاهد، بل كله عن القاسم بن أبي بزة». توفي سنة (١٣١هـ). **انظر:** ميزان الاعتدال (٤/ ٢١٥)، التهذيب (٦/ ٤٩).
والقاسم بن أبي بزة، **هو:** نافع، أو يسار، أو نافع بن يسار المكي، ثقةٌ، أخذ التفسير =

الجزيةَ، ومَنْ أدَّى منهم الجزيةَ، فلا تقولوا لهم إلا حسنى.

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

«فذكر سبحانه مراتبَ الدعوةِ وجعَلَهَا ثلاثةَ أقسامٍ بحسبِ حالِ المدعوِّ، فإنه إمَّا أن يكون طالبًا للحق، راغبًا فيه، محبًّا له، مُؤْثِرًا له على غيره إذا عَرَفَهُ، فهذا يُدعى بالحكمة، ولا يحتاجُ إلى موعظةٍ، ولا جدالٍ، وإما أن يكونَ مُعْرِضًا مشتغلًا بضدِّ الحق، ولكنْ لو عَرَفَهُ، عرفه، وآثره، واتبعه، فهذا يحتاجُ مع الحِكْمةِ إلى الموعظةِ بالترغيبِ والترهيب، وإما أن يكونَ مُعانِدًا مُعارِضًا، فهذا يُجادَلُ بالتي هي أحسن»[١].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

وتتبُّعُ مناظراتِ القرآن، ومجادلاتِهِ للمخالفينَ، قامتْ عليه هذه الرسالة.

وأمَّا النبيُّ ﷺ فقد ناظَرَ اليهودَ مرارًا[٢].

= عن مجاهد، بل قيل: لم يأخذ التفسير عن مجاهد سواه، توفي رحمه الله سنة (١١٥هـ). **انظر**: التهذيب (٨/ ٢٧٨)، التقريب (ص٤٤٩).

وورقاء، **هو**: ابن عمر اليشكري، أبو بشر الكوفي رحمه الله، صدوق، وثَّق الإمام أحمد روايته عن ابن أبي نَجيح، وقال: «إلا أنهم يقولون: لم يسمع التفسير كله، يقولون: بعضه عَرْض»، وقال علي بن المديني، عن يحيى بن سعيد: قال معاذ: قال ورقاء: «كتابُ التفسير قرأتُ نصفه على ابن أبي نَجيح، وقرأ عليَّ نصفه»، وقال الدوري: قلت لابن مَعين: أيما أحبُّ إليك: تفسيرُ ورقاء، أو تفسيرُ شيبان، وسعيد عن قتادة؟، قال: تفسير ورقاء؛ لأنه عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قلت: فأيما أحبُّ إليك تفسيرُ ورقاء، أو ابن جريج؟، قال: «ورقاء؛ لأن ابن جريج لم يسمع من مجاهد إلا حرفًا». **انظر**: التهذيب (١١/ ١٠٠)، التقريب (ص٥٨٠).

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٢٧٦).

(٢) مِنْ ذلك: ما أخرجه البخاري في صحيحه، رقم (٣١٥١) عن أنس رضي الله عنه، قال: بَلَغَ =

وناظَرَ نصارى نَجْرانَ[١]، وأخبارُهُ في ذلك مستفيضةٌ.

ومن الآثارِ الواردةِ عن الصحابة في هذا الباب:

قال ابنُ الديلميِّ[٢] رَحِمَهُ اللَّهُ: أتيتُ أُبيَّ بنَ كعب رضي الله عنه، فقلتُ:

= عبدَ اللهِ بن سَلَام مَقْدَمُ رسولِ الله ﷺ المدينة، فأتاه، فقال: إني سائلُكَ عن ثلاثٍ لا يعلمهنَّ إلا نبيٌ: ما أولُ أشراطِ الساعة؟ وما أولُ طعامٍ يأكله أهلُ الجنة؟ ومِنْ أي شيء ينزعُ الولدُ إلى أبيه؟ ومن أي شيء ينزعُ إلى أخواله؟

فقال رسول الله ﷺ: (خَبَّرني بهنَّ آنفًا جبريل).

قال: فقال عبد الله: ذاك عدوُّ اليهودِ من الملائكة!

فقال رسولُ الله ﷺ: (أمَّا أولُ أشراطِ الساعة: فنارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ من المشرقِ إلى المغربِ، وأما أولُ طعامٍ يأكلُهُ أهلُ الجنة: فزيادةُ كبِدِ حوتٍ، وأما الشبهُ في الولد: فإنَّ الرجلَ إذا غَشِيَ المرأةَ فسَبَقَها ماؤُهُ، كان الشبهُ له، وإذا سبَقَ ماؤها، كان الشبَهُ لها)، قال: أشهدُ أنك رسول الله! . . . .

وعن ابن عباس، قال: «أقبلَتْ يهودُ إلى النبيِّ ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم! أخبرنا عن الرَّعْدِ ما هو؟ قال: (ملَكٌ مِنَ الملائكةِ، مُوكَّلٌ بالسَّحابِ، معه مَخارِيقُ من نارٍ، يَسُوقُ بها السحابَ حيثُ شاء الله).

فقالوا: فما هذا الصوتُ الذي نَسْمَعُ؟

قال: (زَجْرُهُ بالسحابِ إذا زجَرَهُ حتى ينتهيَ إلى حيثُ أُمِر).

قالوا: صدَقْتَ، فأَخْبِرْنا عمَّا حَرَّمَ إسرائيلُ على نفسه؟

قال: (اشتَكَى عِرْقُ النسا، فلم يجدْ شيئًا يلائمُهُ إلا لحومَ الإبلِ وألبانَهَا، فلذلكَ حَرَّمَهَا).

قالوا: صدقتَ، إنما بقيتْ واحدةٌ، وهي التي نبايعك إنْ أخبرتَنا بها؛ فإنه ليس من نبي إلا له مَلَكٌ يأتيه بالخَبَرِ، فَأَخْبِرْنا مَنْ صاحبك؟

قال: (جبريلُ عليه السلام).

قالوا: جبريلُ ذاك الذي يَنْزِلُ بالحربِ والقتالِ والعذابِ، عَدُوُّنَا، لو قلتَ ميكائيلَ الذي ينزل بالرحمةِ والنباتِ والقطر، لكان؛ فأنزَلَ الله عز وجل: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧] إلى آخر الآية. أخرجه الإمام أحمد، رقم (٢٤٨٣)، وأخرجه الترمذي مختصرًا، رقم (٣١١٧)، وقال: هذا حديث حسن غريب، قال في مجمع الزوائد (٨/ ٢٤٢): «رواه أحمد والطبراني، ورجالهما ثقات». وانظر: جامع البيان، للطبري (١/ ٤٠٤).

(١) كما في مناظرته لوفد نصارى نجران، وقد ذكرته (ص١٠٥) من هذه الرِّسالة.

(٢) هو: عبد الله بن فيروز، أبو بِشْر، ويُقال: أبو بُسْر الديلمي، ذكره بعضهم في =

أبا المنذر، فإنه وقَعَ في قلبي شيءٌ من هذا القَدَر، فحدِّثني بشيءٍ لعلَّ الله أن يذهبه عني.

فقال: إن اللهَ ﷻ لو عذَّب أهلَ سماواتِهِ وأهلَ أرضِهِ لعذَّبهم غيرَ ظالمٍ لهم، ولو رحمهم، كانتْ رحمتُهُ خيرًا لهم مِنْ أعمالهم، لو كان لك مثلُ جَبَلِ أُحُدٍ ذهبًا أنفقتَهُ في سبيلِ الله، ما قَبِلَهُ اللهُ منك حتى تؤمنَ بالقَدَر، وتعلمَ أنَّ ما أصابَكَ لم يكنْ ليخطئك، وأنَّ ما أخطأَكَ لم يكن لِيُصِيبَكَ، وإنَّك إنْ مِتَّ على غيرِ هذا دخَلْتَ النارَ، ولا عليك أنْ تأتي عبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ فتسأله، فأتيتُ عبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ رضي الله عنه، فسألتُهُ، فقال مثلَ ذلك، ثم قال ابن مسعود: ولا عليكَ أنْ تأتي أخي حُذَيْفَة بنَ اليَمَانِ، فتسأله، فأتيتُ حذيفةَ بنَ اليمانِ رضي الله عنه، فسألته، فقال مثلَ ذلك، قال: فَأْتِ زيدَ بنَ ثابت، فأتيتُ زيدَ بنَ ثابتٍ، فقال مثلَ ذلك[1].

وعلى هذا المنهجِ سار كثيرٌ من الأئمة؛ فألَّفوا كتبًا في الردِّ على المخالفين، وتفنيدِ شبهاتهم، والتحذيرِ منها، ومِنْ هؤلاء: الإمام أحمد بن حنبل في ردِّه على الجهمية، والإمامُ الدارميُّ في ردِّه على بشر المريسي، والإمامُ البخاريُّ في كتابه خلق أفعال العباد، وغيرهم كثير.

ومن المجادَلَةِ مجادَلَةٌ مذمومةٌ، جِمَاعُها:

١ ـ الجدالُ بغيرِ علمٍ؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ

= الصحابة، وقد كانت لأبيه صُحْبة، حدَّث عن أبيه، ومعاذ بن جبل، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت. **انظر**: تهذيب التهذيب (٥/ ٣١٤)، تقريب التهذيب (ص٣١٧).

(١) أخرجه الإمام أحمد، رقم (٢١٦٢٩)، وابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار عما يجب على المرء من تسليم الأشياء إلى بارئه جل وعلا، رقم (٧٢٧)، وعَبْدُ بن حُمَيْد، رقم (٢٤٧)، وأبو داود في باب في القدر، رقم (٤٦٩٩)، وابن ماجه في باب في القدر، رقم (٧٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٦٦٣).

بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَنهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣]؛ فكلُّ من جادل بدون علمٍ، فهو داخلٌ في تلك الآيتين.

وعلى هذا الذمِّ يُحْمَلُ نهيُ بعضِ السلفِ عن مجادلة من يتكلَّم بغيرِ علم؛ لأنَّ المتكلِّمَ بغير علمٍ يجبُ عليه السؤالُ طلبًا للاسترشاد، أما من تكلَّم لا لقصدِ الاسترشاد، وإنما للبغي والعناد؛ فهذا يذمُّ، ومِنْ أساليب ذمه: أن يُهْجَرَ، ولا يُكَلَّمَ، ولا يُخاطَبَ.

ولكنْ لا نقول: إنَّ هذا أصلٌ في التعامل مع الأقوالِ المخالفةِ للحقِّ، والمتكلِّمين بها؛ وإنما هي قضايا أعيان، اجتَهَدَ العلماءُ في التعامل معها؛ ولذلك وُجِدَ من علماءِ السلفِ مَنِ انبرى للجوابِ عن مطاعنِ أهلِ الشبهات، والجوابِ عن استشكالاتهم؛ لأنَّ هذا هو منهجُ القرآن، فالشبهةُ مهما سَخُفَتْ لا يجوزُ القولُ بتركِ الجوابِ عنها؛ فإنه ما مِنْ ساقطٍ من القول، إلا وله لاقطٌ يأخذُهُ مأخذَ التسليمِ، والاعتقادِ، ولن تجد أسخَفَ من وصفِ الرسولِ ﷺ بالجنون! ومع هذا لم يهملِ القرآنُ هذه الشبهة، وأجابَ عنها بما يُرَى في موضعه من هذه الرسالة، والله تعالى أعلم(١).

٢ ـ **الجدالُ بالباطل لدحضِ الحقِّ**؛ ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

---

(١) يُنظر ما حَرَّرَهُ العلَّامة أبو محمد ابن حزم في كتابه: الإحكام في أصول الأحكام (١/ ٢٢ ـ ٣١)، وشيخ الإسلام في: الجواب الصحيح (١/ ٢١٧ ـ ٢٤٤).

فذم الله تعالى الجدالَ في الباطل، وهو الجدالُ بعدَ ظهورِ الحقِّ وتبينه.

وتبعًا لهذا؛ فإنَّ أكثرَ ما ورَدَ عن السلفِ في التحذيرِ من سماعِ شبهاتِ أهلِ الباطل، إنما يعنون به: مَنْ أورَدَ الإشكالاتِ ابتغاءً للفتنة، مثلُ: «صَبِيغ بنِ عِسْل، ضرَبَهُ عمرُ رضي الله عنه؛ لأن قصدَهُ بالسؤالِ عن المتشابِهِ كانَ لابتغاءِ الفتنة، وهذا كمَنْ يوردُ أسئلة، وإشكالاتٍ على كلامِ الغيرِ، ويقولُ: ماذا أريد بكذا؟ وغرضُهُ التشكيك، والطعنُ فيه، ليس غرضُهُ معرفةَ الحق، وهؤلاءِ هم الذين عناهم النبيُّ ﷺ بقوله: **(إذا رأيتُمُ الذينَ يَتَّبِعُونَ ما تَشَابَهَ منه»**، ولهذا **(يَتَّبِعُونَ)؛ أي**: يطلبون المتشابه، ويقصدونه دون المُحْكَم، مثلُ المتبعِ للشيءِ الذي يتحرَّاه، ويقصده، وهذا فعلُ من قصدُهُ الفتنةُ، وأما مَنْ سأل عن معنى المتشابِهِ ليعرفه، ويزيلَ ما عرَضَ له من الشبه، وهو عالمٌ بالمُحْكَم، متبعٌ له، مؤمنٌ بالمتشابه، لا يقصد فتنةً، فهذا لم يذمَّه الله، وهكذا كان الصحابةُ يقولونَ رضي الله عنهم»[1].

الأصل الثاني: أنَّ هناك فرقًا بين ذِكْرِ الشبهةِ والإجابةِ عنها، وبين سَمَاعِها والإنصاتِ لها، أو السكوتِ عن بيانها.

ولذلكَ فلا يصحُّ الاستدلالُ ببعض الآثارِ التي فيها امتناعُ بعضِ السلفِ عن سماعِ شُبُهاتِ أهلِ الضلال، على مَنْعِ ذكرِ العلماءِ للشُّبْهةِ، والإجابةِ عنها.

وبعدَ هذه المقدِّمة، أقولُ: إنَّ أقوالَ السلفِ السابقةَ ليستْ مخالفةً لمنهجِ القرآن ـ ولله الحمدُ ـ فَهُمْ أهلُ القرآن، به يحاجُّون، وعنه يَصْدُرون؛ **فنصوصُهم السابقةُ على ضربَيْنِ:**

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٢٧).

الضرب الأول: النهيُ عن سماعِ الشبهِ مِنْ مرضى القلوبِ؛ بعد تبيينِ الحقِّ، ووضوحِهِ لهم.

وقد أمَرَ اللهُ تعالى بالإعراضِ عن مجادلةِ المشركين؛ كما في **قوله تعالى:** ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحج: ٦٨]، **وقال:** ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]، **وقال سبحانه:** ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩].

ولا شكَّ أن هذا بعدَ تبيينِ الحقِّ وظهوره؛ وإلا فالقرآنُ قد ذَكَرَ شبهاتِهم، وأجابَ عنها، فلا يصحُّ أمرُهُ بالإعراضِ عنهم إلا بعد أن بلغتهم الحجة، وبانتْ لهم المحجة، فيكونُ النهيُ خاصًّا بمن يُعْرَفُ إصرارُهُ على باطلِهِ، ولا يرجى انتفاعُهُ، أما مَنْ كان باحثًا عن الحق، فإنهم لا يألون جهدًا في نصحه، وردعه عن غيِّه، والله تعالى أعلم.

الضرب الثاني: ما كان مِنْ قبيلِ قضايا الأعيانِ التي تُحْمَلُ على عدةِ أمورٍ، منها:

١ ـ الحرصُ على سلامةِ المجتمعِ المسلمِ من البدعِ المضلَّة، والأهواءِ المزلَّة، فأرادوا أن يجعلوا أنفسَهُمْ قدوةً لغيرهم في الفرارِ من أصحابِ الشبهاتِ المضلَّة.

٢ ـ أو أنهم رأوا أن في هذا الإعراض زجرًا للمبتدِعِ عن بدعته، وردًّا له عنها؛ قال ابن هانئ: سألتُ أبا عبد الله عن رجلٍ مبتدعٍ داعيةٍ يدعو إلى بدعته، أيجالَسُ؟ قال: لا يجالَسُ، ولا يكلَّم؛ لعله أن يرجع[1].

---

(١) مسائل الإمام أبي عبد الله، أحمد بن حنبل برواية ابن هانئ (٢/ ١٥٣)، الإبانة الكبرى، لابن بطة (٢/ ٤٧٥).

أما إن كان المسؤولُ عالمًا بكلامِ الله، وكلامِ رسوله ﷺ، فإنه يُنْدَبُ له أن يجيبَ عن شبهاتِ أهلِ الباطلِ، بل قد يجبُ عليه ذلك، ما لم تمنعه مصلحةٌ أَهَمُّ؛ كالحالاتِ المذكورةِ آنفًا، والله أعلم.



ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي

منهجُ القرآنِ العظيمِ في إيرادِ المَقُولاتِ البَاطِلةِ، ومَنْهَجُهُ في إِبْطالِها

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: منهجُ القرآنِ في إيرادِ المَقُولاتِ الباطلة.
- المبحث الثاني: منهجُ القرآنِ في إبطالها.



المَبْحَثُ الْأَوَّلُ

منهجُ القرآنِ العظيمِ في إيرادِ المَقُولاتِ الباطلة

للقرآنِ العظيمِ منهجٌ مستقلٌّ في تناولِ المقولاتِ التي كَرَّ عليها بالإبطال، وهذا المنهجُ يمكن استقراؤُهُ من خلالِ النظرِ في تلك الآيات، **وقد اجتهدتُّ في تقعيدِهِ كالتالي:**

أولًا: أسلوبُ التثنية (التكرار):

من السِّماتِ الظاهرةِ في عرضِ المقولاتِ التي أبطَلَها القرآن: أسلوبُ التثنية، المسمَّى عند كثير من علماء البلاغة بـ«أسلوبِ التَّكْرار»، حيث تذكر المقولةُ في مواطنَ متعدِّدة، تارَةً بلفظها دون زيادة أو نقص، وتارةً مع زيادةٍ أو نقصان، أو تقديمٍ أو تأخير، أو إبدالِ حرفٍ مكانَ حرف، أو غير ذلك.

والغالبُ أن القرآن العظيم لا يثنِّي المقولةَ بنصها وسياقها، بل يثنِّي المقولةَ بأساليبَ شتى، فهو يراعي المخاطبين؛ لأن الشبهةَ الواحدة تُعْرَضُ لأكثرَ من فريق، ويراعي حالة المخاطَب، من مسترشدٍ يسألُ للاطمئنان، أو لتوضيحِ القضية، إلى مجادلٍ لقصدِ الجدال...

ويراعي جوانبَ الشبهة؛ فيَعْرِضُ لجانبٍ منها في موطن، ويناقشُ جوانبَ أخرى في مواطنَ أخرى؛ إما لقصدِ التدرُّجِ مع المخاطَب، أو لتفريقِ قناعاته، أو لإلزامِهِ بقضية، يسلِّمُ على ضوئها بأصلِ تلك القضيةِ التي كان ينفيها.

فالقضايا الكبرى في القرآن، والمسائلُ التي وَقَعَ فيها النـزاعُ بين الرسلِ وخصومِهِمْ تحتاجُ إلى إعادةٍ وتكرارٍ بشتى الأساليب؛ لتكونَ أوقعَ في الدلالةِ على المطلوب، وأشدَّ في لفتِ الانتباه لها.

فالشبهاتُ التي عَرَضها القرآنُ من خلالِ المقولاتِ تُبيِّنُ اضطرابَ المخالفين، وبقدرِ أهميةِ الشبهة، وشدةِ مخالطتها لأفئدةِ أصحابِها: يكونُ تناولُ القرآنِ لها بشتى الأساليب؛ فتارَةً من خلالِ التقرير، والتأصيلِ الابتدائيِّ للعقيدة الحقَّة، وتارَةً من خلالِ القصصِ القرآني، وتارَةً من خلالِ السؤالِ والجواب، وتارةً من خلالِ المجادلة... إلخ.

ومن أمثلة ذلك: وصفُ القرآنِ بأنه أساطيرُ الأولين.

فقد ناقَشَ القرآنُ العظيمُ هذه المقولةَ من خلال عدة مواطن:

• فتارةً في سياق يُبيِّنُ شدةَ إعراضِهم عن سماعِ القرآن، وفهمِ معانيه، ثم رميِهِ بأنه أساطيرُ الأولين؛ **قال تعالى**: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

فبيَّن في هذه الآية: أنَّ القومَ لم يصفوا القرآنَ بأنه أساطيرُ الأولينَ وَصْفَ عالمٍ بما فيه، بل هو وصفُ جاهلٍ لم يفقهْ معانيَهُ، ولم يَتدبَّرْ آياتِهِ؛ فأفادتِ الآيةُ: أن تلك المقولةَ مقولةُ جاهلٍ ظالم.

• وتارَةً يذكُرُ المقولةَ في سياقِ عجزِ أصحابها؛ ومِنْ ذلك **قوله تعالى**: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

فإنَّ المنصفَ سيقول: ولماذا لا تقولونَ مثلَ قوله؛ فيَظْهَر كذبُهُ حينئذٍ، لا سيَّما وهو يتحدَّاكم بشتى الأساليبِ والطرقِ أن تأتوا بمثلِ قوله؟!

• وتارة تساقُ المقولةُ بأسلوبِ التهكُّمِ بالقائل؛ وذلك لشدةِ افترائه، حتى إنه لو سئل ماذا أنزَلَ ربك؛ لأجاب من فوره: أساطيرُ الأولين! **قال تعالى:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤].

رغم أنَّ العاقل المكذِّبَ لو سئل: ماذا أنزَلَ ربك؟

لقال: لم يُنْزِلْ شيئًا.

• وتارَةً تساقُ المقولةُ مساقَ القصة؛ كما في **قوله تعالى:** ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧].

والمقصودُ: أن القرآنَ يثنِّي المقولاتِ بشتى الأساليب، ويجيبُ عنها بُمختلِفِ الإجابات، وغالبًا ما تكونُ الإجابةُ في موضعٍ خلافَ الإجابةِ في موضع آخر؛ وهذا من تصريفِ البيان في هذا القرآن.

ومِنَ الأمثلة على اختلافِ الإجاباتِ في القرآن رغمَ تكرُّرِ المقولة، استعراضُ الإجاباتِ على الآياتِ السالفةِ في وصفِ القرآنِ بأنه أساطيرُ الأولين:

ففي **الآية الأولى:** ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

كان الجوابُ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

فطوى القرآنُ الزمنَ بين ذكرِ مقولتهم، والإجابةِ عنها، فإذا القومُ وقوفٌ على النارِ يقولون: ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

والمناسبةُ هنا: أن القومَ لم تكنْ لهم شبهةٌ، وإنما مجرَّدُ التكذيبِ

والإعراضِ، فهم لم يستمعوا القولَ، ولم يتعظوا بالآيات؛ فكان المناسبُ لحالهم أن يجاوبوا بأسلوبِ الوعظِ، والتهديد.

وفي الآية الثانية: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

سكَتَ القرآنُ عن الإجابةِ على مقولتهم اكتفاءً بما تنطوي عليه من وضوحِ عَجْزهم، وضَعْفِهم؛ فجعَلَ الجوابَ على شبهتهم يسبقُ على لسان السامع لها.

وفي الآيةِ الثالثة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤].

كان الجوابُ القرآني: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

فالذي يصفُ كلامَ ربِّه بأساطيرِ الأولين، فهو يَتزيَّدُ من الأوزار، فلا يكتفي بِوزْره، بل يضمُّ معه أوزارَ أتباعِهِ الذين انساقوا خلفه بدون علم.

فتأمَّلْ حال المنساقِ خَلْفَ مقولةِ الملأ، وهو يسمعُ مثلَ هذا التقرير!

وفي الآية الرابعة: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧].

اكتفى القرآنُ بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [الأحقاف: ١٨].

فمَنْ جمَعَ بين الكفرِ بالله، وعقوقِ والدَيْه وهم يستغيثان اللهَ طلبًا لإيمانِهِ، فإنَّ وصفه بأنه في خسرانٍ محقَّقٍ أبلغُ إجابة.

وأزيدُ الأمرَ بيانًا بضربِ مَثَلٍ على المقولاتِ المتعلِّقةِ بالبعثِ والنشور، فقد تَكرَّرت تلك المقولاتُ في خمسَ عشرةَ مرةً، في سبعِ سور من القرآن.

وأقربُ لفظين وقعا في سورةٍ واحدة، هما في **قوله تعالى:**

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: ١٦].

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣].

فاختلفت الفاصلة في الآيتين؛ فالآيةُ الأولى خُتِمَتْ **بقوله:** ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، والثانيةُ **بقوله:** ﴿لَمَدِينُونَ﴾.

وعند النظرِ في سياقِ الآيتين: نجد أن الآية الأولى جاءتْ في بدء السورة وسياقِها كالتالي:

﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [الصافات: ١٥ ـ ١٨].

وقولهم: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾: استبعادٌ للبعثِ بعدَ الموت.

وأما الثانيةُ، فإنها جاءتْ بعدَ أنْ دخَلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ، ثم دار حديثٌ بين بعضِ أصحابِ الجنة، فأخبَرَ أحدُهم أنه كان له قرينٌ ملازمٌ منكرٌ للبعثِ والنشور، **قال تعالى:**

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٠ ـ ٥٥].

ومعنى: ﴿لَمَدِينُونَ﴾؛ **أي:** أنحنُ مُجَازَوْنَ ومحاسبونَ على أعمالنا[1]؟

---

(١) مفردات الراغب، مادة: (دين)، قال ابن عباد في المحيط في اللغة، مادة: (دين): «وقَولُه جَلَّ ذكره: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣]؛ أي: مَمْلُوكُونَ بعد الموت، وقيل: مُجَازَوْنَ. ودَيَّنته أمري؛ أي: ملَّكته إيّاه».

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقيل هنا ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣]، وفي أول السورة ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: ١٦] لاختلافِ القائلين»[١].

ويعني: أن المقولةَ لما سيقتْ على لسانِ المكذِّبين، أتي بلفظ البعث؛ لأنهم ينكرونه، أما لفظُ الإدانة، فجاء على لسان المؤمن المصدِّق بالبعث؛ لِيُثْبِتَ مسألةَ الحسابِ والجزاء.

وأزيدُ أمرًا ثانيًا، وهو: أن لفظَ البعثِ جاء في مقامِ الاحتجاج، بينما جاء لفظُ الإدانة في مقامِ التبكيت؛ وهو به أولى.

ويظهر لي: أن اختلاف اللفظ جاء هنا لفائدة أخرى أيضًا:

حيث استعمل لفظ البعث، والقوم في دار الدنيا ينكرونَ البعثَ أصلًا.

وأما لفظُ الإدانةِ، فجاء والقومُ قد بُعِثُوا، ونال كلُّ إنسانٍ نصيبه؛ فناسَبَ أن يؤتى بلفظِ الإدانةِ والمحاسبة، والله تعالى أعلم.

فتثنيةُ المقولةِ قد يكونُ لزيادةِ التأكيد، كما نوَّهت هنا، ولكنَّ الغالبَ فيه أن يكونَ للتأسيسِ؛ **كأن يكون**:

- **لاختلافِ المخاطَبِينَ**، كما هو رأيُ ابنِ عاشورٍ في الآية السالفة.
- **وقد يكونُ لاختلافِ الموضع**؛ كما في الرأيِ الآخرِ في المثال السابق.

ومع أنَّ التكرارَ في كلامِ البشرِ يولِّدُ الملل، إلا أنَّ الناظرَ في الآياتِ التي تَكرَّرتْ في القرآنِ يجدُ أنها لم توقعْ في اللفظِ هُجْنةً، ولا أَحْدَثَتْ مَلَلًا[٢].

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٢٣).

(٢) انظر: البرهان، في علوم القرآن، للزركشي (٣/ ٢٧).

فهذه إلماحةٌ يسيرة؛ لأن الكلام في هذا البابِ طويلُ الذيل، فهو متعلِّقٌ بكلامٍ لو كان البحرُ مدادًا له، لَنَفِدَ البحرُ دونَ أن ينفد!

ثانيًا: عَرْضُ المقولاتِ مِنْ حيثُ زمانُهَا:

تُعْرَضُ المقولاتُ في القرآنِ من حيثُ زمنُها على ثلاثةِ أوجه:

أ ـ الوجه الأول: عرضُ المقولةِ بصيغةِ الماضي:

وهذا النوعُ أكثَرُ ما في القرآن، وهو الأصلُ؛ لأنَّ غالبَ المقولاتِ تساقُ للإجابةِ عما فيها من تساؤلات، فتساقُ بصيغةِ الماضي، ويتولى القرآنُ الإجابةَ عنها؛ ومن ذلك **قوله تعالى**: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، **وقولُهُ**: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، **وقولُهُ**: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١]، **وقوله**: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: ٦٧].

ب ـ الوجه الثاني: عرضُ المقولةِ بصيغةِ المضارع:

نحوُ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، **وقوله**: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، ومنه: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦].

وفائدةُ الإتيانِ بالفعلِ المضارعِ بدلَ الماضي في ذكرِ المقولة، أحدُ أمرين:

١ ـ إمَّا لقربِ وقتِ قيلها.

٢ ـ أو لإفادةِ تجدُّدِ الشبهةِ في نفسِ القائل إلى وقتِ الإجابةِ عنها،

فيستحضرُ السامعُ الصورةَ حتى كأنه يشاهدها[١].

ج ـ الوجه الثالث: عرضُ المقولةِ بصيغةِ الاستقبال:

فتعرضُ المقولةُ قبل قيلها، **ولها دلالات:**

ـ فقد تفيدُ استمرارَهُمْ وإصرارَهُمْ على قيلها في المستقبل؛ كما في **قوله تعالى:** ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ [الفتح: ١١].

ـ أو لإفادةِ الإخبارِ بها قبلَ وقوعها؛ لأنَّ العلمَ بها قبلَ وقوعها أبعدُ من الاضطرابِ إذا وَقَعَتْ، ولأن الجوابَ العتيدَ قبلَ الحاجةِ إليه أقطعُ للخصم، وأَرَدُّ لشغبه[٢]؛ وهذا كما في **قوله تعالى:** ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢].

ـ أو تكون دليلًا من دلائلِ النبوَّة؛ كما في **قوله تعالى:** ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥].

فعن زيد بن أسلم رَحِمَهُ اللهُ، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رجلٌ في غزوةِ تَبُوكَ في مجلس: ما رأيتُ مثلَ قرائنا هؤلاءِ أرغبَ بطونًا، ولا أكذَبَ ألسنًا، ولا أجبَنَ عند اللقاء، فقال رجلٌ في المسجد: كَذَبْتَ، ولكنَّك منافقٌ؛ لأخبرنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، فبلَغَ ذلك رسولَ الله ﷺ، ونزَلَ القرآن، فقال عبد الله بن عمرو: أنا رأيتُهُ متعلقًا بحُقْبِ ناقةِ رسولِ اللهِ ﷺ تَنْكُبُهُ الحجارةُ، وهو يقول: يا رسولَ اللهِ، إنما كنا نخوضُ ونَلْعَب!

ورسولُ الله ﷺ يقول: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥][٣].

---

(١) **انظر:** الفوائد المشوق، لابن القيم (ص٥٤).

(٢) **انظر:** التحرير والتنوير (٢/ ٣٥٤).

(٣) أخرجه الطَّبَري في تفسيره (١٠/ ١٧٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٨٢٩)؛ =

ورواه الطبراني رَحِمَهُ اللهُ، وفيه: «ونزَلَ نفرٌ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ في جانبنا، فقال بعضُهم: واللهِ إنهم أرغبُنا بطونًا، وأخشانا عند اللقاء، وأضعفُنَا قلوبًا؛ فدعا رسولُ اللهِ ﷺ عمارَ بنَ ياسر، فقال: (**اذْهَبْ إِلَى هَؤُلَاءِ الرَّهْطِ، فَقُلْ لَهُمْ: مَا نَقِمْتُمْ؟، فَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ**)، فقال لهم: احترَقْتُمْ أحرَقَكُمُ الله، ونزَلَتْ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥]، قال: وجاء رجلٌ لم يكن منهم، ولكنه كان يسمعُ، فتعلَّقَ برِجْلِ النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، واللهِ ما ماليتهم، ولكنِّي قد سمعتُ مقالتهم، فسار النبيُّ ﷺ وجعَلَ يتعلَّقُ بالرِّجْلِ ويعتذرُ إليه، ويسيرُ معه حتى سالَ مِنْ عقبَيْهِ الدمُ...»(١).

ثالثًا: عَرْضُ المقولاتِ من حيث إفادتُهَا العمومَ والخصوصَ:

أ ـ التعميمُ دُونَ التخصيص:

وذلك لأنَّ التعميمَ يجعلُ ارتباطَ الذمِّ بالصفةِ لا بصاحبها، فتعمُّ كلَّ مَنْ واقعَ الفعلَ المنهيَّ عنه، بخلافِ التخصيصِ، فإنه قد يُوهِمُ تعلُّقَ الذمِّ بالشخصِ نفسه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

«ومَنْ تأمَّلَ خطابَ القرآنِ وألفاظَهُ، وجَلَالةَ المتكلِّم به، وعظمةَ مُلْكه، وما أراد به من الهدايةِ العامَّةِ لجميعِ الأممِ قرنًا بعد قَرنٍ إلى آخرِ الدهر، وأنه جعَلَهُ إنذارًا لكلِّ مَنْ بلغه من المكلَّفين ـ: لم يَخْفَ عليه أن خطابَهُ العامَّ إنما جُعِلَ بإزاءِ أفعالٍ حسنةٍ محمودة، وأخرى قبيحةٍ

= كلاهما من طريق هشام بن سعد، عنه، به.
وهشام بن سعد، هو: أبو عبَّاد المدني، صدوقٌ له أوهام، قال أبو داود: هو أثبت الناس في زيد بن أسلم. انظر: التهذيب (١١/ ٣٧)، التقريب (ص٥٧٢).

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/ ٨٦).

مذمومة، وأنه ليس منها فعلٌ إلا والشركةُ فيه موجودةٌ أو ممكنةٌ، وإذا كانت الأفعالُ مشتركةً، كان الوعدُ والوعيدُ المعلَّقُ بها مشتركًا؛ ألَا ترى أن الأفعالَ التي حكيتْ عن أبي جهلِ بنِ هشام، والوليدِ بنِ المغيرة، والعاصِ بنِ وائلٍ، وأضرابِهم، وعن عبد الله بن أُبَيٍّ وأضرابِهِ؛ كان لهم فيها شركاءُ كثيرونَ، حكمُهم فيها حكْمهم؟!

ولهذا عدَلَ اللهُ سبحانه عن ذِكْرهم بأسمائهم وأعيانهم إلى ذكر أوصافِهِمْ وأفعالِهِمْ وأقوالهم؛ لئلا يَتوهَّمَ متوهِّمٌ اختصاصَ الوعيدِ بهم، وقَصْرَهُ عليهم، وأنه لا يجاوزهم، فعلَّق سبحانه الوعيدَ على الموصوفينَ بتلك الصفاتِ دُونَ أسماءِ مَنْ قامتْ به؛ إرادةً لتعميمِ الحكم، وتناولِهِ لهم ولأمثالهم ممن هو على مِثْلِ حالهم...»[١].

كما أنَّ التعميمَ لا يُسبِّبُ حرجًا للمخاطَبِ، ولا يمنعُهُ من الاستجابةِ للحقِّ إذا سمعه.

ومن أمثلة هذا النوع الكثيرة: قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨]، **وقولُهُ:** ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥]، **وقولُهُ:** ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ [الفتح: ١١].

فالقرآنُ حرَصَ على فتحِ الطريقِ لمن أراد الرجوعَ إلى الحق، وحرَصَ على عدمِ استعداءِ المخالفين، وشيَّد منهجًا بينًا لمن أراد نَقْدَ الأشخاص، والطوائف؛ أن يَلْجَأَ إلى التعميم المبهم؛ ليكونَ كلامُهُ منصبًّا على الصفاتِ دُونَ الأسماء؛ فتكونُ الحكمةُ في ذلك إعطاءَ المخاطَبِ فرصةً ليتوبَ، ويؤوب.

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٧٠٤ ـ ٧٠٥).

وهذا هو المنهجُ المُطَّرِدُ(١) في القرآن مِنْ حيثُ الإبهامُ، والتصريحُ.

ولذلك لا نجدُ تصريحًا لصاحبِ المقولةِ التي أبطَلَها القرآنُ إلا في قومٍ مَضَوْا، ولم يذكر من المعاصرين للنبيِّ ﷺ سوى عمه أبي لهب؛ فإنه كانَ في شدةٍ من العداوة لا يرجى كَبْحُها، ولا يخشى مآلُها.

وحسبُكَ أن تنظُرَ في موقفِ القرآنِ من المنافقين، وهم يكيدون لرسولِ اللهِ ﷺ المكايدَ، ويدسُّون له الدسائس، ونَزَلَتْ في القرآنِ سورةٌ كاملة لفضحهم، هي مِنَ السبعِ الطوال، ولم تتعرَّضْ لواحدٍ منهم باسمه.

فالذين صُرِّحَ بأسمائهم في القرآنِ قلةٌ قليلة؛ كما في **قوله تعالى**: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، ونحوها من الآيات.

ب ـ الاستثناءُ من العموم:

على أن القرآنَ العظيمَ يذكُرُ المقولاتِ بصيغةِ التعميم والإبهامِ، إلا إنه مع ذلك يستخدمُ أساليبَ التخصيص مِنَ العموم؛ **كقوله تعالى**: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ [التوبة: ٤٩]، **وقولِهِ**: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥]، **وقولِهِ**: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، **وقولِهِ**: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

وقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٨].

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى

---

(١) **اطرد الشيء اطرادًا**: تبع بعضه بعضًا، وجرى، واطرَدَ الأمر: استقام. **انظر**: مختار الصحاح (طرد) (ص٣٨٩).

ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١]، إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا من تمامِ عدلِ القرآنِ في أخباره، وفي أحكامِهِ، وحريٌّ بمن يتصدَّى لدعوةِ الناسِ أن يكونَ عادلًا في أحكامِهِ، صادقًا في أقواله.

فأهلُ الكتاب ليسوا كلُّهم يكيدون للدعوة، والأعرابُ ليسوا كلُّهم أشدَّ كفرًا ونفاقًا(١).

فالاستثناءُ من الذمِّ يُحفِّزُ المخاطَبَ ليكونَ من المستَثْنَيْنَ أعظَمَ من تأثره بعمومِ الذم.

رابعًا: عرضُ المقولاتِ مِنْ حيثُ أسلوبُهَا:

أ ـ الأسلوبُ الخبري:

وهو أكثرُ ما جاء في سياقِ المقولات؛ وهو الأصلُ في ذكر المقولةِ أن تساقَ مساقَ الخبر؛ وذلك نحو **قوله تعالى**: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٩].

ب ـ الأسلوبُ الاستفهاميُّ الإنكاري، ويُقْصَدُ به التوبيخُ:

كما في **قوله تعالى**: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾، ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾، ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ [الإسراء: ٤٩ ـ ٥١]، **وقوله**: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ

---

(١) لا يُشكِلُ على هذا قولُهُ تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧]؛ فهذه اللفظة وإن كانت عامةً، فهي للخصوص، بدليل الآية التي بعدها: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ [التوبة: ٩٩].

حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦]، ويفيدُ استبعادَ المنكرينَ لما ينفونه، وجَحْدَهُمْ له، وتكذيبَهُمْ به، كما يفيدُ الاستهزاءَ(١).

ج ـ أسلوبُ التعجبِ:

إما من اللهِ تعالى قبلَ سياقِ مقالتهم؛ كما في **قوله تعالى**: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

أو التعجُّبُ من المنكرين أنفسِهم؛ ومنه **قوله تعالى**: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢].

د ـ أسلوب القسم:

بأن يقسموا على صِدْقِ مقالتهم؛ **قال تعالى**: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

والقسمُ عند النحاة: جملةٌ يؤكَّدُ بها الخبر(٢)؛ فأكدوا نفيهم للبعثِ بالقسم.

هـ ـ أسلوبُ الاقتراح:

الذي يراد منه في الغالبِ التعنُّتُ، لا الاسترشادُ، وهو ينافي العبوديةَ الحقَّةَ لله تعالى، وينافي الانقيادَ للحق، وما مِنْ نبيٍّ إلا وأنكَرَ على قومِهِ اقتراحَ الآيات؛ لأنه يدل على الرِّيبةِ والشك، والتعنُّتِ، والتمادي في العناد.

وقد مضتْ سنةُ الله تعالى على تعذيبِ مَنْ كذَّب بعدما أُجِيبَ على اقتراحِهِ؛ ولذلك سدَّ القرآنُ هذا الباب، ومنع منه، ولم يستجب له في هذه الأُمَّةِ؛ للأسبابِ السابقةِ كلِّها.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾

---

(١) **انظر**: الكشاف (٣/ ٣١)، البحر المحيط (٥/ ٤٩٠).

(٢) **انظر**: البحر المحيط (٥/ ٤٩٠).

[البقرة: ١١٨]، ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧]، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨]، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٤٨].

و ـ أسلوبُ التهكُّمِ والسخرية:

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧].

ويلاحظ أسلوبُ التهكُّمِ والسخريةِ بإبهامِ اسمِ النبيِّ ﷺ، فأنزلوه منزلةَ المجهولِ، وهو عندهم أشهرُ من الشمس؛ تهكُّمًا وسخرية، وإظهارًا لعدمِ الاهتمامِ بما يدعو إليه(١).

ز ـ أسلوبُ التحدِّي:

ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يس: ٤٨].

فهم يسألونَ بمتى، و(مَتَى) يُطْلَبُ بها التصوُّر، فهم يستعجلونَ نزولَ العذابِ الذي وُعِدُوا به على جهة التحدِّي.

ح ـ أسلوبُ القَصْر:

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصافات: ١٥]، وقولُهُ: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقولُهُ: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٧].

ويفيدنا هذا الأسلوبُ: شدةَ كُفْرِهم، وعنادهم، وتشرُّبَهُمْ بالباطلِ الذي يدَّعونه، حتى كأنهم موقنون منه.

---

(١) انظر: التفسير الكبير (٢٥/ ٢٤٣)، البحر المحيط (٧/ ٢٥٩).

ط ـ التصويرُ الحِسِّيُّ لقائلِ المقولة:

وفائدةُ هذا النوعِ من الأسلوب: رسمُ صورةٍ موحيةٍ لمشاعرِ القائل، وشَدٌّ لوجدانِ السامع؛ ومنه **قوله تعالى**: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ من يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ [الإسراء: ٥٠ ـ ٥١]؛ فتأملْ كيف عبَّر القرآن عن حالتهم هذه بهذه الصفة التي تومئ إلى التكذيبِ، والاستبعادِ، ويقصدُ بها كذلك بيان حالهم في الكِبْرِ والغطرسةِ[١].

ي ـ التوكيد:

كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

فأكَّد إنكارهم بالباءِ الداخلةِ في الخبرِ على سبيلِ المبالغةِ في الإنكار[٢]، مما يفيدُ شدةَ إنكارهم، وتمكُّنَ الباطلِ من أنفسهم.

خامسًا: أساليبُ أخرى في عَرْضِ المَقُولاتِ الباطلة:

أ ـ عرضُ المقولةِ الباطلةِ في سياقِ الترهيب:

نحو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: ٢٧٥].

---

(١) **انظر**: البيان، في ضوء أساليب القرآن (ص٢٨٠).
(٢) **انظر**: التحرير والتنوير (٧/ ١٨٧).

ب - عرضُ المقولةِ الباطلةِ في سياق النهي عن التشبُّه بأصحابها:

ومن ذلك **قولُهُ تعالى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، **وقولُهُ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

ج - ذكرُ المقولةِ بعدَ عرضِ شناعةِ فعلِ أصحابها:

ومن ذلك **قولُهُ تعالى**: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

د - ذكرُ المقولةِ بوصفِ أصحابها بوصفٍ منفِّرٍ:

ومن ذلك **قوله تعالى**: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ﴾ [البقرة: ١١٨]، **وقولُهُ**: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٢]، ومنه: ﴿بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨١ - ٨٣]؛ فبين أن منشأ قولهم هو التقليدُ لا غيرُ، فهم يكرِّرون ما قاله أسلافهم دون تبصُّرٍ وتفهم!

هـ - عرضُ المقولةِ بعد تقريرِ منهجِ القرآنِ فيها:

وذلك نحو قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

و ـ التفصيلُ بعدَ الإجمال:

ومنه **قوله تعالى**: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨١ ـ ٨٢].

فأجمَلَ قولَهم، وأبان بأنه كقولِ الأوَّلين من المكذِّبين، ثم فصَّل، وذَكَرَ نصَّه[١].

ويرادُ من هذا النوع: التشويقُ لما سيذكرُ بعد الإجمال.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٨/١٠٧).



المَبۡحَثُ ٱلثَّانِي

منهجُ القرآنِ العظيمِ في إبطالِ المَقُولات

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مميِّزاتُ منهجِ القرآنِ العظيمِ في إبطالِ المَقُولات.

المطلب الثاني: منهجُ القرآنِ العظيمِ في إبطالِ المَقُولات.

المَطلَبُ الأَوَّلُ

مميّزاتُ منهجِ القرآنِ العظيمِ في إبطالِ المَقُولات

الردُّ على المقولةِ الباطلةِ في القرآنِ لا يُقصَدُ منه إفحامُ صاحبِ المقولة، فضلًا عن تبكيته، أو التهكُّمِ به، كلا، بل أمرُهُ أعظمُ من ذلك.

فمن أهمِّ مميِّزاتِ إبطالِ الأقوالِ في القرآن:

١ ـ تأسيسُ اليقين:

فإنَّ المرادَ من الأدلةِ والبراهينِ أن تكونَ مؤسِّسةً لليقين، وإذا لم تكنْ كذلك، فهي ليست أدلةً.

والأدلةُ القرآنيةُ التي وَرَدَتْ في مقامِ إبطالِ المقولاتِ، والردِّ على أصحابِها، تثمرُ اليقينَ للناظرِ فيها نظَرَ منصفٍ متعلِّم، وهذا واضح جلي؛ ومن الأمثلةِ على ذلك: تأملْ في **قوله تعالى:** ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فإبطالُ مقولةِ هذا النمرودِ فيه تأسيسٌ لليقينِ؛ فإنَّ من يتصرَّف في هذا الكونِ إحياءً وإماتة، وتدبيرًا لليلِهِ ونهارِهِ، وشمسِهِ وقمره؛ هو الربُّ المستحقُّ للعبادة لا غيرُه.

وسيأتي شرحٌ وبيانٌ لهذه المناظرةِ في أثناءِ الرسالة[1].

وفي قولِ اللهِ تعالى عن قولِ موسى لفرعونَ ومِلَئِهِ، في التعريف

---

(١) **انظر:** (ص١١٥).

بالله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]، وقوله: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

فالآياتُ تُعمِّقُ اليقينَ في نفسِ سامعها، وتنبِّهه على التفريقِ بين الخالقِ والمخلوق، ومَنْ يستحقُّ العبادةَ وحده دون غيره[١].

وكذلك في **قوله تعالى:**

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهم: ٩ ـ ١٠].

تنبيهٌ على هذا المعنى، ودعوةٌ للتفكُّرِ والتأمُّلِ فيمن يستحقُّ العبادة[٢].

٢ ـ الوضوحُ، وقُرْبُ تناوُلِهِ للخاصَّةِ والعامَّة:

ردودُ القرآنِ جزءٌ من القرآن؛ فالوضوحُ، والبيانُ الذي امتازَ به القرآن، كذلك هو من مميِّزاتِ إبطالِ المقولاتِ في القرآن.

فتميَّزت طريقةُ القرآنِ في الردِّ على المخالفين، بأنها: «أقربُ الطرقِ إلى العقل، وأسهلُها تناولًا، وأقلُّها تكلفًا، وأعظمُها غَنَاءً ونفعًا، وأجلُّها ثمرةً وفائدة؛ **فحُجَجُه سبحانه التي بيَّنها في كتابه جمَعَتْ بين كونها عقليةً سمعيَّة، ظاهرةً واضحة، قليلةَ المقدِّمات، سهلةَ الفهم، قريبةَ التناول، قاطعةً للشكوك والشُّبه، ملزمةً للمعانِدِ والجاحد؛ ولهذا كانتِ المعارفُ التي استُنْبِطَتْ منها في القلوبِ أرسخَ، ولعمومِ الخلقِ أنفعَ**»[٣].

---

(١) انظر: (ص١٢٢).
(٢) انظر: (ص١١٧).
(٣) انظر: الصواعق المرسلة (٢/ ١١١ ـ ١١٢).

وتأمل **قوله تعالى**: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٣٢ ـ ٤٩].

فقد انطوَتْ هذه الآياتُ على حججٍ عقليَّةٍ، وحسيَّةٍ، وبديهيَّةٍ، يفهمها العامي، والعالم، وإن تفاوت الفهمُ بقدرِ الإدراكِ وسَعَةِ الأفق؛ لكنها واضحةٌ للجميع، ويتولَّدُ عنها علمٌ يقينيٌّ بصدقِ ما انطوَتْ عليه من قضايا.

٣ ـ مُخاطَبَةُ العقلِ والوِجْدانِ معًا:

فهو كلامُ الخالق ـ جل وعلا ـ فلا ريبَ أن يجمعَ بين مخاطَبةِ العقل، ومخاطَبةِ الوجدانِ في آنٍ واحد، وقلَّما تجدُ آيةً في المجادلةِ والإقناع إلا ووَجدتَّ فيها مخاطبةَ الوجدان، **ومن ذلك**:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

فتأمل هذه الآيةَ كيف اشتَمَلتْ على البرهان، وخاطبَتِ الوِجْدان؛ في مساقٍ واحد؛ فمن يشكُّ في علمِ اللهِ المحيطِ بخلقه، أو في بعثِ

الإنسانِ بعد موته، ومحاسبتِهِ على ما جَلَّ ودَقَّ من عمله؛ فليعلمْ أن من خلَقَهُ بعد العدم، هو مَنْ يعلمُ حتى حديثَ نفسه.

وتأمل ما تُحدِثُهُ قراءةُ وسماعُ هذه الآية في النفسِ من رجفة، ورهبة!

ومِنْ ذلك **قوله تعالى**: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠ ـ ٦٢].

فانظرْ كيف قرَّر البعثَ بعدَ الموتِ بأسلوبٍ عقليٍّ يخاطبُ الوِجْدان، بل ويضطربُ منه الجَنَان!

المطلب الثاني

منهجُ القرآنِ العظيمِ في إبطالِ المقولات

مُقَدِّمَة

في أنَّ القرآنَ العظيمَ قد تكفَّل بالردِّ على كلِّ مقولةٍ باطلةٍ ذكَرَها

لا تخلو مقولةٌ باطلةٌ في القرآن الكريم من أن يقترنَ بها ما يفيدُ بطلانَها:

١ ـ فتارَةً يكونُ إبطالُها بالردِّ عليها بعد سياقها؛ وهذا هو الغالب في إبطالِ المقولاتِ في القرآن[1]؛ ومن ذلك **قوله تعالى:**

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

٢ ـ لكن قد يتأخَّر الرد على المقولة حتى يستوفي القرآنُ العظيمُ الكلامَ على بواعثِ المقولة، أو جزاءِ قائليها في الآخرة؛ ومن ذلك **قوله تعالى:**

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾

---

(١) انظر: الموافقات، لأبي إسحاق الشاطبي (٣/ ٣٥٥).

بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٧ ـ ٢٠].

فالمشركون اعتَرَضُوا على كونِ الرسولِ يأكُلُ الطعامَ مثلَهم، ويمشي في الأسواق، ثم اقترحوا آياتٍ تؤكِّد لهم صدقَ نبوَّته ﷺ، فأعرَضَ القرآنُ عن اعتراضِهِمْ، واقتراحِهِم، وبيَّن سببَ كُفْرِهم، وجزاءَهم في الآخرة، والفرقَ بينهم وبين المؤمنين، ثم عاد وردَّ على مقولتهم **بقوله:**

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

ونحوُ ذلك **قولُهُ تعالى:** ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥] ثم ذكر قصةَ أصحابِ الجنة، وجزاءَ المتقين، ونَفَى المساواةَ بينهم وبين المجرمين، ثم انتقلَ السياق لموقفِ المجرمين في الآخرة، ثم جاء الردُّ على المقولةِ السابقة: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [القلم: ٤٤ ـ ٤٧].

٣ ـ وأحيانًا يكونُ الردُّ من أسلوبِ السياق؛ فالقارئُ وإن كان غيرَ عالمٍ بالقرآن؛ فإنه يفهمُ من أسلوبِ السياق: ذمَّ تلك المقولة، والتنفيرَ منها، ومن قائلها.

ومن أمثلة هذا النوع **قولُهُ تعالى**: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣].

منهجُ القرآنِ العظيمِ في إبطالِ المَقُولات

اجتهدتُ في ردِّ الأساليبِ التي وَرَدَتْ في ردِّ المقولاتِ الباطلةِ إلى قواعدَ جامعة، وأصولٍ نافعة، فانقدَحَ في ذهني أنَّ منهجَ القرآنِ في الرد على المقولاتِ الباطلة هو منهجُ القرآن في الدعوةِ إلى الله، واللهُ ﷻ قد سَنَّ لنبينا محمَّدٍ ﷺ المنهجَ الإلهيَّ في الدعوةِ إلى الله تعالى؛ كما في **قوله تعالى**:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

فبيَّن اللهُ تعالى في هذه الآية: أن الدعوةَ إليه تكونُ بأحدِ هذه الطرق الثلاثة[١]:

١ ـ طريق الحكمة[٢]**: والحكمةُ هنا هي**: (إيضاحُ الأدلَّةِ في

(١) انظر: التفسير الكبير (٢٠/ ١١١ ـ ١١٢).

(٢) زعم بعض الفلاسفة أن الطريقة القرآنية طريقة خطابية، فرد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع عديدة؛ منها قوله: «وليس الأمر كما يتوهمه الجهال الضلال، =

أحسنِ أسلوبٍ وألطفه)[١] فتقرَّر البراهين والأدلة دون جدل، بل تقرَّر ابتداء، أو بأسلوبٍ استئنافيٍّ؛ رغم أن المقام مقام رد وجواب.

٢ ـ **طريق الموعظة الحسنة**: وتكونُ لعامة الناس، وخاصَّتهم؛ فتكون لمن هم على الفطرةِ الأصلية، والسلامةِ الخِلْقية، وتكونُ لمن بلغوا درجةَ الاستعداد لفهمِ الدلائلِ اليقينية، والمعارفِ الحِكْمية، فكل هؤلاء يُدْعَوْنَ بالموعظةِ الحسنة؛ لكنْ بعضُهم قد تكفيه الموعظةُ للامتثال، وبعضُهم لا بدَّ من اقتران الموعظةِ مع البراهين والأدلة.

والموعظةُ التي أمر الله تعالى بها هي: الأمرُ، والنهيُ، والترغيبُ، والترهيبُ[٢]؛ كما في **قوله تعالى**: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٦]،

= من الكفار المتفلسفة وبعض المتكلمة؛ من كون القرآن جاء بالطريقة الخطابية، وعري عن البرهانية أو اشتمل على قليل منها، بل جميع ما اشتمل عليه القرآن هو الطريقة البرهانية، وتكون تارة خطابية، وتارة جدلية مع كونها برهانية، والأقيسةُ التي اشتَمَلَ عليها القرآن هي الغايةُ في دعوة الخلق إلى الله... ولهذا اشتمل القرآن على خلاصة الطرق الصحيحة التي توجد في كلام جميع العقلاء، من المتكلمة والمتفلسفة وغيرهم، ونزَّهه الله عما يوجد في كلامهم من الطرق الفاسدة، ويوجد فيه من الطرق الصحيحة ما لا يوجد في كلام البشر بحال». مجموع الفتاوى ٢/٤٦٧.
وانظر: (١٤/ ٦٢ و٤٣٧)

(١) أضواء البيان (١/ ٤٦٤).

(٢) **انظر**: الرد على المنطقيين (ص٤٦٧)؛ حيث زعم المناطقة أن ما أمر به القرآن من الدعوة إليه بالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، هي طرق المناطقة؛ لأنهم يقولون: إن القرآن جاء بالطرق البرهانية، والخطابية، والجدلية، وهذا يعني: أن القرآن قد جاء بما عند المناطقة من طرق الاستدلال؛ وهذا قول مخالفٌ لمن عرَفَ مصطلحاتهم، وعرَفَ ألفاظ القرآن، فإن ما يسمونه بالبرهان يُراد به: ما كان مقدمات يقينية على هيئة تفيد نتيجة يقينية، وأما الحجة الجدلية: فهي المؤلفة من مقدمات مشهورة، أقل مرتبة من اليقين، لكنها تفيد ظنًّا راجحًا، وأما الحجة الخطابية؛ فهي التي تفيد ظنًّا راجحًا مقبولًا؛ لأنها تعتمد على مقدمات ظنية، سواء سلَّم بها المخاطب أم لم يُسلِّم. فانظر إلى الفرق بين هذه الأساليب، وأساليب القرآن؟! **انظر**: ضوابط المعرفة لحبنكة (ص٢٩٥ ـ ٣٠٠).

وقوله: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧].

٣ - طريقُ المجادَلَةِ بالتي هي أحسن: وتكونُ بالدلائلِ التي يكون المقصودُ من ذكرها تبيينَ الحقِّ لمن عَلِقَتْ في قلبه شبهة، وتكونُ لإلزامِ الخصمِ بمخالفتِهِ لما يعتقده، وتكونُ لإفحامِهِ إنْ كان مجادلًا بالباطل، وتكونُ المجادلةُ بأدلةٍ مركَّبةٍ من مقدِّماتٍ مسلَّمة عندَ ذلك القائل؛ وهذا الجدلُ هو الجدلُ الواقعُ على الوجهِ الأحسن.

فهذه الطرقُ يكمِّلُ بعضُها بعضًا، ولا يغني بعضُها عن الآخر؛ فإنَّ الدعوةَ بالأساليبِ البرهانية، والأدلةِ المنطقية لا ينتفعُ بها إلا من كان ممارسًا لهذا العلم، وغلَبَتْ عليه الدراساتُ العقلية، والنزعاتُ الفلسفية، وهذا الصنفُ قلةٌ قليلة، وعددُهم محدودٌ بالنسبة لغيرهم(١).

وأسلوبُ الجدال ينفعُ مَنْ لُبِّسَ عليه الحق، وتخطَّفته الشبه، وأعمته الموانع؛ كالحَسَدِ، والكِبْرِ، والتعصب.

فهؤلاءِ لا بدَّ لهم من طرقٍ جدلية تزيلُ ما لُبِّسَ من الحق عليهم، وتجلِّي عنهم ما دهمهم من الشبه، وتقنعهم بما يُسهِّلُ عليهم الخروجَ من حمأة التعصب، وقيد الهوى.

وأسلوبُ الوعظِ هو سبيلُ عامَّةِ الناس؛ لأنه يخاطبُ الوِجْدان، فيعالجُ ما تراكم على الفطرِ السليمةِ من الأدران، وما أحاطَ بالنفسِ من الأكدار.

كما أنَّ أسلوبَ الوعظِ فيه إيقاظٌ للأفئدةِ الغافلة، وتليينٌ للقلوبِ القاسية، فيحتاجُهُ الموافقُ والمخالف، والعالمُ والجاهل.

وقد ذَكَر الله تعالى أنَّ مواعظَ القرآنِ فيها الذكرى والبينة: ﴿إِنَّ فِي

---

(١) انظر: المعجزة الكبرى (ص٣٦٨ ـ ٣٦٩).

﴿ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]؛ فذكَر المؤثِّر؛ وهو القرآن، وذكَرَ المحلَّ القابل؛ وهو القلبُ الحيُّ الذي يَعْقِلُ عن الله، وذكَرَ شرطَ التأثُّرِ بالكلام، هو ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾؛ أي: وجَّه سمعَهُ، وأصغى حاسَّةَ سمعِهِ إلى ما يقالُ له؛ لأن هذا شرطُ التأثرِ بالكلام، ثم ذكر خلوَّه من الموانع، وهو سهوُ القلب وغيبتُهُ عن تعقُّلِ ما يقالُ له، والنظرِ فيه وتأملِهِ، فإذا حصَلَ المؤثِّر؛ وهو القرآن، والمحلُّ القابل؛ وهو القلبُ الحي، ووُجِدَ الشرط؛ وهو الإصغاء، وانتَفَى المانع؛ وهو اشتغالُ القلبِ وذهولُهُ عن معنى الخطاب وانصرافُهُ عنه إلى شيء آخر ـ: حصل الأثر؛ وهو الانتفاع والتذكر(١).

قال شيخ الإسلام: «ولهذا اتفَقَ العقلاءُ على أنَّ كلَّ شبهةٍ تعرضُ لا يمكنُ إزالتها بالبرهانِ والنظرِ والاستدلال، وإنما يخاطبُ بالبرهانِ والنظرِ والاستدلال مَنْ كانتْ عنده مقدِّماتٌ علمية، وكان ممَّن يمكنه أن ينظُرَ فيها نظرًا يفيدُهُ العلمَ بغيرها، فمن لم يكنْ عنده مقدِّماتٌ علمية، أو لم يكنْ قادرًا على النظرِ، لم تُمْكِنْ مخاطبتُهُ بالنظرِ والاستدلال»(٢).

فإليك هذه الطرقَ الثلاثةَ بالتفصيلِ والتمثيل:

أولًا: أسلوبُ الحِكْمةِ في رَدِّ المقولاتِ الباطلة:

والمقصودُ به: طريقةُ القرآن في تثبيتِ العقائدِ والتشريعاتِ في نفوسِ السامعين، دون الحاجةِ إلى المجادَلَةِ والمناظرة.

ومن أساليبِ القرآن في هذا الباب:

١ ـ إيقاظُ فكرِ السامعِ، ودعوتُهُ للتفكُّرِ بعقلِهِ الذي وهَبَهُ الله إياه:

وهو طريقٌ لم تعهده العرب، ولا يعرفونَهُ في علومهم، ولا يشتملُ

---

(١) انظر: الفوائد، لابن القيم (ص٣).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٣١٠).

عليها كتابٌ من كتبهم(١)؛ فجاء القرآنُ يدعوهم في كثيرٍ من القضايا التي أخذوها مأخذَ التسليم، وركَنوا عقولَهُمْ عن تأمُّلها، جاء القرآنُ ينبِّههم على التفكُّر فيها، والنظرِ فيها بالحججِ العقلية، وتأمُّلِ البراهينِ القويةِ التي تدلُّ عليها، فكان هذا طريقًا قويًّا في نقضِ معتقداتِهِمُ الباطلة، وأقوالِهِمُ الزائفة، ومِنْ **أمثلة ذلك:**

قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨١ ـ ٨٩].

فردَّ عليهم إنكارَهُمْ للبعثِ والنشورِ؛ بتنبيهِهِمْ ولَفْتِ أنظارهم إلى ما يرونه في الكونِ من مظاهرِ قدرتِهِ ﷻ(٢).

ومِنْ أمثلةِ ذلك: **قولُهُ تعالى:** ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

فلمَّا نفى بعضُ اليهودِ أن يكونَ الله تعالى قد أنزلَ شيئًا من الكتبِ توصلًا لإبطالِ نزولِ القرآنِ على النبيِّ ﷺ، رَدَّ القرآنُ على قولهم ذلك بما يوقظُ فكرَ السامع، وينبِّهه على مخالفةِ هذه المقولةِ للحسِّ، والعقل(٣).

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١/ ٧١).
(٢) انظر: الكلام على هذه الآية (ص٣٥٤).
(٣) سيأتي ـ بحول الله تعالى ـ بيان لهذه الآية (ص٢٣٤).

وقال في الرد على المشركين: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨].

وقال لمنكري البعثِ والنشور: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٩].

فالسامعُ لا بدَّ أن يتفكَّرَ في دلالةِ هذا الكلام، ولا شكَّ أن العاقلَ سيتحرَّرُ من رِبْقةِ التقليد، والانسياقِ للأباطيل.

وصرَّح في مواطنَ بدعوتهم للتفكُّر، والنظر، والاستدلال:

• **فقال سبحانه:** ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

• **وقـــال:** ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

• **وقال:** ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

٢ ـ ذَمُّ التقليد، والإنكارُ على المقلِّدين؛ كما في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

ومن لطيفِ استدلالِ القرآنِ عليهم في هذه الآيات: أنه أنكَرَ عليهم التقليدَ فيما لا يعلمون صِحَّتَه، وتركَ الاتِّبَاع للدليلِ الذي يسمعونَهُ ويُبْصِرونه!

٣ ـ الاهتمامُ بالعلمِ، كمصدرٍ للتلقِّي والحُكْمِ:

ولذا تكرَّر في إبطالِ المقولاتِ السؤالُ عن الدليلِ والبرهانِ والحُجَّة؛ وهذا الطلبُ كما أن فيه دليلًا جدليًّا، ففيه دليلٌ معرفيٌّ للمُناظِر.

ومن أمثلةِ ذلك: **قولُهُ تعالى:**

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤].

فنبَّه على أنه يَمْلِكُ البرهانَ في دعوتِهِ: ﴿هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾.

ونعى على مَنْ يَتَّبِعُونَ الظنَّ في ثمانيةِ مواضعَ من كتابه، منها **قوله تعالى:**

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦].

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦].

٤ ـ الاستدلالُ بالتعريف:

بأنْ يؤخَذَ من ماهيةِ موضوعِ القولِ: دليلُ الدعوى(١).

فيؤخذُ مثلًا من حقيقةِ الأصنامِ دليلٌ على أنها لا تصلُحُ أن تكونَ معبودًا، ومن بين صفاتِ اللهِ تعالى دليلٌ على أن يكونَ وحدَهُ المُستحِقَّ للعبادة(٢).

قال تعالى في تقرير هذا الأصل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٣ ـ ٦].

فانظُرْ إلى أسلوبِ التعريفِ بالخالقِ مِنْ خلالِ إبطالِ مقالتهم في التوجُّهِ للأصنام بالعبادة.

فبيَّن لهم: أنَّ اللهَ تعالى هو الخالقُ المطلق، فهو الذي يخلُقُ ما يشاء، ومما شاءَ خلقَهُ هذه الأجرامُ العظيمةُ؛ الأرضُ التي يمشونَ عليها، والسماءُ التي يستظلُّون بها، وما فيها، وخلَقَهُمْ من نفسٍ واحدة، وخلَقَ لهم الأنعامَ التي يأكُلُونَ منها، ويَرْكَبُونَ؛ وفي هذا تبيينٌ لهم بأنَّ مَنْ لم يخلقْ شيئًا مِنْ هذا، فليس بخليقٍ أن يعبد، ولا يرجى!

ومِنَ التعريفِ بالخالقِ القادرِ على البعثِ والنشور: جاء الردُّ على

---

(١) المعجزة الكبرى (ص٣٤٧ ـ ٣٤٩). (٢) المرجع السابق.

من ينكرُ البعثَ بالتعريفِ بالمخلوق؛ فإنه ضعيفٌ، خُلِقَ بعد أنْ لم يكنْ شيئًا، وكذا الأجرامُ العظيمة؛ كالسمٰواتِ والأرضِ وُجِدَتْ بعد العَدَمِ، وكذا العُودُ الرطبُ اللَّيِّن، يضاءُ منه نارٌ لينتفعَ منها الإنسان؛ **قال تعالى**:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٨٣].

فعرَّف بالخالقِ مِنْ جهةِ أنَّ مَنْ خلَقَ الإنسانَ في أولِ مرة، قادرٌ على إحيائه؛ لأنَّ الإنشاءَ على غيرِ اللهِ أصعبُ من الإعادة، ولا صعوبةَ على الله تعالى في ذلك؛ ولهذا جاء التذييل **بقوله**: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

٥ ـ أسلوب القصة:

«فليس الغرَضُ من سَوْقِ القصةِ قاصرًا على حصولِ العِبْرةِ والموعظةِ مما تضمَّنته القصةُ من عواقبِ الخيرِ أو الشر، ولا على حصولِ التنويهِ بأصحابِ تلك القِصَصِ في عنايةِ اللهِ بهم، أو التشويهِ بأصحابِها فيما لَقُوهُ من غضَبِ اللهِ عليهم، بل الغرَضُ من ذلك أسمى وأجلُّ.

إن في تلكَ القصصِ لعبرًا جَمَّةً، وفوائدَ للأمَّة؛ ولذلك نرى القرآنَ يأخُذُ من كلِّ قصة أشرفَ مواضيعها، ويُعْرِضُ عما عداه ليكونَ تعرُّضُهُ للقصصِ منزَّهًا عن قصدِ التفكُّهِ بها.

من أجل ذلك كلِّه لم تأتِ القصصُ في القرآن متتاليةً متعاقبةً في سورةٍ أو سورٍ كما يكونُ كتابُ تاريخ، بل كانتْ مفرَّقةً موزَّعةً على

مقاماتٍ تناسبها؛ لأن معظمَ الفوائدِ الحاصلةِ منها لها علاقةٌ بذلك التوزيع، هو ذِكْرٌ وموعظةٌ لأهل الدين؛ فهو بالخطابة أشبه.

وللقرآنِ أسلوبُهُ الخاصُّ في سَوْقِ القصةِ، يُكْسِبُها صفتَيْنِ: صفةَ البرهانِ، وصفةَ التبيان[1].

ومن الأمثلةِ على هذا الأسلوب:

أن الله تعالى ذكَرَ عن المشركين قولَهُمْ: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

والقِطُّ: هو النصيبُ، والقسطُ من الشيء[2]؛ **أي**: أَنْزِلْ علينا نصيبَنَا الذي تَعِدُنا به من العذاب، قبل أن يأتي يومُ الحساب! فانظرْ كيف جمعوا ألوانًا من السخريةِ والاستهزاءِ، فهم يطلبونَ إنزالَ العذابِ ـ تحدِّيًا واستهزاءً ـ قبلَ يومِ الحساب، وهم لا يؤمنون به أصلًا!

فكان الجوابُ القرآنيُّ: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

وساق قصةً طويلةً ممتعةً لداود عليه السلام.

فقد يتساءل المرء: ما عَلَاقةُ قصةِ داودَ بمقولةِ المشركين[3]؟

والذي ظهَرَ لي ـ والعلمُ عند الله تعالى ـ **أنَّ هؤلاءِ المكذِّبينَ جمعوا في مقولتهم هذه أمرَيْنِ:**

أولهما: أنهم كَابَرُوا، وعانَدُوا، وأصرُّوا على باطلهم؛ وهذا ما تبيِّنه الآيات؛ حيثُ ابتُدِئَتْ السورةُ **بقوله تعالى**: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ

---

(١) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ٣٥).

(٢) **انظر**: لسان العرب (قطط) (٧/ ٣٨٢).

(٣) **انظر**: أجوبة بعض المفسِّرين لحكمة ذكر قصة داود عليه السلام في هذا الموطن ـ وليس فيها ما ذكرته أعلاه؛ فالحمد لله تعالى على توفيقه ـ. التفسير الكبير، للرازي (٢٦/ ١٨٠)، ملاك التأويل، لابن الزبير الغرناطي (٢/ ٩٧٧ ـ ٩٧٩).

وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ٢]، ثم انتقلَ السياقُ إلى مقولتهم في الصبرِ على عبادةِ الأصنامِ في صورةٍ حسيةٍ تبيِّن عنادَهُمْ، وإصرارَهُمْ على ما هم فيه؛ **فقال سبحانه:** ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦].

ثانيهما: أنهم أنكروا الجزاءَ والحسابَ، بأسلوبِ سخريَّة، وتحدٍّ، فقالوا ـ كما أخبَرَ القرآنُ عنهم ـ: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

فكان الجوابُ القرآنيُّ بذكرِ قصةِ داودَ عليه السلام للجوابِ عن ذينك الأمرَيْن بأسلوبٍ حكيم، فعالَجَ عنادَهم، وإصرارَهُمْ على باطلهم بوصف داود عليه السلام بأنه كان عبدًا أَوَّابًا، **فقال:** ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

وهذا تهييجٌ، وإلهابٌ للمخاطَبين: أنْ يَتمثَّلوا هذه الخَصْلَةَ الحميدة، ويجعلوها عِبْرةً لهم عندَ بيانِ الحقِّ لهم.

وأجاب عن إنكارهم ليومِ الحسابِ **بقولِ الله تعالى لنبيه داود** عليه السلام: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

فهذا التهديدُ الإلهيُّ لمنكري يومِ الحسابِ سيصيبُ السامعَ بالخوفِ والوَجَلِ من تكذيبه، وهو في خِضَمِّ سماعِهِ للقصة، بعيدًا عن المجادلةِ، والردود!

ولا أزعُمُ أنَّ هذَيْنِ الأمرَيْنِ هما فقطِ الحكمةُ من سياقِ قصةِ داود عليه السلام في هذا الموطنِ، لكنهما مثالان لأثرِ القصةِ القرآنية في الردِّ على المخالفين بعيدًا عن الردِّ والجواب.

٦ ـ التأكيدُ على العلةِ والمعلول[١]:

وقد سمَّى القرآنُ العظيمُ هذا النوعَ من الاستدلالِ: آيةً في كلِّ موارده، وهو أصحُّ من تسميتِهِ دليلًا؛ لضرورةِ التلازمِ المطلوبِ بين الدليلِ ومدلولِهِ من استعمالِ لفظِ الدليل[٢].

والضابطُ في اعتبارِ الدليلِ أن يكونَ مُسْتلزِمًا للمدلول[٣].

وطريقةُ الاستدلالِ بالدليلِ على المدلول: أن يركِّزَ الردَّ على ربطِ المحاجِّ والسامعِ بارتباطٍ وثيقٍ بين القضيةِ التي ينكرها، وقضيةٍ يسلِّمُ هو بها، ويكونَ أحدُهما علةً للآخر؛ فالبعثُ علته الحسابُ والجزاءُ؛ كما في **قوله تعالى**: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

ومثلُ ذلك الاستدلالُ بـ«المخلوقاتِ على خالقها ﷻ، وعِلْمِهِ، وقدرتِهِ، ومشيئتِهِ، ورحمتِهِ، وحكمتِهِ؛ فإنَّ وجودَهَا مستلزمٌ لوجودِ ذلك، ووجودها بدونِ ذلك ممتنعٌ؛ فلا توجدُ إلَّا دالَّةً على ذلك»[٤].

وفي القرآنِ كثيرٌ يكون فيه التعليلُ جزءًا من الدليلِ الذي يسوقه القرآنُ الكريمُ بتنزيلٍ من العزيز الحكيم[٥].

٧ ـ التقريرُ بأسلوبِ التشبيهِ والتمثيل[٦]:

والتمثيلُ والأمثالُ كانتْ في أدبِ العرب، وقد جاء القرآنُ بأوضحِ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٩/ ١٥٧).
(٢) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٢٧٧)، (١٠/ ١٢٢).
(٣) المرجع السابق.
(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٩/ ١٥٧). (٥) انظر: المعجزة الكبرى (ص٣٥٢).
(٦) انظر: (ص١٥٩) من البحث، ففيها أمثلة أخرى لهذا النوع.

الأمثالِ، وأبدع تركيبها[١].

وضَرْبُ الأمثالِ بابٌ من أبوابِ التشبيه، وهي تضربُ لتقريبِ الحقائق، ولتشبيهِ الغائبِ غيرِ المحسوسِ بما يُقرِّبُهُ من القريبِ المحسوس[٢].

كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

فتأمَّلْ كيفَ شبَّه أعمالَ الكفارِ التي يظنون ـ أو يظنُّ ـ أنها تَنْفَعُهم في الآخرة، شبَّهها في بطلانها وعَدَم الانتفاعِ بها برمادٍ مرَّت عليه ريحٌ شديدة، في يومٍ عاصف، وهذا تشبيهٌ لحبوطها وذَهَابِها باطلًا؛ كالهَبَاءِ المنثور؛ لكونها على غيرِ أساسٍ من الإيمانِ والإحسان، وكونِها لغيرِ الله ﷻ، وعلى غيرِ أمره[٣].

ثم قال: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾، بيانًا لعجزهم وضعفهم عن حفظِ ما عملوه، وهو يَتطايَرُ بين أيديهم.

قال ابن القيم: «وفي تشبيهها بالرماد سِرٌّ بديع، وذلك للتشابُهِ الذي بين أعمالهم، وبين الرمادِ في إحراقِ النارِ وإذهابِها لأصلِ هذا وهذا، فكانت الأعمالُ التي لغيرِ اللهِ وعلى غيرِ مرادِهِ طُعْمةً للنارِ وبها تُسعَّرُ النارُ على أصحابها، وينشئ اللهُ سبحانه لهم مِنْ أعمالِهِمُ الباطلةِ نارًا وعذابًا كما ينشئُ لأهلِ الأعمالِ الموافقةِ لأمرِهِ ونهيِهِ التي هي خالصةٌ لوجهِهِ من أعمالهم نعيمًا ورَوْحًا، فأثَّرَتِ النارُ في أعمالِ أولئكَ حتى جعلتها رمادًا، فهم وأعمالُهم وما يعبدون مِنْ دُونِ اللهِ وقودُ النار»[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٦٧).
(٢) انظر: المعجزة الكبرى (ص٣٥٧).
(٣) انظر: إعلام الموقعين (١/ ١٧١).
(٤) المرجع السابق.

ومن ذلكَ أيضًا **قولُهُ تعالى**: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

قال ابن القيم: «فتأمَّلْ هذا المَثَلَ ومطابقتَهُ لحالِ مَنْ أشرَكَ بالله وتعلَّق بغيره، **ويجوزُ لك في هذا التشبيهِ أمران**:

أحدهما: أنْ تجعلَهُ تشبيهًا مركَّبًا، ويكونَ قد شبَّه من أشرَكَ بالله وعبَدَ معه غيرَهُ برجلٍ قد تسبَّب إلى هلاكِ نفسِهِ هلاكًا لا يرجى معه نجاة، فصوَّر حالَهُ بصورةِ حالِ مَنْ خَرَّ من السماء، فاختطفَتْهُ الطيرُ في الهوي، فتمزَّقَ مِزَقًا في حواصلها، أو عصَفَتْ به الريحُ حتى هوَتْ به في بعضِ المطارحِ البعيدة.

وعلى هذا: لا تنظُرْ إلى كلِّ فردٍ من أفرادِ المشبَّهِ ومقابلِهِ من المشبَّهِ به.

والثاني: أنْ يكونَ من التشبيهِ المفرَّق، فيُقابَلُ كلُّ واحدٍ من أجزاءِ الممثَّلِ بالممثَّلِ به.

وعلى هذا: فيكونُ قد شبَّه الإيمانَ والتوحيدَ في علوِّهِ وسعتِهِ وشرفِهِ، بالسماءِ التي هي مصعدُهُ ومَهْبِطُه، فمنها هبَطَ إلى الأرضِ وإليها يصعدُ منها، وشبَّه تاركَ الإيمانِ والتوحيدِ بالساقطِ من السماءِ إلى أسفلِ سافلين؛ من حيثُ التضييقُ الشديد، والآلامُ المتراكمة، والطيرُ الذي تَخْطَفُ أعضاءه، وتمزِّقه كلَّ ممزَّق...»[1].

وقولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

وقولُهُ: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤].

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٨٠).

٨ ـ الأسلوبُ الحكيمُ في إبطالِ المقولة[(١)]:

بأنْ يَحِيدَ عن أسئلتهم الجَدَليَّة، ويُجِيبَهُمْ بجوابٍ تطمئنُّ نفوسُ المعاندينَ له.

ومنه: **قوله تعالى**: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٨، ٤٩].

فسؤالُهم كان عن اليومِ الآخر، استبعادًا له وتهكُّمًا؛ فجاءَ الجوابُ بما لا يتوقَّعونه، وتقريرُهُ: هذا التهكُّمُ إنما يتمُّ إذا ادَّعَيْتُ بأني أملكُ ما تطلبونه، فأنا لا أملكُ لنفسي نفعًا، ولا ضرًّا؛ فكيف أدَّعي ما ليس لي بحق[(٢)]؟!

ومنه: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠].

«فإنهم حين ما طَلَبُوا مع وجودِ الآياتِ المتكاثرةِ دلَّ على أنَّ سؤالَهم للتعنُّتِ كما علمتَ آنفًا، فأجيبوا بما أجيبوا؛ لِيُؤْذِنَ بأنَّ سؤالَهم سؤالُ المقترحينِ يستحقُّون به نقمةَ الله تعالى، وحلولَ عقابه؛ **ويعني**: أنه لا بدَّ أنْ يَستأصِلَ شِأْفَتكم؛ لكنْ لا أعلمُ متى يكون، وأنتم كذلك؛ لأنَّ ذلك من الغيب، وهو مختصٌّ به تعالى، لا أحَدَ غيرُهُ جل شأنه؛ وإذا كان كذلك، فانْتَظِروا ما يُوجِبُهُ اقتراحُكم، إني معكم من المنتظرين إياه»[(٣)].

وكقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٨، ٤٩].

---

(١) أسماه به السكاكي؛ كما في البرهان، للزركشي (٤/ ٤٢)، وعزاه الألوسي للطيبي. **انظر**: روح المعاني (١١/ ٩٢).

(٢) روح المعاني (١١/ ٩٢).

(٣) المرجع السابق (١١/ ١٢١).

استعمَلَ القرآنُ أسلوبَ القصر؛ **فقولُهُ سبحانه:** ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِى ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ [يونس: ٤٩]، جاء القصرُ بالنفي والإثبات، وهو استثناءٌ منقطع؛ **أي**: ولكنْ ما شاء الله مِنْ ذلك كائن[١].

وفائدةُ هذا الأسلوبِ هنا: تخليصُ النفوسِ من أيِّ شبهةٍ تتعلَّق بقدرةِ غيرِ اللهِ على النفع والضر.

٩ - التنويعُ في العَرْض:

فإنَّ كثرةَ أغراضِ الكلامِ وتكرارَهُ وتنوُّعَهُ أشدُّ تأثيرًا في بناءِ الإنسانِ السويِّ، وما ذهبنا إليه يؤيِّده **قولُ الله تعالى:** ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١].

قال الشيخ الطاهر بن عاشور[٢]: «وللتوصيلِ أحوالٌ كثيرة؛ فهو باعتبارِ ألفاظِهِ وصَّل بعضَهُ ببعض... وباعتبارِ معانيه وصَّل أصنافًا من الكلامِ وعدًا ووعيدًا، وترغيبًا وترهيبًا، وقصصًا ومواعظ، وعِبَرًا ونصائحَ، يعقُبُ بعضُها بعضًا، ويَتنقَّلُ من فَنٍّ إلى فن، وفي كلِّ ذلك عونٌ على نشاطِ الذهنِ للتذكُّرِ والتدبر»[٣].

وفائدةُ التنويع: ليقوِّيَ كلًّا منهما الآخَرَ[٤]، وليكونَ أدعى لقَبُولِ المكلَّف، وإذعانِهِ، وخضوعه[٥]، ولأنه أبعدُ عن المَللِ والضجر؛ فإنَّ

---

(١) **انظر:** الكشاف (٢/ ٣٥٠).

(٢) **هو:** الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، شيخ جامع الزيتونة بتونس، كان عضوًا في مجمعي القاهرة، ودمشق، له مصنفات رائعة، لا سيما تفسيره المُسمَّى: «تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد»، المعروف باسم «التحرير والتنوير»، توفي سنة (١٣٩٣هـ). **يُنظر:** معجم المؤلفين (٣/ ٣٦٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٤٢).

(٤) **انظر:** التفسير الكبير، للفخر الرازي (٣/ ٢٤).

(٥) المرجع السابق (٣/ ١٧٥).

الانتقالَ من نوعٍ من العلومِ إلى نوعٍ آخر، يشرحُ الصدرَ ويجدِّدُ الهمةَ والنشاطَ والمتابعةَ[١].

١٠ ـ التذييلُ؛ بأن يذيِّلَ الردَّ بما يؤكِّدُ المعنى المراد:

ومنه: **قوله تعالى:** ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

فقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، تذييلٌ على الاستدلالِ السابق[٢]، **وفائدةُ التذييلِ:** زيادةُ البيان، وتوكيدُ الخبر.

ثانيًا: الردُّ على المقولةِ الباطلةِ بالموعظةِ الحَسَنة:

وقد سَلَكَ القرآنُ العظيمُ مسلكَ الوعظِ في كثيرٍ من إجاباتِهِ على المقولاتِ التي يبطلها؛ لأنَّ غالبَ النفوسِ تحتاجُ إلى تحريكِ وِجْدانها، والأخذِ بمجامعِ مَشَاعرِها لتقبُّلِ الحق.

ومِنْ أساليبِ القرآنِ في هذا الباب:

١ ـ الترهيبُ والترغيب:

وهذا أسلوبٌ جليٌّ، لا تكادُ تخلو منه طريقةٌ من طرقِ نقضِ المقولاتِ الباطلة؛ فإنَّ المُبْطِلَ إذا أجيبَ عليه بالتهديدِ والوعيد، كان أدعى إلى تذكُّره وتبصُّره بعاقبةِ تكذيبِهِ المجرَّدِ عن الدليل، وحَسْبُكَ أن تنظر في هذه الآيات:

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّاۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٧٧ ـ ٨٠].

فإنَّ دعوى تحصيلِ المنافعِ في المستقبلِ أمرٌ يعرفُ كلُّ أحدٍ كَذِبَهُ،

---

(١) **انظر:** التفسير الكبير، للرازي (٤/٣)، تفسير المنار (٢/٤٤٥).

(٢) **انظر:** التحرير والتنوير (٢٢/٧٦).

وأنَّه تخرُّصٌ لا يملكُ العبدُ دليلًا عليه؛ فكان في الجوابِ تنبيهٌ على فسادِ قوله، وترهيبٌ من ادعاءِ ما لا قدرةَ للعبدِ عليه.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفرقان: ٧ ـ ١٨].

فأبطَلَ قولَهم المبنيَّ على الاقتراحاتِ الناشئةِ عن التكذيبِ والعنادِ بتعريفِهِمْ بالنار، وما أعَدَّ اللهُ تعالى للمكذِّبين فيها.

وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١ ـ ٢٦].

٢ ـ بيانُ الحقِّ بأسلوبٍ مُقْنِعٍ مؤثِّرٍ:

ومن ذلك: **قولُهُ سبحانه لمن اقترَحُوا تأخيرَ فَرْضِ القتال:** ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧][(١)].

فهم يعلمون أنَّ متاعَ الدنيا قليلٌ، وأنَّ الآخرةَ خيرٌ لمن اتقى، لكنَّهم يحتاجون إلى تذكيرِهم بهذا في وقتِ اضطرابِ نفوسهم، وخَوْفِهم من القتال.

٣ ـ أسلوبُ القِصَّة:

وقد سبَقَ الكلامُ عن القصةِ في القرآنِ قبلَ صفحات، وأنها اشتَمَلَتْ على صفةِ البرهان، وصفةِ التبيان؛ أي: الاتعاظ.

ولذلك كان يردُّ أحيانًا على مقولاتهم بالتذكيرِ بمصارعِ الغابرين، وقِصَصِ المتقدِّمين، ومن ذلك: **قوله تعالى:** ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣٢ ـ ٤٠].

---

(١) يُنظر: الكلام على هذه الآية (ص٤٦٢) من البحث.

فردَّ على اقتراحِهم بتذكيرِهم بمصارعِ الغابرين، لعلَّهم يتقون ويَحْذَرون!

ومنه: **قوله تعالى:** ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

ثالثًا: الردُّ على المقولةِ الباطلةِ بالمجادَلَةِ بالتي هي أَحْسَنُ:

اتسَمَ جدَلُ القرآنِ بأنه طريقٌ لعلاجِ مَنْ لم يقتنعْ بالبيِّنات التي أصَّلها القرآنُ ابتداء، ولم تَنْفَعْهُ المواعظُ الخالصة، فهو في شكٍّ يتردَّدُ بينَ شبهاتٍ أغلَقَتْ منافذَ التفكيرِ لديه، وبين شَهَواتٍ يجادلُ مِنْ أجلها، ولذا كانتْ مجادلتُهُ طريقًا لإلزامه، وتعريةِ باطلِهِ أمامَ نفسه أولًا، وأمامَ المغترِّين بما يُلقِيهِ من الشبهات، وكانتِ المجادلةُ كذلك طريقًا لإفحامِ مَنْ أَصَرَّ على المعانَدَة رغمَ وضوحِ الأدلة، وسطوعِ شمسِ الحقِّ في ناظريه، وبينَ الإلزامِ والإفحامِ مراحلُ عديدةٌ يعالجُها القرآن، ويلقي بظلالِهِ الهادئةِ على نفوسِ المؤمنين، وأنوارِهِ الساطعةِ في نفوسِ الشاكِّين، وأدلتِهِ الدامغةِ على نفوسِ المعاندينَ وعقولِهِم؛ ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ [النحل: ٣٦].

ومن طرقِ القرآنِ العظيمِ في المجادلة:

١ - الإلزامُ بِطَرْدِ المعارضة[1]:

قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

قال ابن القيم: «فألزمَهُ إبراهيمُ على طَرْدِ هذه المعارَضةِ: أنْ يَتصرَّفَ

---

(١) اطرد الشيء اطرادًا؛ تبع بعضه بعضًا، وجرى، واطرد الأمر: استقام. انظر: مختار الصحاح (طرد) (ص٣٨٩).

في حركةِ الشمسِ من غيرِ الجهةِ التي يأتي اللهُ بها منها، إذا كان بزعمِهِ قد ساوى اللهَ في الإحياءِ والإماتة! فإنْ كان صادقًا، فليتصرَّفْ في الشمسِ تصرُّفًا تصحُّ به دعواه، وليس هذا انتقالًا مِنْ حُجَّةٍ إلى حجةٍ أوضَحَ منها؛ كما زعَمَ بعضُ النظار، وإنما هو إلزامٌ للمدَّعي بِطَرْدِ حجتِهِ إنْ كانت صحيحةً»[١].

٢ ـ أسلوبُ التنـزُّل مَعَ الخصم:

مِنْ أساليبِ القرآنِ العظيمِ في مجادلته: التنـزُّلُ مع الخصم؛ للمنافحةِ عن الحق، وإبطالِ حُجَّته.

وحقيقةُ هذا المنهج: يقومُ على مجاراةِ الخصم، وموافقتِهِ على مقدمةٍ فاسدة؛ ليري بعينه فسادَ هذه الفِكْرة، وأنها تقودُ إلى التناقض، أو المُحَالِ، أو الفساد.

ومن ذلك: ما قصَّه الله تعالى مِنْ خبرِ إبراهيمَ مع قومه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥ ـ ٧٩].

فإنَّ إبراهيمَ كان مُناظِرًا لقومه، لا ناظرًا ومُستَدِلًّا على وجودِ اللهِ تعالى؛ فإنَّ مِنْ قومِهِ مَنْ كانوا عبدَةَ كواكب، فأراد أن يتنزَّلَ معهم؛ حتى يقنعهم بأنَّ الكواكبَ التي يظنون بأن لها تصرُّفًا في الكونِ لا تملكُ ذلك[٢].

---

(١) الصواعق المرسلة، لابن القيم (٢/ ٤٩٠).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٧)، تفسير البغوي (٢/ ١١٠)، تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٥٢).

ومنه: **قوله تعالى:** ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١].

على قول من فسَّرها[(١)]؛ **أي:** لو فُرِضَ هذا، لكنتُ أولَ من يعبُدُ هذا الولَدَ؛ لأني عَبْدٌ من عبيده، مطيعٌ لجميعِ ما يأمرني به ليس عندي استكبارٌ ولا إباءٌ عن عبادته، فلو فُرِضَ هذا، لكان هذا؛ ولكن هذا ممتنعٌ في حقه تعالى، والشرطُ لا يلزمُ منه الوقوعُ، ولا الجوازُ أيضًا.

ومنه: **قوله تعالى:** ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

وتقريرُ هذا الافتراضِ: أنَّ الله تعالى لو أراد أن يتخذَ ولدًا، فإنه سيصطفي مِنْ خلقه مَنْ يصلُحُ للبنوَّة؛ إذْ لا موجودَ سواه إلا وهو مخلوقٌ له، ولا يصحُّ أن يكونَ المخلوقُ وَلَدًا للخالقِ؛ لعدَمِ المجانسةِ بينهما، فلم يبق إلا أنْ يصطفيَهُ عبدًا؛ كما يفيدُهُ التعبيرُ بالاصطفاءِ مكانَ الاتخاذِ، فمعنى الآية: لو أراد أن يتخذَ ولدًا، لوقَعَ منه شيءٌ ليس هو من اتخاذِ الولدِ، بل إنما هو مِنَ الاصطفاءِ لبعضِ مخلوقاته؛ لأنَّ اتخاذَ الولدِ ينافي الألوهيَّةَ؛ ولهذا نزَّه سبحانه نفسَهُ عن اتخاذِ الولد على الإطلاقِ، **فقال:** ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾؛ **أي:** تنزيهًا له عن ذلك، فهو المستجمعُ لصفاتِ الكمال، المتوحِّدُ في ذاته؛ فلا مُماثِلَ له، القهارُ لكلِّ مخلوقاته، ومَنْ كان متصفًا بهذه الصفاتِ، استحال وجودُ الولدِ في حقِّه؛ لأنَّ الولَدَ مماثلٌ لوالده، ولا مماثلَ له سبحانه[(٢)].

٣ ـ دليل التسليم:

«وهو أن يفرضَ المحالَ: إمَّا منفيًا، أو مشروطًا بحرفِ الامتناعِ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/١٣٧). **وانظر:** (ص١٥١) من البحث.

(٢) **انظر:** روح المعاني (٢٣/٢٣٧)، فتح القدير (٤/٤٤٩ ـ ٤٥٠).

لكونِ المذكورِ ممتنعَ الوقوع؛ لامتناعِ وقوعِ شرطه، ثم يُسَلِّمَ وقوعَ ذلك تسليمًا جدليًّا، ويدلَّ على عدمِ فائدةِ ذلك على تقديرِ وقوعه»[١].

ومنه: **قوله تعالى**: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال السيوطي: «**المعنى**: ليس مع اللهِ مِنْ إله، ولو سُلِّمَ أن معه ﷻ إلهًا، لزم مِنْ ذلك التسليمِ: ذَهَابُ كلِّ إلهٍ من الاثنَيْنِ بما خلَقَ، وعُلُوُّ بعضِهم على بعض، فلا يتمُّ في العالمِ أمْرٌ، ولا ينفُذُ حكمٌ، ولا تنتظمُ أحواله، والواقعُ خلافُ ذلك؛ ففرضُ إلهَيْنِ فصاعدًا محالٌ؛ لِمَا يَلْزَمُ منه من المحالِ»[٢].

٤ ـ القولُ بالمُوجَبِ:

وهو: تسليمُ الدليلِ مع بقاءِ النزاع[٣]، فيوافقُ الخصمَ في العبارة، لكنَّه يُلْزَمُ بها بشيء يناقضُ دعواه.

ويسمَّى الأسلوبَ الحكيم؛ «وهو: تلقِّي السائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ بتنزيلِ سؤالِهِ منزلةَ غيره، تنبيهًا على أنه الأولى بحاله»[٤].

ومنه: **قوله تعالى**: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

---

(١) الإتقان، في علوم القرآن (٢/ ٣٦٠).

(٢) المرجع السابق.

(٣) التعاريف للمناوي (١/ ٥٩٥)، أصول الفقه، لابن مفلح (٢/٨٧٦)، وقال في روح المعاني (٢٣/ ٢٢٦): «سياق القول بالموجب: أن يُسلِّمَ له، ثم يُنْكِرُ عليه».

(٤) ما دل عليه القرآن للألوسي (١/ ٢٨).

«فالأَعَزُّ وقعَتْ في كلامِ المنافقينَ كنايةً عن فريقهم، والأذلُّ عن فريقِ المؤمنين، وأثبَتَ المنافقون لفريقهم إخراجَ المؤمنينَ من المدينة؛ فأثبَتَ اللهُ في الردِّ عليهم صفةَ العِزَّةِ لغيرِ فريقهم، وهو اللهُ ورسولُهُ والمؤمنون، وكأنه قيل: صحيحٌ ذلك، لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ؛ لكن هم الأذلُّ المُخْرَج، واللهُ ورسولُهُ الأعزُّ المُخْرِج»[١].

ومنه: **قوله تعالى:** ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ [التوبة: ٦١][٢].

٥ ـ دليل التمانع[٣]:

ومنه: **قوله تعالى:** ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فيُستَدَلُّ على وحدانيةِ اللهِ تعالى: «بأنه لو كان للعالَم صانعانِ، لكان لا يجري تدبيرُهما على نظامٍ، ولا يتسقُ على إحكام، ولَكان العجزُ يَلْحَقُهما أو أحدَهما؛ وذلك لأنَّه لو أراد أحدُهما إحياءَ جسمٍ، وأرادَ الآخرُ إماتَتَهُ: فإمَّا أن تَنْفُذَ إرادتهما؛ فيتناقَضُ؛ لاستحالةِ تجزّي الفعلِ إنْ فُرضَ الاتفاق، أو لامتناعِ اجتماعِ الضدَّيْنِ إنْ فُرِضَ الاختلاف، وإمَّا ألا تَنْفُذَ إرادتُهما؛ فيؤدِّي إلى عجزهما، أو لا تَنْفُذَ إرادةُ أحدهما؛ فيؤدِّي إلى عجزِهِ، والإلهُ لا يكونُ عاجزًا»[٤].

---

(١) الإتقان، في علوم القرآن (٢/ ٣٥٩).
(٢) المرجع السابق.
(٣) انظر: البرهان، للزركشي (٢/ ٢٥)، و(٣/ ٤٦٨).
(٤) المرجع السابق، الإتقان، للسيوطي (٢/ ٣٥٨).

٦ ـ السبرُ والتقسيم[١]**:**

من أمثلته في القرآن: **قولُهُ تعالى:** ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

فوجوُدهم لا يخلو مِنْ حالةٍ من ثلاثِ حالاتٍ بالتقسيم الصحيح:

الأولى: أن يكونوا خُلِقُوا من غير شيء؛ **أي:** بدون خالق أصلًا!

الثانية: أن يكونوا هم مَنْ خَلَقُوا أنفسهم!

الثالثة: أن يكون خَلَقَهُمْ خالقٌ غيرُ أنفسهم!

ولا شكَّ أن القسمَيْنِ الأولَيْنِ باطلان، وبطلانُهما ضروريٌّ؛ كما ترى؛ فلا حاجةَ إلى إقامةِ الدليلِ عليه لوضوحِه، والثالثُ: هو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه، وهو جلَّ وعلا خالقُهم المستحِقُّ منهم أن يعبدوه وحدَهُ جلَّ وعلا[٢].

٧ ـ دليل الانتقال:

وهو على ضربَيْن:

الأول: أن ينتقلَ المستدِلُّ من مثالٍ إلى مثالٍ أجلى منه؛ ليدفَع مشاغبةَ المجادِل؛ وهذا جائزٌ للمناظرِ بلا خلاف.

والثاني: الانتقالُ من حجةٍ إلى حجةٍ أوضحَ منها، بمعنى أن ينتقلَ المستدلُّ إلى استدلالٍ غير الذي كان آخِذًا فيه؛ لكونِ الخصمِ لم يفهمْ وجهَ الدَّلالةِ من الأول.

---

(١) **السَّبر في اللغة:** الاختبار، ومنه: سَبَرَ الجُرْحَ، يَسْبُرُه: إذا نظَرَ ما غَوْرُهُ، **والتقسيمُ:** مصدر قسَّم؛ **بمعنى:** جزَّأ، وفرَّق، **وفي الاصطلاح:** حصرُ الأوصافِ في الأصلِ المقيس، وإبطالُ ما لا يصلح بدليل، فيتعيَّنُ أن يكون الباقي علةً. **انظر:** لسان العرب، (سبر) (٣/ ١٩٢٠)، (قسم) (٥/ ٣٦٢)، المحصول (٢/ ٢/ ٢٩٩)، شرح الكوكب المنير (٤/ ١٤٢).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٤٩٤).

وهذا النوعُ أجازه بعضُ العلماء[١]، ورَفضَهُ آخرون[٢]؛ لأنه يَسْتَلزِمُ العِيَّ والانقطاعِ.

والمجيزونَ لا يلتزمون ذلك، بل يَعُدُّونَ الانتقالَ طريقةً للتفهيمِ، أو الإفحامِ.

والفريقان يستدلَّان **بقوله تعالى:** ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فقال المجيزونَ للانتقالِ من حجةٍ إلى حجةٍ أظهَرَ منها: إنَّ إبراهيمَ عليه السلام قرَّر للنمروذِ أنَّ اللهَ هو المحيي المميت: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

فعارضَهُ النمروذُ **بقوله:** ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾؛ حيث دعا بمن وجَبَ عليه القتلُ؛ فأعتقه، ومَنْ لا يجبْ عليه؛ فقتله!

فأدرَكَ إبراهيمُ عليه السلام أن النمروذَ معاندٌ مكابر، فانتقَلَ معه إلى استدلالٍ أوضَحَ منه؛ **فقال:** ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾؛ فانقطَعَ، وبُهتَ، ولم يمكنْهُ أن يقول: أنا الآتي بها من المشرق؛ لأنَّ مَنْ هو أسنُّ منه يكذِّبه[٣].

وقال الآخرون: «إنَّ الانتقالَ إنما هو في المثالِ؛ كأنه قال: ربي الذي يُوجِدُ الممكناتِ ويُعْدِمُها، وأتى بالإحياءِ والإماتةِ مثالًا، فلمَّا

---

(١) وأشهرهم الزمخشري؛ كما في الكشاف (١/ ٣٣٣)، وتابعه الواحدي في تفسيره (١/ ١٨٥)، والسمرقندي (١/ ٢٦٢)، والسمعاني (١/ ٢٦٢).

(٢) **انظر:** تفسير النسفي (١/ ١٩٨)، الصواعق المرسلة، لابن القيم (٢/ ٤٩٠)، روح المعاني للآلوسي (٣/ ١٧).

(٣) **انظر:** الإتقان، في علوم القرآن (٢/ ٣٦٠). **وانظر:** تفسير الآيات (ص١١٥).

اعترَضَ، جاء بمثالٍ أجلى، دفعًا للمشاغبة»[١].

٨ ـ تنقيحُ الحجة، وبيانُ ما يصلُحُ للاستدلالِ مما لا يَصْلُحُ:

وذلك بأنْ يُسلِّمَ للخصمِ حجةً ليست مما يُنْكَرُ، ثم يُلْزِمَهُ بالحجةِ ما ينكرُ مِنْ أقواله؛ ومنه: **قوله تعالى**: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١٠ ـ ١١].

فقولُهُمْ: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ الآيةَ، فيه اعترافُ الرسلِ بكونهم مقصورين على البشريَّة؛ فكأنهم سلَّموا انتفاءَ الرسالةِ عنهم، وليس مرادًا، بل هو مِنْ مجاراةِ الخَصْمِ ليعْثَر؛ فكأنهم قالوا: ما ادعيتم مِنْ كوننا بشرًا حقٌّ لا ننكره، ولكنَّ هذا لا ينافي أنْ يَمُنَّ اللهُ تعالى علينا بالرسالةِ[٢].

٩ ـ التوكيدُ في إبطالِ المقولة:

وذلكَ لأنَّ التأكيدَ يفيدُ تمكينَ الشيءِ في النفسِ، وتقويةَ أمره، حتى يكونَ عقيدةً راسخة، ويفيدُ إزالةَ الشكوكِ، وإماطةَ الشبهات[٣].

---

(١) روح المعاني، للآلوسي (٣/ ١٧)، وقد أفاض في ذكر الخلاف، والأدلة، والاعتراضات، واختار أن الانتقال في الآية ليس انتقالًا من حجة إلى حجة أوضَحَ منها، ولا من مثالٍ إلى مثال آخر، وإنما المثال الثاني هو من تتمةِ الدليلِ الأول.

(٢) الإتقان، في علوم القرآن (٢/ ٣٦١)، واستدل الرازي بمثل هذا على قصة داود ﷺ في سورة (صٓ)؛ فرجَّح أن يكون ذكرها من باب قطع الكلام مع المعاند، والانتقالِ لمسألة أخرى، ثم يُبحث عن طريق يُلْزَمُ من خلالِ ما انتقَلَ إليه بما أنكره قبلُ. انظر: التفسير الكبير (٢٦/ ١٧٥ ـ ١٧٦).

(٣) انظر: الطراز، المتضمن لأسرار البلاغة، ليحيى العلوي (٢/ ١٧٦) من بلاغة القرآن، لأحمد بدوي (ص١٤٣).

ومنه: **قوله تعالى**: ﴿وَيَسْتَنْبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣].

ووقَعَ التأكيدُ بإظهارِ الجملةِ التي تُضْمَرُ بعدَ **قوله**: ﴿إِى وَرَبِّىٓ﴾، مؤكدةً بالقسم الذي لم يُذْكَرْ للإلزام، وإنما لتوكيدِ ما أنكروه، و(إنَّ)، و(اللامِ)، وزِيدَ التقريرُ في **قوله**: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾[١].

ومنه: **قوله تعالى**: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨].

فلمَّا كان القومُ جازمين في إنكارِهم، بل وأقسموا على صِدْقِهِ، جاء الجوابُ مؤكَّدًا بأكثرَ من مؤكِّد؛ فبدأ **بقوله**: ﴿بَلَىٰ﴾؛ **أي**: يبعثهم، فأثبَتَ ما نفوه أولًا، ثم أكَّد البعثَ بعدَ الموتِ ثلاثَ مرات؛ بإثباتِ ما نفوه، وبالمصدَرين وعدًا، وحقًّا، وبالاستدراكِ والتوكيدِ الذي تفيدُهُ (لكنَّ)[٢].

١٠ - الاستفهامُ التقريريُّ في إبطالِ المقولة:

والاستفهامُ التقريريُّ: هو الاستفهامُ عن المقدِّمات البَيِّنَةِ البرهانيَّةِ التي لا يمكنُ لأحدٍ أن يجحدها، وهي تدلُّ على المطلوبِ لتقريرِ المخاطَبِ بالحق، ولاعترافِهِ بإنكارِ الباطل[٣].

والقرآنُ لا يستدلُّ في مجادلاتِهِ بمقدِّماتٍ لمجرَّدِ تسليمِ الخصم بها؛ كما هو الشأنُ بالنسبةِ للطريقةِ الجدليَّةِ المعروفةِ عندَ أهلِ المنطق، بل يستدلُّ بالقضايا والمقدِّماتِ لتكونَ أدعى للانقيادِ للحقِّ ومجانبةِ الباطل[٤].

---

(١) **انظر**: البحر المحيط (٥/ ١٦٩)، تفسير أبي السعود (٤/ ١٤٥).
(٢) **انظر**: البحر المحيط (٥/ ٤٩٠)، تفسير أبي السعود (٥/ ١٣).
(٣) **انظر**: مناهج الجدل في القرآن الكريم، للدكتور زاهر عوَّاض الألمعي (ص٨٠).
(٤) **انظر**: مجموع الفتاوى (١٩/ ١٦٤)، الرد على المنطقيين (ص٤٦٨).

ومن أمثلةِ هذا النوع: **قولُهُ تعالى على ألسنةِ رسله:** ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهم: ١٠].

وهذا الاستفهامُ يرادُ منه: أنهم إذا أقرُّوا بأنه الخالق، رتَّب لهم التوبيخَ والإنكارَ على ذلك الإقرار؛ لأنَّ المُقِرَّ بالربوبيَّةِ يلزمُهُ الإقرارُ بالألوهيةِ ضرورةً[١].

ومنه: **قوله تعالى:** ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]، **وقوله تعالى:** ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

فالمخاطَبُ يُقِرُّ: بأنَّ الله تعالى هو خالقُ كلِّ شيء، وأنَّ من يخلُقُ لا يساوى بمَنْ لا يخلُقُ، فيكونُ إقرارُهُ حجةً عليه في تركِ التوجُّهِ لمن لا يستحق.

وفائدةُ هذا النوعِ من الاستفهامِ: استثارةُ النفسِ والعقل، والتشويقُ لمعرفةِ الحقِّ من كلام المتكلِّم.

١١ ـ الاستفهامُ الإنكاريُّ (التوبيخي):

ومن أمثلةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ: **قولُهُ تعالى:** ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

ويقصَدُ به هنا الإنكارُ، والتوبيخُ؛ **والمعنى:** أينُكِرُ الإنسانُ قدرتَنا على بَعْثِهِ، ويجهلُ أننا خَلَقْنا مَنْ هو أشدُّ منه قوةً، وهي السمواتُ والأَرَضُون[٢]؟!.

---

(١) **انظر:** (ص١٢٥) من هذا البحث.

(٢) **انظر:** الكشاف (٣/ ٣٢)، التحرير والتنوير (١٦/ ١٤٥).

وقولُهُ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨ ـ ١٠].

١٢ ـ قلبُ الدليل:

نحوُ قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦].

فالقصرُ الإضافيُّ في الآيةِ يفيدُ قلبَ اعتقادِهِمْ؛ لأنهم يظنُّون بالنهيِ والنأيِ عن القرآنِ أنهم يَنْجُونَ من التأثرِ بدعوتِهِ ﷺ؛ فيجتهدوا بالنأيِ عنه؛ لئلا يتبعوه، وبالنهيِ عنه؛ لئلا يَتَّبِعَهُ الناس، وهم إنما يهلكون أنفسَهُمْ بدوامِهِمْ على الضلالِ، وبتضليلِ الناس، فيحملونَ أوزارَهُمْ وأوزارَ الناس[1].

ومن أمثلته: قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١ ـ ١٢].

١٣ ـ الأقيسةُ الإضماريَّة:

وهي التي تُحْذَفُ فيها إحدى المقدِّماتِ، مع وجودِ ما ينبئُ عن المحذوفِ، والذي يستقري أدلَّةَ القرآنِ الكريمِ يرى أنَّ أكثَرَها قد حُذِفَتْ فيها إحدى المقدِّمات[2].

نحوُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

والمقايسةُ بين خلقِ آدمَ وعيسى عليهما السلام، هو أنه إذا كان الخَلْقُ من غيرِ أبٍ مُسوِّغًا لاتخاذِ عيسى إلهًا، فأَوْلَى أنْ يكون الخلقُ من غيرِ أبٍ

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٧/ ٢٣٨).

(٢) مناهج الجدل في القرآن الكريم (ص٨٦).

ولا أمٌّ مُسوِّغًا لاتخاذِ آدمَ إلهًا؛ ولا أحَدَ يقولُ بذلك[١].

١٤ ـ قياسُ التمثيلِ:

وهو إلحاقُ أحدِ الشيئَيْن بالآخر، وذلك بأنْ يقيسَ المستَدِلُّ الأمرَ الذي يدَّعيه على أمرٍ معروفٍ عندَ مَنْ يخاطبه، أو على أمرٍ بدهيٍّ لا تنكرُهُ العقول.

وقد سلَكَ القرآنُ الكريمُ في استدلالِهِ هذا المسلكَ على أدقِّ وجهٍ وأحكمِهِ مقرِّبًا بينَ الحقائقِ القرآنية، والبداهةِ العقلية، وكثيرٌ من استدلالاتِ البعثِ تقومُ على تقريرِ البعثِ وقدرةِ الله عليه؛ وذلك بما يراه المنكرونَ مِنْ إنشاءِ اللهِ لهذا الكونِ البعيد، وخَلْقِ الإنسانِ وبيانِ أطوارِهِ من أصلابِ الآباءِ، إلى أرحامِ الأمهاتِ، إلى أنْ يكونَ خَلْقًا سويًّا؛ **قال تعالى**: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٧٩].

١٥ ـ المطالبةُ بتصحيحِ الدعوى:

فالقرآنُ كتابُ هدايةٍ، وتعليمٍ، وإرشادٍ، ومِنْ طرقه في المجادلة: أن يُطالِبَ المستدِلَّ بتصحيحِ دعواه؛ إنْ كانتْ كاذبةً، أو خاطئةً! ومن ذلك قولُهُ تعالى ردًّا على الأعرابِ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

فهذه الآياتُ فيها: المطالبةُ بتصحيحِ دعواهم، ويسمِّيها بعضُ العلماءِ: تلقينَ الحُجَّة؛ فهو يصحِّحُ لهم ما ادعوه، ثم يدلُّهم على طريقِ تصحيحِ دعواهم.

---

(١) انظر: المعجزة الكبرى، لأبي زهرة (ص٣٤٢).

١٦ - إبطالُ دعوى الخَصْم بإثباتِ نقيضِ حُجَّتِهِ:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

فأبطَلَ اللهُ تعالى اقتراحَهُمْ هذا بأنْ ألزمهم بالإيمان؛ لأنَّ ما طلبوه قد نزَّله اللهُ على أسلافهم، وهم يعرفون هذا؛ فقال: ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

فظهَرَ أنَّ القومَ كأسلافهم الذين اشتَرَطُوا هذه الآيةَ للإيمان، ومع أنهم رَأَوْها فقد قابلوها بتقتيلِ الأنبياء، وتكذيبهم!

وقال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

فنقَضَ قولهم بإثباتِ ما لا يَخْتَلِفوا فيه، وهذا مَسْلَكٌ مِنْ مسالكِ الإفحامِ والإلزام[١].

١٧ - إبطالُ قولِ المعارِضِ بشهادةِ الواقعِ:

ومِنْ ذلك: قول الله تعالى في نقضِ دعوى اليهود: إنَّ إبراهيم كان يهوديًّا، ودعوى النصارى: إنَّه كان نصرانيًّا، فأبطَلَ الله تعالى قولَهُما بشهادةِ الواقع؛ فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥].

عن ابن عباس، قال: «اجتَمَعَتْ نصارى نَجْرانَ وأحبارُ يهود عندَ

(١) انظر: في الكلام على هذه الآية (ص٢٣٤).

رسولِ اللهِ ﷺ، فتنازَعُوا عنده، فقالتِ الأحبارُ: ما كان إبراهيمُ إلا يهوديًا، وقالتِ النصارى: ما كان إبراهيمُ إلا نصرانيًا، فأنزَل الله ﷻ فيهم: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾، إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]»[(١)].

قال قتادة: «ذُكِرَ لنا أنَّ النبيَّ ﷺ دعا يهودَ أهلِ المدينة، وهم الذين حاجُّوا في إبراهيمَ، وزعموا أنه مات يهوديًا؛ فأكذَبَهُمُ اللهُ ونفاهم منه، وقال: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، (وتزعمون أنه كان يهوديًا أو نصرانيًا)، ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾؛ فكانت اليهوديةُ بعد التوراة، وكانتِ النصرانيةُ بعد الإنجيلِ؛ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]»[(٢)].

قال مجاهد: «اليهودُ والنصارى برَّأه الله منهم حين ادَّعَى كلُّ أمةٍ منهم وألحَقَ به المؤمنين مَنْ كان مِنْ أهلِ الحنيفية»[(٣)].

رابعًا: المجادَلَةُ بغيرِ الحسنى:

وقد أمَرَ الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يُجادِلَ أهلَ الكتابِ بالتي هي أحسَنُ إلا الذين ظَلَمُوا منهم.

وهذا ما وقَعَ في القرآنِ في بعضِ المواطنِ، فقد وَرَدَ في القرآنِ أسلوبُ التعنيف والتوبيخِ؛ في حَقِّ مَن ظلَمَ واعتدى؛ فكان من المناسبِ التعنيفُ والردُّ عليهم.

ويمكن حصرُ ما وَرَدَ في بابِ المقولات من المجادلةِ بغيرِ الحسنى في التالي:

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره، من طريق عكرمة، أو سعيد بن جبير، عنه، به (٣/ ٣٠٥).

(٢) أخرجه ابن جرير (٣/ ٣٠٦).

(٣) أخرجه ابن جرير (٣/ ٣٠٦)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٧١)، وأخرج عن السدي نحوه.

١ ـ الدعاءُ باللعنِ؛ وهذا كما في قوله تعالى:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

٢ ـ المُباهَلَة[1]:

قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

وهذه الآيةُ نزَلَتْ في محاجَّتِهِ ﷺ لنصارى نَجْران؛ فعن ابن عباسٍ؛ أنَّ وَفْدَ نَجْرانَ من النصارى قَدِمُوا على رسول الله ﷺ وهم أربعةَ عشَرَ رجلًا مِنْ أشرافهم، منهم السَّيِّدُ ـ وهو الكبيرُ ـ والعاقبُ ـ وهو الذي يكونُ بعده ـ وصاحبُ رأيهم، فقال رسولُ الله ﷺ لهما: **(أَسْلِمَا)**.

قالا: أسلمنا!

قال: «ما أسلمتما»!

قالا: بلى، قد أسلَمْنَا قَبْلَكَ!

قال: **(كَذَبْتُما، يَمْنَعُكُمْ مِنْ الإسلام ثَلَاثٌ فيكما: عِبَادَتُكُمَا الصَّلِيبَ، وأَكْلُكُمَا الخِنْـزِيرَ، وَزَعْمُكُمَا أَنَّ للهِ وَلَدًا)**، ونَزَل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فلمَّا قرأها عليهم، قالوا: ما نَعْرِفُ ما تقول! ونزَلَ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا

---

(١) **المباهَلَةُ**: الملاعَنَةُ، ومعنى المباهلة: أن يجتمعَ القومُ إذا اختلفوا في شيء، فيقولوا: لعنةُ اللهِ على الظالمِ منا. **انظر**: لسان العرب، مادة: (بهل) (١١/ ٧٢)، غريب الحديث، لابن قتيبة (١/ ٥٧٢)، عمدة القاري (١٨/ ٢٧).

جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

قال ابنُ عباس: «يقولُ: من جادَلَكَ في أمرِ عيسى مِنْ بعدِ ما جاءك من العلم من القرآن، ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾، إلى قوله: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ يقول: نجتهدْ في الدعاءِ أن الذي جاء به محمَّدٌ هو الحق، وأن الذي يقولونَ هو الباطل.

فقال لهم: (**إِنَّ اللهَ قَدْ أَمَرَنِي إِنْ لَمْ تَقْبَلُوا هَذَا أَنْ أُبَاهِلَكُمْ**).

فقالوا: يا أبا القاسمِ، بل نَرْجِعُ فننظُرُ في أمرنا، ثم نأتيك.

فخلا بعضُهم ببعض، وتصادَقُوا فيما بينهم، قال السيِّدُ للعاقب: قد واللهِ علمتُمْ أنَّ الرجلَ نبيٌّ مرسل، ولئن لاعنتموه إنَّه لَيَسْتَأْصِلُكم، وما لاعَنَ قومٌ قطُّ نبيًّا؛ فبقي كبيرُهم، ولا نبَتَ صغيرُهم، فإنْ أنتم لم تتبعوه وأبيتم إلا إلْفَ دينكم، فوَادِعُوهُ، وارْجِعُوا إلى بلادكم.

وقد كان رسولُ الله ﷺ خرَجَ ومعه عليٌّ والحسَنُ والحسينُ وفاطمةُ، فقال رسولُ الله ﷺ: (**إِنْ أَنَا دَعَوْتُ؛ فَأَمِّنُوا أَنْتُمْ، فَأَبَوْا أَنْ يُلَاعِنُوهُ، وصَالحُوهُ على الجِزْيَةِ**)[١].

وهذا الحديثُ أصله في البخاري[٢]؛ فقد أخرَجَهُ من طريقِ حُذَيْفَةَ، قال: «جاء العاقبُ والسيِّدُ صاحبا نَجرانَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ يريدانِ أنْ يلاعناه، قال: فقال أحدُهما لصاحبِهِ: لا تفعلْ؛ فوالله، لئنْ كان نبيًّا فلاعَنَنَا، لا نُفْلِحُ نحنُ ولا عَقِبُنا مِنْ بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابْعَثْ معنا رَجُلًا أمينًا، ولا تَبْعَثْ معنا إلا أمينًا، فقال: (**لَأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ**

---

(١) رواه الطَّبَري في تفسيره (٣/ ٢٩٩) من حديث محمد بن إسحاق، قال: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، وكذا رواه الإمام أحمد في المسند، رقم (٣٩٣٠)، والبيهقي في الكبرى (٥/ ٧٥). وانظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد (١/ ٣٥٧).

(٢) في كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، رقم (٤١١٩)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي عبيدة، رقم (٢٤٢٠).

رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ)، فاستَشْرَفَ له أصحابُ رسولِ الله ﷺ، فقال: (قُمْ يا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ)، فلمَّا قام، قال رسولُ الله ﷺ: (هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ).

٣ ـ التعجيزُ والإهانة:

كما في **قوله تعالى**: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥٠، ٥١].

فالأمرُ **بقوله**: ﴿قُلْ﴾ للتعجيزِ، أو للإهانةِ؛ **والمعنى**: حتى ولو كنتم حجارةً أو حديدًا، أو الموتَ نَفْسَهُ[١]؛ فلن تُعْجِزُوا اللهَ أن يعيدكم.

٤ ـ التبكيت:

وهذا **كقوله تعالى**[٢]: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥].

فقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: استفهامٌ في معنى التوبيخِ[٣]، فوبَّخهم على مخالفتهم لبداهةِ العقولِ في نسبةِ إبراهيمَ لدينٍ متأخِّر عنه؛ ولذلك قال الزركشي في البرهان: «هذه الفاصلةُ لا تَقَعُ إلا في سياقِ إنكارِ فعلٍ غيرِ مناسبٍ في العقل»[٤].

---

(١) **انظر**: تفسير الآية (ص٣٥٢) من البحث.

(٢) **انظر**: التبيان، في إعراب القرآن، للعكبري (ص٥٩).

(٣) سبق ذكر الآية وتفسيرها قبل صفحات.

(٤) البرهان، في علوم القرآن (١/ ٨٤)، والزركشي: **هو**: محمد بن عبد الله بن بهادر الشافعي، إمام مشارك في كثير من العلوم، من أبرز كتبه: البرهان في علوم القرآن، توفي رحمه الله سنة (٧٩٤هـ). **انظر**: طبقات المفسرين، للداوودي (١/ ٣٠٢).

٥ ـ التهكُّم:

قال سبحانه: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَاۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢].

فلمَّا ادعَوْا أنَّ النبيَّ ﷺ كاد أن يُضِلُّهم، قلَبَ الدعوى؛ فبيَّن أنهم سيَرَوْنَ يومَ يَرَوْنَ العذاب ـ إمَّا بالقتلِ كما حصَلَ يومَ بدر، أو يومَ القيامةِ ـ مَنْ هو الضالُّ، والمضل؟!




البَابُ الثَّانِي

موضوعاتُ المَقُولاتِ التي أبطَلَهَا القرآنُ العظيم

وفيه ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: المقولاتُ المتعلِّقةُ بالعقائد.
- الفصل الثاني: المقولاتُ المتعلِّقةُ بالتشريع.
- الفصل الثالث: المقولاتُ المتعلِّقةُ بالأخلاقِ والسلوك.






الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

المَقُولاتُ المتعلِّقةُ بالعَقَائِدِ

وفيه خمسةُ مباحث:

- المبحث الأول: المقولاتُ المتعلِّقةُ بالخالقِ سبحانه.
- المبحث الثاني: المقولاتُ المتعلِّقةُ بِتَرْكِ الإيمان.
- المبحث الثالث: المقولاتُ المتعلِّقةُ بالكُتُبِ الإلهية.
- المبحث الرابع: المقولاتُ المتعلِّقةُ بالأنبياء.
- المبحث الخامس: المقولاتُ المتعلِّقةُ بالغيبيات.



المَبْحَثُ الأَوَّلُ

المقولاتُ المتعلِّقةُ بالخالِقِ سبحانه

وفيه ثمانيةُ مطالب:

المطلب الأول: إنكارُ وجودِ اللهِ تعالى.

المطلب الثاني: دعوى الربوبيَّةِ، أو نسبتُهَا لأحدٍ منَ الخَلْق.

المطلب الثالث: نسبةُ الوَلَدِ لله تعالى.

المطلب الرابع: دعوى إِذْنِ اللهِ لهم بالإشراكِ به.

المطلب الخامس: إنكارُ المشركينَ لتسميةِ اللهِ تعالى بالرحمٰن.

المطلب السادس: وصفُ اللهِ تعالى شَأْنُهُ بالبُخْل.

المطلب السابع: وصفُ اللهِ تعالى شأنُهُ بالفَقْر.

المطلب الثامن: سُوءُ الظَّنِّ باللهِ تعالى.

المَطْلَبُ الْأَوَّلُ
إنكارُ وجودِ اللهِ تعالى

مِنَ الأقوالِ التي ذكرها الله تعالى عن المكذِّبين منِ الأمم السالفة: إنكارُهُمْ وجودَ اللهِ تعالى، وهذه المقالةُ هي مقالة الدَّهْرِيَّة[١]، الذين ينكرون الصانع.

ولا شكَّ أنَّ المشركينَ كانوا على طرائقَ مختلفةٍ في الكفر:

فمنهم: الدهريةُ الذين ينكرونَ وجودَ الله تعالى، وما زالَ في الأممِ المكذِّبةِ مَنْ هم كذلك.

ومنهم: المؤمنُ بوجودِ اللهِ، الكافرُ بإلهيته - وهم أكثَرُ الكفار - فهم يعبدون مِنْ دُونِ الله مَنْ يظنُّون أن له في الكونِ شِرْكًا، أو يملكُ الشفاعة، أو أنَّ التقرُّبَ إليه يقرِّبُ إلى الله تعالى.

ومنهم: مَنْ ينكرُ صفاته.

ومنهم: مَنْ ينكرُ البعثَ بعدَ الموت[٢].

وقد تعرَّض القرآنُ العظيمُ لمنكري وجودِ الله تعالى، وناقشَهُمْ فيما ذهبوا إليه وادعَوْهُ مِنْ إنكارِ الخالق، والكُفْرِ به.

---

(١) **الدَّهْرية**: هم طائفةٌ ملاحدةٌ، يُضيفون التأثيرَ للدَّهْر، قال الخطَّابيُّ في غريب الحديث (١/ ٤٨٩): «وهم في ذلك فرقتان: فرقةٌ لا تُؤْمِنُ بالله، ولا تعرفُ إلا الدهرَ الذي هو مَرُّ الزمان، واختلافُ الليلِ والنهار، اللذَيْنِ هما محلُّ الحوادثِ، وظرفٌ لمساقط الأقدار، فتنسب المكارهُ إليه، على أنها مِنْ فِعله، ولا ترى أنَّ لها مدبِّرًا ومصرِّفًا، وهؤلاءِ الدهريةُ الذين حكى الله عنهم في كتابه، وفرقةٌ تعرفُ الخالقَ فتنـزِّهه أن تنسب إليه المكاره، فتضيفها إلى الدهر والزمان، وعلى هذينِ الوجهَيْنِ كانوا يسبُّون الدهرَ ويذمُّونه». **انظر**: البرهان، في معرفة عقائد أهل الأديان، لأبي الفضل السكسكي (ص٨٨).

(٢) **انظر**: مجموع فتاوى ابن تيمية (١٦/ ٢٠٤).

وقد ذكر الله تعالى هذه المقولةَ الباطلةَ في أربعةِ مواضع، وهي على التوالي:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ففي هذه الآيةِ إخبارٌ من الله تعالى عن النُّمْرُوذِ بنِ كَنْعانَ[١]، ومحاجَّتِهِ لنبيِّ اللهِ إبراهيمَ عليه السلام في اللهِ تعالى؛ فإنَّ هذا النُّمْرُوذَ كان مُنكِرًا لوجودِ الله ـ تعالى الله عن قوله ـ.

فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: وهي كلمةٌ يُوقَفُ بها المخاطَبُ على تعجُّبٍ منها، ولفظُها لفظُ الاستفهامِ[٢].

وقوله: ﴿حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾؛ أي: في وجوده.

وقوله: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾؛ أي: لِأَنْ آتاه اللهُ، أو مِنْ أجلِ أنْ آتاه الله، فإيتاءُ اللهِ له الملكَ أبطَرَهُ، وأورَثَهُ الكبرَ والعتوَّ، فحَاجَّ لذلك، أو على أنه وضع المحاجةَ التي هي أقبحُ وجوهِ الكفرِ موضعَ ما يجبُ عليه مِنَ الشكر؛ كما يقالُ: عاديتني؛ لأني أحسنتُ إليك، أو وقتَ أنْ آتاه اللهُ الملكَ[٣].

---

(١) وهو: أول ملك تجبَّر في الأرض، وأنكر ربوبيةَ الخالق سبحانه، وقد أخرج ابن جرير الطَّبري، عن زيد بن أسلم، قال: «هو نمروذ، كان بالموصل، والناسُ يأتونه، فإذا دخلوا عليه، قال: مَنْ ربُّكم؟ فيقولون: أنت! فيقول: ميروهم، فلما دخل إبراهيم، قال: من ربك؟، قال: ربي الذي يحيي ويميت، قال: أنا أحيي وأميت؛ إنْ شئتَ قتلتك، فأمتك، وإن شئت استحييتك! ...»، وهو قول مجاهد، وقتادة، والكلبي. انظر: تفسير عبد الرزاق الصنعاني (١/ ١٠٣)، تفسير ابن جرير الطَّبري (٣/ ٢٣).

(٢) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (١/ ٣٤٦)، التحرير والتنوير (١/ ٣٥٤).

(٣) انظر: الكشاف (١/ ٣٣٢)، تفسير أبي السعود (١/ ٢٥١)، فتح القدير (١/ ٢٧٧)؛ =

فحاجَّه إبراهيمُ ﷺ بأنَّ ربه الذي يعبدُهُ هو الذي يحيي ويميت، فأجابَهُ النمروذُ بأنه يحيي ويميت كذلك! فلما سُئِلَ كيفَ يفعلُ ذلك، احتجَّ بما لا يصدِّقُهُ جاهل، فقال محمد بن إسحاق[1]: «ذُكِرَ لنا ـ والله أعلم ـ: أنَّ نمروذَ قال لإبراهيمَ ـ فيما يقول ـ: أرأيتَ إلهَكَ هذا الذي تعبدُهُ، وتدعو إلى عبادته، وتذكُرُ مِنْ قدرتِهِ التي تعظِّمه بها على غيره، ما هو؟

قال له إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت.

قال نمروذ: فأنا أحيي وأميت.

فقال له إبراهيم: كيف تحيي وتميت؟

قال: آخُذُ رَجُلَيْنِ قد استوجبا القَتْلَ في حكمي، فأقتُلُ أحدهما؛ فأكونُ قد أمته، وأعفو عن الآخرِ، فأتركُهُ، وأكونُ قد أحييته! . . .»[2].

فقال له إبراهيمُ ـ كما ذكر الله تعالى ـ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

«فألزمه إبراهيمُ على طَرْدِ هذه المعارَضَةِ: أن يَتصرَّفَ في حركةِ الشمسِ مِنْ غيرِ الجهةِ التي يأتي اللهُ بها منها، إذا كان ـ بزعمه ـ قد ساوى اللهَ في الإحياءِ والإماتة! فإنْ كان صادقًا، فليتصرَّفْ في الشمسِ تصرُّفًا تصحُّ به دعواه، وليس هذا انتقالًا مِنْ حجةٍ إلى حجةٍ أوضحَ منها؛ كما زعم بعضُ النظار[3]، وإنما هو إلزامٌ للمدعي بطردِ حجتِهِ إنْ

= وهذا قول جماهير المفسرين، وقيل: إن الهاء في آتاه عائدٌ إلى إبراهيم؛ يعني: أن الله تعالى آتى إبراهيم ﷺ الملك؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]. انظر: التفسير الكبير (٧/ ١٩).

(١) هو: الإمام محمد بن إسحاق بن يسار، أبو بكر المخرمي أحد الأئمة الأعلام، توفي سنة (١٥٠هـ). انظر: الكاشف للذهبي (٢/ ١٥٦)، تقريب التهذيب (ص٤٦٧).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير الطَّبَري (٣/ ٢٣)

(٣) ممن ذكر هذا التوجيه: الزمخشري في الكشاف (١/ ٣٣٣)؛ حيث قال: =

كانتْ صحيحة»[١].

وانبهاتُهُ هو انقطاعه، ووقوعُ الحجةِ عليه؛ لأنَّ الانبهاتَ هو: الاندهاشُ، والتحيُّرُ[٢].

وتعبيرُ القرآنِ بقوله: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ تبيينٌ لعجزِ وضعفِ حجةِ مَنْ أنكَرَ ربَّ العالمين، وخالقَ الخلقِ أجمعين.

الموضع الثاني: قولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

فقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ **أي:** وهم يَجْحَدُونَ وحدانيةَ الله، ويكذِّبون بها[٣].

فأرشَدَ اللهُ نبيَّه ﷺ أن يقولَ لهم: إنْ كنتم كذَّبتم، وادعيتم جهلكم بالرحمٰن، فإنَّه ربي، وهو الإلهُ الذي لا إلـٰه إلا هو، عليه اعتمادي، وإليه إيابي.

الموضع الثالث: قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم

= «وكان الاعتراضُ عتيدًا، ولكنَّ إبراهيم لما سمع جوابَهُ الأحمقَ، لم يُحاجَّهُ فيه، ولكن انتقَلَ الى ما لا يَقْدِرُ فيه على نحو ذلك الجواب؛ ليبهته أولَ شيء، وهذا دليلٌ على جواز الانتقال للمُجَادِلِ من حُجَّة الى حُجَّة»، وأبو الليث السمرقندي في تفسيره (١/ ١٩٦)، والسيوطي في الإتقان (٣/ ٣٦٠)، والآلوسي في روح المعاني (٣/ ١٧)، ومن أغرب التوجيهات ما ذكره الفخر الرازي في تفسيره (٧/ ٢٢)، فليُنظر للاستزادة، وقد سبق بيان لأنواع الانتقال (ص٩٦).

(١) الصواعق المرسلة، لابن القيم (٢/ ٤٩٠).

(٢) **انظر:** المفردات، للراغب الأصفهاني (ص٦٣)، معاني القرآن، للنحاس (١/ ٢٧٦).

(٣) جامع البيان (١٣/ ١٥٠). **وانظر:** (ص١٦٢) من هذه الرِّسالة.

بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩].

قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: مفادُهُ: تكذيبُهُمْ بما جاءتْ به الرسل، ثم إنَّ المفسِّرين ذكروا أوجهًا محتملةً لهذه اللفظة[١].

فقيل: **أيْ**: فعضُّوا على أصابعهم تغيظًا؛ قاله عبد الله بن مسعود[٢]؛ فهو نظيرُ **قوله تعالى**: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩]؛ «فهذا هو الكلامُ المعروف، والمعنى المفهومُ من رَدِّ اليدِ إلى الفم»[٣].

وقيل: هي كنايةٌ عن الأمرِ بالسكوت؛ **أي**: قالوا لهم: اسكتوا، وأشاروا بأصابعهم إلى أفواهِ أنفسِهم ردًّا عليهم وتكذيبًا.

وقيل: إنَّهم لمَّا سَمِعُوا كتابَ اللهِ، عَجُّوا، ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم؛ قاله ابن عباس[٤].

وقيل: إنَّهم وضعوا أيديَهُمْ على أفواهِ الرسلِ ردًّا لقولهم.

وقيل: إنَّهم كذَّبوهم بأفواههم، وردُّوا عليهم قولهم؛ قاله مجاهد وقتادة[٥]؛ فتكون ﴿فِي﴾ على هذا المعنى كـ (الباء)؛ **والمعنى**: ردوا الأيادي بأفواههم؛ ذكره الفراء، وقال: «قد وَجَدْنا من العربِ مَنْ يجعلُ

---

(١) يُنظر: جامع البيان (١٣/ ١٨٨)، الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣٤٦)، زاد المسير (٤/ ٣٤٦).

(٢) أخرجه الطَّبَري في تفسيره (١٣/ ١٨٨)، قال: حدثنا محمد بن بشار، ومحمد بن المثنَّى، قالا: ثنا عبد الرحمٰن، قال: ثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عنه، به. وله طرق كثيرة عن ابن مسعود.

(٣) جامع البيان (١٣/ ١٥٠).

(٤) أخرجه ابن جرير الطَّبَري في تفسيره (١٣/ ١٨٨)، قال: حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عنه، به.

(٥) أخرجه ابن جرير الطَّبَري في تفسيره (١٣/ ١٨٩).

(في) موضع (الباء)، فيقول: أدخلَكَ اللهُ بالجنةِ، يريدُ: في الجنة».

وقيل: إنه مَثَلٌ؛ **ومعناه**: أنهم كَفُّوا عما أُمِرُوا بقَبُولِهِ من الحق، ولم يؤمنوا به، يقال: رَدَّ فلانٌ يدَهُ إلى فمه؛ **أي**: أمسَكَ فلم يجب؛ قاله أبو عُبَيْدة[١]، قال ابن جرير: «وذكَرَ بعضُهم: أنَّ العرَبَ تقول: كلمتُ فلانًا في حاجةٍ، فرَدَّ يدَهُ في فيه: إذا سكَتَ عنه فلم يجب»[٢].

وقوله: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٩].

وأجلُّ ما أُرسِلَتْ به الرسلُ: التعريفُ بالله تعالى، وأنه خالقُ الخلق، ومُوجِدُهم، وربُّ السمٰواتِ والأَرَضين، وأنه الذي يستحقُّ العبادةِ وحده دونَ سواه.

فكان جوابُ هؤلاءِ الملحدين: التصريحَ بتكذيبِ خبرِ الرسل، وإبداءَ شكِّهم مما يقولونه.

والشكُّ الذي أبداه هؤلاءِ المُعْرِضون يحتملُ أن يكونَ الشكَّ في وجودِ اللهِ تعالى، ويحتملُ أن يكونَ شكًّا بأحقِّيته في العبادة[٣].

---

(١) **هو**: الإمام اللُّغوي مَعْمَر بن المثنَّى بن يزيد، له تصانيف عديدة، أشهرها: مجاز القرآن، توفي سنة (٢١٠هـ). **انظر**: سير أعلام النبلاء (٩/ ٤٤٥).

(٢) جامع البيان (١٣/ ١٨٩).

(٣) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٢٦): «﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، **وهذا يحتمل شيئين**:

أحدهما: أفي وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدةٌ بوجوده، ومجبولةٌ على الإقرار به؛ فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطرار، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصِّل إلى وجوده؛ ولهذا قالت لهم الرُّسُلُ ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ١]، الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق؛ فإنَّ شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما، فلا بد لهما من صانع، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء وإلهه ومليكه.

والمعنى الثاني: في قولهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾؛ **أي**: أفي إلهيَّته، وتفرُّده بوجوب العبادة له، وهو الخالقُ لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادةَ إلا هو وحده لا شريك له؛ =

فأجابتِ الرسلُ عليهم بقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠].

فأنكروا عليهم[1] شكَّهم في وجودِ مُبْدِعِ الوجود، فقالوا لهم: كيف تشكُّون في وجودِ مَنْ أوجَدَ السمٰواتِ والأرض؛ فهو خالقُ الأكوانِ وموجدها بعدَ العَدَم؟!

وهذا استفهامُ إنكارٍ، يتضمَّنُ النفيَ، ويبيِّن: أنه ليس في الله شَكٌّ[2].

﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]؛ أي: هو خالقُها؛ فكيف تشكُّون في وجوده؛ لأن المخلوقَ دليلٌ على وجود الخالق؟!

وهذا استدلالٌ عقليٌّ يراد منه لفتُ انتباهِهم إلى ما غَفَلُوا عنه بِكُفْرِهم[3].

= فإنَّ غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبُدُ معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم، أو تقرِّبهم من الله زلفى».

وعلى التوجيه الأول: يسير التفسيرُ في هذا المطلب، **وعلى التوجيه الثاني**: تكون الآية من المقولات المتعلقة بتوحيد الإلهية، وقد أفردته بمطلب مستقل.

(١) وقد يكون الاستفهام تقريريًّا، يُراد منه: أنهم إذا أقرُّوا بأنه الخالق، رتَّب لهم التوبيخَ والإنكارَ على ذلك الإقرار؛ لأنَّ المُقِرَّ بالربوبيةِ يلزمُهُ الإقرارُ بالألوهية ضرورة، وهو اختيارُ شيخ الإسلام ابن تيمية، وصاحب أضواء البيان. **انظر**: مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٣٩)، أضواء البيان (٣/ ٢١)، وهذا منهج للقرآن واضح في دعوة المشركين، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [يونس: ٣٤]، وقولُهُ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

(٢) **انظر**: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (٨/ ٤٠).

(٣) قال الرازي: «قال بعضُ العقلاء: إنَّ مَنْ لَطَمَ على وجهِ صبيٍّ لطمةً، فتلك اللطمةُ تدلُّ على وجوبِ الصانع... فلأن الصبيَّ العاقلَ إذا وقعتِ اللطمةُ على وجهه يصيحُ، ويقول: مَنِ الذي ضربني؟ وما ذاك إلا أنَّ شهادةَ فطرتِهِ تدلُّ على أنَّ اللطمةَ لمَّا =

ثم وصَفُوهُ بكمالِ الرحمةِ، والكَرَمِ، والجُودِ؛ **وذلك من ثلاثة أوجه:**

الأول: أنه مع غناهُ عنهم يَدْعوهم لِمَا به سعادتُهُمْ في الدارَيْن: ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠].

الثاني: أنه وعَدَهُمْ بالمغفرةِ قبل غيرها: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠].

الثالث: إنه يُمْهِلُهم، ولا يُعاجِلُهم بالعقوبة: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقيل: التأخيرُ هنا هو تمتيعُهُمْ بالطيبات؛ يدلُّ عليه **قوله تعالى**: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [هود: ٣].

والمقصودُ: أنَّ الرسلَ أبطَلُوا شكَّهم في وجودِ الله تعالى من خلالِ أمورٍ:

أولًا: مخاطبةُ فِطَرِهم التي لو حقَّقوا فيها، لَوَجَدُوا الله تعالى مركوزًا فيها؛ ولذا قالوا لهم منكرين: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]؟!

ثانيًا: لفتُ أنظارِهم إلى مخلوقاتِهِ تعالى؛ فهو خالقُ جميعِ ذلك، ومالكُهُ والمتصرِّفُ فيه، وإلهُهُ لا شريكَ له؛ فهو اللهُ الذي خلقَ الأشياءَ كلَّها، وكلُّ مُوقِنٍ يعلمُ أنه لا بدَّ لها من مُوجِدٍ، ومُحدِثٍ، وخالقٍ، وهو اللهُ الذي لا إلـٰه إلا هو ربُّ العالمين: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١].

= حَدَثَتْ بعد عدمها؛ وجَبَ أن يكون حدوثُها لأجل فاعلٍ فعلَهَا، ولأجلِ مختارٍ أدخَلَها في الوجود، فلمَّا شهدتِ الفطرةُ الأصليةُ بافتقارِ ذلك الحادث مع قلتِهِ وحقارتِهِ إلى الفاعل، فبأنْ تَشْهَدَ بافتقارِ جميعِ حوادثِ العالمِ إلى الفاعل كان أولى...». التفسير الكبير (١٩/ ٧٣).

وخصُّوا السمٰواتِ والأرضَ بالذكر؛ لأنهما من أعظمِ الآياتِ الدالَّةِ على الخالقِ سبحانه؛ «**فآيةُ السمٰوات**: ارتفاعُها بغير عَمَدٍ مِنْ تحتها، ولا علائقَ مِنْ فوقها، يدلُّ ذلك على القدرةِ، وخرقِ العادة، ولو جاء نبيٌّ فتحدَّى بوقوفِ جَبَلٍ في الهواء ـ دون عِلَاقةٍ ـ كان معجزًا، ثم ما فيها من الشمسِ، والقمرِ، والنجومِ السائرة، والكواكبِ الزاهرة، شارقةً وغاربة، نيرةً وممحوَّةً، آيةٌ ثانية.

وآيةُ الأرض: بحارُها وأنهارُها، ومعادنُها وشجَرُها، وسَهْلُها ووَعْرُها، لآياتٌ ودلالاتٌ على وحدانيَّته، وقدرته»[1].

ثالثًا: الاحتجاجُ عليهم بالرسالةِ التي بُعِثُوا بها؛ فقالوا لهم: ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠]، ودعوتُهُ تعالى شأنُهُ تكونُ عن طريقِ الرسل.

الموضعُ الرابع: قولُهُ تعالى عن فِرْعون[2]: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]؛ **أي**: مَنْ هو ربُّ العالمين الذي أرسلكما؛ كما في سورة طه: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩].

وقد بيَّن الله تعالى أنَّ هذا السؤالَ مِنْ فرعونَ كان مكابرةً، وعن يقينٍ وإيمانٍ بأنه عبدٌ مربوبٌ لله تعالى؛ كما **قال تعالى**: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣ ـ ١٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢/ ١٩١ ـ ١٩٢) بتصرف. وانظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم (١/ ٢٤٧) فما بعدها.

(٢) جمَعَ فرعونُ بين تعطيل الصانع، وبين ادعاء الربوبية؛ فالآيات التي تتعلق بكفره بالله تعالى أناقشها في هذا المبحث، وما يتعلق بادعائه للألوهية أناقشها ـ بحول الله تعالى ـ في المبحث الثاني.

فبيَّنَ اللهُ تعالى في هاتَيْن الآيتَيْن: أنَّ فرعونَ لم يكنْ منكرًا لوجودِ اللهِ تعالى في حقيقةِ أمره[١]، وإنما لِيغُرَّ السفهاءَ من قومه؛ ولذا قال تعالى في شأنه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

فإنكارُ وجودِ الله تعالى لا يعرفُ في بني آدَمَ حتى ممَّن ادعى الإنكار، ولذا أجابه موسى عليه السلام بأنه ربُّ السَّموات والأرضِ وما بينهما، وأنه الذي خلَقَ الخَلْقَ وأبدَعَهُ: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

فلمَّا ادعى الإنكارَ، وجحَدَ اللهَ تعالى[٢]، ذكَّره موسى عليه السلام بصفاته؛ وهذا جوابٌ في غاية الصحة.

---

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن فرعون كان جاهلًا بحقيقة الله تعالى، وهو قولٌ معارضٌ لإخبارِ الله تعالى عنه وعن قومه؛ أنهم استيقنوا صدقَ موسى، ولكنهم جحَدُوا ذلك ظُلمًا وعلوًّا.

وعلى القول بأنَّ فرعون كان جاهلًا، يكونُ جواب موسى في غاية الصحة؛ فإنه أجابه بذكر أفعاله، التي كلُّ عاقل لا يجوزُ أن يعتقد في نفسه أنه فعلها؛ كخلقِ السمٰواتِ والأرضين، والشمس والقمر، وخلقِ الآباء والأبناء؛ فالعاقل يعلم بالضرورة عجزه عنها، ويعلم بالضرورة أنها كانت موجودة قبله؛ فيحصل العلم الضروري بأنه ليس مُوجِدًا لها، ولا خالقًا لها، وبه يحصُلُ إقناعه، وإقناع كل مسترشد للحق. يُنظر: التفسير الكبير (٢٢/٥٦).

(٢) قال في شرح الطحاوية: «وقد زعم طائفة أن فرعون سأل موسى مستفهمًا عن الماهية، وأن المسؤول عنه لمَّا لم تكن له ماهية، عجَزَ موسى عن الجواب، وهذا غلطٌ، هذا استفهامُ مَنْ أنكَرَ وجحَدَ كما دلَّت سائر آيات القرآن على أن فرعون كان جاحدًا لله نافيًا له، لم يكن مثبتًا له طالبًا للعلم بماهيته؛ فلهذا بيَّن لهم موسى أنه معروف، وأن آياته ودلائل ربوبيته أظهر وأشهر من أن يُسْأَلَ عنه بما هو، بل هو سبحانه أعرفُ وأظهرُ وأبينُ من أن يُجْهَلَ، بل معرفتُهُ مستقرَّةٌ في الفطرِ أعظَمَ من معرفةِ كلِّ معروف». انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص٧٧)، وهو مأخوذٌ عن ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٣٩).

وذلك لأنَّ من كذَّب الرسل، وطمَسَ فطرتَهُ النقيَّةَ الدالَّةَ على خالقه، فلا سبيلَ إلى معرفتِهِ لربِّه إلا بالتعرُّف على أفعالِهِ التي لا يشاركُهُ فيها أحدٌ من القادرين، وخلقُ السمٰوات والأرض وما بينهما كذلك؛ لأنَّ الخلقَ عاجزون عنهما[1].

وفي تبيينِ صفاتِ الخالقِ سبحانه، تكذيبٌ لفرعونَ في دعواه الربوبية؛ لأنه يعلم ـ كما يعلم غيره ـ أنَّ صفاتِ الربِّ سبحانه لا يمكنُ أن يتصفَ بها غيره؛ فهو ربُّ العالمين، لا ربَّ غيره، ولا إلٰه سواه.

فاستمرَّ فرعونُ في الإنكارِ محاولًا إثباتَ جنونِ موسى عليه السلام؛ فقال كما ذكَرَ الله تعالى عنه: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥].

فتعجَّب من جوابِهِ مستنهضًا سَفَاهةَ قومه، فأجابه موسى بصفةٍ أخرى مِنْ صفاتِ الرب، قائلًا: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦].

وذلك «لأنَّ وجودَ الإنسانِ وآبائه، أظهَرُ الأدلَّةِ عند العقلاء، وأعظمُ البراهين؛ فإن أنفسهم أقربُ الأشياءِ إليهم، فيستدلُّون بها على وجود خالقهم»[2].

فاتَّهَمَ عند ذلك موسى بالجنون: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧].

فلم يمنعْ ذلك موسى عليه السلام من تأكيدِ عدمِ أحقِّيَّةِ فرعونَ بالربوبية؛ فقال كما ذكَرَ الله تعالى عنه: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

---

(١) انظر: التفسير الكبير، للرازي (٧/ ٢١)؛ لكنه حصر طريق معرفة الله بالنظر في أفعاله، ولا شك أن خبر الرُّسل مُقدَّمٌ على ذلك من جهة الوجوب؛ لأن التكليف بالنظر تابعٌ لما قبله، ولا يستطيعه كلُّ أحد، ومن رحمة الله بعباده: أن أرسل لهم الرُّسُلَ مبشِّرين ومنذرين. انظر: درء تعارض العقل والنقل (السابق).

(٢) تفسير ابن جزي الكلبي (٣/ ٨٥).

«فإنَّ طلوعَ الشمسِ وغروبَهَا آيةٌ ظاهرةٌ لا يمكنُ أحدًا جحدُها، ولا أنْ يدَّعيها لغيرِ الله»[١]؛ وهذا عينُ جوابِ إبراهيمَ على نمرود؛ كما سبق.

فلم يجدْ فرعونُ بُدًّا من اتخاذِ أسلوبِ التهديدِ، والتخويف؛ **قال تعالى** عنه: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

فأردَفَ موسى الحجةَ بالمعجزة، وذكَرَها له بتلطُّفٍ طمعًا في إيمانه؛ فقال: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٠ ـ ٣٣].

فاستمرَّ فرعونُ على كُفْره، وعناده، ورمى موسى بالسِّحرِ؛ كما أخبر الله تعالى عنه في مواضعَ كثيرةٍ من كتابه.

وتلخيصًا لما سبق أشيرُ إلى طريقةِ القرآنِ في إثباتِ وجودِ الله تعالى من خلالِ هذه الآياتِ[٢]، وغيرها:

فالطريقُ الأول: إثارةُ فطريَّةِ المعرفةِ في نفوسِ المكذِّبين:

لأنَّ الفطرةَ السالمةَ من المؤثِّراتِ مطبوعةٌ على الاعترافِ بالخالق، والإيمان به.

وإثارةُ فطريةِ المعرفةِ يظهرُ في قولِ الرسلِ لأقوامهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠].

---

(١) تفسير ابن جزي الكلبي (٣/ ٨٥).

(٢) ذكر ابن تيمية رحمه الله ثمانية أدلة عقلية على إثبات ربوبية الله تعالى شأنه. يُنظر: درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٥٦ ـ ٤٦٨).

فقولهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠] استفهامٌ تقريريٌّ يراد به نَفْيُ ما اعتقدوه[١]؛ **أي**: ليس فيه شك، فيحتاجُ الأمرُ إلى الاستدلالِ عليه.

ومِنْ دلالةِ الفطرةِ للإيمان بالله: أنَّ هؤلاءِ المنصرفينَ عن عبادةِ اللهِ تعالى، والمبتدعين فيها ألوانًا من البِدَعِ، إذا سئلوا عن الخالقِ عَرَفُوهُ.

ومنه: **قولُهُ تعالى:** ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]، **وقولُهُ تعالى:** ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]، والآياتُ في هذا الباب كثيرة.

كما أنهم إذا كَرَبَهُمُ الأمر، وضاقَتْ عليهم السبل، لَجَؤُوا بِفِطْرتهم إلى اللهِ يستنجدونَهُ ويستغيثونه؛ **قال تعالى:** ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، **وقال:** ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٣].

ومن شواهدِ ما ذكرتُهُ: **قوله تعالى:** ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

فأَمَرَ سبحانه نبيَّه، والخطابُ لكلِّ مَنْ يصلُحُ له الخطابُ من أمته: أنْ سَدِّدْ وجهَكَ للدين الذي شرَعَهُ الله، فهو الخِلْقةُ التي خلَقَ اللهُ الناسَ عليها، لا يبدِّلها الله، ولا يرضى غيرَهَا، ولا يجوزُ لأحدٍ أن يبدِّلها؛

---

(١) **انظر:** تفسير السمعاني (٣/ ١٠٧)، تفسير البغوي (٣/ ٢٧)، ومجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٦/ ٣٣٩).

فهذا هو الدِّينُ المستقيمُ الذي يحبُّه اللهُ ويرضاه[1].

وجاء تفسيرُ الفطرةِ أيضًا في حديثِ أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: (**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ؛ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ، ثُمَّ يَقُولُ**: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠])[2].

الطريق الثاني: التعريفُ باللهِ تعالى عن طريقِ إرسالِ الرُّسُل:

المتأمِّلُ في القرآنِ العظيمِ يجدُ أنَّ أهمَّ طريقٍ للتعريفِ بالله تعالى كان عن طريقِ إرسالِ الرسل؛ ومِنْ ذلك: **قوله تعالى**: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤]، ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦].

فأولُ ما خُوطِبَ به هذا المُنْكِرُ لوجودِ الله، بل والمتألِّهُ على بني إسرائيلَ: تعريفُهُ بأن موسى عليه السلام هو رسولٌ من ربِّ العالمين؛ لعلَّه يطيعُ ويستجيب.

فلمَّا طمَسَ فطرتَهُ السليمة، وأنكَرَ رسالةَ موسى، خاطبَهُ بالأدلَّةِ العقلية التي يشتركُ في فهمها العالمُ والجاهل، والكبيرُ والصغير.

---

(١) انظر: تفسير ابن جُزي (٣/ ١٢٢)، تفسير ابن كثير (٣/ ٤٣٣).

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾: لدِين الله، خَلْقُ الأولين: دِينُ الأولين، والفطرةُ: الإسلام، رقم (٤٤٩٧)، ومسلم في كتاب القدر، باب معنى: كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، رقم (٢٦٥٨).

الطريق الثالث: لَفْتُ الانتباهِ لمخلوقاتِ اللهِ تعالى:

وهذا واضحٌ جليٌّ في قول إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وفي قولِ موسى لفرعون: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]، ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

وفي أمرِ النبيِّ ﷺ أن يقولَ لقومه: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى﴾ [الرعد: ٣٠].

وفي قولِ الرسلِ لأقوامهم المكذِّبين: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وبعدها بآيات: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤].

وألزَمَ من انحرَفَتْ فطرتُهُ على طريقةِ السبرِ والتقسيم(١)؛ **فقال تعالى**: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

فإنَّ المخلوق لا يخلو وجودُهُ من ثلاثة أمور:

الأول: أن يكونَ خُلِقَ صُدْفةً، بلا خالق؛ ولا عاقل يقولُ بهذا.

---

(١) **انظر**: الصواعق المرسلة (٢/ ٤٩٣)، أضواء البيان (٣/ ٤٩٤)، ويُراجع ما ذُكر في منهج القرآن العظيم في إبطال المقولات (ص٥٤).

الثاني: أن يكون هو مَنْ خَلَقَ نفسه؛ وهذا أبعدُ مِنَ الذي قبله.

فبقي الاحتمالُ الثالث، وهو الصحيحُ: أنَّ له خالقًا خَلَقَهُ، وهو اللهُ تعالى.

الطريق الرابع: ذِكْرُ صفاتِ الخالقِ سبحانه:

والآياتُ السابقةُ كلُّها في هذا المعنى؛ ومنها: قولُهُ تعالى ردًّا على قوم موسى لمَّا عبدوا العجلَ من بعده: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٨، ٨٩].

فأخبر أنَّ من لا يتكلَّم، ولا يجيبُ سائلَهُ وداعيَهُ؛ ليس بإله، وكان يكفيهم في الاستدلالِ على بطلانِ عبادةِ العِجْلِ: أنه أصمُّ أبكمُ أعمى، لا ينفعُ ولا يضرُّ.

وفي المقابل: فإنَّ الله تعالى قريبٌ مجيبٌ لدعوةِ داعيه وسائله؛ **قال تعالى**: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

الطريق الخامس: التذكيرُ بنعمِ اللهِ تعالى على خَلْقه:

وهذا يؤخذُ من **قولِ الله تعالى على لسانِ نبيه موسى عليه السلام في ردِّه على تكذيبِ فرعون**: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٥٠ ـ ٥٦].

وقد اعتنى القرآنُ في تقريرِ هذا الأمرِ ابتداءً؛ ومِنَ الأمثلة على ذلك: **قوله تعالى:**

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٣ ـ ١٨].

فختَمَ تَعْدادَ نعمِهِ بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، ثم قال بعدَ أنْ أقام البرهانَ على بطلانِ ربوبيتهم: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٢٢]؛ **أي**: فاعبدوه.

الطريق السادس: الاستدلالُ بالمُعْجِزاتِ على وجودِ الخالقِ جلَّ ذكره:

وهذا يؤخذُ من جوابِ موسى عليه السلام على فرعونَ عندما قال له: ﴿قَالَ

﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٠ ـ ٣٣].

فإنه لا يستطيعُ سوى الخالقِ أنْ يَخْرِقَ العادةَ بهذه المعجزةِ الباهرة، حيثُ تنقلبُ عَصًا تُقِلُّها اليدُ ثعبانًا عظيمًا يبتلعُ ما يَمُرُّ به، ثم يعودُ عصًا كما كان.

فلعظمةِ هذه المعجزةِ استَدَلَّ بها موسى على وجودِ الصانع، وحياتِهِ، وقدرتِهِ، وتمامِ علمه(١).

ومما ينبغي التأكيدُ عليه في خاتمةِ هذا المطلب: أنَّ قضيةَ إثباتِ وجودِ الله تعالى قضيةٌ بدهيَّةٌ لا تنفكُّ الفِطَرُ السليمة، والعقولُ المستقيمةُ تنادي بها، وأكثَرُ احتجاجاتِ القرآنِ بقضايا الخلقِ والإبداعِ تساقُ مساقَ التقرير؛ لأنَّ مَنِ اعترَفَ بالخالق المُبْدِع، ربًّا لكلِّ شيء ـ وغالبُ بني آدم هم كذلك ـ لَزِمَهُ أن يتوجَّه له في السراءِ والضراء، وأن يُخْلِصَ له العبادة.

إلا أنه لمَّا وُجِدَ في تاريخِ البشرِ مَنْ قد يجادلُ في هذه المسلَّمةِ البدهية، فإن القرآنَ العظيمَ لم يُغْفِلْ هذه المحاجَّة، بل ناقشها، وأثبَتَ زيفَهَا؛ كما مر معنا.

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم (٣/ ١١٩٨).

المَطْلَبُ الثَّانِي

دعوى الربوبيّة، أو نسبتُها لأحدٍ مِنَ الخَلْق

لم تَزِلَّ الفطرةُ البشريةُ زَلَلًا أشدَّ ولا أحطَّ، مِنْ وصفِ أحدٍ من الخلقِ لنفسه أو لغيرِهِ بصفاتِ الربوبيةِ التي أقرَّ بنو آدم بها.

وقد ذكَرَ القرآنُ العظيمُ ثلاثةَ انحرافاتٍ في هذا الباب:

ـ انحرافُ النمروذِ بنِ كَنْعانَ الذي جادله إبراهيمُ عليه السلام.

ـ انحرافُ فِرْعَوْنَ، صاحبِ مصر، الذي جادله موسى عليه السلام.

ـ انحرافُ النصارى عن دعوةِ نبيِّ الله عيسى بن مريم عليه السلام، فبلَغُوا ما لم تبلُغْهُ أمةٌ حين ادعَوْا أن عيسى هو اللهُ تعالى؛ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

وسوف أستعرضُ في هذا المبحثِ الآياتِ التي ناقشَتْ دعاواهم تلك، ومنهجَ القرآنِ في إبطالها.

الانحرافُ الأوَّل: ادعاءُ النُّمْروذِ بنِ كَنْعانَ[1] للربوبيَّةِ ـ تعالى الله عن قوله ـ:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقد نبَّه القرآنُ العظيمُ إلى سببِ ادعاءِ النمروذِ للربوبيَّة؛ وذلك

---

(١) سبق التعريف به قريبًا (ص١١٥).

أن الله تعالى آتاه المُلْكَ: ﴿أَنْ ءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ أي: لأنْ آتاه الله، أو مِنْ أجلِ أنْ آتاه الله؛ فإيتاءُ اللهِ له الملكَ أبطَرَهُ وأورثَهُ الكِبْرَ والعتوَّ، فحاجَّ لذلك، أو على أنه وضَعَ المحاجَّةَ التي هي أقبحُ وجوهِ الكفرِ موضعَ ما يجبُ عليه من الشكر؛ كما يقالُ: عاديتني؛ لأني أحسنتُ إليك، أو وقتَ أن آتاه اللهُ الملكَ(١).

فلما ادعى هذا النَّمْروذُ الربوبيَّةَ، بيَّن له إبراهيمُ ﷺ أنه لا يصلُحُ لأنْ يكونَ ربًّا، ومَنْ لا يصلُحُ أن يكونَ ربًّا، لا يستحقُّ أن يكونَ إلهًا!

فأبطلَ اللهُ تعالى ما ادعاه نمروذ من دعوى الربوبية، بأنه لا يَمْلِكُ صفاتِ الربِّ الخالقِ المتصرِّف، ومَنْ لم يكنْ كذلك، لا يستحقُّ أن يُتَّخَذَ ربًّا ولا إلهًا.

الانحرافُ الثاني: ادعاءُ فِرْعَوْنَ الربوبيَّةَ ـ تعالى الله عن قوله ـ:

أخبرَ اللهُ تعالى أنَّ فرعونَ ادَّعى الألوهيةَ لنفسه، وأنه قال لموسى لـمَّا دعاه لتوحيدِ الله تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وقال مخاطبًا بني إسرائيل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٣ ـ ٢٦].

---

(١) انظر: الكشاف (١/ ٣٣٢)، تفسير أبي السعود (١/ ٢٥١)، فتح القدير (١/ ٢٧٧)؛ وهذا قول جماهير المفسِّرين، وقيل: إن الهاء في «آتاه» عائدٌ إلى إبراهيم؛ يعني: أن الله تعالى آتى إبراهيم ﷺ الملك؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]. انظر: التفسير الكبير (٧/ ١٩).

فأبطَلَ اللهُ تعالى على لسانِ نبيِّه موسى عليه السلام دعوى فرعونِ للإلهيَّةِ بافتقادِهِ لصفاتِ الربِّ؛ فإذا تقرَّرَ أنه ليس ربًّا، تقرَّر أنه لا يصلُحُ أن يكونَ إلهًا؛ ولذلك جادَلَهُ موسى عليه السلام بإثباتِ هذا التوحيد؛ كما في **قوله تعالى:** ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٥٠ ـ ٥٦].

وكما في قوله مُخبِرًا عن قولِ موسى عليه السلام له: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]، ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

وهذا منهجٌ مطردٌ في القرآن؛ أن يقرِّر توحيدَ الإلهيَّةِ بعدَ تقريرِ توحيدِ الربوبية؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزمر: ٣٨].

وقد أبطَلَ اللهُ تعالى ألوهيةَ غيره بهذا الطريقِ؛ فقال سبحانه: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ [لقمان: ١١].

«فللَّهِ ما أَحْلَى هذا اللفظَ وأوجَزَه، وأدلَّهُ على بطلانِ الشرك؛ فإنهم إنْ زعموا أنَّ آلهتَهُمْ خلقَتْ شيئًا مع الله، طُولِبُوا بأن يُرُوه إياه، وإن

اعترفوا بأنها أعجزُ وأضعفُ وأقلُّ من ذلك، كانتْ إلهيَّتُها باطلًا ومحالًا»[١].

فَلِأنَّ فرعونَ لا يملكُ من صفاتِ الربوبيةِ ما يجعلُهُ حريًّا بالألوهية، ولِمَا فطرتِ النفوسُ عليه مِنْ تكذيبِهِ ببداهةِ العقول، اكتَفَى القرآنُ بذكرِ خِذْلانِهِ؛ **فقال تعالى**: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧]، وذكَرَ مصيرَهُ الذي يدلِّلُ على ضَعْفِهِ وخِسَّتِهِ، وقلةِ حِيلتِه: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠]، ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥].

الانحرافُ الثالث: ادعاءُ النصارى أنَّ عيسى هو اللهُ ـ تعالى الله عن قولهم ـ:

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧]، **وقال**: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

---

(١) الصواعق المرسلة، لابن القيم (٢/ ٤٦٥).

هذه جملةٌ من الأقوالِ المفتراةِ في جانبِ وصفِ أَحَدٍ من الخلقِ بالربوبية، والألوهية! تعالى الله عن ذلكَ علوًّا كبيرًا.

ودعوى النصارى هذه كرَّرها القرآن؛ لاختلافِهِمْ في مَقَالاتِهِمْ على أقوالٍ متناقضة(١)، فمنهم مَنْ زعَمَ أن عيسى هو الله، تعالى الله عن ذلك، ومنهم مَنْ زعَمَ أنه ابنُ الله! تعالى الله عما يقولون، ومنهم مَنْ زعَمَ أنَّ عيسى إلـه، وأمَّه إلـه، واللهُ تعالى إله؛ فهم ثلاثة!

عن محمد بن كَعْب القُرَظي(٢)، قال: «لمَّا رفَعَ اللهُ عيسَى بنَ مريمَ، اجتمَعَ من علماءِ بني إسرائيل مئةُ رجل، فقال بعضُهم: أنتم كثيرٌ نتخوَّفُ الفُرْقةَ؛ أَخْرِجُوا عَشَرةً، فأخرَجُوا عَشَرةً، ثم قالوا: أنتم كثيرٌ نتخوَّفُ الفُرْقةَ؛ أَخْرِجُوا عَشَرةً، فأخرَجُوا عَشَرةً، ثم قالوا: أنتم كثيرٌ؛ فأَخْرِجُوا عَشَرةً، فأخرَجُوا عَشَرةً، ثم قالوا: أنتم كثيرٌ؛ فأَخْرِجُوا عَشَرةً، حتى بقي عَشَرةٌ، فقالوا: أنتم كثيرٌ حتى الآنَ؛ فأَخْرِجُوا ستةً، وبقي أربعةٌ، فقال بعضُهم: ما تقولون في عيسى؟

فقال رجلٌ منهم: أتعلمون أنه لا يَعْلَمُ الغيبَ إلا الله، قالوا: لا، فقال الرجلُ: هو اللهُ؛ كان في الأرضِ ما بَدَا له، ثم صَعِدَ إلى السماءِ حين بدا له! وقال الآخر: قد عَرَفْنا عيسى، وعَرَفْنا أمَّه، هو وَلَدُه! وقال

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (/ ٥٩٢): «والنصارى - عليهم لعائنُ الله - مِنْ جهلهم ليس لهم ضابط، ولا لكفرهم حَدّ، بل أقوالُهم وضلالُهم منتشر، فمنهم مَنْ يعتقده إلهًا، ومنهم مَنْ يعتقده شريكًا، ومنهم مَنْ يعتقده ولدًا، وهم طوائف كثيرة، لهم آراء مختلفة، وأقوالٌ غيرُ مؤتلفة، ولقد أحسَنَ بعضُ المتكلّمين حيث قال: لو اجتمَعَ عَشَرَةٌ من النصارى، لافترقوا عن أَحَدَ عشَرَ قولًا!».

(٢) هو: محمد بن كَعْب القُرَظي، أبو حمزة المدني، مفسِّرٌ، عالمٌ بالقرآن، كثيرُ الحديث، ورعٌ، حدَّث عن أبي أيوب الأنصاري، وأبي هريرة، ومعاوية، وزيد بن أرقم، وابن عباس، توفي بالمدينة سنة (١١٧هـ). انظر: رجال صحيح البخاري (٢/ ٦٧٥)، سير أعلام النبلاء (٥/ ٦٧).

الآخَرُ: لا أقولُ كما تقولون، قد كان عيسى يُخْبِرُنا أنه عبدُ اللهِ ورُوحُهُ وكلمتُهُ ألقاها إلى مريم، فنقولُ كما قال لنفسه، لقد خَشِيتُ أن تكونوا قلتم قولًا عظيمًا.

قال: فخَرَجوا على الناس، فقالوا لرجلٍ منهم: ماذا قلتَ؟ قال: قلتُ: هو الله، كان في الأرضِ ما بدا له، ثم صَعِدَ إلى السماءِ حين بدا له، قال: فاتَّبَعَهُ عُنُقٌ من الناسِ، وهؤلاءِ النَّسْطَوْرِيَّة، اليعقوبيَّةُ، ثم خرَجَ الرابعُ، فقالوا له: ماذا قلتَ؟ قال: قلتُ: هو عبدُ اللهِ، ورُوحُهُ، وكلمتُهُ ألقاها إلى مريم، فاتَّبَعَهُ عُنُقٌ من الناس.

فكلٌّ قد ذكَرَهُ اللهُ في القرآن: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، ثم قرأ: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]، ثم قرأ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ إلى قوله: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٥ ـ ٦٦].

فهؤلاءِ أمةٌ مقتصدةٌ الذين قالوا: عيسى عبدُ اللهِ وكلمتُهُ ورُوحُهُ ألقاها إلى مريم»[١].

وقال مجاهد[٢]: «تفرَّق بنو إسرائيلَ ثلاثَ فرقٍ في عيسى، فقالتْ فرقةٌ: هو الله، وقالتْ فرقةٌ: هو ابنُ الله، وقالتْ فرقةٌ: هو عبدُ اللهِ ورُوحُهُ، وهي المقتصدةُ وهي مُسْلِمَةُ أهلِ الكتاب»[٣].

---

(١) عزاه في الدر المنثور (٣/ ١٢٢) لابن المنذر، ولم أره في المطبوع من تفسيره.

(٢) هو: مجاهد بن جَبْر المخزومي، المكي، أبو الحجاج، ثقةٌ، إمامٌ في التفسير، وفي العلم، روى عن ابن عباس، وأخذ عنه القرآن، والتفسير، والفقه، وعن أبي هريرة، وعائشة، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمرو، وابن عمر، وغيرهم، توفي (١٠٢هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٤٩)، تقريب التهذيب (ص٥٢٠).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٧١)، قال: حدثنا أبي، ثنا أبو حذيفة، ثنا شبل، عن عبد الله بن كثير، عنه، به. وانظر: الدُّر المنثور (٣/ ١٢٣).

وقد أبطَلَ اللهُ تعالى مقولةَ النصارى أنَّ عيسى هو اللهُ تعالى من ثمانية طُرُقٍ:

أوَّلًا: أنه وصَفَ المقولةَ بالكفر، فقال في صَدْرِ المقالة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ﴾ [المائدة: ٧٢].

ثانيًا: عمومُ قدرةِ الله تعالى على الخَلْقِ أجمعين: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ﴾ [المائدة: ١٧].

وهذه جملةٌ شرطية، قُدِّم فيها الجزاءُ على الشرط، والتقديرُ: إن أراد أن يُهْلِكَ المسيحَ بنَ مريمَ وأمَّه ومَنْ في الأرض جميعًا، فمَنِ الذي يَقْدِرُ على أن يدفعه عن مراده ومقدوره؟!

وقولُهُ: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾؛ أي: فمن يملكُ من أفعالِ اللهِ شيئًا، والملكُ هو القُدْرة؛ يعني: فمن الذي يقدرُ على دفعِ شيءٍ من أفعالِ الله تعالى، ومنعِ شيءٍ من مراده؟!

وقولُهُ: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، «يعني: أنَّ عيسى مُشَاكِلٌ لمن في الأرضِ في الصورةِ، والخِلْقة، والجِسْمية، والتركيبِ، وتغييرِ الصفاتِ والأحوالِ، فلمَّا سلَّمتم كونَهُ تعالى خالقًا للكلِّ، مدبِّرًا للكل، وجب أن يكون أيضًا خالقًا لعيسى»[1].

ثالثًا: عمومُ مُلْكِ الله تعالى لمن في السمٰواتِ والأرض، ومنهم: عيسى عليه السلام وأمُّه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ﴾ [المائدة: ١٧].

رابعًا: وصفُ نفسِهِ تعالى بأنه الخالقُ لكلِّ شيء، فما من نَسَمةٍ إلا وهي مخلوقةٌ له سبحانه: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

---

(١) التفسير الكبير (١١/ ١٥١).

فهو الخالقُ لعيسى كما خلَقَ غيره[١]، وهو الخالقُ لما يشاء كيف شاء؛ فكما يخلُقُ البشَرَ من أبوَيْن، فقد يَخْلُقُهما من أبٍ واحد، وقد يخلُقُ بعضَ البشرِ من غيرِ أبوَيْن، كما حصَلَ لآدمَ ﷺ؛ ولذلك كانت الآيةُ في خلقِ آدمَ أعظَمَ من الآيةِ في خلق عيسى، وقد أشار الله تعالى لذلك، فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

خامسًا: ذكرُ تكذيبِ مَنْ قيلتْ فيه هذه المقولةُ لها: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى﴾ [المائدة: ٧٢].

سادسًا: تحذيرُ اللهِ تعالى لهم بقوله: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

سابعًا: تحذيرُهُ ﷺ لهم من خطرِ هذه المقولةِ، وأنها شركٌ بالله تعالى لا يغفرُهُ الله تعالى؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

ثامنًا: قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩ ـ ٨٠].

وهذه الآيةُ نزلَتْ في وَفْدِ نصارى نَجْران؛ فعن ابن عباس قال: قال أبو رافعٍ القُرَظيُّ حين اجتَمَعَتِ الأحبارُ من اليهودِ والنصارى من أهلِ

---

(١) وقد حمل الرازي قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ على عيسى بن مريم، وأنه يخلُقُ ما يشاءُ بقدرةِ اللهِ الذي هو على كلِّ شي قدير، فيحيي الموتى، ويبرئ الأكمه، والأبرص، وغير ذلك، وسياقُ الآية يَرُدُّ هذا القول، فإنه، قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧]؛ لأن الخلق هنا فعلٌ لله تعالى، وصفةٌ له. انظر: التفسير الكبير (١١/ ١٥١).

نجرانَ عندَ رسولِ الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلامِ: أتريدُ يا محمَّدُ أن نَعْبُدَكَ كما تعبُدُ النصارى عيسَى بنَ مريم؟

فقال رجلٌ من أهل نَجْرانَ نصرانيٌّ، يُقال له الرئيس: أَوَذاكَ تريدُ منَّا يا محمَّدُ، وإليه تدعونا؟ أو كما قال.

فقال رسولُ الله ﷺ: **(مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَعْبُدَ غَيْرَ اللهِ، أَوْ نَأْمُرَ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ؛ مَا بِذَلِكَ بَعَثَنِي، وَلَا بِذَلِكَ أَمَرَنِي)**[(١)].

فهذه الآيةُ ردٌّ على النصارى في ادعائهم إلـهيةَ عيسى بنِ مريم ﷺ، وفي ظنهم أنَّ النبيَّ ﷺ أراد ذلك منهم.

ومضمونُ الجواب: أنه لا ينبغي لِمَنْ مَنَّ الله تعالى عليه بالعلمِ، والحكمةِ، والنبوَّةِ أن يدَّعي هذه الدعوى؛ فإنَّ إيتاءَ النبوَّةِ لا يكونُ إلا بعد كمالِ العلم، وكمالُ العلم يمنعُ من هذه الدعوى؛ فكيف يدَّعي ذلك أصحابُ النفوسِ الطاهرة، والأرواحِ الطيبة؟![(٢)]

وأمَّا الذين قالوا: إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثة، فقال بعضُ المفسِّرين[(٣)]: أرادوا بذلك أنَّ الله، ومريمَ، وعيسى آلهةٌ ثلاثة؛ والذي يؤكِّد ذلك **قوله تعالى** للمسيح: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

فقوله: ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]؛ **أي**: أحدُ ثلاثةِ آلهةٍ، أو واحدٌ من ثلاثةِ آلهة؛ والدليلُ على أن المرادَ ذلك **قولُهُ تعالى في الرد عليهم**: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، وعلى هذا التقدير: ففي

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره من طريق ابن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير (٣/ ٣٢٥).

(٢) انظر: التفسير الكبير (٣/ ٣٢٥).

(٣) انظر: التفسير الكبير (١١/ ١٥١).

الآية إضمارٌ إلا أنه حُذِفَ ذكرُ الآلهة؛ لأنَّ ذلك معلومٌ من مذاهبهم[١].

وقيل: إنَّ المتكلِّمينَ حكَوْا عن النصارى أنهم يقولون: جوهرٌ واحدٌ ثلاثةُ أقانيم: أبٌ، وابنٌ، ورُوحُ القُدُس، وهذه الثلاثةُ إلـٰهٌ واحد، كما أن الشمسَ اسمٌ يتناولُ القُرْصَ والشعاعَ والحَرَارةَ، وعَنَوْا بالأبِ: الذاتَ، وبالابنِ: الكلمةَ، وبالرُّوحِ: الحياةَ، وأثبتوا الذاتَ والكلمةَ والحياةَ، وقالوا: إنَّ الكلمةَ التي هي كلامُ اللهِ اختلَطَتْ بجسَدِ عيسى اختلاطَ الماءِ بالخَمْر، واختلاطَ الماءِ باللَّبَن، وزعموا أنَّ الأبَ: الله، والابنَ: عيسى عليه السلام، والروحَ القُدُسَ: جبريلُ عليه السلام، والكلُّ هو إلـٰه واحد.

قال الرازي بعد ذكرِ القولَيْن السابقَيْن: «واعلَمْ أنَّ هذا معلومُ البطلانِ ببديهةِ العقل؛ فإنَّ الثلاثةَ لا تكونُ واحدًا، والواحدُ لا يكونُ ثلاثةً، ولا يُرَى في الدنيا مقالةٌ أشدُّ فسادًا وأظهَرُ بطلانًا مِنْ مقالةِ النصارى»![٢].

---

(١) قال الواحدي: «ولا يكفر من يقول: إن الله ثالث ثلاثة؛ إذا لم يُرِدْ به ثالث ثلاثة آلهةٍ؛ فإنه ما من شيئَيْن إلا واللهُ ثالثهما بالعلم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

(٢) التفسير الكبير (٢/ ٢٣٤).

المَطْلَبُ الثَّالِثُ

نِسبَةُ الوَلَدِ للّهِ تعالى

ذكَرَ اللهُ تعالى في ثمانيةَ عشَرَ موطنًا[1] تلك المقولةَ الظالمة، وردَّ على مَنِ ادعاها بأدلةٍ عقليَّة، ونقليَّة.

أما القائلونَ بها، فهم اليهودُ، والنصارى، ومشركو العَرَب.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقال عن المشركين: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [الصافات: ١٥١، ١٥٢]، **وقال:** ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١].

وقال تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٤]:

قال ابنُ إسحاق: «وهم مشركو العَرَبِ في قولهم: نحنُ نعبُدُ الملائكةَ، وهم بناتُ الله»[2].

وقال السُّدِّيُّ: «هم اليهودُ والنصارى»[3].

---

(١) وهي: (البقرة: ١١٦)، (النساء: ١٧١)، (الأنعام: ١٠١)، (التوبة: ٣٠)، (يونس: ٦٨)، (الإسراء: ١١١)، (الكهف: ٤)، (مريم: ٣٥ و٨٨ و٩١ ـ ٩٢)، (الأنبياء: ٢٦)، (المؤمنون: ٩١)، (الفرقان: ٢)، (الصافات: ١٥٢)، (الزخرف: ٨١)، (الزمر: ٤)، (الجن: ٣)؛ فهذه ثمانية عشر موطنًا، وهناك آية محتملة، وهي قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٧٢).

(٣) الدُّر المنثور (٥/ ٣٥٩).

وعن عبدِ الرحمٰنِ بن زيدٍ في **قوله**: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

قال: «قالتِ اليهودُ والنصارى: اتخَذَ اللهُ ولدًا، وقالتِ العرَبُ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لبيك، لَبَّيْكَ لا شريكَ لكَ إلا شريكًا هو لك، وقالت الصابئةُ والمجوس: لولا أولياءُ اللهِ لَذَلَّ اللهُ؛ فأنزَلَ الله ﷻ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾»(١).

وقد ذكرَ اللهُ تعالى هذه المقولةَ الباطلةَ مُصدَّرةً بقولِ المشركينَ لها في سبعةِ مواطن، وفي تسعةٍ أخرى جاءتْ مبتدأةً بتسبيحِ اللهِ تعالى، وتنـزيهِهِ عن اتخاذِ الولد.

أي: أنَّه يذكُرُ بطلانَ اتخاذِ الولدِ مرةً ابتداءً، ومرةً ردًّا على مَنْ ادعى ذلك.

وعند النظرِ في تلك الآياتِ نجدُ أن نسبةَ القولِ إلى المشركينَ كان لها النصيبُ الأكبر، حيثُ تكرَّر ذكرُ تلك المقولةِ على لسانهم في اثنتَيْ عَشْرةَ مرةً، ثم النصارى في موضعَيْن، ثم اليهودُ في موضعٍ واحد، وفي موضعَيْن لم يظهرْ من السياق مَنِ المرادُ بدعوى اتخاذِ اللهِ ولدًا، فلعلَّه قيل على العموم.

وقد أخرج البخاري في «صحيحه»، من حديث ابن عباس ﵄، عن النبي ﷺ قال: **(كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ؛ فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ، فَزَعَمَ أَنِّي لا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ، فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا)**(٢).

وأُشِيرُ إلى أشْمَلِ الآياتِ في زعمهم نسبةَ الولدِ إلى الله تعالى

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٦١).

(٢) أخرجه البخاري، باب: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦]، رقم (٤٢١٢).

شأنه، ثم أُتبِعُهَا ببيانِ حججِ القرآنِ في تنـزيهِ الله تعالى عن اتخاذِ الولد.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٦ ـ ١١٧].

والضميرُ في قوله: ﴿وَقَالُوا۟﴾ يعودُ للنصارى الذين زعموا أن عيسى ابنُ اللهِ.

وقد أعقَبَ مقولَتَهُم الظالمةَ بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾؛ يعني بها: تنزيهًا وتبريئًا مِنْ أن يكونَ له ولد، وعلوًّا وارتفاعًا عن ذلك، وقد أشار قتادة[(١)] لذلك؛ فقال: «إذا قالوا عليه البهتانَ، سبَّح نَفْسَهُ»[(٢)]؛ فإنَّ في نسبةِ الولدِ لله، تشبيهًا له بخَلْقه، والله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ [الشورى: ١١].

ثم أخبَرَ جلَّ ثناؤه أنَّ له ما في السمٰوات والأرضِ ملكًا وخلقًا، ومعنى ذلك: وكيف يكونُ المسيحُ ولدًا لله، وهو لا يخلو إمَّا أن يكون في بعضِ هذه الأماكن ـ إما في السمٰوات، وإما في الأرض ـ ولله ملكُ ما فيهما، ولو كان المسيحُ ابنًا كما زعمتم، لم يكنْ كسائرِ ما في السمٰوات والأرض مِنْ خلقِهِ وعبيدِهِ في ظهور آياتِ الصنعةِ فيه»[(٣)].

ثم قال سبحانه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾؛ أي: «سبحانَ اللهِ أنى

---

(١) هو: قتادة بن دِعَامة السدوسي، قدوة المفسِّرين والمحدِّثين، روى عن أنس بن مالك، وسعيد بن المُسَيَّب، كان من أوعية العلم، وممن يضرب به المثل في قوة الحفظ، ما توقف أحد في صدقه وعدالته وحفظه، توفي سنة (١١٧هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٩)، التقريب (ص٤٥٣).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، من طريق العباس بن يزيد العبدي، ثنا يزيد بن زريع، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة. انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢١٣).

(٣) جامع البيان، لابن جرير الطَّبَري (١/ ٥٠٦).

يكون له ولد، وهو مالكُ ما في السمٰوات والأرض، تشهدُ له جميعًا بدلالتها عليه بالوحدانيَّة، وتُقِرُّ له بالطاعة، وهو بارئُها، وخالقُها، ومُوجِدُها من غير أصل ولا مثالٍ احتذاها عليه، وهذا إعلامٌ من الله جلَّ ثناؤه عبادَهُ أن ممَّا يشهدُ له بذلك المسيحَ الذي أضافوا إلى اللهِ جل ثناؤه بُنُوَّتَهُ، وإخبارٌ منه لهم أنَّ الذي ابتدَعَ السمٰواتِ والأرضَ من غيرِ أصل، وعلى غيرِ مثال، هو الذي ابتَدَعَ المسيحَ من غيرِ والدٍ بقدرته»(١).

وقال عن المشركين: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨].

فردَّ قولَهم بإثباتِ الغِنَى له تعالى؛ «فهو غنيٌّ عن خلقه جميعًا؛ فلا حاجةَ به إلى ولد؛ لأن الولَدَ إنما يطلُبُهُ من يطلُبُهُ ليكونَ عونًا له في حياته، وذِكْرًا له بعدَ وفاته، واللهُ عن كلِّ ذلك غنيٌّ؛ فلا حاجةَ به إلى مُعِينٍ يُعِينُهُ على تدبيره، ولا يَبِيدُ فيكونَ به حاجةٌ إلى خَلَفٍ بعده»(٢).

ثم قال: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾:

وهذه دَلَالةٌ ثانيةٌ على تنزيهِهِ تعالى عن اتخاذِ الولد؛ فله ما في السمٰوات وما في الأرض؛ «ملكًا، والملائكةُ عبادُهُ وملكُهُ؛ فكيفَ يكون عبدُ الرجلِ ومُلْكُهُ له ولدًا؟!»(٣).

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ تنبيهًا على مخالفة قولهم لِدَلَالةِ العقول، وبداهةِ التفكير.

---

(١) جامع البيان، لابن جرير الطَّبَري (١/ ٥٠٨).

(٢) المرجع السابق (١١/ ١٤٠). (٣) المرجع السابق (١١/ ١٤٠).

ولمَّا كان منشأُ هذه المقولةِ هو الكَذِبَ لا غير، رهَّب سبحانه من افتراء الكذب؛ **فقال: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾** [يونس: ٦٩]؛ فإنَّ مَنْ زعَمَ أنَّ لله ولدًا لم يتلقَّ عِلْمَ ذلك لا من المعقول، ولا من المحسوس؛ **ولذا قال سبحانه في سورة الكهف: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ﴾** [الكهف: ٤، ٥].

وتأمَّلْ كيف نفى العلمَ عنهم، وعن آبائهم؛ لحسمِ شبهةِ التقليدِ التي طغَتْ عليهم؛ فقد يظنون أنَّ لآبائهم في هذا الافتراءِ علمًا؛ فنفى العلمَ عن آبائهم، كما نفاه عنهم، واللهُ تعالى أعلم.

«والتعبيرُ عنهم بالموصولِ وصلتِهِ؛ لأنهم قد عُرِفُوا بهذه المقالةِ بين أقوامهم وبين المسلمينَ؛ تشنيعًا عليهم بهذه المقالة، وإيماءً إلى أنهم استحقُّوا ما أُنْذِرُوا به لأجلها ولغيرها؛ فمضمونُ الصلةِ من مُوجِباتِ ما أُنْذِرُوا به؛ لأنَّ العللَ تتعدَّد»[1].

وتتلخَّص حججُ القرآنِ في نفيِ الولدِ عن الله تعالى شأنُهُ في التالي:

الحجةُ الأولى: بيانُ كمالِ غناه سبحانه: وأنَّ له ما في السمٰوات والأرضِ؛ فهو الغنيُّ الكاملُ في غناه، ومَنْ كان كذلك، استغنى عن اتخاذِ الولد؛ فالولَدُ إنما يبتغى للاستئناسِ والعَوْن؛ **قال سبحانه: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾** [يونس: ٦٨].

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٥/٣٤٦).

فنفى اتخاذَهُ للولدِ بغناه عنه، فهو مالكُ السمٰواتِ والأرض، وما فيهنَّ، ومِنْ تمام غناه: أنه لا صاحبةَ له؛ قال سبحانه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

الحجةُ الثانية: كمالُ قُدْرَتِهِ سبحانه تُغْنِيهِ عن اتخاذِ الولد:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبْحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥].

قال ابن القيم: «وتقريرُ هذه الحجة: أنَّ لمَّا كانتْ قدرتُهُ تعالى كافيةً في إيجادِ ما يريدُ إيجادَهُ، أنزَلَ أمرَهُ بقوله: ﴿كُنْ﴾ فأيُّ حاجةٍ به إلى ولد، وهو لا يتكثَّرُ به من قلة، ولا يتعزَّز به، ولا يستعينُ به، ولا يَعْجِزُ عن خلقِ ما يريدُ خَلْقَهُ؟!»[١].

ولذلك قال سبحانه في سورة مريم: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢]؛ فنعَتَ ذاتَهُ المقدَّسةَ باسمِ الرحمٰن؛ إشارةً إلى أنَّ كلَّ ما عداه نعمةٌ، منعمٌ عليه، فلا يجانسُ مَنْ هو مبدأُ النعمِ كلِّها ومُولِي أصولِها وفروعِها، فكيف يمكنُ أن يتخذه ولدًا؟![٢].

وفي التعبيرِ بأنه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ أبلغُ تقريرٍ لنفيِ اتخاذِهِ للولد.

«فإنَّ مَنِ اخترَعَ هذه السمٰواتِ والأرضَ مع عظمهما، وآياتهما، وفَطَرَهُما، وابتدَعَهُما؛ فهو قادرٌ على اختراعِ ما هو دونهما، ولا نسبةَ له إليهما البتةَ؛ فكيف يُخْرِجونَ هذا الشخصَ[٣] بالعَيْنِ عن قدرته، وإبداعه،

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٥/٣٤٦).
(٢) انظر: تفسير البيضاوي (٤/٣٦).
(٣) إشارة لنبي الله عيسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ.

ويجعلونه نظيرًا، وشريكًا، وجزءًا، مع أنه تعالى بديعُ العالمِ العلويِّ، والسفليِّ، وفاطرُهُ، ومخترعُهُ، وبارئُهُ؛ فكيف يُعجزه أن يوجدَ هذا الشخصَ مِنْ غيرِ أبٍ حتى يقولوا: إنه ولده، فإذا كان قد ابتدَعَ العالَمَ علويَّه وسفليَّه، فما يعجزُهُ ويمنعُهُ عن إبداعِ هذا العبد وتكوينِهِ وخلقِهِ بالقدرةِ التي خلَقَ بها العالَمَ العلويَّ والسفليَّ، فمن نسَبَ الولدَ للهِ، فما عرَفَ الربَّ تعالى، ولا آمَنَ به، ولا عبَدَهُ، فظهَرَ أن هذه الحجةَ من أبلغِ الحججِ على استحالةِ نسبةِ الولدِ إليه»[١].

الحجةُ الثالثة: نفيُ علمِهِ تعالى بوجودِ الولدِ له، ونفيُ علمهم بتلك الدعوى:

أمَّا نفي علمِهِ سبحانه بأنَّ له ولدًا؛ فيمكنُ استنباطُهُ من **قوله**: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

فهو العليمُ بكلِّ شيء، ولا يعزُبُ عن علمِهِ مثقالُ ذرةٍ في السمٰواتِ، ولا في الأرضِ، ينفي وجودَ ولدٍ له سبحانه، فمع كمالِ علمه، وتمامِ صدقه؛ يستحيلُ أن يُنْسَبَ له الولد.

وتمامُ تقريرِ هذه الحجة: «أن يقال: لو كان له ولدٌ؛ لعلمِهِ؛ لأنه بكلِّ شيء عليمٌ، وهو تعالى لا يَعْلَمُ له ولدًا، فيستحيلُ أن يكون له ولدٌ لا يعلمه، وهذا استدلالٌ بنفي علمِهِ للشيءِ على نفيِهِ في نفسه؛ إذْ لو كان، لَعَلِمَهُ، فحيثُ لم يعلمه، فهو غير كائن.

ونظيرُ هذا: **قولُهُ تعالى**: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ٩٣٦).

فهذا نفيٌ لما ادَّعَوْهُ من الشفعاءِ بنفيِ علمِ الربِّ تعالى بهم، المستلزمِ لنفيِ المعلوم، ولا يمكنُ أعلمكم اللهُ المكابرة، وأن يقولوا: قد عَلِمَ اللهُ وجودَ ذلك؛ لأنه تعالى إنما يَعْلَمُ وجودَ ما أوجَدَهُ، وكونُهُ يعلمُ أنه سيوجدُ ما يريدُ إيجاده؛ فهو يَعْلَمُ نفسَهُ، وصفاتِهِ، ويعلمُ مخلوقاتِهِ التي دخَلَتْ في الوجودِ وانقطَعَتْ، والتي دخَلَتْ في الوجودِ وبقيت، والتي لم توجدْ بعدُ.

وأمَّا شيءٌ آخَرُ غيرُ مخلوقٍ له ولا مربوبٍ، فالربُّ تعالى لا يعلمه؛ لأنه مستحيلٌ في نفسه؛ فهو يعلمُهُ مستحيلًا، لا يعلمُهُ واقعًا؛ إذْ لو عَلِمَهُ واقعًا، لكان العلمُ به عَيْنَ الجهلِ، وذلك من أعظمِ المحال؛ فهذه حجَجُ الربِّ تبارك وتعالى على بطلانِ ما نسَبَهُ إليه أعداؤُهُ والمفترون عليه»[1].

وأما نفيُ علمِ المشركينَ باتخاذِهِ الولد، ومطالبتُهُمْ بالحجةِ في قولهم، ففي قوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨].

ففي الآيةِ بيانُ أهميةِ الحجةِ والبرهان على الدعاوى؛ فكلُّ مقولةٍ لا تستندُ لشاهدٍ من العِيَان، أو البرهان؛ فهي ضَرْبٌ من الهَذَيان!

قال ابنُ حزم: «ففي هذه الآية: بيانٌ أنه لا يقبلُ قولُ أحدٍ إلا بحجة، والسلطانُ ههنا بلا اختلافٍ مِنْ أهلِ العلمِ واللغةِ هو: الحجةُ، وأنَّ مَنْ لم يأتِ على قوله بحجة، فهو مبطلٌ بنصِّ حكمِ اللهِ ﷻ، وأنه مفترٍ على الله تعالى، وكاذبٌ عليه ﷻ بنصِّ الآية، لا تأويلَ ولا تبديلَ، وأنه لا يُفْلِحُ إذا قال قولةً لا يقيمُ على صحَّتها حجةً قاطعة، ووجدناه

---

(١) بدائع الفوائد (٤/٩٣٦)، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ مزيد بيان لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ﴾ [يونس: ١٨] (ص١٥٥).

تعالى قد علَّمنا في هذه الآياتِ وجوهَ الإنصافِ الذي هو غايةُ العدلِ في المناظرة، وهو أنه مَنْ أتى ببرهانٍ ظاهر، وجَبَ الانصرافُ إلى قوله»(١).

الحجةُ الرابعة: وهي حجةٌ عقليَّةٌ؛ مفادها: أنَّ الولدَ لا بد أن يتولَّد من أنثى، فادعاءُ الولدِ لله تعالى يلزمُ أن يكونَ له زوجةٌ، وهو ما نفاه القرآن.

قال سبحانه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

قال ابن كثير: «**أي**: كيفَ يكونُ له ولدٌ، ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾؛ **أي**: والولدُ إنما يكونُ متولِّدًا بين شيئَيْنِ متناسبَيْن، واللهُ تعالى لا يناسبُهُ ولا يشابهه شيءٌ من خلقه؛ لأنه خالقُ كلِّ شيءٍ؛ فلا صاحبةَ له ولا ولد»(٢).

الحجةُ الخامسة: استحالةُ الولدِ في حقِّه تعالى: وقد أثبَتَ هذه الحجةَ بأسلوبِ التنزُّل مع الخصم؛ **فقال تعالى:** ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

وتقريرُ هذا الافتراض: أنَّ الله تعالى لو أراد أن يتخذَ ولدًا، فإنه سيصطفي مِنْ خلقه مَنْ يصلُحُ للبنوَّة؛ إذ لا موجودَ سواه إلا وهو مخلوقٌ له، ولا يصحُّ أن يكونَ المخلوقُ ولدًا للخالقِ لعدَمِ المجانسةِ بينهما، فلم يَبْقَ إلا أن يصطفيه عبدًا كما يفيدُهُ التعبيرُ بالاصطفاء مكانَ الاتخاذ، **فمعنى الآية**: لو أراد أنْ يتخذَ ولدًا، لوقَعَ منه شيءٌ ليس هو مِن اتخاذِ الولد، بل إنما هو مِنَ الاصطفاءِ لبعضِ مخلوقاته؛ لأنَّ اتخاذَ الولدِ ينافي الألوهيةَ؛ ولهذا نزَّه سبحانه نفسَهُ عن اتخاذِ الولدِ على الإطلاق؛ **فقال**: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾؛ **أي**: تنزيهًا له عن ذلك؛ فهو المستجمعُ لصفاتِ الكمال،

---

(١) الإحكام لابن حزم (١/ ٢٣)

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٣٤).

المتوحِّدُ في ذاته؛ فلا مماثلَ له، القهارُ لكلِّ مخلوقاته، ومَنْ كان متصفًا بهذه الصفات، استحال وجودُ الولدِ في حقه؛ لأنَّ الولَدَ مماثلٌ لوالده، ولا مماثلَ له سبحانه[1].

الحجةُ السادسة: نفيُ وجودِ الولدِ بشهادةِ أعلمِ الخلقِ بربهم، وهم الأنبياءُ ﷺ: حيث أخبروا الخلقَ بأنَّ الله تعالى شأنه لم يَلِدْ، ولم يُولَدْ، ولم يكنْ له كفوًا أحد.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١].

فمعنى الآية ـ على أصحِّ الوجوه ـ: ما كان للرحمٰن ولدٌ، فأنا أولُ العابدين له، وأعلمُ الناسِ بذلك لو وُجِدَ[2]، فتكونُ (إنْ) نافيةً، وهو موجودٌ في كلامِ العرب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يقول: لم يكنْ للرحمٰنِ ولدٌ، فأنا أولُ الشاهدين»[3].

قال الحسن البصري: «**معناه**: ما كان للرحمٰن ولدٌ»[4].

---

(١) **انظر**: روح المعاني (٢٣/٢٣٧)، فتح القدير (٤/٤٤٩ ـ ٤٥٠).

(٢) **انظر**: كلام الشيخ الشنقيطي رحمه الله وتقريره لهذا المعنى، ورده على الأقوال المُخالفة: أضواء البيان (٧/١٥٩).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٥/١٠١) من طريق علي بن أبي طلحة، عنه، به.

(٤) ذكره ابن جرير في تفسيره (١٧/١٤٢). **وانظر**: تفسير السمعاني (٥/١١٨)، قال: أخبرني يونس، عن الحسن، قال... فذكره.

المطلب الرابع

دَعْوَى إذنِ اللهِ المشركين بالإشراكِ به

• **تعريفُ الشِّرْك:**

لمادة «شرك» في اللغة أصلان[١]:

أحدُهما: يدلُّ على مقارنة، وخلافِ انفراد، فيأتي بمعنى المخالَطَةِ، والمصاحَبَةِ، والمشارَكَةِ، ويطلقُ على النصيبِ، والحظِّ، والحِصَّة؛ ومنه قوله ﷺ: (**مَنْ أَعْتَقَ شِرْكًا لَهُ فِي عَبْدٍ**)[٢]؛ **أي**: حظًّا، ونصيبًا.

ويطلق على التسويةِ؛ ومنه قولهم: طريقٌ مشتركٌ؛ **أي**: يستوي فيه الناس.

قال في «معجم مقاييس اللغة»: «الشركةُ هو أنْ يكونَ الشيءُ بين اثْنَيْنِ لا ينفرُد به أحدهما»[٣].

تقول: شَارَكْتُهُ في الأمرِ، وشَرِكْتُهُ فيه، أَشْرَكُهُ شِرْكًا، وشِرْكةً، ويقال: أشركتُهُ؛ **أي**: جعلتُهُ شريكًا.

والثاني: يدلُّ على امتدادٍ، واستقامةٍ؛ ومنه: الشِّرَاكُ ـ على وزن كتاب ـ وهو سَيْرُ النعلِ على ظهرِ القدم، ومنه: الشَّرَكُ: وهو حِبَالةُ الصائد، ومنه: الشِّرْكةُ، وهي معظَمُ الطريق، ووسطه.

---

(١) **انظر**: لسان العرب، لابن منظور (شرك) (٧/ ٩٩).

(٢) رواه البخاري في الصحيح، كتاب الشركة، باب الشركة في الرقيق، رقم (٢٥٠٣)، ومسلم، كتاب العتق، باب من أعتق شركًا له في عبد، رقم (١٥٠١).

(٣) معجم مقاييس اللغة (٣/ ٢٥٦).

وهذه المعاني مترابطةٌ؛ فإنَّ مرجعَ مادةِ الشركِ إلى الخَلْطِ، والضمِّ؛ فإذا كان بمعنى الحِصَّةِ من الشيء يكونُ لواحد، وباقيه لآخر، أو آخرين؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [الأحقاف: ٤] فالشريكُ مخالطٌ لشريكه، وحصتُهُ منضمَّةٌ لنصيب آخر.

والمعنى الأولُ هو المعنى الشرعيُّ للشركِ المذمومِ، المنهيِّ عنه.

وقد قصَّ القرآنُ العظيمُ لنا بدايةَ الشركِ في الخلقِ في سورةِ نوح؛ فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

وقد أخبر ابنُ عباس رضي الله عنهما أنه: «كان بينَ آدمَ ونُوحٍ عَشَرةُ قرونٍ كلُّهم على شريعةٍ من الحق، فاختَلَفُوا؛ فبعَثَ اللهُ النبيين مبشِّرين، ومُنْذِرين»(١).

فهذا يبيِّن أنَّ مبدأَ الشركِ في بني آدمَ وقَعَ في قومِ نوح، وأنَّ الآلهةَ التي أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ قومَ نوحٍ تمالؤوا على عبادتها هي أولُ شِرْكٍ وقَعَ على الأرض(٢).

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما في الآية: «هذه أسماءُ رجالٍ صالحينَ مِنْ قومِ نوحٍ، فلمَّا هلَكُوا، أوحى الشيطانُ إلى قومهم أنِ انْصِبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يَجْلِسُونَ إليها أنصابًا، وسَمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعْبَدْ حتى إذا هلَكَ أولئك، ونُسِيَ العلمُ، عُبِدَتْ»(٣).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٦)، وقال: صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجه، ووافقه الذهبي، وصحَّحه ابن القيم في إغاثة اللهفان (٢/ ٦٢٠).

(٢) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطَّبَري (٢/ ١٩٤)، إغاثة اللهفان (٢/ ٦٢٠ ـ ٦٢١). أما أولُ شركٍ وقَعَ من الخلق، فهو شركُ الشيطان؛ فهو أول من دعا إلى عبادة نفسه، وشرَعَ الكفرَ. انظر: جامع البيان (٩/ ١٧/ ١٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، رقم (٤٩٢٠).

وقد ادعى المشركونَ أنَّ شفعاءَهم ينفعونهم عندَ الله، والشبهةُ التي تعلَّق بها مَنْ توجَّه بالدعاءِ والعبادة لغيرِ الله تعالى: ادعاءُ وَجَاهةِ هذه المعبوداتِ عند الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وقد بيَّن القرآنُ فسادَ هذه الشبهةِ مِنْ خمسةِ أوجه:

أولًا: أنَّ كلَّ ما يُعْبَدُ مِنْ دونِ الله تعالى لا يَمْلِكُ لعابدِهِ نفعًا ولا ضرًّا:

فقال سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨].

فبيَّن أنَّ معبوداتِهم لا تملكُ لهم ضرًّا ولا نفعًا، ومثلُ هذا كثيرٌ في القرآن، يبيِّنُ فيه أنَّ كلَّ ما يُعْبَدُ من دون الله لا يملكُ لعابدِهِ نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً، ولا نشورًا.

أما الخالقُ سبحانه، فهو النافعُ الضارُّ، لا غِنَى لأحدٍ من خلقه عنه، برِّهم، وفاجرِهم؛ **قال تعالى:** ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]، **وقال:** ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣]، **وقال:** ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، **وقال:**

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

ثانيًا: إخبارُ اللهِ تعالى شأنه أنه لا شَرِيكَ له:

فقال: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وتقريرُ الحجة: أنه ليس للهِ تعالى شريكٌ في مُلْكه، أو شفيعٌ بغيرِ إذنه، واللهُ لا يعلمُ لنفسِهِ شريكًا في السمٰوات، ولا في الأرض؛ لأنه لا شريكَ له؛ فلذلكَ لا يَعْلَمُهُ[١]، وهذا مِنْ كمالِهِ ﷻ؛ فإنَّ ما كان منتفيًا لا وجودَ له، لا يَعْلَمُهُ اللهُ إلا منتفيًا لا وجودَ له، لا يعلمُهُ ثابتًا موجودًا[٢].

فنفى العلمَ بذلكَ إشارةً لانتفاءِ إمكانيَّته؛ فإنَّ ما لا يعلمُهُ عالمُ غيبِ السمٰواتِ والأرض، ليس بشيء[٣]، في أسلوبِ تهكُّمٍ بما تمليه عليه عقولهم.

ثالثًا: تنـزيهُ الخالقِ سبحانه أن يكونَ له شريكٌ:

فنزَّه نفسه وقدَّسها عن الشركِ، فقال: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]؛ **أي:** هو أعظَمُ مِنْ أن يكونَ له شريك.

---

(١) **انظر:** الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٣٢٢)، وقيل: **أي:** أتخبرون الله بما لا يكونُ في السماء ولا في الأرض، وهو رأيُ ابنِ جريرٍ الطَّبَري (١١/ ٩٨). **وانظر:** تفسير ابن كثير (٢/ ٤١٢)، فتح القدير (٢/ ٤٣٢)، تفسير النسفي (٢/ ١٢٢).

(٢) **انظر:** درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٣٨١) و(٧/ ١٢).

(٣) **انظر:** تفسير النسفي (٢/ ١٢٢).

رابعًا: تقريرُ وحدانيَّةِ اللهِ تعالى في ألوهيَّته:

حيثُ افتتَحَ سورةَ الزمرِ ـ التي ذكَرَ فيها شُبْهَتَهم بأنَّ الأصنامَ تقرِّبهم إلى اللهِ زلفى ـ بالأمرِ بإخلاصِ العبادةِ لله وحده: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

ثم قال سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]؛ أي: «ألَا للهِ العبادةُ والطاعةُ وحده لا شريكَ له، خالصةً لا شِرْكَ لأحدٍ معه فيها؛ فلا ينبغي ذلك لأحدٍ؛ لأنَّ كلَّ ما دونه ملكه، وعلى المملوكِ طاعةُ مالكِهِ، لا من لا يَمْلِكُ منه شيئًا»(١).

خامسًا: بيانُ بُطْلانِ الشريكِ لله تعالى:

حيثُ أبطَلَ القرآنُ زعمَ المشركينَ أنهم إنما يعبدونَ الأصنامَ لتقرِّبَهُم إلى الله تعالى، وتَشْفَعَ لهم في حاجاتهم، وهدَّدهم بما سيَحُلُّ بمن افترى على اللهِ كذبًا.

فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

فحكمةُ اللهِ تعالى اقتضَتْ إمهالَهُمْ وتأخيرَهُمْ، ولكنَّ هذا لا يعني تَرْكَهُمْ وما افتَرَوْهُ على الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ أي: بين هؤلاءِ المشركينَ، وبين خُصَمائِهم الموحِّدين.

واختُتِمَتْ بوصفهم بصفتَيْن قبيحتَيْنِ: الكذب، والكُفْران: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

---

(١) جامع البيان (٢٣/١٩١).

وكفى بادعاءِ نفعِ ما لم يَنْصِبْهُ اللهُ نافعًا؛ إمَّا ذاتًا، أو صفةً، ومنه نسبةُ الولدِ لله تعالى كَذِبًا وكفرًا!

وأتى بصيغةِ المبالغة: ﴿كَفَّارٌ﴾، لِيَدُلَّ على أنَّ كفرَ هؤلاء قد بَلغَ الغايةَ في الكفر.

فوصَفَ فِعْلَهم بالضلال، ووصَفَهم بالظُّلْم، وكلا الوصفَيْنِ يدلَّان على بطلانِ مَقَالَتِهم وفَسَادِها.

• أساليبُ القرآنِ العظيمِ في تقريرِ إبطالِ هذه الشُّبْهةِ:

بعدَ بيانِ إبطالِ القرآنِ لمقولةِ المشركينَ في مقامِ الردِّ والنقضِ لقولهم، فإنني سأشيرُ إلى بعضِ أساليبِ القرآنِ في إبطالِ هذه الشبهةِ في مقامِ التقرير؛ **فمن تلك الأساليب:**

أ ـ مجادلتُهُمْ على طريقةِ السَّبْرِ والتقسيم:

ومنه: **قوله تعالى:** ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فنفى سبحانه عن آلهتهم:

١ ـ أنْ تَمْلِكَ مثقالَ ذَرَّةٍ في السمٰواتِ والأرض.

٢ ـ أنْ تكونَ شريكةً للمالكِ سبحانه.

٣ ـ أنْ تكونَ ظهيرًا له؛ **أي:** وزيرًا ومعاونًا.

٤ ـ أنْ يكونَ لها حقُّ الشفاعةِ عنده بدونِ إذنِهِ، بل أخبَرَ أنه لا يَشْفَعُ عنده أحدٌ إلا بإذنه، فإنْ لم يأذنْ للشافعِ بها، لم يَشْفَعْ.

ب ـ مجادلتُهُمْ بدليلِ التمانع:

قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ

كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

«فتأمَّل هذا البرهانَ الباهرَ بهذا اللفظِ الوجيزِ البين؛ فإنَّ الإله الحقَّ لا بدَّ أن يكونَ خالقًا فاعلًا يُوصِّلُ إلى عابدِهِ النفعَ، ويدفعُ عنه الضرَّ، فلو كان معه سبحانه إلٰه، لكان له خلقٌ وفعلٌ؛ وحينئذٍ فلا يرضى بشركةِ الإلهِ الآخرِ معه، بل إنْ قدر على قَهْرِهِ وتفرُّدِهِ بالإلهيةِ دونه، فعل، وإن لم يَقْدِرْ على ذلكَ انفَرَدَ بخلقِهِ وذهَبَ به كما ينفردُ ملوكُ الدنيا عن بَعْضِهم بعضًا بممالكهم، فإذا لم يَقْدِرِ المنفردُ على قهرِ الآخَرِ والعلوِّ عليه، **فلا بدَّ مِنْ أحدِ أمورٍ ثلاثة:**

١ ـ إمَّا أن يذهبَ كلُّ إلٰهٍ بخلقِهِ وسلطانه.

٢ ـ وإمَّا أنْ يعلوَ بعضُهم على بعض.

٣ ـ وإمَّا أنْ يكونَ كلُّهم تحتَ قهرِ إلٰهٍ واحد، ومَلِكٍ واحد، يتصرَّفُ فيهم، ولا يتصرَّفون فيه، ويمتنعُ من حُكْمِهم عليه، ولا يمتنعونَ مِنْ حكمِهِ عليهم، فيكونُ وحده هو الإلهَ الحقَّ، وهم العبيدُ المربوبون المقهورون.

وانتظامُ أمرِ العالمِ العلويِّ والسفليِّ، وارتباطُ بعضِهِ ببعض، وجريانُهُ على نظامٍ محكمٍ لا يختلفُ ولا يَفْسُدُ، من أدلِّ دليلٍ على أن مدبِّرَهُ واحدٌ لا إلٰه غيره، كما دَلَّ دليلُ التمانعِ على أنَّ خالقَهُ واحد، لا ربَّ له غيره، فذاك تمانُعٌ في الفعلِ والإيجاد، وهذا تمانُعٌ في العبادةِ والإلهيَّة، فكما يستحيلُ أنْ يكونَ للعالمِ ربَّان، خالقان، متكافئان، يستحيلُ أن يكونَ له إلهانِ معبودان»[1].

فأبَانَ في هذا الدليلِ: أنه كما يمتنعُ أنْ يكونَ هناك ربٌّ فاعلٌ غيرُهُ

---

(١) الصواعق المرسلة، لابن القيم (٢/ ٤٦٥).

سبحانه، كذلك يمتنعُ أن يكونَ هناك إلهٌ غيره[١].

ومن المناظَرَةِ عن طريقِ الامتناع:

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

قال شيخُ الإسلامِ: «وإذا كان جعلُ المملوكِ شريكًا في المُلْكِ الناقصِ، بحيثُ يُرْغَبُ إليه كما يُرْغَبُ إلى المالكِ، ويُرْهَبُ منه كما يُرْهَبُ من المالكِ ممتنعًا، يوجبُ الفسادَ، فجَعْلُ المملوكِ المخلوقِ شريكًا لمالكِهِ الخالقِ أولى بالامتناعِ، ولزومِ الفساد»[٢].

ج - مجادلتُهُمْ بأسلوبِ التمثيل:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

فبيَّن عجزَ آلهتهم عن خَلْقِ أحقرِ وأخسِّ مخلوق؛ كالذُّبَاب، ثم بيَّن ضَعْفَهم وعَجْزَهم عن استنقاذِ ما يَسْلُبُهم الذبابُ إياه!

فبيَّن لهم قَدْرَ ما يعبدون! وشأنَ ما يرجون!

وهذا مِنْ أساليبِ القرآنِ البلاغيَّةِ في الاستدلالِ؛ إذْ يستدلُّ القرآنُ بطريقةِ التمثيلِ في إيقاظِ وِجْدانِ المخاطَبين، ولَفْتِ انتباههم إلى قضاياه.

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأقامَ سبحانه حجةَ التوحيدِ، وبيَّن إفكَ أهلِ

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٣٩٢).

(٢) المرجع السابق.

الشركِ والإلحاد، بأعذبِ ألفاظِ وأحسنها، لم يَسْتَكْرِهها غموضٌ، ولم يَشِنْها تطويل، ولم يَعِبْها تقصير، ولم تُزْرِ بها زيادةٌ ولا نقص، بل بلَغَتْ في الحسنِ والفصاحةِ والبيانِ والإيجازِ ما لا يَتوهَّمُ متوهِّمٌ، ولا يظنُّ ظانٌّ أن يكون أبلَغَ في معناها منها، وتحتها مِنَ المعنى الجليلِ القدرِ العظيمِ الشرفِ البالغِ في النفعِ، ما هو أجلُّ من الألفاظ»(١).

ومن أمثلةِ هذا الباب:

قولُهُ تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨]، **وقولُهُ:** ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، **وقولُهُ:** ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]، **وقولُهُ:** ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤].

د ـ مطالبتُهُمْ بالدليلِ والبرهانِ:

ومِنْ ذلك: **قوله تعالى:** ﴿هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١]، **فهم بين أمرَيْن:**

إمَّا أن يُبَرْهِنوا أنَّ آلهتهم التي يَعْبُدُونها تستحقُّ ذلك؛ وذلكَ بأنْ يكونَ لها أثَرٌ في الكون، فيطالَبوا بإظهاره.

وإمَّا أنْ يَعْتَرِفوا بأنها لا تملكُ شيئًا؛ فيُحَجُّوا بذلك؛ إذْ كيف

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٤٦٧).

يُتوجَّهُ بالعبادة لِمَنْ لا يملكُ شيئًا![1].

ومِنْ ذلك: **قوله تعالى:** ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

فطالَبَهُمْ بالدليلِ الحسيِّ على إثباتِ قدرةِ آلهتهم على الخَلْق، ثم طالَبَهُمْ بالدليلِ العقليِّ والسمعيِّ، وكلُّها منتفية.

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

«فاحتجَّ على تفرُّده بالإلهيَّةِ بتفرُّدِهِ بالخَلْق، وعلى بطلانِ إلهيَّةِ ما سواه بعَجْزِهم عن الخَلْقِ، وعلى أنه واحد؛ بأنه قَهَّار، والقهرُ التامُّ يستلزمُ الوَحْدَةَ؛ فإنَّ الشركةَ تنافي تمامَ القهر»[2].

وقال في سورة الزُّمَرِ التي بيَّن فيها شبهتهم: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٥ ـ ٦].

ولذا ناسب أن يَخْتِمَ هذه الآياتِ بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾؛ فهو المستحقُّ للعبادةِ الخالصةِ دون غيره.

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم (٢/ ٤٦٥).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٤٦٦).

المَطْلَبُ الْخَامِسُ

إنكارُ المشركينَ تسميةَ اللّهِ تعالى بالرَّحمنِ

قال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

فجَهِلُوا أن يكونَ اسمُ الرحمٰنِ صفةً لله تعالى، فجَهِلُوا الصفةَ دونَ الموصوف[١].

ويدلُّ لهذا الوجه: قصةُ المشركينَ مع النبيِّ ﷺ في الحديبية:

فعن أنس؛ أنَّ قريشًا صالَحُوا النبيَّ ﷺ، وفيهم سُهَيْلُ بنُ عمرو، فقال النبيُّ ﷺ لعليٍّ: (**اكْتُبْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**).

قال سُهَيْلٌ: أمَّا باسمِ الله، فما ندري ما «بِسْمِ الله الرحمٰن الرحيم»؟ ولكنِ اكتُبْ ما نعرفُ: «باسمِكَ اللهمَّ»[٢].

ولا شكَّ «أنهم أنكروا التسميةَ عنادًا وجَدَلًا؛ لأنه قد وُجِدَ في أشعارهم في الجاهليَّةِ تسميةُ اللهِ تعالى بالرحمٰن»[٣].

---

(١) وهو قول ابن العربي، أما ابنُ الحصَّار، فإنه حَمَلَ هذه الآية على قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠]، فعدَّ قولهم: «وَمَا الرَّحْمَنُ» كُفْرَهُمْ به؛ ولذلك نَقَدَ كلامَ ابن العربي، وكلامُ ابن العربي وجيه، فيكونوا قد جمعوا بين طامتين؛ أولهما: كفرهم بالله تعالى، والمرادُ شِرْكُهم معه غيره، وإنكارُهم أن يُسمَّى اللهُ بالرحمٰن، والله تعالى أعلم. **انظر:** الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٦٤).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسِّيَر، باب صلح الحديبية، رقم (١٧٨٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٢). **وانظر:** جامع البيان (١٩/ ٢٩)، وقد اختلف المفسِّرون في هذه الآية اختلافًا بينًا؛ فذهب بعضهم إلى عدم إنكارهم لصفة الرحمٰن، وإنما «سألوا عن معناه؛ لأنه لم يكنْ في لسانهم»؛ وهذا كلامُ صاحب الكشاف. **انظر:** الكشاف للزمخشري (٣/ ٢٩٥٢)، وقريب منه قول ابن عاشور في التحرير والتنوير: =

وقوله: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ [الفرقان: ٦٠]؛ **أي:** إذا قِيلَ لهؤلاء الذين يعبدونَ مِنْ دُونِ الله ما لا ينفعهم ولا يضرُّهم: اجعلوا سجودَكُمْ لله خالصًا دون الآلهةِ والأوثان، قالوا: أَنَسْجُدُ لِمَا تأمرنا؟[1].

وقوله: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠]؛ **أي:** فرارًا.

قال ابن عاشور: «والسجودُ الذي أُمِرُوا به: سجودُ الاعترافِ له بالوحدانيَّة، والتسليمِ له بخلوصِ العبادة، وهو شعارُ الإسلام، ولم يكنِ السجودُ من عبادتهم، وإنما كانوا يطوفون بالأصنام، وأمَّا سجودُ الصلاةِ التي هي مِنْ قواعدِ الإسلام، فليس مرادًا هنا؛ إذْ لم يكونوا ممَّن يؤمرُ بالصلاة، ولا فائدةَ في تكليفِهم بها قبلَ أن يسلموا؛ ويدلُّ لذلك حديثُ معاذِ بنِ جبلٍ حينَ أرسَلَهُ النبيُّ ﷺ إلى اليمن، فأمَرَهُ أنْ يدعوهم إلى شهادةِ أنْ لا إلـٰهَ إلا الله، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، ثم قال: (**فَإِنْ هُمْ**

= «هو من وضع القرآن، ولم يكنْ معهودًا للعرب». **انظر:** التحرير والتنوير (١٥/ ٢٩٨٢).
وقال بعضُ أهل العلم: «إنهم التبَسَ عليهم المرادُ به؛ لأنَّ مسيلمةَ الكذابَ تسمَّى به»،
قال الطَّبَري: «وذَكَرَ بعضُهم: أن مسيلمةَ كان يُدْعَى الرَّحمٰنَ، فلما قال لهم النبيُّ ﷺ: (**اسْجُدُوا للرحمٰنِ**)، قالوا: أنسجُدُ لِمَا يأمُرُنا رحمانُ اليمامةِ ـ يعنون مُسَيْلِمَةَ ـ بالسجودِ له». جامع البيان (١٩/ ٢٨).

وذهب القرطبيُّ في الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٣٩): إلى أنه قولٌ لبعضِ منكري وجود الله تعالى؛ مستشهدًا بقوله تعالى عنهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].
والصوابُ ـ والله أعلم ـ أنهم أنكروا التسمية عنادًا وجدلًا؛ لأنه قد وجِدَ في أشعارهم في الجاهلية تسميةُ اللهِ تعالى بالرحمٰن. **انظر:** جامع البيان (١٩/ ٢٩)، تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٢).

(١) قرأ حمزة والكسائي: «لِمَا يَأْمُرُنا» ـ بالياء ـ **بمعنى:** أنسجُدُ نحنُ لِمَا يَأْمُرُنا محمَّد، أو المسمَّى بالرحمٰن، وقرأ الباقون: ﴿لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ بالتاء؛ **بمعنى:** أنسجُدُ لِمَا تأمُرُنا يا محمَّد، فيكون خطابًا للنبي ﷺ. **انظر:** التيسير، لأبي عمرو الداني (ص١٣٣)، حجة القراءات، لابن زنجلة (ص٥١٢)، قال الطَّبَري: «والصوابُ من القول في ذلك: أنهما قراءتان مستفيضتان، مشهورتان، قد قرأ بكلٍّ واحدٍ منهما علماءُ من القُرَّاء، فبأيتهما قرأ القارئ، فمصيب». جامع البيان (١٩/ ٢٩).

أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ... إلخ)(١).

والاستفهامُ مستعملٌ في الاستغراب؛ ولذلكَ استفهموا عنه بـ(ما) دون (مَنْ) باعتبارِ السؤالِ عن معنى هذا الاسم.

والاستفهامُ في ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ [الفرقان: ٦٠] إنكارٌ وامتناعٌ؛ **أي**: لا نسجُدُ لشيء تأمرنا بالسجودِ له، على أنَّ ﴿مَا﴾ نكرةٌ موصوفة، أو: لا نسجُدُ للذي تأمرنا بالسجودِ له إنْ كانتْ ﴿مَا﴾ موصولةً. وحُذِفَ العائدُ من الصفةِ أو الصلةِ مع ما اتصَلَ هو به؛ لدلالةِ ما سبَقَ عليه، ومقصدُهُمْ من ذلك إباءُ السجودِ لله؛ لأنَّ السجودَ الذي أمروا به سجودٌ لله بنيةِ انفرادِ الله دُونَ غيره، وهم لا يجيبونَ إلى ذلك؛ كما **قال الله تعالى**: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم: ٤٣]؛ **أي**: فيأْبَوْنَ، **وقال**: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨].

ويدلُّ على ذلك **قولُهُ**: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠]؛ فالنفورُ من السجودِ سابقٌ قبلَ سماعِ اسمِ الرحمٰن»(٢).

وقد أبطل القرآنُ العظيمُ مقولتَهُمْ هذه مِنْ ثلاثةِ طرق:

أولها: بدَلَالةِ السياقِ؛ فإنَّ سياقَ قولهم ينبئُ بالتشنيعِ عليهم، وبطلانِ قولهم.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم، باب الدعاء إلى الشهادتين، وشرائع الإسلام، رقم (١٩): عن ابن عباس؛ أن معاذًا قال: «بعثني رسول الله ﷺ، قال: (**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَٰه إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَواتٍ فِي كلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ؛ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً، تُؤخَذُ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرائِهِم؛ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِك، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِم، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ**)».

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٨٢).

قال ابن عاشور: «والخبَرُ هنا مستعملٌ كنايةً في التعجُّبِ من عنادهم وبهتانهم، وليس المقصودُ إفادةَ الإخبارِ عنهم بذلك؛ لأنه أمرٌ معلومٌ من شأنهم»[1].

الثاني: تعريفُهم باللهِ تعالى من خلالِ ذكرِ مخلوقاتِهِ؛ فإنَّ الأثر يدلُّ على المؤثِّر؛ حيث **قال سبحانه**: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠ ـ ٦٢].

فكأنه يقولُ لهم: الرحمٰنُ الذي تُنْكِرُونه، وتَتجاهَلُونَهُ، هو مَنْ خلَقَ هذا الخلقَ البديع، وأنعَمَ عليكم بشتى النعم.

ثم **قال**: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

فنسَبَ عبادَهُ المؤمنين، وأضافَهُمْ لصفتِهِ «الرحمٰن» الذي أنكَرَهُ الجاهلون، تأكيدًا لوصفِهِ به، وأنَّ هؤلاءِ المؤمنين هم أعلَمُ الناسِ بربهم الرحمٰن، وأحقُّ الناسِ بصفتِهِ الكريمة[2].

الثالث: التأكيدُ على اسمِ الرحمٰن، والعنايةُ بإثباتِهِ لله تعالى رَغْمَ إنكارهم له:

حيثُ ورَدَ ذكره في القرآنِ العظيمِ في ثمانٍ وأربعينَ مرةً[3]؛ كما في

---

(١) المرجع السابق.

(٢) رأيت السمرقندي، وابن عاشور أشارا للمعنى الذي ذكرته. **انظر**: تفسير السمرقندي (٢/ ٥٤٤)، التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٦).

(٣) وهي على التوالي: (الفاتحة: ١ ـ ٣)، (البقرة: ١٦٣)، (الرعد: ٣٠)، (الإسراء: ١١٠)، (مريم: ١٨ ـ ٤٥ ـ ٥٨ ـ ٦١ ـ ٦٩ ـ ٧٥ ـ ٧٨ ـ ٨٥ ـ ٨٧ ـ ٨٨ ـ ٩٣ ـ ٩٦)، (طه: ٥ ـ ٩٠ ـ ١٠٩)، (الأنبياء: ٢٦ ـ ٣٦ ـ ٤٢ ـ ١١٢)، (الفرقان: ٥٩ ـ =

قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

= ٦٠ ـ ٦٣)، (الشعراء: ٥)، (النمل: ٣٠)، (يس: ١١ ـ ٢٣ ـ ٥٢)، (فصلت: ٢)، (الزخرف: ١٩ ـ ٢٠ ـ ٣٣ ـ ٣٦ ـ ٤٥)، (ق: ٣٣)، (الرحمٰن: ١)، (الحشر: ٢٢)، (الملك: ٣ ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ ٢٩)، (النبأ: ٣٧ ـ ٣٨).

المَطْلَبُ السَّادِسُ

وصفُ اللهِ تعالى شأنُهُ بالبُخل

قال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

يُخْبِرُ اللهُ تعالى شأنه عن اليهودِ أنَّهم وصَفُوا الله تعالى بالبُخْلِ، فقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾؛ أي: مقبوضةٌ عن العطاءِ والبَذْلِ؛ وهذا البخلُ الذي نسبوه لله تعالى هو بُخْلٌ في الكيفِ لا في الكَمِّ؛ لأنَّ وصفَ الله تعالى بالبخلِ مطلقًا قولٌ فاسدٌ، لا يصدُرُ ممَّن له أدنى مُسكةٍ من عقل؛ **ومما يؤيدُ أن وصفهم لله تعالى بالبخلِ وصفٌ كيفيٌّ أمران**[١]:

الأول: أنَّ الله تعالى قال في سياقِ الردِّ عليهم: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾؛ **أي:** يؤتي مَنْ يشاءُ من فضله، على ما تقتضيه حكمتُهُ البالغة، تنبيهًا على أنه سبحانه «مختارٌ في إنفاقِهِ، يوسِّعُ تارةً، ويُضيِّقُ أخرى على حسَبِ مشيئتِهِ، ومقتضى حكمتِهِ، لا على تعاقُبِ سَعَةٍ وضيقٍ في ذاتِ يد»[٢].

الثاني: قولُهُ تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾.

---

(١) وقد ذكر الرازي خمسة تأويلات لمقولة اليهود كلُّها سقيمة! انظر: التفسير الكبير (١٢/ ٣٥).

(٢) تفسير البيضاوي (٢/ ٣٤٦).

فمنةُ الرسالةِ التي مَنَّهَا اللهُ تعالى على النبيِّ ﷺ وعلى أتباعِهِ ستزيدُهُمْ طغيانًا، وكفرًا؛ كقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤].

فقولهم ـ كما أخبر الله تعالى ـ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾:

«يعنونَ أنَّ خيرَ اللهِ ممسَكٌ، وعطاءَهُ محبوسٌ عن الاتساعِ عليهم؛ **كما قال ـ تعالى ذكره ـ في تأديبِ نبيِّه:** ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]»[١].

قال ابنُ عباس في **قوله:** ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] قال: «ليس يعنونَ بذلكَ أنَّ يدَ اللهِ مُوثَقةٌ، ولكنَّهم يقولون: إنه بخيلٌ أمسَكَ ما عنده؛ تعالى الله عما يقولونَ علوًّا كبيرًا»[٢].

وسياقُ الآياتِ يدلُّ على أنَّ تلك المقولةَ صدَرَتْ منهم بسببِ خروجِ النبيِّ ﷺ من العَرَبِ دونهم، فحَسَدُوهُ، وحَسَدُوهُمْ؛ فكان وَصْفُ الله ـ تعالى الله عن وصفهم ـ بالبُخْلِ، إشارةً إلى أن خيرَ الله، وعطاءَهُ ممسَكٌ عنهم؛ بدليلِ قوله تعالى في نفس الآية: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤].

وقد أبطَلَ الله تعالى قولهم المفترى من جهتَيْن:

الأولى: الدعاءُ عليهم: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ [المائدة: ٦٤]؛ وذلك لِتَجَرُّئِهم على الله تعالى.

الثانية: نقضُ قولهم بإثباتِ نقيضه؛ فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤][٣]:

---

(١) جامع البيان (٦/ ٢٩٩).

(٢) أخرجه ابن جرير الطَّبَري، عن علي بن أبي طلحة، عنه، به. انظر: جامع البيان (٦/ ٣٠٠).

(٣) قال الطَّبَري: «واختَلَفَ أهلُ الجدلِ في تأويل قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾: فقال بعضُهم: =

....

= عَنَى بذلك: نعمتاه، وقال: ذلك بمعنى: يَدُ الله على خلقه، وذلك نعمه عليهم، وقال: إن العرب تقول: لك عندي يدٌ، يعنون بذلك: نعمة.

وقال آخرون منهم: عَنى بذلك القوة، وقالوا: ذلك نظيرُ قول الله تعالى ذكره: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾ [صٓ: ٤٥].

وقال آخرون منهم: بل يَدُهُ مُلْكُهُ، وقال معنى قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] مُلْكُهُ، وخزائنُهُ، قالوا: وذلك كقول العرب للمملوك: هو مُلْكُ يمينه، وفلانٌ بيده عقدةُ نكاحِ فلانة؛ أي: يملكُ ذلك، وكقول الله تعالى ذكره: ﴿فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: ١٢].

وقال آخرون منهم: بل يَدُ اللهِ صفةٌ من صفاته، هي يَدٌ؛ غيرَ أنها ليستْ بجارحةٍ كجوارحِ بني آدم، قالوا: وذلك أن الله تعالى ذِكْرُهُ أخبَرَ عن خَصُوصِيَّةِ آدَمَ بما خصَّه به من خلقَه إياه بيده، قالوا: ولو كان لخصوصيَّةِ آدَمَ بذلك وجهٌ مفهوم؛ إذ كان جميعُ خلقه مخلوقين بقدرتِهِ ومشيئته في خلقِهِ تعمُّه وهو لجميعهم مالك، قالوا: وإذا كان تعالى ذكره قد خصَّ آدمَ بذكره خلقه إياه بيده دون غيره من عباده، كان معلومًا إنه إنما خصَّه بذلك لمعنى به فارَقَ غيرَهُ من سائر الخلق، قالوا: وإذا كان ذلك كذلك، بطَلَ قولُ من قال: معنى اليد من الله القوةُ والنعمةُ أو الملكُ في هذا الموضع، قالوا: وأحرى أن ذلك لو كان كما قال الزاعمون: إن يَدَ الله في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، هي نعمته، لقيل: «بل يده مبسوطة»، ولم يقل: «بل يداه»؛ لأن نعمةَ اللهِ لا تحصى بكثرة؛ وبذلك جاء التنـزيل؛ يقولُ الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، قالوا: ولو كانت نعمتين، كانتا محصاتَيْن، قالوا: فإن ظن ظان أن النعمتين بمعنى: النعم الكثيرة؛ فذلك منه خطأ؛ وذلك أن العرب قد تُخْرِجُ الجميعَ بلفظِ الواحدِ؛ لأداء الواحد عن جميع جنسه؛ وذلك كقول الله تعالى ذكره: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١، ٢]، وكقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ [البلد: ٤]، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥]، قال: فلم يُرَدْ بالإنسانِ، والكافرِ في هذه الأماكنِ إنسانٌ بعينه، ولا كافرٌ مشار إليه حاضر، بل عنى به جميع الإنس، وجميع الكفار؛ ولكن الواحد أدى عن جنسه؛ كما تقولُ العرب: ما أكثَرَ الدرهمَ في أيدي الناس، وكذلك قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ﴾ [الفرقان: ٥٥]؛ معناه: وكان الذين كفروا، قالوا: فأما إذا ثني الاسم، فلا يؤدَّى عن الجنس، ولا يؤدَّى إلا عن اثنين بأعيانهما دون الجميع، ودون غيرهما.

قالوا: وخطأٌ في كلام العرب أن يقال: ما أكثَرَ الدرهمَيْنِ في أيدي الناس؛ بمعنى: ما أكثَرَ الدراهمَ في أيديهم، قالوا: وذلك أن الدرهم إذا ثُنِّيَ لا يؤدي في كلامهم إلا =

«أي: بل هو الواسعُ الفضل، الجزيلُ العطاء، الذي ما مِنْ شيءٍ إلا عنده خزائنه، وهو الذي ما بِخَلْقِهِ من نعمةٍ فمنه وحدَهُ لا شريكَ له، الذي خلَقَ لنا كلَّ شيءٍ مما نحتاجُ إليه في ليلِنا ونهارِنا، وحَضَرِنا وسفرنا، وفي جميعِ أحوالِنا؛ كما قال: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]»(١).

ومِنْ تمامِ الردِّ عليهم بيانُ الدافعِ الحقيقيِّ لمقولتهم، وهو الحَسدُ للنبيِّ ﷺ، وللمؤمنينَ؛ أنْ بعَثَ اللهُ تعالى لهم رسولَهُ الخاتِم للرسالات، ولم يكنْ مبعوثًا مِنْ قَتَلَةِ الأنبياء.

= عن اثنين بأعيانهما، قالوا: وغيرُ محال: ما أكثَرَ الدرهمَ في أيدي الناس، وما أكثَرَ الدراهم في أيديهم؛ لأن الواحدَ يؤدِّي عن الجميع، قالوا: ففي قول الله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] مع إعلامِهِ عباده أن نعمه لا تحصى، ومع ما وصفنا من أنه غيرُ معقولٍ في كلامِ العرب أن اثنين يؤدِّيان عن الجميع ما ينبئ عن خطأ قولِ مَنْ قالَ: معنى اليَدِ في هذا الموضعِ النعمةُ، وصحةُ قولِ من قال: إن يد الله هي له صفة، قالوا: وبذلك تظاهرت الأخبار عن رسول الله، وقال به العلماء وأهل التأويل». جامع البيان (٦٦/ ٢٩٩ ـ ٣٠٢).

وقال الترمذي في جامعه، رقم (٣٠٤٥) بعد أن ساق بسنده حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (**يَمِينُ الرَّحْمٰنِ مَلأَى، سَحَّاء، لَا يَغِيضُهَا الليلُ وَالنهَارُ، قَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنفقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ؟ فَإِنَّه لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَبِيَدِهِ الأُخْرَى المِيزَانُ، يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ**)، قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح، وتفسير هذه الآية: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾، وهذا حديثٌ قد روته الأئمة، نؤمنُ به كما جاء مِنْ غير أن يفسَّر، أو يتوهَّم، هكذا قال غيرُ واحد من الأئمة؛ الثوري، ومالك بن أنس، وابن عيينة، وابن المبارك: إنه تُرْوَى هذه الأشياءُ، ويُؤْمَنُ بها؛ فلا يقال: كيف».

وقال البغوي: «ويَدُ اللهِ صفةٌ من صفاتِ ذاته؛ كالسمعِ، والبصرِ، والوجهِ، وقال جل ذكره: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وقال النبي ﷺ: (**كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ**)، واللهُ أعلم بصفاته؛ فعلى العبادِ فيها الإيمانُ، والتسليم، وقال أئمةُ السلف ـ من أهل السُّنَّةِ ـ في هذه الصفات: «أمرُّوها كما جاءت، بلا كيف». تفسير البغوي (٢/ ٥٠).

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٧٦).

المَطْلَبُ السَّابِعُ

وصفُ اللّهِ تعالى شأنُهُ بالفَقْر

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

- **سببُ نزولِ الآية:**

عن ابن عباسٍ، قال: «دخَلَ أبو بكرٍ الصديقُ ﷺ بيتَ المِدْراسِ، فوجَدَ من يهود ناسًا كثيرًا قد اجتَمَعُوا إلى رجلٍ منهم، يقال له: فِنْحَاصٌ، كان مِنْ علمائِهم وأحبارِهم، ومعه حَبْرٌ يقالُ له: أَشيَعُ، فقال أبو بكرٍ ﷺ لِفِنْحاصٍ: وَيْحَكَ يا فنحاصُ، اتقِ اللهَ وأَسْلِمْ، فواللهْ، إنَّك لَتَعْلَمُ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، قد جاءكم بالحقِّ مِنْ عندِ الله، تجدونَهُ مكتوبًا عندكم في التوراةِ والإنجيل.

قال فِنْحاصٌ: واللهِ يا أبا بكرٍ، ما بنا إلى اللهِ مِنْ فَقْرٍ، وإنَّه إلينا لفقيرٌ، وما نَتضرَّعُ إليه كما يَتضرَّعُ إلينا، وإنا عنه لأغنياءُ، ولو كان عنا غنيًّا ما استَقْرَضَ منا كما يزعُمُ صاحبُكم، ينهاكم عن الرِّبا ويعطيناه، ولو كان غنيًّا عنا، ما أعطانا الرِّبا!

فغَضِبَ أبو بكرٍ، فضرَبَ وجهَ فِنْحاصٍ ضربةً شديدة، وقال: والذي نفسي بيده، لولا العهدُ الذي بيننا وبينَكَ لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ يا عدوَّ الله، فَأَكْذِبُونا ما استطعتم إنْ كنتم صادقين، فذهَبَ فنحاصٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقال: يا محمَّدُ، انظُرْ ما صنَعَ بي صاحبُك!!

فقال رسولُ اللهِ ﷺ لأبي بكر: **(وَمَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟)**.

فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ عَدُوَّ اللهِ قال قولًا عظيمًا، زعَمَ أنَّ اللهَ فقيرٌ، وأنهم عنه أغنياءُ، فلمَّا قال ذلك، غَضِبْتُ لله مما قال، فضَرَبْتُ وَجْهَهُ، فجَحَدَ ذلك فنحاصٌ، وقال: ما قلتُ ذلك، فأنزَلَ اللهُ تبارك وتعالى فيما قال فنحاصٌ؛ ردًّا عليه، وتصديقًا لأبي بكر: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]»[١].

وعن ابن عباس ﷺ، قال: «أتتِ اليهودُ محمَّدًا ﷺ حِينَ أنزَلَ اللهُ إليه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

فقالوا: يا محمَّدُ، افتقَرَ ربُّك! يسألُ عباده؛ فأنزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾»[٢].

قال ابنُ عطيَّة ﵀: «ولا محالةَ أنَّ هذا قولٌ صدَرَ أولًا عن فِنْحاصٍ، وحُيَيٍّ، وأشباهِهما من الأحبارِ، ثم تقاوَلَهَا اليهودُ، وهو قولٌ يَغْلَطُ به الأتباع، ومَنْ لا علمَ عنده بمقاصدِ الكلام؛ وهذا تحريفُ اليهودِ على نحوِ ما صنعوا في توراتهم، وقولُهُ تعالى: ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾ دالٌّ على أنهم جماعة»[٣].

وقد رَدَّ اللهُ تعالى على هذه المقولةِ الباطلةِ التي لا يقولها صاحبُ فطرةٍ سليمةٍ، ولا عقلٍ مستقيم؛ فإنَّ الله تعالى هو الغنيُّ الكاملُ في غناه، الحميدُ في أوصافِهِ؛ ﷻ عما يقولُ الظالمونَ علوًّا كبيرًا.

فبدَأَ ذكرَ مقولتهم الشنيعةِ بقوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾؛ وهو تعبيرٌ يوحي بالتهديدِ، والوعيدِ؛ فالله تعالى سمع مقالتهم، وسوف يُحاسِبُهم عليها بما يستحقُّونه.

---

(١) أخرجه الطَّبَري. انظر: جامع البيان (٤/ ١٩٤)، وذكر الحسن: أن قائلَ هذا الكلامِ حُيَيُّ بنُ أخطب.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٦٠) من طريق سعيد بن جبير، عنه، به.

(٣) المحرر الوجيز (١/ ٥٥٨).

ثم ثنّى بتهديدهم بأنه قد كتَبَ ما قالوه، فقال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ [آل عمران: ١٨١]: فإضافةً إلى سماعِ اللهِ تعالى لقولهم، فإنه سيسطِّرُ ما قالوه؛ لإقامةِ الحجةِ عليهم يومَ أن يُعْطَوْا كتابَهُمْ، ويحاسبوا على أعمالهم.

ثم قرَنَ قتلَ الأنبياءِ بمقالتِهِمُ الكافرةِ: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١٨١]؛ ليبيِّن أنَّ هؤلاءِ أصحابُ عتوٍّ، وتمرُّدٍ، وعنادٍ، وضلالٍ كبير، وأكَّد قتلَهُمْ للأنبياء بأنه ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ﴾، رغم أن الأنبياءَ لا يمكنُ أن يقتلوا بحق! فكان هذا التقييد؛ لبيانِ عتوِّ القوم، وشدةِ كفرهم، وبغيهم.

ثم زيادةً في التوبيخِ، والتقريعِ، والامتهانِ: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢]؛ أي: إنَّ ما أصابهم لم يكنْ إلا بسببِ أعمالهم، وسيئاتهم.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢]: تأكيدٌ لما قبله، وهو أنَّ ما لَقُوهُ، هو بسببِ ذنوبهم، وظلمِهِمْ لأنفسهم؛ فإن الله تعالى لا يَظلمُ العبادَ شيئًا.

«وكان ذلك القولُ منهم اعتراضًا على القرآن، أوجَبَهُ قلةُ فهمهم، أو تحريفُهم للمعاني؛ فإن كانوا قالوه باعتقاد، فهو كفر، وإنْ قالوه بغيرِ اعتقادٍ؛ فهو استخفافٌ وعناد»[1].

استفتَحَ القولَ بذكرِ قُدْرةِ الله تعالى وملكه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٩]؛ قال بعضُ المفسِّرين: الآيةُ ردٌّ على الذين قالوا: إنَّ الله فقيرٌ ونحن أغنياء[2].

التوبيخُ والتقبيحُ الذي يوجَّه لهم يوم القيامة: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ١٢٦). (٢) المحرر الوجيز (١/ ٥٥٤).

أي: سنكتُبُ[1] ما قالوه مِنَ العظيمةِ الشنعاءِ في صحائفِ الحَفَظةِ، أو سنحفظُهُ ونُثْبِتُهُ في علمنا لا ننساه، ولا نهملُهُ؛ كما يُثْبَتُ المكتوبُ، والسينُ للتأكيد؛ أي: لن يفوتنا أبدًا تدوينُهُ وإثباتُهُ لكونِهِ في غايةِ العظمِ والهول، كيف لا، وهو كفرٌ بالله تعالى، واستهزاءٌ بالقرآنِ العظيم، والرسولِ الكريم؛ ولذلك عطَفَ عليه قولَهُ تعالى: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ [آل عمران: ١٨١]؛ إيذانًا بأنهما في العظمِ أخوان، وتنبيهًا على أنه ليس بأولِ جريمةٍ ارتكبوها، بل لهم فيه سوابقُ، وأنَّ منِ اجترَأَ على قتلِ الأنبياء، لم يستبعدْ منه أمثالُ هذه العظائم، والمرادُ بقتل المخاطبين للأنبياء: رضاهم بفعلِ أسلافهم.

﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]؛ أي: وننتقمُ منهم بأنْ نقولَ لهم: ذوقوا العذابَ المُحْرِقَ، وفيه مبالغاتٌ في الوعيد، والذوقُ إدراكُ الطعوم، وعلى الاتساعِ يُستعملُ لإدراكِ سائرِ المحسوساتِ والحالات. وذَكَرَه ها هنا لأنَّ العذابَ مرتَّبٌ على قولهم الناشئ عن البخلِ والتهالُكِ على المال، وغالبُ حاجةِ الإنسانِ إليه لتحصيلِ المطاعم، ومعظمُ بُخْلِهِ به للخوفِ من فِقْدانه، ولذلك كثر ذكرُ الأكلِ مع المال.

﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى العذاب.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢]: مِنْ قتلِ الأنبياء، وقولِهِمْ هذا، وسائرِ معاصيهم؛ عبَّر بالأيدي عن الأنفس؛ لأن أكثَرَ أعمالها بهنَّ.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢]: عَطْفٌ على ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ وسببيَّتُهُ للعذاب مِنْ حيثُ إن نفيَ الظلمِ يستلزمُ العدلَ المقتضيَ إثابةَ المحسنِ، ومعاقبةَ المسيء.

---

(١) قرأ حمزة: «سَيُكْتَبُ» ـ بالياء وضمها وفتح التاء ـ «وَقَتْلُهُمُ» بالرفع، «وَيَقُولُ» بالياء، وقرأ الباقون: «سَنَكْتُبُ»: «وَقَتْلَهُمُ»، «وَنَقُولُ». انظر: السبعة، لابن مجاهد (ص١٢٩)، التيسير، للداني (ص٧٧).

المَطْلَبُ الثَّامِنُ

سُوءُ الظَّنِّ باللهِ تعالى

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

يخبرُ اللهُ تعالى عن اليهودِ أنهم كانوا إذا دخَلُوا على النبيِّ ﷺ حَيُّوهُ بتحيةٍ لا يرضاها اللهُ تعالى، وهي قولهم: السامُ عليكَ يا محمد!

والسامُ هو الموتُ، فكانوا يبدأون النبيَّ ﷺ بالسبِّ والشتمِ ظنًّا منهم أنه لو كان محمَّدًا ﷺ صادقًا، لنبَّأه الله تعالى بقولهم.

وقد أخبَرَتْ عائشةُ ﵂ قالتِ: استَأْذَنَ رهطٌ من اليهودِ على رسولِ اللهِ ﷺ، فقالوا: السامُ عليكم!

فقالتْ عائشةُ: بل عليكُمُ السامُ واللعنةُ!

فقال رسولُ الله ﷺ: (**يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ**).

قالت: ألم تَسْمَعْ ما قالوا؟

قال: (**قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ**)(١).

وفي روايةٍ قالت: «بل عليكُمُ السامُ والذامُ».

فقال رسولُ الله ﷺ: (**يَا عَائِشَةُ، لا تَكُونِي فَاحِشَةً**).

---

(١) أخرجه الشيخان، البخاري، قوله: باب كيف الرد على أهل الذمة بالسلام، رقم (٥٩٠١)، ومسلم، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، وكيف يرد عليهم، رقم (٢١٦٤).

فقالت: ما سمعتَ ما قالوا؟

فقال: (**أَوَلَيْسَ قَدْ رَدَدْتُ عَلَيْهِمُ الَّذِي قَالُوا، قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ**)(١).

وعن عبد الله بن عمرو: «أنَّ اليهودَ: كانوا يقولونَ لرسولِ الله ﷺ: سَامٌ عليك، ثم يقولون في أنفسهم: لولا يعذِّبنا الله بما نقول، فنزَلَتْ هذه الآيةُ: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨]»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «كان المنافقونَ يقولونَ لرسولِ الله ﷺ إذا حَيَّوْهُ: سامٌ عليكَ»(٣).

وهذا يدلُّ على أنَّ المنافقينَ فعَلُوا كما فعَلَ إخوانُهم اليهودُ في مخاطبةِ النبيِّ ﷺ.

قال مجاهدٌ رحمه الله: «يقولونَ القولَ بينهم، ثم يقولون: عسى اللهُ أَلَّا يُفْشِيَ علينا سِرَّنا هذا»(٤).

وقد ذهَبَ عامَّةُ المفسِّرينَ إلى القولِ بأنَّ معنى **قوله تعالى**: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾؛ **أي**: أنهم كانوا إذا فعَلُوا

---

(١) أخرجه مسلم، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، وكيف يرد عليهم، رقم (٢١٦٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد، رقم (٦٥٨٩)، وحسَّن إسناده الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٢٤)، وقال في الدُّر المنثور (٨/ ٨٠): «إسناده جيد».

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٤٣) من طريق العوفي، عنه، به، وبه جَزَمَ في التحرير والتنوير، واستبعَدَ أن تكون المقالةُ لليهود؛ لأن سياق الآيات في المنافقين، والقولُ بأنها مقالةٌ لليهود يقود لتشتُّت الضمائر.
وما ذكره غيرُ لازم، فقد يكونُ السياقُ في المنافقين حقًّا، وتكونُ هذه المقولةُ مما تلقَّاها المنافقون عن اليهود، وقد وَرَدَ عن أنس رضي الله عنه؛ أنها نَزَلَتْ في اليهود؛ فلا مانع من حمل الآية على الفريقين، والله تعالى أعلم.

(٤) تفسير مجاهد (١/ ٢٨٣).

ذلك، يقولون في أنفسهم، أو يقولُ بعضُهم لبعض: لو كان هذا نبيًّا، لعذَّبنا اللهُ بما نقولُ له في الباطن؛ لأنَّ اللهَ يعلمُ ما نُسِرُّه، فلو كان هذا نبيًّا حقًّا، لأوشَكَ أن يعاجلنا اللهُ بالعقوبةِ في الدنيا[١].

«وهذا خاطرٌ من خواطرِ أهلِ الضلالةِ المتأصِّلةِ فيهم، وهي تَوَهُّمُهم أنَّ شأنَ اللهِ تعالى كشأنِ البشرِ في إسراعِ الانتقام والاهتزازِ مما لا يرضاه ومِنَ المعاندة، وفي الحديث: (**لَا أَحدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ، يَدَّعُونَ لَهُ نِدًّا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ**)[٢].

على أنهم لجحودهم بالبَعْثِ والجزاءِ يَحْسَبُونَ أنَّ عقابَ الله تعالى يَظْهَرُ في الدنيا»[٣].

أو أنْ يكون مرادُهم: لو كان نبيًّا، لاستجيبَ له فينا ومِنّا!

«وهذا موضعُ تعجُّبٍ منهم؛ فإنهم كانوا أهلَ كتاب، وكانوا يعلمون أن الأنبياءَ قد يغضبون فلا يُعاجَلُ من يُغْضِبُهُمْ بالعذاب»[٤].

فهم في هذه الآيات ينالون من النبيِّ ﷺ؛ فيلوون ألسنَتَهُمْ بالكلامِ، والسلامِ، ويُخْفُونَ لغةَ الشتمِ، والسَّبِّ فيه، ويقولون فيما بينهم، وفي ذواتهم: لو كان محمَّدٌ صادقًا في دعوى النبوة، لانتقَمَ اللهُ منا، وعاجلنا بالعقوبة.

ووجهُ الشاهدِ من الآياتِ هنا على كلا التفسيرَيْن، تفسيرِ مجاهد، وتفسيرِ عامَّةِ المفسِّرين: دلالتُها على سوءِ ظَنِّ هؤلاءِ بالله تعالى؛ فعلى قولِ الجمهور: فإنهم كانوا يعتقدون أنَّ محمدًا كاذب، ومع ذلك فهو

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٢٤).

(٢) أخرجه البخاري، باب لا أحد أصبر على أذى...، رقم (٥٧٤٨)، ومسلم، باب لا أحد أصبر على أذى من الله ﷻ، رقم (٢٨٠٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٦٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٢٩٤).

يزعُمُ أنَّ الله أمره بأنْ يقولَ لهم كذا، وينهاهم عن كذا، وأنه يُخبِرُ عن الله، فيُخْبِرُهم بما يرضيه، وما يُسْخِطُه، وما يُحِبُّه، وما يَكْرَهُه، ومع ذلك فما يزالُ أمرُهُ ظاهرًا، ودينُهُ قاهرًا، كان ذلك سوءَ ظَنٍّ بالله تعالى؛ فكيف يُؤيِّدُ كاذبًا بالمعجزاتِ والآياتِ، ويُصدِّقُهُ فيما يقول، ويوفِّقه لما يأمل.

وعلى قولِ مجاهد: فإنهم كانوا يُضْمِرُونَ بَغْيَهم، ويرجونَ ألا يبيِّن اللهُ سوءَ فِعْلِهم؛ وهذا خلافُ عدله ﷻ.





المَبْحَثُ ٱلثَّانِي

المَقُولاتُ المتعلِّقةُ بِتَرْكِ الإيمانِ

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: المَقُولاتُ المتعلِّقةُ بالنفاق.

المطلب الثاني: تركُ الإيمانِ تقليدًا للآباءِ والمتقدِّمين.

المطلب الثالث: تركُ الإيمانِ بِحُجَّةِ ضَعْفِ أَتْبَاعِهِ.

المطلب الرابع: تركُ الإيمانِ تشاؤمًا.

المطلب الخامس: تركُ الإيمانِ تعنتًا وعنادًا.

المطلب الأول

المقولات المتعلقة بالنفاق

أخبَرَ القرآنُ العظيمُ عن مقولةِ طائفتَيْنِ ادعَوْا الإيمان، وهم في الحقيقةِ لم يعرفوه، ولم يدخُلْ قلوبَهُمْ:

أمَّا أولاهما: فهُمُ اليهودُ، ومنهم عرَفَ المنافقون سُبُلَ النفاق، وطرائقه!

وثانيهما: الكفارُ مِنَ العربِ الذين كانوا في المدينة؛ مِنَ الأوسِ، والخزرجِ، وغيرهما.

وقد ذَكَر القرآنُ العظيمُ مقولاتِهِمُ المتعلِّقةَ بإظهارِ الإيمان، وإبطانِ الكفر، وذمَّهم عليها.

أما اليهودُ، فقال اللهُ تعالى في حقِّهم:

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦].

وهؤلاءِ مِنَ اليهود؛ على ما قاله قتادة، والسدي[١].

قال ابن عباس: «فإنهم دخَلُوا وهم يتكلَّمون بالحقِّ، وتُسِرُّ قلوبُهُمُ الكفرَ؛ فقال: ﴿وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ﴾ [المائدة: ٦١].

هذا إخبارٌ من الله تعالى عن سلوكِ اليهود، وأنهم كانوا يتظاهرون بالإيمانِ بالنبيِّ ﷺ؛ إذا لقوا الذين آمنوا، ويقولون: هو نبيٌّ من اللهِ لكم خاصَّةً.

---

(١) جامع البيان (٦/ ٢٩٦).

قال قتادةُ: «كانوا يقولون: إنَّه سيكون نبيٌّ، فجاء بعضُهم لبعضٍ؛ فقالوا: أتحدِّثونهم بما فَتَحَ اللهُ عليكم؛ ليحتجُّوا به عليكم!»(١).

ثم إنهم إذا خلا بعضُهم إلى بعضٍ، تلاوموا؛ فقال بعضُهم لبعض: كيف تخبرونهم بأنه نبيٌّ حقًّا؛ فيلزموكم بالإيمانِ به(٢)؟!

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ [البقرة: ٧٦]؛ أي: بصاحِبِكُمْ رسولِ اللهِ ﷺ ولكنه إليكم خاصَّة، وإذا خلا بعضُهم إلى بعض؛ قالوا: لا تحدِّثوا العرَبَ بهذا؛ فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم»(٣).

«وأصلُ الفتحِ في كلام العرب: النصرُ، والقضاءُ، والحُكْم»(٤)، يقال منه: اللَّهُمَّ، افتحْ بيني وبين فلان؛ أي: احكُمْ بيني وبينه، ويقال للقاضي: الفتَّاح، ومنه قولُ الله عز وجل: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]؛ أي: احكم بيننا وبينهم...

فمعنى الآية: «أي: تقرُّون بأنه نبيٌّ، وقد عَلِمْتم أنه قد أُخِذَ له الميثاقُ عليكم باتباعه، وهو يُخْبِرُهم أنه النبيُّ ﷺ الذي كنا ننتظرُ ونجدُهُ في كتابنا؛ اجْحَدُوهُ، ولا تقرُّوا لهم به»(٥).

ثم أكدوا لومهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦].

أي: أفلا تعقلون بأنَّ إخباركم لأصحاب النبيِّ ﷺ بما في كُتُبِكم أنه نبيٌّ مبعوث، سيكونُ حجةً لهم عليكم عند ربكم، يحتجُّون بها

---

(١) أخرجه الطَّبَري في تفسيره (٦/ ٢٩٧).
(٢) وهو اختيار الطَّبَري في تفسيره (١/ ٣٧٢).
(٣) أخرجه الطَّبَري في تفسيره (١/ ٣٦٩) عن حميد، قال: ثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبير، عنه، به.
(٤) يُنظر: لسان العرب (فتح) (٢/ ٥٣٣٨).
(٥) جامع البيان (١/ ٣٧٠).

عليكم؛ فلا تفعلوا ذلك، ولا تقولوا لهم مثل ما قلتم، ولا تخبروهم بمثل ما أخبرتموهم به من ذلك[١].

وقد ردَّ القرآنُ العظيمُ على مقولتهم بأمريْنِ:

أولهما: في تهديدِهم وإنذارِهم، وأنَّ الله تعالى عليمٌ بما يقولونه، وما يُسِرُّونه، وسوف يجازيهم عليه في الآخرة؛ **قال تعالى:** ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧].

فما يُسِرُّونَهُ، ويُخْفُونَهُ فيما بينهم لا يخفى على الله ﷻ، وسوف يحاسبُهم على ذلك، فلن ينفعهم اعترافُهم بنبوَّةِ النبيِّ ﷺ، ولن يَشْفَعَ لهم إخبارُ المؤمنين بذلك، وسوف يُبْطِلُ اللهُ تعالى كيدَهُمْ للنبيِّ ﷺ ولأصحابه.

وهذه الآيةُ كقوله تعالى في شأنهم: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٦١].

الثاني: تطمينُ المؤمنينَ بأنه لن يصيبهم مكروهٌ بإذن الله تعالى، وأنَّ توفيقَ اللهِ الدائمَ لكم سيزيدُ مِنْ غيظِ اليهود، وأضرابِهِمْ من المنافقين؛ فقال: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧].

فما دام أنَّ اللهَ مطلعٌ عليهم، عالمٌ بكيدهم؛ فهو حَسْبُهم، وكفى به حسيبًا، وقد قال تعالى أيضًا في هذا الشأن: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

أما المنافقون من بعض قبائل العرب:

فقال تعالى فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا

(١) يُنظر: جامع البيان (١/ ٣٧٠).

هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨ ـ ٩].

قال ابنُ عباسٍ ﵄: «**يعني**: المنافقين من الأوس والخزرج، ومَنْ كان على أمرهم»[١].

فهم في ادعائهم الإيمانَ مخادعون، لا حقيقةَ لقولهم، ولا وفاءَ لعهدهم؛ «لأنَّ الإيمانَ الحقيقيَّ ما تواطَأَ عليه القلبُ واللسان، وإنما هذا مخادعةٌ لله ولعبادِهِ المؤمنين.

والمخادَعَةُ، والخَدْعُ: بمعنى واحد[٢]، **وحقيقةُ المخادعة**: أن يُظْهِرَ المخادِعُ لمن يخادعُهُ شيئًا، ويبطنَ خلافَهُ؛ لكي يتمكَّن من مقصوده ممَّن يخادع، فهؤلاءِ المنافقون سلَكُوا مع اللهِ وعبادِهِ هذا المسلكَ، فعاد خداعُهم على أنفسهم؛ فإنَّ هذا من العجائب؛ لأنَّ المخادعَ إمَّا أن يُنْتِجَ خداعُهُ ويُحَصِّلَ ما يريد، أو يَسْلَمَ لا له ولا عليه، وهؤلاءِ عاد خداعُهم عليهم، وكأنهم يعملون ما يعملون من المكرِ لإهلاكِ أنفسهم وإضرارِها وكيدها؛ لأنَّ الله تعالى لا يَتضرَّرُ بخداعهم شيئًا، وعبادُهُ المؤمنون لا يضرُّهم كيدهم شيئًا؛ فلا يضرُّ المؤمنين أنْ أظهَرَ المنافقون الإيمانَ، فسَلِمَتْ بذلك أموالُهم، وحُقِنَتْ دماؤهم، وصار كيدُهم في نحورهم، وحصَلَ لهم بذلك الخزيُ والفضيحةُ في الدنيا، والحزنُ المستمرُّ بسبب ما يحصُلُ للمؤمنين من القوةِ والنصرة، ثم في الآخرةِ لهم العذابُ الأليمُ الموجعُ المُفْجِعُ بسبب كَذِبهم وكُفْرهم وفجورهم، والحالُ أنهم من جهلهم وحماقتهم لا يَشْعُرونَ بذلك»[٣].

---

(١) أخرجه ابن جرير الطَّبَري (١/ ١١٦) من طريق محمد بن أبي محمد ـ مولى زيد بن ثابت ـ عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، وكذا فسَّرها بالمنافقين من الأوس والخزرج: أبو العالية، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي. **انظر**: الدُّر المنثور (١/ ٧٣ ـ ٧٤).

(٢) **انظر**: لسان العرب (خدع) (٨/ ٦٣). (٣) تيسير الكريم الرحمٰن (ص٤٢).

وقد ردَّ عليهم القرآنُ بما يلي:

أولًا: بيانُ أنَّ كُفْرَهم ومخادَعَتَهُمْ لا تضرُّ في الحقيقة إلا أنفسهم؛ **فقال تعالى:** ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩] لأنهم وإن ادَّعوا الإيمانَ في الدنيا، فإنهم سيحاسبون على ما في قلوبهم في الآخرة، وسَيُجَازَوْنَ على ذلك جزاءً وفاقًا.

ثانيًا: بيانُ أنَّ سببَ كُفْرِهِم هو مرَضُ قلوبهم بالشكِّ، والريبةِ، والشركِ، ومَنْ كان هذا باطنَهُ؛ فبطنُ الأرضِ خيرٌ له من ظاهرها؛ **قال تعالى:** ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

ثالثًا: ترهيبُهم، وتوعُّدهم بالعذاب في الآخرة؛ قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٤ ـ ١٦].

والآيةُ تعمُّ منافقي اليهود، ومَنْ تابعهم على فِعْلِهم من المشركين، فهم يدَّعون الإيمان عندَ لقاءِ المؤمنين، ويزعمون عندَ رؤوسهم في الكفرِ[1]، ومَنْ هم على ملتهم: أنهم يستهزئون بالمؤمنين.

---

(١) قال ابن مسعود: «﴿شَيَٰطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤]: رؤساؤهم في الكفر»، وقال: قتادة: «إلى إخوانهم من المشركين ورؤوسهم، وقادتهم في الشر»؛ أخرجهما الطَّبَري (١/ ١٣١). وقال مجاهد: «إلى أصحابهم»؛ أخرجه عبد بن حميد، عن شَبابَة، عن ورقاء، عن ابن أبي نَجِيح، عنه، به. **انظر:** فتح الباري (٨/ ١٦١). **وقد اختلف المفسرون فيمن نزلت على قولين:**
«**أحدهما:** أنها نَزَلَتْ في عبد الله بن أبي وأصحابه؛ قاله ابن عباس.
والثاني: أنها نزلت في المنافقين وغيرهم من أهل الكتاب الذين كانوا يظهرون =

قال ابن عباس: «كان رجالٌ من اليهودِ إذا لَقُوا الصحابة، قالوا: إنا على دِينِكُمْ، وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم - وهم أصحابُهُمْ - قالوا: إنا معكم»[1].

وهذه في الحقيقةُ مقولةٌ واحدة؛ فإنَّ إخبارهم المؤمنين بخلاف ما في قلوبهم؛ هو استهزاؤُهُمُ المزعوم؛ وذلك لأن معنى قولهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾: أنا لم نؤمنْ بالنبيِّ، ولم نَتْرُكْ ما نحنُ عليه، وقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ خَبَرٌ بهذا المعنى بعينه؛ لأنه لا فَرْقَ بين أن يقولوا: إنا لم نقلْ ما قلناه مِنْ أنا آمنا إلا استهزاءً، وبين أن يقولوا: إنا لم نَخْرُجْ من دينكم، وإنا معكم، بل هما في حكم الشيءِ الواحد؛ فصارَ كأنهم قالوا: إنا معكم لم نُفارِقْكم، فكما لا يكونُ إنا لم نفارقكم شيئًا غيرَ إنا معكم، كذلك لا يكون إنما نحن مستهزئون[2].

وهكذا **قولُهُ تعالى**: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

فقال: ﴿يَخْدَعُونَ﴾، ولم يقلْ: ويخادعون؛ لأن هذه المخادعةَ ليستْ شيئًا غيرَ قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ من غير أن يكونوا مؤمنين، فهو إذًا كلامٌ أُكِّدَ به كلامٌ آخر هو في معناه، وليس شيئًا سواه.

وهكذا قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

وقد أبطل الله تعالى مقولتهم في الحالين:

أولًا: أنَّ الله تعالى **قال**: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، ففي

= للنبيِّ ﷺ من الإيمان ما يَلْقَوْنَ رؤساءهم بضده؛ قاله الحسن». انظر: زاد المسير (١/ ٣٤).

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ١٢٩) من طريق الضَّحَّاك، عنه، به.

(٢) انظر: دلائل الإعجاز، للجرجاني (ص١٧٨).

الحقيقةِ هم لا يستهزئون بالمؤمنين؛ لأنَّهم الخاسرون في نهايةِ الأمر؛ فكَوْنُهم هم المستهزَأُ بهم هو الموافقُ لحقيقةِ الحال.

ولمَّا كان ضررُ فِعْلِهم عليهم، وهم يَحْسَبُون أنهمَ يحسنونَ صنعًا، كان الله تعالى في الحقيقةِ هو الذي يستهزئُ بهم.

واستهزاءُ اللهِ تعالى بهم يَظْهَرُ: في أنه يعاملُهم معاملةَ المستهزئ في الدنيا، وفي الآخرة:

أمَّا في الدنيا: فلأنهم يعاملون معاملة المؤمنين، لهم ما للمؤمنين، وعليهم ما عليهم. **أما في الآخرة:** فأخبَرَ ابنُ عباس رضي الله عنه، قال: «بينما الناسُ في ظُلْمَةٍ، إذْ بَعَثَ اللهُ نورًا، فلمَّا رأى المؤمنونَ النورَ، توجَّهوا نحوه، وكان النورُ دليلًا لهم مِنَ اللهِ إلى الجنَّةِ، فلمَّا رأى المنافقونَ المؤمنينَ، انطَلَقُوا إلى النورِ تَبِعُوهم، فأظلَمَ اللهُ على المنافقين، فقالوا حينئذٍ: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، فإنا كنا معكم في الدنيا.

قال المؤمنون: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣] مِنْ حيثُ جئتم مِنَ الظلمةِ، فالتمسوا هنالكَ النورَ»(١).

وقد أخبَرَ اللهُ تعالى عنهم في عَرَصَاتِ القيامة **بقوله:** ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٣، ١٤].

قال أبو أُمامَةَ الباهليُّ رضي الله عنه: «وهي خَدْعَةُ اللهِ التي خَدَعَ بها المنافقين؛ **حيثُ قال:** ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]،

---

(١) أخرجه ابن جرير الطَّبَري (٢٧/ ٢٢٤) من طريق الضَّحَّاك، وانظر: الدُّر المنثور (٨/ ٥٣ _ ٥٤).

فيرجعون إلى المكانِ الذي قُسِّمَ فيه النور، فلا يجدونَ شيئًا فينصرفونَ إليهم: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ﴾ [الحديد: ١٣]»[١].

قال مجاهد: «إنَّ المنافقين كانوا مع المؤمنين أحياءً في الدنيا يناكحونهم ويعاشرونهم، وكانوا معهم أمواتًا، ويُعْطَوْنَ النورَ جميعًا يومَ القيامةِ، فيطفأُ نُورُ المنافقين إذا بَلَغُوا السور، يمازُ بينهم يومئذٍ، والسورُ كالحجابِ في الأعرافِ؛ فيقولون: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٤]»[٢].

ثانيًا: ببيانِ كَذِبِهِمْ، وأنهم أهلُ ضلالةٍ وكفر؛ **فقال**: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

«**أي**: رغبوا في الضلالة رغبة المشتري في السِّلْعَةِ التي مِنْ رغبتِهِ فيها يَبْذُلُ فيها الأثمانَ النفيسة؛ وهذا من أحسنِ الأمثلة؛ فإنه جعَلَ الضلالةَ التي هي غايةُ الشَّرِّ كالسِّلْعَةِ، وجعَلَ الهدى الذي هو غايةُ الصلاحِ بمنزلة الثمن، فبذَلُوا الهدى رغبةً عنه بالضلالة رغبةً فيها؛ فهذه تجارتُهُمْ فبئسَ التجارة! وهذه صفقتُهُمْ فبئستِ الصفقة!

وإذا كان مَنْ يبذُلُ دينارًا في مقابلةِ دِرْهَمٍ خاسرًا، فكيفَ من بَذَلَ جوهرةً، وأخَذَ عنها درهمًا؟! فكيف مَنْ بَذَلَ الهدى في مقابلةِ الضلالة، واختارَ الشقاءَ على السعادة، ورَغِبَ في سافلِ الأمورِ عن أعاليها؟! فما ربحتْ تجارتُهُ بل خَسِرَ فيها أعظَمَ خسارة»[٣].

---

(١) أخرجه عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد (ص١٠٨) من طريق صفوان بن عمرو، حدثنا: سليم بن عامر، عنه، به، وأخرجه من طريق ابن المبارك ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٣٧). **وانظر**: الدُّر المنثور (٨/ ٥٣).

(٢) أخرجه ابن جرير الطَّبَري (٢٧/ ٢٢٦) من طريق ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عنه، به، وذكره ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٣٨) معلقًا عنه. **وانظر**: الدُّر المنثور (٨/ ٥٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمٰن (ص٤٢).

المطلب الثاني

تركُ الإيمانِ تقليدًا للآباءِ والمتقدِّمين[(١)]

مِنَ المقولاتِ التي تعلَّل بها أعداءُ الرسلِ عن تركِ اتباعِ رُسُلِهم صلى الله عليهم وسلم أنَّهم وَجَدُوا آباءَهم على الكفرِ، وأنهم على ما وَجَدُوا آباءهم مقتدون.

وقد عاب اللهُ ﷻ على المقلِّدين تقليدَهُمْ، وذمَّهم على جَعْلِهم التقليدَ دليلًا على صحة ما هم عليه.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠][(٢)].

والضميرُ في هذه الآيةِ يحتملُ أن يكونَ عائدًا للمشركين؛ لأنَّ سياقَ الآياتِ كان في حقِّهم؛ فإنه قال في مطلع الآيات: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ

---

(١) التقليد: «اتباعُ الإنسانِ غيرَهُ فيما يقوله أو يفعلُهُ، معتقدًا أحقِّيته، من غير نظر وتأمل في الدليل؛ كأن المتبع جعل قول الغير أو فعله: قلادةً في عنقه». انظر: التعريفات للمناوي (ص١٩٩).

(٢) والآيات في هذا الباب كثيرة، منها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، ﴿قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨]، ﴿قَالُوا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣]، ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١] ﴿وَقَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧].

مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقد ورَدَتْ في سورةِ المائدةِ آيةٌ مشابهةٌ لهذه الآية، وهي **قوله تعالى:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

هذه الآيةُ جاءتْ في سياقِ الردِّ على المشركين في ابتداعهم البَحِيرةَ، والسائبةَ، والوصيلةَ، والحامَ؛ **فقال قبل هذه الآية:** ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣][(١)].

---

(١) في آية سورة البقرة قال تعالى: ﴿مَآ أَلْفَيْنَا﴾، ﴿ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [١٧٠]، وأما في سورة المائدة فقال: ﴿مَا وَجَدْنَا﴾، و﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١٠٤]، فلماذا قال في آية سورة البقرة: ﴿أَلْفَيْنَا﴾، و﴿ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، وقال في سورة المائدة: ﴿وَجَدْنَا﴾، و﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾؟ قال بعض المفسِّرين: ﴿أَلْفَيْنَا﴾ أخصُّ من كلمة ﴿وَجَدْنَا﴾ فيقال: وجدتُ الشيء، فلا يحتاجُ لمفعولٍ ثانٍ: إذا وجدته عن عدم؛ نحو: وجدتُ الضالة، ويحتاجُ لمفعولٍ ثانٍ في مثل: وجدتُ زيدًا عاقلًا، أما: ألفيت، فلا بد لها من مفعول ثانٍ، فلا يُقال: ألفيتُ درهمًا، ولا ألفيتُ الضالة، وإنما يُقال: ألفيتُ زيدًا عاقلًا، فاستعمَلَ في سورة البقرة اللفظَ الأخص، وهو أولى، واستعمَلَ في سورة المائدة اللفظَ المشترك؛ ليُعاد إلى الموضعِ الأول، فكان أنسب.
أما العلمُ: فهو إدراكُ الشيء على ما هو به، مع سكون إليه، أما العقلُ: فهو الشدُّ، والحبسُ، فمعنى يعقلُ: يحصُرُهُ بإدراك له عما لا يدركه؛ ولذلك يجوز أن نقول: يعلم الله كذا، ولا يجوز أن تقول: يعقل الله كذا؛ لأن العقل: الشدُّ، والعاقلُ الذي يحبسُ نفسه عما تدعو إليه الشهوات، ولا شهوة لله تعالى، فيُحْبَس عنها؛ فلذلك لا يُقال لله: عاقل، ويقال: عَقَلَ فلانٌ الشيءَ، وهو يعقله؛ بمعنى: حصرِهِ بإدراكه له عما لا يدركه، وشدِّه بتمييزه له عن غيره مما لا يدركه؛ وهذا لا يصلح في حق الله تعالى؛ فيُعلم من هذا أن رتبة: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ زائدة على رتبة: ﴿لَا﴾ فأخبر الله تعالى عن الكفار في سورة المائدة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؛ فبين أنهم أرجعوا =

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ عائدًا لليهود؛ فإنَّ سياق الآياتِ كان فيهم؛ ولذا قال ابن عباس: «دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الْيَهُودَ إِلَى الإِسْلامِ، وَرَغَّبَهُمْ فِيهِ، وَحَذَّرَهُمْ عَذَابَ اللهِ وَنِقْمَتَهُ؛ فقال لَهُ رَافِعُ بْنُ خَارِجَةَ، وَمَالِكُ بْنُ عَوْفٍ: بَلْ نَتَّبِعُ يا مُحَمَّدُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا فَهُمْ كَانُوا أَعْلَمَ وَخَيْرًا مِنَّا؛ فَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]»(١)؛ وهو الذي رجَّحه الطبري(٢).

= رتبة العلم بصحةِ ما كان آباؤهم عليه؛ لأنهم قالوا: ﴿حَسْبُنَا﴾، ولفظة «حسبنا» تُستعملُ فيما يكفي في بابه، ويغني عن غيره، فالمُدْرِكُ للشيء إذا أدْرَكَهُ على ما هو به، وسَكَنَتْ نفسُهُ إليه، فذاك حسبه؛ فاستعمل لفظة: ﴿شَيْئًا﴾، ونفى عنهم النهاية؛ لأنهم ادعوها بقولهم: ﴿حَسْبُنَا﴾، فكأنهم قالوا: معنا علمٌ سَكَنَتْ نفوسنا إليه مما وجدنا عليه آباءنا من الدِّين، فنفى ما ادعوه بعينه؛ وهو العلم.

وأما في سورة البقرة، فلم يَحْكِ عنهم فيه أنهم ادعوا تناهيهم في معرفة ما اتبعوا عليه آباءهم، بل كان قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [١٧٠]، ولم يدعوا أن ما ألفوا عليه آباءهم كان كافيهم، وحسبهم، فاكتفى بنفي أدنى منازلِ العلمِ لتكون كلُّ دعوى مقابلةً بما هو بإزائها مما يبطلها. انظر: درة التنزيل، للخطيب الإسكافي (١/ ٣١٣ ـ ٣١٥).

(١) أخرجه ابن جرير الطَّبَري (٢/ ٧٨)، قال: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبير، عنه، به. وانظر: الدُّر المنثور (١/ ٤٠٥).

(٢) حيث قال: «وأشبه عندي وأولى بالآية: أن تكون الهاءُ والميمُ في قوله: ﴿لَهُمُ﴾ [البقرة: ١٧٠] مِنْ ذكرِ الناس، وأن يكون ذلك رجوعًا من الخطاب إلى الخبر عن الغائب؛ لأن ذلك عقيب قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٨] فَلأَنْ يكون خبرًا عنهم أولى من أن يكون خبرًا عن الذين أخبر أن منهم من يتخذ من دون الله أندادًا مع ما بينهما من الآيات، وانقطاع قصصهم بقصة مستأنفة غيرها... فإن قال قائل: وما دليلُكَ على أن المقصود بهذه الآية اليهود؟ قيل: دليلنا على ذلك ما قبلها من الآيات، وما بعدها؛ فإنهم هم المعنيون به، فكان ما بينهما بأن يكون خبرًا عنهم أحق وأولى =

ويحْتَمِلُ ـ وهو الأقربُ ـ أن يكون الضميرُ عائد إلى أقربِ مذكور، وهم الناس؛ فإنه قال قبل هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

فيكونُ الخطابُ عامًّا أريد به خاصٌّ، فتعمُّ الآيةُ كلَّ من امتنع عن اتباعِ الحق؛ من اليهودِ، والنصارى، والمشركين، والمنافقين.

وعلى كل الاحتمالاتِ: ففي الآيةِ بيانٌ لموقفِ المعاندينَ من الاستجابةِ لنداءِ الحق، وهو أنهم وَجَدُوا آباءهم على أمرٍ، فلا يستطيعونَ مخالفتهم فيه!

وقال تعالى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢ ـ ٢٤].

فأخبَرَ عن المشركين أنهم اعتَذَرُوا عن اتباعِ الحق، بأنهم وجدوا آباءَهم على طريقة، وهم عليها مهتدون، ثم أخبَرَ أن هذا المانعَ أجابَ به أعداءُ الرسلِ في كلِّ زمان، ومكان.

وليس للمشركين وَفْقَ الآياتِ الواصفةِ موقفهم من الحقِّ سوى هذه العِلَّةِ العليلة!

وقد أبطَلَ القرآنُ مقالتهم هذه، وذمَّها بعدةِ طرق:

الطريق الأول: التحذيرُ من اتباعِ خطواتِ الشيطان؛ ففي الآية

= من أن يكون خبرًا عن غيرهم، حتى تأتي الأدلةُ واضحةً بانصراف الخبر عنهم إلى غيرهم، هذا مع ما ذكرنا من الأخبار عمن ذكرنا عنه أنها فيهم نزلت، والرواية التي روينا عن ابن عباس: أن الآية التي قبل هذه الآية نزلت فيهم». جامع البيان (٢/٧٨).

الأولى من سورةِ البقرة، ذَكَرَ الله ﷻ تحذيرًا للناس من اتباعِ خطواتِ الشيطانِ؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]، «وإنما ذَكَرَ تعالى هذه الآيةَ عقيبَ الزَّجْرِ عن اتباعِ خُطُواتِ الشيطانِ؛ تنبيهًا على أنه لا فَرْقَ بين متابعةِ وساوسِ الشيطان، وبين متابعِ التقليد، وفيه أقوى دليلٍ على وجوبِ النظرِ والاستدلالِ وتركِ التعويلِ على ما يَقَعُ في الخاطرِ من غيرِ دليلٍ، أو على ما يقوله الغيرُ من غير دليل»[1].

الطريق الثاني: التعجُّبُ من حالِ المقلِّدين؛ حيثُ يقلِّدُون من لا يعلمون صدقَ قوله، بل لو أمعنوا النظر، لجزموا بكذبه، ولِتَرْكِهِمُ اتباعَ مَنْ يَرَوْنَ الحقَّ، والدليلَ والعلمَ معه؛ **فقال**: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]: فتعجَّب من حالهم؛ **أي**: كيف يتبعونهم، والحالُ أنهم لا يعقلون في كُفْرِهم وشِرْكهم، ولا يهتدون للحقِّ، والصواب؟!

الطريق الثالث: تمثيلُ حالِ المقلِّد؛ فضرب لهم في تقليدهم الأعمى مثلًا؛ **فقال**: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وهذا مَثَلٌ ضربَهُ اللهُ تعالى للمقلِّد، وفيه تنبيهٌ بليغٌ لمن تأمله؛ فإنَّ المقلِّد في دعائه لمن لا يسمعه، أو لمن لا يملكُ نفعه؛ كحالِ الراعي الذي يصيحُ على غنمه، وهي لا تفهم شيئًا مما يقول!

قال ابنُ عباس: «كَمَثَلِ البعيرِ، والحمارِ، والشاةِ، إنْ قلتَ لبعضها: كل! لا يعلمُ ما تقول، غيرَ أنه يسمعُ صوتك، وكذلك الكافرُ إنْ أمَرْتَهُ بخير، أو نهيتَهُ عن شر، أو وَعَظْتَهُ؛ لم يعقلْ ما تقولُ، غيرَ أنَّه

---

(١) التفسير الكبير (٥/٧).

يسمعُ صوتك!»[١].

وهذا على القولِ بالإضمارِ في هذه الآية، فالمضمرُ هنا هو المدعوُّ، فيكونُ المَثَلُ للذين كفروا أنهم في دعائهم لآلهتهم مِنَ الأوثان؛ كمَثَلِ الناعقِ في دعائه لمن لا يسمعه، فشبَّه الأصنامَ في أنها لا تفهمُ بهذه البهائم. وقد يكونُ المضمَرُ هو الداعي، فتكونُ الآيةُ مَثَلًا لمن يدعو الذين كفروا إلى الحق، فحالُهُ كمَثَلِ الذي ينعق بما لا يسمعه. فالناعقُ بمنـزلةِ الداعي إلى الحقِّ، والمنعوقُ هم الكفَّار، ووجهُ التشبيهِ: أنَّ البهيمةَ تسمعُ الصوتَ، ولا تفهمُ المرادَ، وهؤلاءِ الكفارُ كانوا يسمعون صوتَ الرسولِ وألفاظَهُ، وما كانوا ينتفعون بها وبمعانيها.

قال مجاهدٌ: «كمَثَلِ الذي ينعقُ الراعي بما لا يسمعُ من البهائم»[٢].

فمعنى الآية على كلا الوجهَيْن: «ومَثَلُ الذين كفروا في قِلَّةِ فهمهم عن اللهِ وعن رسولِهِ؛ كمَثَلِ المنعوقِ به مِنَ البهائمِ، الذي لا يفقهُ من الأمرِ والنَّهيِ غيرَ الصوتِ؛ وذلك أنَّه لو قيل له: اعْتَلِفْ، أو رِدِ الماءَ؛ لم يَدْرِ ما يقال له، غيرَ الصوتِ الذي يسمعه مِنْ قائله، فكذلكَ الكافرُ مَثَلُهُ في قلةِ فهمِهِ لما يؤمرُ به وينهى عنه بسوءِ تدبُّره إياه، وقلةِ نظرِهِ وفكرِهِ فيه مثَلُ هذا المنعوقِ به فيما أُمِرَ به ونُهِيَ عنه، فيكون المعنى للمنعوقِ به، والكلامُ خارجٌ على الناعق... ونظائرُ ذلك من كلامِ العربِ أكثَرُ من أن يحصى مما توجِّهُه العربُ من خبرِ ما تخبرُ عنه، إلى ما

(١) أخرجه ابن جرير الطَّبَري (٢/ ٨٠)، قال: حدثني محمد بن سعد، قال: حدثني أبي، قال: حدثني عمي، قال: حدَّثني أبي عن أبيه، عنه، به. وانظر: الدُّر المنثور (١/ ٤٠٥).

(٢) أخرجه ابن جرير الطَّبَري (٢/ ٨٠)، قال: حدَّثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى، عن ابن أبي نجيح، عنه، به.

صاحَبَهُ لظهورِ معنى ذلك عند سامعه؛ فتقول: اعرضِ الحوضَ على الناقةِ، وإنما تُعْرَضُ الناقةُ على الحوض، وما أَشْبَهَ ذلك من كلامها»(١).

وقد قال ابنُ زيد: «الرجلُ الذي يصيحُ في جوفِ الجبال، فيجيبُهُ فيها صوتٌ يراجعُهُ يقالُ له: الصدى، فمثَلُ آلهةِ هؤلاءِ لَهم؛ كمثلِ الذي يجيبُهُ بهذا الصوتِ لا ينفعُهُ لا يسمعُ إلا دعاءً ونداء»(٢).

الطريق الرابع: تبكيتُهُمْ على تقليدهم؛ فقال في ختم الآية: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]؛ وهذا زيادةٌ في تبكيتهم؛ لأنهم صاروا بمنزلةِ الصمِّ في أن الذي سمعوه كأنهم لم يسمعوه، وبمنزلةِ البُكْمِ في ألَّا يستجيبوا لِمَا دُعُوا إليه، وبمنزلةِ العُمْيِ من حيثُ إنَّهم أعْرَضُوا عن الدلائل؛ فصاروا كأنهم لم يشاهدوها(٣).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: (**إِنَّ اللهَ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**)(٤).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «ألَا لا يُقَلِّدَنَّ أحدُكُمْ دِينَهُ رجلًا، إنْ آمَنَ، آمن؛ وإنْ كَفَر، كفر؛ فإنه لا أُسْوَةَ في الشر»(٥).

وهذا كلُّه نفيٌ للتقليدِ وإبطالٌ له؛ لِمَنْ فَهِمَهُ وهُدِيَ لرشده.

---

(١) جامع البيان (٢/ ٨١). وانظر: التفسير الكبير (٢/ ٨٠).

(٢) جامع البيان (٢/ ٨١).

(٣) انظر: التفسير الكبير (٢/ ٨٢).

(٤) أخرجه البخاري، باب كيف يُقْبَض العلم، رقم (١٠٠).

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير، رقم (٨٧٦٤)، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السُّنَّة (١/ ٩٣)؛ من طريق سلمة بن كهيل، عن أبي الأحوص، عنه، به، قال في مجمع الزوائد (١/ ١٨٠): «ورجاله رجال الصحيح».

المَطْلَبُ الثَّالِثُ

تركُ الإيمانِ بِحُجَّةِ ضعفِ أَتباعِهِ

مِنَ المقولاتِ التي تتابَعَ عليها خصومُ الأنبياء: الطعنُ في صدق النبيِّ، وتعليلُ تركِ اتِّباعهم له؛ لضعفِ أَتْباعه، وضعفِ حالهم، وكراهةِ مجالستهم، والاختلاطِ بهم كِبْرًا، وطغيانًا!

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٥ ـ ١١٠].

﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١١ ـ ١١٥].

قال قتادة: «والأرذلون: هم سفلة الناس وأراذلهم»[(١)].

وقال مجاهد: «الحَوَّاكون»[(٢)].

﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]. ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

---

(١) أخرجه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/٢٧٨٨)، قال: حدثنا محمد بن يحيى، أنبا العباس بن الوليد، ثنا يزيد بن زريع، عنه، به.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٨/٢٧٨٨) من طريق ابن أبي نجيح، عنه، به، وهذا تفسيرٌ على المعنى، فالحياكة: هي النسج، والخياطة. انظر: مختار الصحاح (ص٦٨).

وإنما وصفوهم بذلك؛ لِفَقْرِهم، ورِثَّةِ حالِهم؛ وهذا لجهلهم؛ فإنهم اعتقدوا أنَّ الشرفَ هو بالمال، والجاه، وما يزين الإنسان في الحياة الدنيا[١].

ويشملُ وصفُهم لهم بالأراذلِ: أنهم لا كلمةَ لهم، ولا رأيَ؛ لذا فهم إنما آمنوا؛ لقلة علمهم، وضحالة تفكيرهم، وضعف رأيهم.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢، ٥٣].

وقد اشْتَمَلَ رَدُّ القرآنِ على مقولتهم عدةَ جوانب:

الجانب الأول: أنَّ مهمةَ النبيِّ هي دعوةُ قومه، بغضِّ النظرِ عن أجناسهم وأنسابهم وأحسابهم؛ لأنَّ العبرةَ بالإيمانِ بخالقهم جميعًا.

ويَتمثَّلُ هذا الردُّ في **قوله تعالى عن نوح** عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٤ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١٤، ١١٥].

وفي **قوله تعالى:** ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

قال عُيَيْنَةُ بنُ حِصْنٍ للنبيِّ ﷺ: إنْ سَرَّكَ أن نتبعك؛ فاطرُدْ عنك فلانًا وفلانًا! فإنَّه قد آذاني رِيحُهم - يعني: بلالًا، وسلمانَ، وصهيبًا، وناسًا من ضعفاء المسلمين؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢].

---

(١) التسهيل، لعلوم التنزيل (٢/ ١٠٤).

(٢) أخرجه الطَّبَري من طريق ابن مسعود رضي الله عنه (٧/ ٢٠٠)، وأخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١٢٩٧) =

وقد تناوَبَتْ مهمةُ الأنبياءِ على تذكيرِ أقوامهم بهذِهِ الحقيقة.

قال النبيُّ ﷺ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَأَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، ولا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، ولا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، ولا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ؟

قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ...)[1].

الجانب الثاني: أن محاسبة أتباع الدعوة هو شأنُ الله تعالى شأنه، لا دَخْلَ لنبيٍّ مرسل، ولا لملَكٍ مقرَّبٍ بها، ويتمثَّلُ هذا الجانبُ في قوله تعالى عن نوحٍ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ١١٣].

الجانب الثالث: أنّ أتباعَ الأنبياءِ هم الفائزونَ برضا الله تعالى، والقربِ منه في الآخرة، سواءٌ كانوا في الدنيا من الأغنياء، أو من الفقراء!

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩].

فعلَّل امتناعَهُ عن طَرْدِهم أنهم فائزون في الآخرةِ بلقاءِ الله ﷻ؛ كأنه قال: لا أَطْرُدُهم، ولا أُبْعِدُهم عن مجلسي؛ لأنهم مقرَّبون في الآخرة من ربِّهم[2].

الجانب الرابع: أنَّ النبيَّ لا يحقُّ له أنْ يَطْرُدَ المؤمنينَ باللهِ مهما قلَّ شَأْنُهم، وضَعُفَ في الدنيا حَظُّهم.

= من طريق خباب، وعبد الرزاق في تفسيره (١/ ٤٣٥) من طريق قتادة.

(١) أخرجه الإمام أحمد، من طريق أبي نضرة، حدَّثني مَنْ شهد خطبة النبي ﷺ بمنى، وهو على بعير، يقول:... قال في مجمع الزوائد: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح». وأخرجه الطبراني (١٨/ ١٢) من طريق شعيب بن عمر، وضعفه في مجمع الزوائد (٣/ ٢٧٣). **وانظر**: الدُّر المنثور (٧/ ٥٧٩).

(٢) **انظر**: تفسير ابن أبي السعود (٤/ ٢٠٢).

وعليه يدل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٩].

أي: «مصدِّقون في الدنيا بلقاءِ ربِّهم، موقنون به، عالمون أنهم ملاقوه لا محالة؛ فكيف أَطْرُدهم؟!»[١].

(١) تفسير ابن أبي السعود (٤/ ٢٠٢).

المَطْلَبُ الرَّابِعُ

تركُ الإيمانِ تشاؤمًا

من المقولات التي تتابَعَ عليها المشركون، والمنافقون، ومَنْ في قلبه مَرَضٌ: نسبةُ كلِّ بلاءٍ، ومصابٍ إلى رُسُلِهم والمؤمنين!

فهؤلاءِ قومُ صالحٍ يقولون: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧].

وأخبَرَ اللهُ تعالى عن قول أصحابِ موسى له: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

والسيئةُ هي إصابتُهُمْ بالقَحْطِ، والنقصِ في الثمرات؛ حيثُ ابتلاهم به اللهُ تعالى لعلَّهم أن ينيبوا ويرجعوا، فازدادوا ضلالًا، وجعلوها **تشاؤمًا** بموسى، فكانوا إذا اتفَقَ لهم اتفاقٌ حسَنٌ في غَلَّاتٍ ونحوها؛ قالوا: هذا لنا وبسببنا، وإذا نالهم ضُرٌّ؛ قالوا: هذا بسبب موسى وشؤمه[1]!!

وقال أصحابُ القريةِ لِرُسُلِهم: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٨، ١٩].

وقال المشركونَ لرسولِ الله ﷺ: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٣٠) من طريق ابن أبي نجيح، عن مجاهد.

وأخبَرَ القرآنُ عمن في قلوبهم مرضٌ أنهم قالوا: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٧٨].

والتطيُّرُ المذكورُ في القرآنِ مأخوذٌ من طَيَرانِ الطَّيْرِ؛ وذلك أنَّ «العرَبَ كانوا في جاهليَّتهم إذا أرادوا الإقدامَ على عملٍ من الأعمال، وأرادوا أن يعرفوا أن ذلك العملَ يسوقُهم إلى خيرٍ أو إلى شر، اعتَبَرُوا أحوالَ الطَّيْر، وهو أنه يَطِيرُ بنفسه، أو يحتاجُ إلى إزعاجِهِ، وإذا طار فهل يطيرُ متيامنًا، أو متياسرًا، أو صاعدًا إلى الجو، إلى غير ذلك من الأحوالِ التي كانوا يعتبرونها، ويستدلُّون بكلٍّ واحدٍ منها على أحوالِ الخيرِ والشرِّ، والسعادةِ والنحوسة، فلمَّا كَثُرَ ذلك منهم، سُمِّيَ الخيرُ والشرُّ بالطائرِ؛ تسميةً للشيءِ باسمِ لازمِهِ ونظيره.

قال أبو عُبَيْدَةَ: «الطائرُ عندَ العرب: الحظُّ، وهو الذي تسميه الفُرْسُ: البَخْتَ، وعلى هذا يجوزُ أن يكون معنى الطائرِ: ما طار له من خير وشر»[(١)].

وفي **قوله تعالى**: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ﴾ [الإسراء: ١٣] **تأويلان**:

الأول: **أن المراد بالطائرِ**: العَمَلُ؛ من قولهم: طارَ له سهمٌ: إذا خرَجَ له؛ **أي**: ألزمناه ما طار له مِنْ عمله.

الثاني: **أن المرادَ بالطائرِ**: ما سَبَقَ له في علمِ اللهِ مِنْ شقاوةٍ أو سعادة.

قال في «أضواء البيان»: «والقولانِ متلازِمان؛ لأنَّ ما يَطيرُ له من العملِ هو سَبَبُ ما يؤولُ إليه مِنَ الشقاوةِ أو السعادة»[(٢)].

(١) **انظر**: لسان العرب (طير) (٤/ ٥١٢). (٢) أضواء البيان (٣/ ٦٠).

ومعنى: ﴿فِي عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]؛ أي: لازمًا له لزومَ القِلادَةِ، أو الغُلِّ، لا ينفكُّ عنه.

وقد أبطَلَ القرآنُ العظيمُ دعوى المشركينَ هذه بأربعةِ طرق:

الطريق الأول: نسبةُ كلِّ ما يقع في الكونِ لِقَدَرِ اللهِ تعالى؛ فما شاء كان، وإنْ لم يشأِ العبادُ، وهذا جاء مصرَّحًا به؛ **قال تعالى**: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]، ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٤٧].

فمعنى ﴿طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ **أي**: حظُّهم ونصيبُهم[١]، وما كُتِبَ لهم، هو عند الله تعالى، قد قدِّر وفُرِغَ منه.

«فسمِّي ما عند الله مِنَ القَدَرِ للإنسان طائرًا، لمَّا كان الإنسان يعتقدُ أن كلَّ ما يصيبه إنما هو بحَسَبِ ما يراه في الطائرِ؛ فهي لفظةٌ مستعارة»[٢].

فما أصابهم قَدَرٌ قدَّره الله تعالى عليهم؛ فهو عنده في كتابٍ لا يضلُّ ربي ولا ينسى.

الطريق الثاني: بيانُ أن ما يعملُهُ العبد في الدنيا، فهو وإنْ كان بِقَدَرِ الله، إلا أنَّ العبدَ له اختيارٌ في ذلك؛ ولهذا لما نَحا هؤلاء المكذِّبون باللائمةِ على رسلهم، نبَّههم القرآنُ على أن ما يشأمون منه هو بسبب ذنوبهم؛ ولذا قال المرسلون لهم: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ [يس: ١٩]؛ **أي**: سبَبُ شَؤْمِكم معكم، وهو كُفْرُكم، ومعاصيكم، وسوءُ أعمالكم.

فنسبوا الشؤمَ لهم؛ لأنهم سَبَبٌ له؛ فإنَّ الإيمان سَبَبٌ للرخاءِ والأمنِ؛ كما أن الكفر سَبَبٌ للبأساءِ والضراءِ؛ كما **قال تعالى**: ﴿وَلَوۡ أَنَّ

---

(١) أخرجه الطَّبَري عن ابن عباس ﵄.

(٢) المحرر الوجيز، في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٤٤٣)، تفسير الثعالبي (٢/ ٤٧).

أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

ولذلك قالوا: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٩].

ففي الأسلوبِ «إضرابٌ عما تقتضيه الشرطيَّةُ مِنْ كونِ التذكيرِ سببًا للشؤم، أو مصحِّحًا للتوعُّد؛ أي: ليس الأمر كذلك؛ بل أنتم قومٌ عادتكم الإسرافُ في العصيان؛ فلذلك أتاكم الشؤم؛ ولذلك توعَّدتم، وتشاءمتم بمن يجبُ إكرامه، والتبرُّكُ به»[1].

الطريق الثالث: بيانُ أنَّ ما يتطيَّرُ به المشركون، لرثاثةِ حالِ بعض أهلِ الإيمان، وضَعْفِهم، هو فتنةٌ لهم؛ ولذلك **قال سبحانه**: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧].

فتطيَّروا بالمؤمنين لِضَعْفهم؛ فأَخْبَرَ القرآنُ أنهم قوم يفتنون[2].

الطريق الرابع: ما جاءتْ به الشريعةُ من النهيِ عن التطيُّر، والتشاؤمِ بالمخلوقات، وعَدَّ ذلك من نسبةِ الفعلِ إلى غيرِ فاعله، وهو شركٌ، أو مِنْ نسبةِ الفعلِ إلى غيرِ مستَحِقِّه؛ وهو ظُلْمٌ.

فعن أنس ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: (**لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ**؛ قالوا: وَمَا الفَأْلُ؟ قال: **الكَلِمَةُ الطيِّبَةُ**)[3].

وعن أبي هريرة ﷺ؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: (**لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ، وَفِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الأَسَدِ**)[4].

فعن ابن بُرَيْدَةَ، عن أبيه، قال: «كان رسول الله ﷺ لا يتطيَّرُ من شيءٍ غيرَ، أنه كان إذا أرادَ أن يأتي أرضًا، سألَ عن اسمها؛ فإنْ كان

---

(١) تفسير أبي السعود (٧/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: مبحث الاغترار بالدنيا ونعيمها (ص٤٧٣) من البحث.

(٣) أخرجه البخاري، باب الفال، رقم (٥٤٢٤).

(٤) أخرجه البخاري، باب الجذام، رقم (٥٣١٢).

حسنًا، رُئِيَ البِشْرُ في وجهه، وإنْ كان قبيحًا، رُئِيَ ذلك في وَجْهِه»[١].

وعن عروة بن عامر رضي الله عنه، قال: ذُكِرَتِ الطيرةُ عندَ رسولِ الله ﷺ فقال: **(أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ، لَا يَأْتِي بِالحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ)**[٢].

«قال العلماء: **معناه**: أنَّ الطيرةَ شيءٌ تجدونه في نفوسكم ضرورةً، ولا عَتْبَ عليكم في ذلك؛ فإنَّهُ غيرُ مكتسبٍ لكم؛ فلا تكليفَ به، ولكن لا تمتنعوا بسببِهِ عن التصرُّفِ في أموركم؛ فهذا هو الذي تقدرون عليه، وهو مكتسب لكم، فيقع به التكليف؛ فنهاهم ﷺ عن العملِ بالطيرة، والامتناعِ عن تصرُّفاتهم بسببها...»[٣].

قال الرازي[٤]: «**والتحقيقُ في هذا الباب**: أنه تعالى خَلَقَ الخَلْقَ، وخصَّ كلَّ واحدٍ منهم بمقدارٍ مخصوصٍ من العقلِ، والعلمِ، والعمرِ، والرزقِ، والسعادةِ، والشقاوةِ، والإنسانُ لا يمكنُهُ أنْ يتجاوزَ ذلك القَدْرَ، وأن ينحرفَ عنه، بل لا بدَّ وأن يصلَ إلى ذلك القَدْرِ بحسبِ الكمية، والكيفية، فتلكَ الأشياءُ المقدورةُ كأنها تَطِيرُ إليه، وتصيرُ إليهِ؛ فبهذا المعنى لا يَبْعُدُ أن يعبَّر عن تلك الأحوالِ المقدَّرةِ بلفظ الطائر؛ **فقوله**: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]، كنايةٌ عن أن كلَّ ما قدَّره الله تعالى

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب: ذكر خبر ثان يُصرِّح بأن استعمال المصطفى ما وصفناه، كان على سبيل التفاؤل لا التطير، رقم (٥٨٢٧)، وأخرجه أبو داود في كتاب الطب، بابٌ في النجوم، رقم (٣٩٢٠)، وأخرجه البيهقي، رقم (١٦٢٩٨)، وصحح النووي إسناده في رياض الصالحين (ص٣٨١).

(٢) رواه أبو داود، رقم (٣٩١٩)، وصحح النووي إسناده في رياض الصالحين (ص٣٨١).

(٣) شرح النووي على مسلم (٥/ ٢٣ ـ ٢٤).

(٤) التفسير الكبير (٢٠/ ١٣٤).

ومضى في علمه حصولُهُ، فهو لازمٌ له، واصلٌ إليه، غيرُ منحرفٍ عنه.

واعلَمْ: أنَّ هذا من أدلِّ الدلائلِ على أنَّ كلَّ ما قدَّره الله تعالى للإنسان، وحكم عليه به في سابقِ علمه؛ فهو واجبُ الوقوع، ممتنعُ العَدَمِ، **وتقريرُهُ من وجهين**:

الوجه الأول: أنَّ تقديرَ الآية: وكلَّ إنسانٍ ألزمناه عَمَلَهُ في عنقه؛ فبيَّنَ تعالى أن ذلك العملَ لازمٌ له، وما كان لازمًا للشيء، كان ممتنعَ الزوالِ عنه، واجبَ الحصولِ له؛ وهو المقصود.

والوجه الثاني: أنه تعالى أضافَ ذلك الإلزامَ إلى نفسه؛ لأنَّ قوله: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ﴾ [الإسراء: ١٣] تصريحٌ بأن ذلك الإلزامَ إنما صَدَرَ منه؛ ونظيرَهَ **قوله تعالى**: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦].

وهذه الآيةُ دالَّةٌ على أنه لا يظهَرُ في الأبدِ إلا ما حكَمَ اللهُ به في الأَزَلِ، وإليه الإشارةُ بقوله عليه الصلاة والسلام: (**جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**)[(١)]».

---

(١) جزء من حديث الميثاق الشهير؛ أخرجه الطَّبَري بسنده، قال: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا حكام، قال: ثنا عمرو بن أبي قيس، عن عطاء، عن سعيد، عن ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قال: لـمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ، مَسَحَ ظهره بدجني، وأخرَجَ من ظهره كلَّ نَسَمة هو خالقُها إلى يوم القيامة، فقال: (**أَلَسْتُ بِرَبِّكُم؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَيَرَوْنَ يَوْمَئِذٍ؛ جَفَّ القَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**).

وهو كذلك جزءٌ من حديث ابن عباس الذي رواه عكرمة، عن ابن عباس، قال: كنت رديف رسول الله ﷺ، فقال: يا غلامُ، ألا أعلِّمك شيئًا ينفعُكَ اللهُ به؟ قلتُ: بلى يا رسول الله!، قال: (**احفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تعرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، إِذَا سَأَلْتَ فَسَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، فَقَدْ جَفَّ القَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ، فَلَوْ جَهِدَ الخَلَائِقُ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ لَكَ؛ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ، وَلَو جَهِدَ الخَلَائِقُ أَنْ يَضرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَكْتُبُهُ اللهُ عَلَيْكَ؛ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ**)؛ أخرجه بهذا اللفظ الإمام أحمد في مسنده، رقم (٢٨٠٤)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٢٢٣) من طريق علي بن أبي علي القرشي؛ وهو ضعيف.

وأمَّا المشركون: فإنهم علَّلوا تَرْكَ اتِّباعِهم لرسولِ اللهِ ﷺ بخوفِ تخطُّفِ العربِ لهم، واستئصالِهِمْ لشأفتهم؛ فقالوا كما أخبَرَ الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

والاختطافُ: الانتزاعُ بسرعة(١).

فعن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أنَّ ناسًا من قريشٍ قالوا للنبيِّ ﷺ: «إنْ نتبعك يَتخطَّفْنا الناسُ؛ فأنزَلَ الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ الآيَةَ»(٢).

وقال قتادة: «كان أهل الحرم آمنين، يذهبون حيثُ شاؤوا، فإذا خرَجَ أحدُهم، قال: أنا من أهل الحرم؛ لم يَعْرِضْ له أحدٌ، وكان غيرُهم من الناس إذا خَرَجَ أحدهم، قُتِلَ وسُلِبَ»(٣).

فردَّ عليهم القرآنُ قِيلَهُم بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]، وقال في موضع آخر: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

«يعني: هذا الذي اعتذَرُوا به كذبٌ وباطل؛ لأنَّ الله تعالى جَعَلَهم في بلدٍ أمين، وحَرَمٍ معظَّمٍ آمِنٍ منذ وُضِعَ، فكيفَ يكونُ هذا الحرَمُ آمنًا لهم في حالِ كُفْرِهم وشركهم، ولا يكونُ آمنًا لهم، وقد أسلموا وتابعوا الحق!... ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ ولهذا قالوا ما قالوا»(٤).

---

(١) تفسير البغوي (٣/ ٤٥١).

(٢) أخرجه ابن جرير الطَّبَري (٢٠/ ٩٤)، قال: حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عنه، به.

(٣) ابن جرير الطَّبَري (٢٠/ ٩٤) من طريق أبي سفيان، عن معمر، عنه، به.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٩٦).

وقيل: قولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧] متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾؛ أي: قليلٌ منهم يتدبَّرون؛ فيعلمون أن ذلك رزقٌ من عندِ اللهِ تعالى؛ إذْ لو عَلِمُوا، لَمَا خافوا غيره[1].

وقد هدَّدهم القرآنُ بأنهم إن استمرُّوا بالكفرِ والطغيان؛ فإنَّ ما هَرَبُوا منه، وزعَمُوا أنه المانعُ من اتباعهم دعوةَ النبيِّ ﷺ سوف يَحِلُّ بهم؛ فقال تعالى مباشرةً بعد الآيةِ السابقة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

فإنَّ من يُجْبَى لهم ثمراتُ كلِّ بلدٍ بكلِّ سهولة، ثم تتنكَّبُ طريقَ الإيمان بالله، وشكرِهِ على نعمه؛ فإنها قد بَطِرَتْ معيشتَهَا، وهي أهلٌ لأنْ تؤخذَ بظلمِها، وسوءِ فعلها.

وأما المنافقون، ومَنْ في قلبهم مرضٌ، فقد قالوا لرسولِ اللهِ ﷺ؛ كما أخبَرَ الله عنهم:

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

فقولُهم عن السيِّئة: ﴿هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾؛ أي: تشاؤمًا بِدِينك[2]، وقيل: أي: بسوءِ تدبيرك[3]!

والحسنةُ، والسيئةُ المرادتان هنا، قيل: الحسنةُ: هي الخِصْبُ، والمطَرُ، وقيل: هي الفتحُ والغنيمة، والسيئة: الجَدْبُ والغلاء، وقيل:

---

(١) تفسير أبي السعود (٧/ ١٩). وانظر: تفسير البيضاوي (٤/ ٢٩٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي. انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ١٠٠٩).

(٣) قاله عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم. انظر: الدُّر المنثور (٢/ ٥٩٦).

الهزيمةُ والجِرَاح[١].

وهذا القولُ منهم نتاجُ سُوءِ ظَنِّهم بربهم، وجَهْلِهم بسننه، وكتابه؛ «فإن ما جاء به الرسولُ ﷺ ليس سببًا لشيء من المصائب، ولا تكونُ طاعةُ اللهِ ورسولِهِ قطُّ سببًا لمصيبة، بل طاعةُ اللهِ والرسولِ لا تقتضي إلا جزاءَ أصحابِها بخيرَيِ الدنيا والآخرة، ولكنْ قد تصيبُ المؤمنينَ باللهِ ورسولِهِ مصائبُ بسببِ ذنوبهم، لا بما أطاعوا فيه اللهَ والرسولَ؛ كما لَحِقَهُمْ يومَ أُحدٍ بسببِ ذنوبهم، لا بسببِ طاعتهم اللهَ ورسولَهُ ﷺ، وكذلك ما ابتُلُوا به في السراءِ والضراءِ والزلزالِ، ليس هو بسببِ نفسِ إيمانِهِمْ وطاعتِهِمْ، لكنِ امتُحِنُوا به؛ ليتخلَّصوا مما فيهم من الشر.

وفتنوا به كما يُفْتَنُ الذهبُ بالنارِ ليتميَّز طِيبُهُ من خبيثِه، والنفوسُ فيها شَرٌّ، والامتحانُ يُمحِّصُ المؤمنَ من ذلك الشرِّ الذي في نفسه؛ **قال تعالى:** ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، **وقال تعالى:** ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ولهذا كانت المصائبِ تكفِّر سيئاتِ المؤمنين، وبالصبر عليها ترتفعُ درجاتُهم، وما أصابهم في الجهادِ مِنْ مصائبَ بأيدي العدوِّ، فإنَّه يعظُمُ أجرُهم بالصبرِ عليها.

وفي «الصحيح»[٢]، عن النبيِّ ﷺ، قال: (**مَا مِنْ غَازِيَةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ، فَيُصِيبُونَ الْغَنِيمَةَ، إِلَّا تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أَجْرِهِمْ مِنَ الْآخِرَةِ، وَيَبْقَى لَهُمُ الثُّلُثُ، وَإِنْ لَمْ يُصِيبُوا غَنِيمَةً، تَمَّ لَهُمْ أَجْرُهُمْ**).

---

(١) زاد المسير (٢/١٣٧).

(٢) أخرجه مسلم، من حديث عبد الله بن عمرو، باب بيان قدر ثواب من غزا فغنم، ومن لم يغنم، رقم (١٩٠٦).

وأمَّا ما يلحقُهم من الجوعِ والعطشِ والتعبِ، فذاك يُكْتَبُ لهم به عملٌ صالح؛ كما **قال تعالى**: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وشواهد هذا كثيرة»[١].

ولهذا **قال تعالى في خاتمةِ الآية**: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

وقال تعالى في الآيةِ التي بعدها: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

إشارةً بأنَّ طاعةَ الرسولِ: طاعةٌ للهِ، وطاعةُ اللهِ لا تكونُ سببًا للمصائب، بل هي سببٌ لكلِّ فوزٍ ورخاءٍ في الدارَيْنِ كما سبق تقريره[٢].

(١) مجموع الفتاوى (١٤/٢٥١ ـ ٢٥٧)؛ بتصرف يسير.

(٢) المرجع السابق.

المَطْلَبُ الْخَامِسُ

تركُ الإيمانِ تعنتًا وعنادًا

وقَفَ المشركون من دعوةِ النبيِّ ﷺ موقفَ العنادِ، والتعجيزِ من اللحظةِ الأولى التي قام فيها يدعوهم إلى عبادةِ اللهِ تعالى وحده، وطَرْحِ عبادةِ ما سواه.

فتارةً: يطلبون رؤيةَ الله تعالى! وتارةً: رؤيةَ الملائكةِ! وأخرى: أنْ يكونَ رسولُهم من الملائكة! ورابعةً: أن يريهم الرسولُ ﷺ بعضَ المُعجزاتِ المحسوسة؛ كتفجيرِ الأرضِ ينابيع، أو تحويلِ الصفا ذهبًا! إلى غيرِ ذلك من الخوارقِ التي ما أرادوا بها سوى التعنُّت، وتضليلِ الآخرين.

وأربابُ هذه المقالةِ هما: المشركونَ، واليهودُ، وقد استقصى القرآنُ الردَّ على الفريقين، وتفنيدَ ضلالاتهم.

وعند التأمُّلِ في الآياتِ التي حكَتْ تعنُّتَ المشركين وعنادهم، ومحاولتهم تعجيزَ الرسلِ، نجدُ أنها جاءتْ على قسمين:

القسم الأول: ما أُطْلِقَ فيها طلَبُ الآيةِ، وكان الجوابُ القرآنيُّ على طلبهم يتضمَّنُ الآتي:

أولًا: أن المشركين كَذَبُوا في طلبِ مطلقِ الآيات؛ لأنهم رأَوْا من الآياتِ ما يكفي لتصديقِ رُسُلِهم، **فمن هذه الآيات:**

١ ـ ما هو مبثوثٌ في هذا الكونِ مِنْ دلائلِ الصنعةِ الإلهيَّةِ التي لا يشكُّ عاقلٌ أنها صنعُ ربٍّ مدبِّرٍ، حكيم، يستحقُّ أن يفرَدَ بالعبادةِ وحده لا شريكَ له؛ **قال تعالى**: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

٢ ـ ومن الآياتِ ما ابتدأَهُمُ اللهُ تعالى به؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢]، وقال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤]، وهم قد رأوا انشقاق القمر، وغيرَهُ من الآيات، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فبيَّنَ في تلك الآياتِ أن الله تعالى قد أرى المكذِّبين مِنَ الآياتِ ما يكفي الإيمانُ بمثله؛ ومع هذا فلم يؤمنوا، ولم يستجيبوا.

٣ ـ ومن الآياتِ العظيمةِ الباهرةِ الكافيةِ للإيمان: ما جاءهم به الرسولُ ﷺ من كتابِ الله تعالى؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣]، وهي هذا القرآنُ العظيم؛ لأنه أعظَمُ الآياتِ وأدلُّها على الإعجاز، وعبَّر عن هذا القرآنِ العظيمِ بأنه بينةُ ما في الصحفِ الأولى؛ لأنَّ القرآنَ برهانٌ قاطعٌ على صحةِ جميعِ الكتبِ المنزَّلةِ من الله تعالى، فهو بيِّنةٌ واضحةٌ على صِدْقِها وصِحَّتها[1]؛ كما قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

ويزيدُ ذلك إيضاحًا الحديثُ المتفقُ عليه: (مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلَّا أُوتِيَ مَا آمَنَ البَشَرُ عَلَى مِثْلِهِ، وإِنَّما كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ)[2].

---

(١) أضواء البيان (٤/ ١٣٠). وقيل: الصحفُ الأولى هي التوراةُ والإنجيلُ وغيرهما من كتب الله، والضميرُ في: (قالوا)، وفي: (أو لم تأتهم) لقريشٍ لمَّا اقترحوا آيةً على وجه العناد والتعنت، أجابهم الله بهذا الجواب؛ والمعنى: «قد جاءكم برهان ما في التوراة والإنجيل من ذكر محمد ﷺ فلأي شيء تطلبون آية أخرى؟!». انظر: تفسير ابن جُزي (٣/ ٢٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي، وأول ما نزل، رقم (٤٦٩٦)؛ من حديث أبي هريرة ﷺ.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

فكان خاتمةُ هذه الإجاباتِ: أنَّ الموقنَ المصدِّقَ قد رأى من الآياتِ ما يكفيه للإيمانِ، ويدعوه للتصديق؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]؛ فإنكارُهُ جل وعلا عليهم عَدَمَ الاكتفاءِ بهذا الكتابِ عنِ الآياتِ المقتَرَحَةِ يدلُّ على أنه أعظَمُ وأفخَمُ من كل آية، وهو كذلك؛ ألا ترى أنه آيةٌ واضحةٌ ومعجزةٌ باهرة، أعجَزَتْ جميعَ أهلِ الأرض، وهي باقيةٌ تتردَّدُ في آذانِ الخلقِ غَضَّةً طريَّةً حتى يأتي أمرُ الله، بخلافِ غيره من معجزاتِ الرسلِ صلوات الله عليهم وسلامه؛ فإنها كلَّها مضَتْ وانقضت[1].

ومما يتفرَّعُ عن كَوْنِ القرآنِ أعظمَ آيةٍ على صدقه ﷺ:

أَثَرُ القرآنِ العظيمِ في نفوس سامعيه، وقد أشارَ القرآنُ العظيمُ لهذا الملحظ؛ فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]:

فقوله: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾: تبيينٌ لأثرِ القرآنِ في إنابةِ من شاءَ اللهُ هدايته.

ومن هذا المعنى: قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

«فطمأنينةُ القلوبِ الصحيحة، والفطرِ السليمةِ به، وسكونُها إليه من أعظمِ الآيات؛ إذ يستحيلُ في العادةِ أن تطمئنَّ القلوب، وتَسْكُنَ إلى الكذبِ والافتراءِ والباطلِ»[2].

---

(١) أضواء البيان (١/ ٤٧٧).

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٤٧٢).

ثانيًا: أنَّ الحكمةَ الإلهيةَ تقتضي عَدَمَ الاستجابةِ لهذه المقتَرحات؛ وذلك لعدةِ أسبابٍ أبانها القرآنُ العظيم:

١ ـ أنَّ طَلَبَ الآياتِ ليس حقًّا للبشرِ العبادِ المكلَّفين أن يطلبوه؛ لأنَّ مقتضى التكليفِ ينافي الاشتراطَ، والاقتراحَ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]؛ فمقتضى الجوابِ: قُلْ لطالبي الآياتِ يا محمَّد: إن ما تطلبوه هو الضلالُ، وإنَّ المنيبَ إلى ربه، المهتديَ بهداه، هو الممتثلُ إلى ربه، المذعنُ لأمره ونهيه.

ومن ذلك: قولُ عيسى بن مريم للحواريين؛ قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢].

فإنَّ سؤالَهُمْ لم يكنْ سؤالَ شكٍّ، وإنما أرادوا: هل يستجيبُ رَبُّكَ لك إنْ سألتَهُ لنا مائدةً من الطعام[1]، فكان جوابُهُ كما ذكر الله تعالى: ﴿قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) وبهذا فسَّرَتْهُ عائشة ﵂؛ فقالت: «كان الحواريُّون أعلمَ بالله من أن يقولوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ [المائدة: ١١٢]، إنما قالوا: هل تستطيعُ أنتَ ربَّك، هل تستطيعُ أن تدعوه»؛ أخرجه الطبري (٧/ ١٢٩) من طريق ابن أبي مُليكة، عنها، به، وابن أبي حاتم (٤/ ١٢٤٣) من طريق القاسم بن محمد، عنها، به؛ وهذا على قراءة من قرأ: «هل تَسْتَطِيعُ ربَّكَ»، وبها قرأ بعضُ الصحابة والتابعين؛ فعن عبد الرحمٰن بن غَنْم، قال: سألتُ معاذ بن جبل عن قول الحواريين: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾، أو (تستطيعُ رَبَّكَ)؟ فقال: «أقرأني رسولُ الله ﷺ: «هل تستطيعُ ربَّك» بالتاء»؛ أخرجه الترمذي في التفسير، رقم (٢٩٣٠)، وقال: «قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدينُ، وليس إسناده بالقوي، ورشدينُ بنُ سعد والإفريقيّ يُضَعَّفان في الحديث». وأخرجه الحاكم في مستدركه، رقم (٢٩٣٥)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يُخرجاه، وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٦٩)، وقرأ بها سعيد بن جبير؛ وهي قراءة الكسائي». انظر: جامع البيان (٧/ ١٢٩)، السبعة لابن مجاهد (ص٢٤٩).

والمعنى: اتقوا الله؛ فإنه لا يحلُّ لكم اقتراحُ الآياتِ، وطَلَبُها.

٢ ـ أنَّ الأمْرَ لله تعالى فهو الذي يحكُمُ ما يشاء، ويفعلُ ما يريد؛ قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠]، ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]؛ أي: لكلِّ أجلٍ كتابٌ؛ كتبه اللهُ في اللوحِ المحفوظِ، يمحو الله ما يشاءُ ويُثْبِتُ[1]، ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

٣ ـ ومنها: أنَّ حِكْمَةَ اللهِ تعالى اقتضَتْ أنَّ مَنْ طلَبَ نزولَ الآياتِ، ثم كذَّب بها: أن يُسْتأصلَ بعذابٍ من اللهِ تعالى؛ قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

٤ ـ ومنها: أنَّ مهمةَ النبيِّ هي التبليغُ، والبيانُ، وليستِ الاستجابةَ لإملاءاتِ المكذبين؛ قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: إنما عليكَ الإنذارُ، واللهُ هو الهادي لمن يشاءُ إذا شاء، فلكلِّ قومٍ نبيٌّ يرشدهم، وليس عليه أن يأتيهم مِنَ الآياتِ بما يقترحون.

والوجه الثاني: أن يريدَ بالهادي النبيَّ ﷺ، فالمعنى: إنما أنت نبيٌّ منذر، ولك قومٌ هادٍ من الأنبياءِ يُنْذِرُهم؛ فليس أَمْرُكَ ببِدْعٍ ولا مُستنكَرٍ[2].

ثالثًا: أن المشركين كانوا على عنادٍ، وتكذيبٍ، رغم أنهم يَرَوْنَ

---

(١) التسهيل، لعلوم التنزيل، لابن جُزي (٢/١٣٦).
(٢) تفسير ابن جُزي (٢/١٣١).

الآياتِ ويشاهدونها؛ **قال تعالى**: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

فأبانَ: أنَّ أهلَ الكتابِ في زمنِهِ مهما رَأَوْا من الآياتِ، فلن يؤمنوا بما معك؛ كما أنَّكَ لن تَتَّبعَ ما هم عليه مِنَ الدِّينِ المحرَّف؛ وهذا لشدةِ عنادهم وتمسُّكهم بما هم عليه.

ثم أبان: أن ما هم عليه هو الهَوَى لا غير؛ فكيف لصاحبِ الحقِّ أن يتبع صاحبَ الهوى؟!

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

فأبان: أنَّ المشركينَ لن يؤمنوا مهما رَأَوْا من الآيات؛ لأنَّ قلوبَهُمْ وآذانَهم قد صُمَّتْ عن رؤيةِ الحق؛ فكيف يتبعونه؟!

كما أبان: أنَّ القومَ ليس عندهم سوى المجادَلَةِ بالباطل، وإلقاءِ التهمِ جزافًا.

وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

وهذا وَعْدٌ قَطَعَهُ الحقُّ تعالى على نفسِهِ الكريمة، ومَنْ أصدقُ من الله قيلًا، ومَنْ أصدقُ من الله حديثًا؛ بأن يريهم مِنَ الآياتِ في أنفسهم، وفي الكونِ ما يؤكِّد لهم فيه أن هذا القرآنَ العظيمَ وما تدعوهم إليه هو الحق.

وأبان: أنَّ تصديقَ اللهِ تعالى لنبيه، وهو الشهيدُ على كلِّ شيء، الذي لا يعزُبُ عنه مثقالُ ذرَّةٍ في السمٰوات، ولا في الأرض، هو أكبرُ آيةٍ لهم لو كانوا يعقلون!

ووجهُ هذه الحجة: أنَّ ما يرونه من تصديقِ اللهِ تعالى لنبيه بكلٍّ ما يُخْبِرُ به، وحِفْظِهِ له، وعنايتِهِ به، وبأتباعِهِ، وهو يَنْسُبُ كلَّ هذا لربه؛ هو أكبرُ دليلٍ على صدقه؛ فاللهُ تعالى أجلُّ من أن يدَعَ مفتريًا يتكلَّم عن ربه، ويَنْسُبَ إليه ما هو منه براء، ثم يَمُدُّهُ تعالى بكلِّ تأييد ونصر: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

ثم لم يُغْفِلِ القرآنُ جانبَ التهديدِ والوعيدِ، المتمثِّلَ في ذكرِ صفةِ هؤلاءِ المعاندينَ، وقد مَثَلُوا بين يدي ربِّهم يوم القيامة، يلومُ بعضُهم بعضًا، ويلعنُ بعضُهم بعضًا، على تكذيبهم لنبيهم، واستهزائهم بما جاء بـه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١].

القسم الثاني من الآياتِ: ما نَصَّ فيها على آيةٍ بعينها؛ فكان الجوابُ القرآنيُّ بإبطالِ ما طلبوه، وهو في القرآنِ على أنواع:

النوع الأول: طلَبُ رؤيةِ الله تعالى؛ **قال تعالى:** ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

ولما كانتْ رؤيةُ اللهِ تعالى في الدنيا غَيْرَ مُمْكِنةٍ لغيرها لا لذاتِها، بيَّن اللهُ تعالى ذلك، وعزاه لعجزِ قدرَةِ البشرِ عن تحمُّلِ ذلك؛ وبيانُ ذلك في **قوله تعالى:** ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فبيَّن الله تعالى أنَّ رُؤيتَهُ ممكنةٌ في ذاتها، لكن لا يمكنُ لموسى أن يراه، فعلَّق إمكانَ الرؤيةِ بتحمُّل الجبلِ لذلك، فلم يتحمَّل؛ فعُلِمَ أنَّ

البشر لا يمكنُ لهم أن يروا ربهم تعالى في الدنيا، لضعفهم عن ذلك[1]؛ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥]، ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣].

النوع الثاني: طَلَبُ رؤيةِ الملائكةِ؛ **قال تعالى**: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤ - ٩٥]، ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٧ - ٨]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

فأجاب الله تعالى في مجموعِ هذه الآياتِ بخمسةِ أجوبة[2]:

أولها: أنَّ المكذِّبين لم يستندوا في تكذيبهم على سَبَبٍ مقنع، بل هم رَأَوْا الهدى، وعَرَفُوه؛ فقال: ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾؛ فتبيَّن أن قولهم بأن الرسولَ لا بدَّ وأن يكون من الملائكة تحكُّمٌ فاسد، وتعنُّتٌ باطلٌ.

الجواب الثاني: أن الأعدَلَ والأبلغَ أن يُبْعَثَ إلى كلِّ خلقٍ مَنْ

---

(١) إنما خُصَّتِ الدنيا بذلك؛ لأنه صحَّ الخبرُ عن رؤيةِ المؤمنين لربِّهم في الآخرة؛ قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

(٢) **يُنظر**: التفسير الكبير (٢١/ ٥٠)، أضواء البيان (٢/ ٣٧٨).

يفقهونَ عنهُ؛ ولذلك **قال تعالى**: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

فهذه الآيةُ الكريمةُ تدلُّ على أن الرسولَ ينبغي أن يكونَ من نوعِ المُرْسَلِ إليهم؛ لِتُمكِنَهُمْ مخاطبتُهُ، والانتفاعُ بالأخذِ عنه؛ فالجنسُ إلى الجنسِ أميلُ؛ فبيَّن في هذه الآيةِ: أنه لو بعثَ إلى البشرِ رسولًا مَلَكِيًّا، لكان على هيئةِ الرجل، ولو كانَ كذلك، لالتَبَسَ عليهم الأمرُ؛ كما هم يَلْبِسُونَ على أنفسهم في قَبُولِ رسالةِ الرسولِ البشري[١].

وقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]، فبيَّن: أنه لو كان في الأرض ملائكة يمشون على أقدامهم كما يمشي الإنس، لنزلنا عليهم من السماء مَلَكًا رسولًا، فالرسولُ يلزمُ أنْ يكونَ من جنسِ المرسَلِ إليهم، فلو كان مُرْسَلًا رسولًا إلى الملائكة؛ لنـزَلَ عليهم ملكًا مثلَهم، وإذا أُرْسِلَ إلى البشرِ، أُرْسِلَ لهم بشرًا مثلهم[٢].

الجواب الثالث: إثباتُ شهادةِ الله تعالى على صدقِ قوله، فأمَرَهُ أن يقولَ لهم: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الإسراء: ٩٦]، وتقريرُ هذه الحجة: أنَّ اللهَ تعالى لـمَّا أظهَرَ المعجزةَ على وَفْقِ دعواي، كان ذلك شهادةً من الله تعالى على كوني صادقًا، ومَنْ شَهِدَ اللهُ على صدقه، فهو صادق، فبعدَ ذلكَ قولُ القائل: بأنَّ الرسولَ يجبُ أن يكونَ ملكًا لا إنسانًا تحكُّمٌ فاسدٌ لا يلتفتُ إليه[٣].

الجواب الرابع: الاستدلالُ بعلمِ اللهِ تعالى؛ **قال سبحانه**: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾:

---

(١) **يُنظر**: التفسير الكبير (٢١/ ٥٠)، أضواء البيان (١/ ٤٧٢).
(٢) **يُنظر**: الكشاف (٢/ ٦٤٩)، أضواء البيان (١/ ٤٧٢).
(٣) **يُنظر**: التفسير الكبير (٢١/ ٥٠).

«فإذا كان الله سبحانه عالمًا بجميع الأشياء، كانتْ شهادتُهُ أصدق شهادةٍ وأعدلَها؛ فإنها شهادةٌ بعلمٍ تامٍّ محيطٍ بالمشهود به، فيكون الشاهدُ به أعدلَ الشهداءِ، وأصدَقَهم»(١).

الجواب الخامس: أن القائدَ والسائقَ لهم في هذا الاحتجاج إنما هو الكِبْرُ، والعنادُ؛ **فقال**: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، ثم تهدَّدهم، وأوعَدَهُمْ بمصيرهم حين يَرَوْنَ الملائكةَ؛ **فقال**: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢]، وقال في ختامِ الآيةِ الأولى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٦]،؛ **يعني**: يَعْلَمُ ظواهرَهم وبواطنَهم، ويَعْلَمُ من قلوبهم أنهم لا يَذْكُرُونَ هذه الشبهاتِ إلا لمحضِ الحَسَدِ، وحُبِّ الرياسة، والاستنكافِ من الانقيادِ للحقِّ؛ وهذا المعنى كرَّره في **قوله تعالى**: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨].

«**والمعنى**: لو أنزَلَ الملائكةَ، لم يؤخِّرْ عذابَ هؤلاءِ الكفارِ الذين **اقتَرَحُوا** نزولَهم؛ لأنَّ مِنْ عادةِ اللهِ أنَّ من اقتَرَحَ آيةً، فرآها ولم يؤمنْ: أنه يعجِّلُ له العذابَ، وقد عَلِمَ اللهُ أنَّ هؤلاء القوم يؤمنْ كثيرٌ منهم، ويؤمنُ أعقابُهم، فلم يَفْعَلْ بهم ذلك»(٢).

النوع الثالث: طلبُ إنزالِ قرآنٍ آخَرَ غيرِ ما يتلى عليهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

وهذه المقولةُ أبطَلَهَا القرآنُ في السباقِ، واللحاقِ، فسبَقَها **قوله**:

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٤٦٩).
(٢) تفسير ابن جزي (٢/ ١٤٤).

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ [يونس: ١٥]؛ إشارةً إلى أنَّ هذا القولَ لا يصدُرُ ممَّن يرجو لقاءَ ربِّه.

وقد تساءلَ الزمخشريُّ[1] عن سببِ هذا الاقتراحِ؛ فقال:

«فإنْ قلتَ: فما كان غرضَهُمْ ـ وهم أدهى الناسِ، وأنكَرُهُمْ ـ في هذا الاقتراحِ؟

قلتُ: الكيدُ والمكرُ، أمَّا اقتراحُ إبدالِ قرآنٍ بقرآن، ففيه: أنَّه من عندك، وأنكَ قادرٌ على مثله؛ فأَبدِلْ مكانه آخَرَ، وأما اقتراحُ التبديلِ والتغيير: فللطَّمَعِ، ولاختبارِ الحال، وأنه إنْ وجد منه تبديلٌ، فإمَّا أن يُهْلِكَهُ اللهُ فينجو منه، أو لا يُهْلِكَهُ فيسخروا منه، ويجعلوا التبديلَ حجةً عليه، وتصحيحًا لافترائِهِ على الله».

وأمَّا دلالةُ اللَّحاقِ على إبطالِ قولهم: فقد أجابَ القرآنُ عن اقتراحِهِمْ هذا بقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٦، ١٧].

فبيَّن: أنَّ الأمرَ كلَّه لله، وبمشيئته، وأنه لو شاء لَمَا سمعتموه؛ لكنْ رحمتُهُ بكم ساقتني إلى إسماعكم إياه.

وبيَّن: أنه لا يملُك مِنْ هذا القولِ سوى تبليغه.

وبيَّن: أنَّ في إنزالِ القرآنِ عليه آيةً لهم، فهو رجلٌ أميٌّ لم يقرأ، ولم يجالسْ أهلَ الكتاب، ولَبِثَ فيهم أربعين سنةً قبلَ أن يَظْهَرَ منه ما ظهر، لم يجرِّبوا عليه كذبًا، ولم يعهدوا عليه علمًا؛ فكان في ذلك آيةٌ وكفايةٌ، ولذا عقَّب القرآن بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ إذ لو عقلوا، لعلموا أن ما يقوله وحيٌ من الله تعالى لا غيرُ.

---

(١) في الكشاف (٢/٣١٩). وانظر: تيسير الكريم الرحمٰن (ص٣٦٠).

وبين: أنه لا أحد أظلَمُ ممَّن افترى على اللهِ كذبًا، وادعى أنَّ اللهَ تعالى أرسلَهُ، وأنه يتلو كلامَهُ، والأمرُ ليس كذلك؛ فإنه لا يُفْلِحُ المجرمون الذين يقولون على الله كذبًا.

فهذه خمسةُ أجوبةٍ عقليَّة، وحسِّية، فيها المقنعُ لكلِّ ذي لب.

بقي أن أُشِيرَ إلى طريقٍ حِسِّيٍّ سلكه القرآنُ في الرد على اليهود، ومنْ تأثَّر بهم في التعنُّت، والمطالبةِ بالآياتِ، والطعنِ في صدقِ الرسالةِ لخلوِّها من المعجزاتِ التي جاء بها الرسلُ السابقون:

وهو أنَّ الأنبياءَ السابقين قوبِلوا بما قُوبِلَ به النبيُّ ﷺ من التكذيبِ والعصيانِ، رغمَ تواترِ الآياتِ في دعوتهم؛ فأفاد هذا: أن اقترانَ النبيِّ بالمعجزاتِ لا يَسُدُّ بابَ التكذيبِ والتعنت، ولا ينتفعُ المُبْطِلُ بما يراه من الآياتِ والمعجزاتِ مهما تكاثَرَتْ، وتواتَرَتْ: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

قال تعالى إخبارًا عن إعراض بني اسرائيلَ عن دَعْوَةِ موسى، على الرغمِ مِنِ احتفافِ رسالتِهِ بآياتٍ ومعجزاتٍ كثيرة!

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٩٢].

وقال: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢].

النوع الرابع: اعتراضهم على تنجيمِ القرآن، وطَلَبُهم أن ينـزَّلَ جملةً واحدة.

وقد أجابَ القرآن على ذلك بأنَّ تنجيمَ القرآنِ كان لحكمةٍ بينة، أبانها اللهُ تعالى في **قوله تعالى:** ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]، **وقال سبحانه:** ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟

بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٦ ـ ١٠٧].

فأبطل اعتراضهم بجوابَيْن:

الجــواب الأول: أنَّ في تنجيمِهِ وتفريقِهِ تثبيتًا للنبيِّ ﷺ ولأصحابِهِ؛ فهو يصبِّرهم على ما يَلْقَوْنَ في سبيلِ دينهم، ويأْمُرُهم بما شرَعَهُ لهم على التدريج(١).

الجواب الثانـي: أنه فرَّق القرآن؛ **أي**: بيَّنه، وجلَّاه ووضَّحه(٢) حتى يُقرَأَ على مَهَل، ورويَّة، ويُفْهَمَ ما فيه، ويُتَّعَظَ بعظته.

ثم تهدَّد المكذِّبين به، وزكَّى المستجيبين له: بأنهم أولو العلم.

النوع الخامس: اعتراضُهُمْ على نزولِ القرآنِ على النبيِّ ﷺ؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وهذا الطلبُ قريبٌ مما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وذَكَرَ عنهم أنهم قالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ﴾ [ص: ٨].

وهذا نظيرُ قولِ قوم صالحٍ له ـ كما ذكر الله تعالى ـ: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥].

وقولُهُ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾؛ **أي**: لن نؤمنَ

---

(١) وقيل: إن في تنجيمِهِ وتفريقِهِ تقويةً لفؤاد النبي ﷺ على حِفْظه؛ لأن حفظه شيئًا فشيئًا أسهلُ من حفظه مرةً واحدةً، ولو نزِّل جملةً واحدةً، لعجَزَ عنه؛ لأنه أُمِّيٌّ لا يقرأ، ولا يكتب. **انظر**: تفسير ابن جُزي (٣/٧٨)، أضواء البيان (٦/٥١)، وقد ذكر الرازيُّ ثمانيةَ أوجه لتثبيت قلب النبي ﷺ به. **انظر**: التفسير الكبير (٢٤/٦٩).

(٢) وهذا على قراءة التخفيف: ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾؛ وقرئ بالتشديد: ﴿فَرَّقْنَاهُ﴾ فيكون بمعنى: قطَّعناه.

حتى نحصُلَ على النبوَّةِ والرسالةِ كما حصَلَتْ لمحمدٍ ﷺ؛ وذلك ليكونوا متبوعين لا تابعين، ومخدومين لا خادمين.

وقيل: إنَّ المعنى: وإذا جاءتهم آيةٌ من القرآنِ تأمُرُهم باتباعِ النبي؛ قالوا: لن نؤمنَ حتى تُؤتَى مثلَ ما أُوتيَ رسلُ الله، وهو ما أخبَرَ اللهُ تعالى به مِنْ قولِ مشركي العربِ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣] مِنَ اللهِ إلى أبي جهل، وإلى فلانٍ وفلانٍ كتابًا على حِدَةٍ[(١)].

وقد أجاب القرآنُ على اقتراحِهِمْ ذلك بجوابَيْن:

أولهما: في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ [الزخرف: ٣٢].

فَأَبانَ: بأنَّ الأمرَ لله تعالى؛ فهو الذي يَمُنُّ على مَنْ يشاء بما يشاء، وأنَّ ما استأثَرَ اللهُ تعالى به لا يَحِقُّ لأحدٍ من العبادِ أن يطلبه، فاستعمَلَ همزةَ الاستفهامِ المتضمِّنةَ معنى الإنكارِ؛ لتجهيلِهِمْ، وتسفيهِ عقولهم[(٢)].

الجواب الثاني: في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فأبان: بأنه يَعْلَمُ مَنْ يصلُحُ لينالَ شرفَ الرسالة، ويكونَ قَمِنًا بها، وفي السياقِ تعريضٌ بهم: بأنهم ليسوا بأهلٍ لهذا الشرفِ العظيم.

وقد أخرَجَ الإمام أحمد، عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «إنَّ اللهَ نظَرَ في قلوبِ العباد، فوجَدَ قلبَ محمَّد خيرَ قلوبِ العباد؛ فاصطفاهُ لنفسه،

---

(١) التفسير الكبير (١٣/ ١٤٤). (٢) انظر: أضواء البيان (٧/ ١١٣).

(٣) مسند أحمد (١/ ٣٧٩) برقم (٣٦٠٠)، والطبراني في الكبير (٩/ ١١٢)، والبزار (٥/ ٢١٢)، والطيالسي في مسنده (١/ ٣٣)، قال في مجمع الزوائد (١/ ١٧٧): «رجاله موثوقون»، وحسنَّه في كشف الخفاء (٢/ ٢٤٥).

فابتعَثَهُ برسالتِه، ثم نظَرَ في قلوبِ العبادِ بعد قلبِ محمد، فوجَدَ قلوبَ أصحابِه خيرَ قلوبِ العباد؛ فجعَلَهُمْ وزراءَ نبيِّه يقاتلون على دينه...»[١].

وقد عاب الله تعالى مَنْ كفَرَ حَسَدًا لمن شُرِّفَ بحملِ الرسالة؛ **فقال تعالى**: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠].

فذمَّ اليهودَ على كُفْرِهم بدينه؛ لِحَسَدِهِمْ أن يُبْعَثَ بذلكَ رجلٌ عربي!

قال قتادة: «هم اليهودُ؛ كَفَرُوا بما أنزَلَ اللهُ، وبمحمَّدٍ ﷺ؛ بغيًا، وحسدًا للعرب، ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾، غَضِبَ اللهُ عليهم مرتَيْنِ؛ بِكُفْرِهم بالإنجيلِ وبعيسى، وبكُفْرِهم بالقرآنِ وبمحمد»[٢].

النوع السادس: طلَبُ آياتٍ يقترحونها بأنفسهم؛ ومِنْ مقولاتهم الجامعةِ التي سطَّرها القرآن: **قولُهُ تعالى**: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣].

وقد روى عكرمةُ، عن ابن عباس: أنَّ عُتْبَةَ وشَيْبَةَ ابنَيْ ربيعة، وأبا سُفْيانَ بنَ حَرْب، والنضرَ بنَ الحارث، وأبا البختريِّ بنَ هشامٍ،

---

(١) أخرجه ابن جرير الطَّبَري في جامع البيان (١/٤١٦).

والأسودَ بنَ عبد المطلب، وزمعةَ بنَ الأسود، والوليدَ بنَ المغيرة، وأبا جهلِ بنَ هشام، وعبدَ اللهِ بنَ أبي أمية، وأميةَ بنَ خَلَف، والعاصَ بنَ وائل، ونُبَيْهًا ومُنَبِّهًا ابنَي الحجَّاجِ، اجتمعوا، ومَنِ اجتمَعَ معهم بعدَ غروبِ الشمسِ عندَ ظهرِ الكعبة؛ فقال بعضُهم لبعض: ابعثوا إلى محمَّدٍ فكلِّموه، وخاصِموه حتى تُعْذِرُوا فيه، فبَعَثُوا إليه: أنَّ أشرافَ قومِكَ قد اجتمَعُوا لك ليكلِّموك، فجاءهم رسولُ الله ﷺ سريعًا، وهو يظنُّ أنه بدا لهم في أمرِهِ بَدَاءٌ، وكان عليهم حريصًا يُحِبُّ رُشْدَهم، حتى جلَسَ إليهم؛ فقالوا: يا محمَّد! إنا بَعَثْنا إليك لِنُعْذِرَ فيك، وإنا واللهِ لا نَعْلَمُ رجلًا من العربِ أدخَلَ على قومه ما أَدْخَلْتَ على قومك، لقد شَتَمْتَ الآباء، وعِبْتَ الدِّين، وسَفَّهْتَ الأحلام، وشَتَمْتَ الآلهة، وفَرَّقْتَ الجماعة، فما بقي أمرٌ قبيحٌ إلا وقد جِئْتَهُ فيما بينك وبيننا: فإنْ كنتَ جئتَ بهذا الحديثِ تطلُبُ به مالًا، جَعَلْنا لك مِنْ أموالنا حتى تكونَ أكثَرَنا مالًا، وإنْ كنتَ تطلُبُ الشرفَ، سوَّدناك علينا، وإنْ كنتَ تريدُ مُلكًا، ملَّكناك علينا، وإنْ كان هذا الأمرُ الذي بك رَئِيًّا تَرَاهُ حتى قد غلَبَ عليك لا تستطيعُ ردَّه، بذَلْنا لك أموالَنَا في طَلَبِ حتى نُبْرِئَكَ منه، أو نُعْذِرَ فيك ـ وكانوا يسمُّون التابعَ من الجنِّ الرَّئِيِّ ـ.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: **(مَا بِي مَا تَقُولُونَ، مَا جِئْتُكُمْ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ لِطَلَبِ أَمْوَالِكُمْ، وَلَا الشَّرَفِ عَلَيْكُمْ، وَلَا الْمُلْكِ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولًا، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَابًا، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَبَلَّغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِي، وَنَصَحْتُ لَكُمْ؛ فَإِنْ تَقْبَلُوا مِنِّي، فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ، أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللهِ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ)**.

فقالوا: يا محمَّدُ! إنْ كنتَ غيرَ قابلٍ منا ما عَرَضْنا عليك، فقد عَلِمْتَ أنه ليس أحدٌ أضيقَ منا بلادًا، ولا أَشَدَّ منَّا عَيْشًا، فَسَلْ لنا رَبَّكَ الذي بعثك فلْيُسَيِّرْ عنا هذه الجبالَ التي قد ضَيَّقَتْ علينا، ويَبْسُطْ لنا بِلادَنا، ويُفَجِّرْ فيها أنهارًا؛ كأنهارِ الشام، والعراقِ، وليبعثْ لنا مَنْ مضى

مِنْ آبائِنا، وليكنْ منهم قُصَيَّ بنَ كِلابٍ، فإنه كان شيخًا صَدُوقًا، فنسألُهُم عما تقولُ أحقٌّ هو أم باطل، فإنْ صدَّقوك صدَّقناك!

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: (**مَا بِهَذا بُعِثْتُ؛ فَقَدْ بَلَّغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ؛ فَإِنْ تَقْبَلُوهُ مِنِّي، فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللهِ**).

قالوا: فإنْ لم تَفْعَلْ هذا، فَسَلْ ربَّك أن يَبْعَثَ لَنا مَلَكًا يُصدِّقُكَ، واسْأَلْهُ أَنْ يَجْعَلَ لكَ جِنانًا وقُصورًا وكُنوزًا مِنْ ذَهَبٍ وفضةٍ يُغْنِيكَ بها عما نراك؛ فإنَّك تقومُ بالأسواقِ، وتلتمسُ المعاشَ كما نلتمسه!

فقال: (**مَا بُعِثْتُ بِهَذَا، وَلَكِنَّ اللهَ بَعَثَنِي بَشِيرًا ونَذِيرًا**).

قالوا: فأَسْقِطِ السماءَ كما زَعَمْتَ أَنَّ ربَّكَ لو شاءَ فَعَل!

فقال: (**ذَلِك إِلَى اللهِ إِنْ شَاءَ فَعَلَ ذَلِك بِكُمْ فَعَلَهُ**).

وقال قائلٌ منهم: لن نؤمنَ لك حتى تأتينا باللهِ والملائكةِ قبيلًا!

فلما قالوا ذلك، قام رسولُ اللهِ ﷺ، وقامَ معه عبدُ الله بنُ أبي أمية، وهو ابنُ عمَّته عاتكةَ بنت عبدِ المطلب؛ فقال: يا محمَّدُ، عرَضَ عليك قَوْمُكَ ما عَرَضُوا عليك، فلم تَقْبَلْهُ منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا يعرفون بها منزلتَكَ مِنَ اللهِ تعالى؛ فلم تَفْعَلْ، ثم سألوك أن تُعَجِّلَ ما تخوِّفهم به من العذابِ؛ فلم تَفْعَلْ، فواللهِ، لا أُومِنُ لك أبدًا حتى تَتَّخِذَ إلى السماءِ سُلَّمًا ترقى فيها، وأنا أنظُرُ حتى تأتيها، وتأتي بنسخةٍ منشورةٍ معك، ونَفَرٍ من الملائكةِ يشهدونَ لك بما تقولُ، وايْمُ اللهِ، لو فَعَلْتَ ذلك لظننتُ أنْ لا أصدِّقَكَ!!

فانصرَفَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى أهلِهِ حزينًا لما رأى مِنْ مُباعدَتِهِم، فأنزَلَ الله تعالى هذه الآية[١].

---

(١) أخرجه الطَّبَري (١٥/ ١٦٥) من طريق عكرمة، عن ابن عباس. **وانظر**: الدُّر المنثور (٥/ ٣٣٨).

فطلبوا كما في هذه الآية:

أن يُفَجِّرَ[(١)] لهم أرضَ مكةَ[(٢)] يَنْبُوعًا: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾.

قال مجاهدٌ: «عيونًا»[(٣)].

وقال السُّدِّيُّ: «الينبوعُ هو الذي يجري من العَيْن»[(٤)].

قال أهلُ اللغة: **الينبوعُ:** الجدولُ الكثيرُ الماء، وكذلك العَيْن، والجمعُ: الينابيع[(٥)].

أن تكونَ له جنةٌ قد فُجِّرَتِ الأنهارُ فيها: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإسراء: ٩١].

أنْ يُسْقِطَ السماءَ عليهم قطعةً واحدة، أو قِطَعًا متفرِّقةً: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢]؛ وذلك بعد ما سمعوا منه: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: ٩].

فقالوا: إنْ كنتَ نبيًا، فأسقطْ علينا من السماءِ كسفًا!

قال قتادة: «كِسَفًا: قطعًا»[(٦)].

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿تَفْجُرَ﴾ بفتح التاء وسكون الفاء، وضم الجيم مخففة؛ لأن الينبوع واحد، وقرأ الباقون بالتشديد: «تُفَجِّرَ»، ولم يختلفوا في أن ﴿فَتُفَجِّرَ﴾ مشددة. **انظر:** السبعة في القراءات، لابن مجاهد (١/ ٣٨٥)، التيسير، لأبي عمرو الداني (ص١١٥).

(٢) قال قتادة: «**أي:** ببلدنا هذا؛ أخرجه ابن جرير الطَّبَري (١٥/ ١٦٠).

(٣) أخرجه ابن جرير الطَّبَري (١٥/ ١٦٠).

(٤) قال في الدُّر المنثور (٥/ ٣٤٠): «أخرجه ابن أبي حاتم»، وليس في المطبوع تفسير هذه الآية.

(٥) لسان العرب (٨/ ٢٤٥)، **وانظر:** معاني القرآن، للنحاس (٤/ ١٩٤).

(٦) قُرِئَتْ: كِسَفًا، وكِسْفًا؛ فعلى قراءة الفتح: كِسَفًا؛ **فالمعنى:** قِطَعًا، وعلى قراءة التسكين: كِسْفًا، فالمعنى على هذه القراءة للسماء كلها؛ **أي:** طبقًا، واشتقاقه من: كَسَفْتُ الشيءَ؛ **أي:** غطيته. **انظر:** السبعة في القراءات، لابن مجاهد (١/ ٣٨٥)، =

قال أبو عبيد: «كِسَفًا، متحركة السين: جمعُ كِسْفةٍ، مثلُ قِطْعَةٍ وقِطَعٍ، وكِسْرَةٍ وكِسَر».

وحكى الفراءُ: أنه سمعَ أعرابيًّا يقول: أعطني كِسْفةً من هذا الثوب؛ أي: قطعةً.

أن يَرَوُا اللهَ تعالى شأنه، وأن يَرَوُا الملائكةَ قبيلًا: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢].

قال قتادة: «أي: عيانًا»؛ فيكونُ من المقابلة.

وقال غيره: «قبيلًا؛ أي: كفيلًا»[١]، يقال: قَبِلْتُ به؛ أي: كفلت، وتقبَّل فلان بكذا؛ أي: تكفل به[٢].

أن يكون له بيتٌ من زخرف: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء: ٩٣].

قال مجاهدٌ: «كنا لا ندري ما الزُّخْرُف، فرأيناه في قراءة ابن مسعود: (أو يكونَ لَكَ بيتٌ من ذَهَبٍ)»[٣].

قال أبو جعفر النحاس: «الزخرفُ في اللغةِ: الزينةُ، والذهَبُ من الزينة»[٤].

أن يرقى في السماءِ، ويُنَزِّلَ عليهم كتابًا: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الإسراء: ٩٣].

= حجة القراءات، لابن زنجلة (١/ ٤١٠)، معاني القرآن، للنحاس (٤/ ١٩٤).

(١) وهو مروي عن ابن عباس والضَّحَّاك. انظر: جامع البيان (١٥/ ١٦٤).

(٢) معاني القرآن، للنحاس (٤/ ١٩٥).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٤١) من طريق أبو سعيد الأشج، ثنا أحمد بن بشير، ثنا شعبة، عن الحكم، عنه، به، وأخرجه ابن جرير الطَّبَري في تفسيره (١٥/ ١٦٣) من طريق الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا الثوري، عن رجل، عن الحكم، عنه، به.

(٤) معاني القرآن، للنحاس (٤/ ١٩٥).

يعني: أو تَصْعَدَ في دَرَجٍ إلى السماء.

ثم بيَّن تعالى بعد كل هذا أنهم قالوا: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وصفةُ هذا الكتاب الذي طلبوه: «مِنْ رَبِّ العالمينَ إلى فلان، عندَ كلِّ رجلٍ صحيفةٌ تصبحُ عندَ رأسِهِ يقرؤها»[١].

وقال قتادة: «أي: كتابًا خاصًّا نُؤْمَرُ فيه باتباعك»[٢].

وقد أبطَلَ القرآنُ العظيمُ مقالتَهُمْ تلك بعدَّةِ طُرُق:

الطريق الأول: تنزيهُ الله جل ذكره مما يقولونه؛ فقال هنا في خاتمة هذه الآية: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

تنزيهًا لله تعالى أن يأتيَ لهم، ويَرَوْهُ، وأن يقترحوا عليه ما شاؤوا، وهم العبادُ المكلَّفون بالإيمانِ بالغيبِ، وهو الرسولُ الذي لا تُخْرِجُهُ رسالتُهُ عن كونه بشرًا رسولًا، لا يَخْرُجُ عما بَعَثَهُ به اللهُ تعالى[٣].

الطريق الثاني: أبانَ القرآن: أنَّ هذا التعنُّتَ والعنادَ الشديدَ الذي كان عليه الكفَّار، ليس مصدرُهُ طلَبَ الحق، والبَحْثَ عنه، وإنما مجرَّدُ التعجيزِ، والتكذيبِ؛ فإنَّهم لو لبَّى لهم ما اقترحوه، ما آمنوا؛ لأن من سَبَقَ عليه الشقاءُ لا يؤمنُ؛ **قال تعالى:** ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، **وقال:** ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَآءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ

---

(١) قاله مجاهد؛ كما أخرجه الطَّبَري (١٤٦/١٥) من طريق ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عنه، به.

(٢) أخرجه الطَّبَري (١٤٦/١٥) عن بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عنه، به.

(٣) انظر: التفسير الكبير (٤٨/٢١)، تفسير القرآن العظيم (٥٧٤/٢)، أضواء البيان (١٨٥/٣).

﴿نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤ ـ ١٥]، **وقال**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦].

الطريق الثالث: أنَّ الحكمةَ في عدمِ الاستجابةِ لِمَا طلبوه: أنَّ الآياتِ لو أُنْزِلَتْ ولم يؤمنوا بها، لنـزَلَ بهم العذابُ العاجلُ؛ كما وقع بقومِ صالحٍ لمَّا اقتَرَحُوا عليه إخراجَ ناقةٍ عُشَراءَ وبَرَاءَ جَوْفاءَ، من صخرةٍ صمَّاء، فأخرَجَها اللهُ لهم منها بقدرتِهِ ومشيئَتِهِ فعَقَرُوها: ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: ٧٧]، فأهلَكَهُمُ اللهُ دُفْعةً واحدةً بعذابِ استئصال؛ وذلك في قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقد ذَكَرَ المفسِّرون: أنَّ قريشًا اقْتَرَحُوا على رسولِ الله ﷺ أن يجعلَ لهم الصَّفا ذَهَبًا؛ فأخْبَرَ الله أنه لم يفعلْ ذلك لئلا يكذِّبوا فيهلكوا، وعبَّرَ بالمنعِ عن تَرْكِ ذلك(١).

الطريق الرابع: التهديدُ والوعيدُ للمكذِّبين المعاندين؛ كما **في قوله تعالى**: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْۖ﴾ [طه: ١٣٥]؛ فأمَرَ اللهُ جل وعلا نبيَّه ﷺ في هذه الآيةِ الكريمةِ أنْ يقولَ للكفَّارِ الذين يقترحون عليه الآياتِ عنادًا وتعنتًا: كلٌّ منا ومنكم متربِّصٌ؛ **أي**: منتظرٌ ما يَحُلُّ بالآخرِ من الدوائرِ؛ كالموتِ، والغَلَبَة.

أمَّا ما ينتظره النبيُّ ﷺ وأصحابُهُ والمسلمون، فهو خيرٌ كله؛ **قال تعالى**: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢]، **وقال**: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٨].

---

(١) **انظر**: تفسير ابن جُزي (٢/ ١٧٤).

الطريق الخامس: أنَّ ما يَظُنُّونَهُ صَوابًا، وحكمةً في اقتراحاتهم المتعدِّدة، هو فسادٌ في الحقيقة، ولو أطاعَهُمُ اللهُ تعالى لِمَا يقترحوه، لفَسَدَتِ السمٰواتُ والأرض ومن فيهن!

قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

فُسِّرَ الحقُّ في هذه الآية: بأنه اللهُ تعالى[١]، فهو الحقُّ؛ كما في **قوله تعالى**: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]، وقولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: ٦].

«وعلى هذا القولِ، فالمعنى: لو أجابَهُمُ اللهُ إلى تشريعِ ما أحبُّوا تشريعَهُ، وإرسالِ مَنِ اقتَرَحُوا إرسالَهُ بأنْ جَعَلَ أمرَ التشريعِ وإرسالِ الرسلِ ونحوِ ذلك تابعًا لأهوائهم الفاسدةِ، لفَسَدَتِ السمٰواتُ والأرض ومَنْ فيهن؛ لأن أهواءَهُمُ الفاسدةَ، وشهواتِهِمُ الباطلةَ لا يمكنُ أن تقومَ عليها السماءُ والأرضُ؛ وذلك لفسادِ أهوائهم واختلافها، فالأهواءُ الفاسدةُ المختلفةُ لا يمكنُ أن يقومَ عليها نظامُ السماءِ والأرض ومن فيهن، بل لو كانت هي المُتَّبَعَةَ، لفَسَدَ الجميع»[٢].

ومن الاقتراحاتِ التي ذكَرَها القرآنُ عن بني إسرائيل:

قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

القُرْبانُ: ما قُرِّبَ إلى اللهِ ﷻ وتقرَّب به العبدُ إلى الله؛ **أي**: طلب به القربةَ عنده تعالى[٣].

قال ابنُ عباس: «يتصدَّقُ الرجلُ منهم، فإذا تُقُبِّلَ منه، أنزلتْ عليه

---

(١) وهذا قول مجاهد، قتادة، وابن جريج، وأبي صالح، والسُّدِّي، وغيرهم.
(٢) أضواء البيان (٥/ ٣٤٣). (٣) انظر: لسان العرب (قرب) (١/ ٦٤٦).

نار من السماءِ فأكَلَتْهُ»[1].

وعن ابنِ جُرَيْج، قال: «كان مَنْ قبلنا مِنَ الأمم يقرِّب أحدُهم القربانَ، فتخرُجُ الناسَ فينظرون: أيتقبلُ منهم أم لا، فإنْ تُقُبِّلَ منهم، جاءت نارٌ بيضاءُ من السماءِ، فأكَلَتْ ما قرَّب، وإنْ لم يتقبلْ، لم تأتِ النارُ، فعرَفَ الناسُ أن لم يقبل منهم، فلما بَعَثَ اللهُ محمدًا، سأله أهلُ الكتابِ أن يأتيهم بِقُرْبان»[2].

وقد أبطَلَ اللهُ تعالى اقتراحَهُم هذا بأنْ ألزمهم بالإيمان؛ لأنَّ ما طلبوه قد نزَّله الله على أسلافهم، وهم يعرفون هذا؛ فقال: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

فظَهَرَ أنَّ القومَ كأسلافهم الذين اشتَرَطُوا هذه الآيةَ للإيمان، ومع أنهم رَأَوْها فقد قابلوها بتقتيلِ الأنبياءِ، وتكذيبِهِمْ!

ثم سَلَّى نبيَّه ﷺ، وحذَّر أهلَ الكتاب:

أمَّا تسليةُ النبيِّ ﷺ فجاءتْ بطريقَيْن:

أولهما: أنَّ تكذيبهم له أمْرٌ معتادٌ منهم لقيه إخوانُهُ الأنبياء؛ فلا يبتئِسْ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

الثاني: الأمرُ بالصبر، وأنَّ ما يرونه مِنْ هؤلاءِ المكذِّبين ابتلاءٌ يبتليهم اللهُ به لرفعِ درجاتهم: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ

---

(١) أخرجه ابن جرير الطَّبَري (٤/١٩٧)، قال: حدثنا محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي عن أبيه، عنه، به، وعزاه في الدُّر المنثور (٢/٣٩٨) لابن أبي حاتم، ولم أره في المطبوع من تفسيره.

(٢) عزاه في الدُّر المنثور (٢/٣٩٨) لابن أبي حاتم، وليس في المطبوع من تفسيره.

مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وأما تهديدُ المكذِّبين، فجاء في آيتين:

أولاهما: تهديدُهم بساعةِ المَوْتِ، وما بعده: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ثانيتهما: بيانُ تدليسِ أهل الكتاب، وكتمانِهِمْ لآياتِ الله، وتَرْكِهِمْ لها، وتَوَعُّدُهُمْ على هذا؛ **قال تعالى:** ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].



المَبْحَثُ ٱلثَّالِثُ

المَقُولاتُ المتعلِّقةُ بالكُتُبِ الإلهيَّة

وفيه ستةُ مطالب:

المطلب الأول: نفيُ إنزالِ اللهِ للكُتُب.

المطلب الثاني: تَحَاضُّ الكافرينَ على تَرْكِ استماعِ القرآنِ.

المطلب الثالث: دعوى المكذِّبينَ: أنَّ القرآنَ مفترًى مِنْ دُونِ الله.

المطلب الرابع: ادعاءُ إمكانيَّةِ مُعَارَضَةِ القرآن.

المطلب الخامس: ادعاءُ التناقُضِ في القرآنِ الكريم.

المطلب السادس: الاعتراضُ على ضربِ الأمثالِ في القرآن.

المطلب الأول

نفيُ إنزالِ اللهِ للكُتُبِ

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

يذكُرُ اللهُ تعالى عمَّن نَفَوْا وأنكروا أن يكونَ اللهُ تعالى قد أنزَلَ شيئًا من الكتبِ على أحدٍ من البشر! أنهم بقولهم هذا ما عظَّموا الله تعالى حقَّ عظمته؛ وما عَرَفُوهُ حقَّ معرفته، ولا أَجَلُّوهُ حقَّ إجلاله؛ إذْ أنكروا كتبه، وكذَّبوا رسله!

قال أبو عُبَيْدة: «أي: ما عَرَفُوا الله حقَّ معرفته»[١].

قال النَّحَّاس: «وهذا معنًى حَسَنٌ؛ لأنَّ معنى: قَدَّرْتُ الشيءَ، وقَدَرْتُهُ: عَرَفْتُ مقداره؛ ويدلُّ عليه **قوله تعالى**: ﴿إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ﴾؛ **أي**: لم يعرفوه حقَّ معرفته؛ إذْ أنكروا أن يُرْسِلَ رسولًا»[٢].

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: «قالتِ اليهودُ للنبيِّ ﷺ: أنزَلَ اللهُ عليكَ كتابًا؟ قال: نعم، قالوا: واللهِ، ما أنزَلَ اللهُ من السماء كتابًا، فأنزَلَ الله: قُلْ يا محمَّدُ: مَنْ أنزَلَ الكتابَ الذي جاء به موسى نورًا

---

(١) معاني القرآن، للنحاس (٢/ ٤٦٥). (٢) تفسير البيضاوي (٧/ ٣٧).

وهُدًى للناس؟!»[١].

وقائلو هذه المقالةِ أبهمهم القرآنُ العظيمُ، إلا أنَّ سياقَ الآياتِ يدلُّ على أنهم اليهودُ، أو بعضُهم[٢].

وأنَّ مرادَهُمْ مِنْ مقالتهم: التوصُّلُ إلى نفيِ نزولِ القرآنِ على النبيِّ ﷺ، فَنَفَوْا إنزالَ الله تعالى للكتبِ بصيغةِ العموم؛ ليتوصَّلوا بذلك إلى إنكارِ نبوةِ النبي ﷺ.

وبجانبِ غلوِّ أصحابِ هذه المقولة، فقد غلا بعضُ اليهود غلوًّا كبيرًا إذْ أنكَرَ أنْ يكونَ الله تعالى قد أنزَلَ شيئًا من الكتبِ على أحدٍ من البشر!

فعن ابن عباسٍ، قال: «قال سكين، وعدي بن زَيْد: يا محمَّدُ، ما نعلمُ اللهَ أنزَلَ على بشرٍ من شيء بعدَ موسى؛ فأنزَلَ اللهُ في ذلك من قولهما: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣]»[٣].

وعن سعيد بن جبير[٤]: جاء رجلٌ من اليهود يقالُ له: مالكُ بنُ الصَّيْف، فخاصَمَ النبيَّ ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: (**أَنْشُدُكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى: هَل تَجِدُ فِي التَّوْرَاةِ: إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الحَبْرَ السَّمِينَ**)، وكان

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٣٤١)، قال: حدثنا أبي، ثنا أبو صالح ـ كاتب الليث ـ حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عنه، به.

(٢) وهذا ما رجَّحه أكثر المفسِّرين؛ كالبغوي، وابن جُزَيّ، والبيضاوي، والواحدي، بينما رجَّح الطبري أنها في المشركين. **انظر:** تفسير البغوي (٢/ ١١٥)، تفسير ابن جُزي (٢/ ١٥)، تفسير البيضاوي (٢/ ٤٢٩)، تفسير الواحدي (١/ ٣٦٥)، تفسير النسفي (١/ ٣٣٤)، فتح القدير (٢/ ١٤١).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١١١٨)، والطَّبَري (٦/ ٢٨).

(٤) **هو:** سعيد بن جبير الوالبي، أحد الأئمة الأعلام، روى عن ابن عباس، وابن عمر، وعبد الله بن مغفل، وعدي بن حاتم، قال ميمون بن مهران: «مات سعيدٌ، وما على ظهرِ الأرضِ أحدٌ إلا وهو محتاجٌ إلى علمه»، قتله الحجاج سنة (٩٥). **انظر:** تذكرة الحُفاظ (١/ ٧٦)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٢١).

حبرًا سمينًا؛ فَغَضِبَ، وقال: ما أنزَلَ اللهُ على بَشَرٍ من شيء! فقال له أصحابُهُ الذين معه: وَيْحَكَ! ولا على موسى؟ قال: ما أنزَلَ اللهُ على بشرٍ من شيء!

فأنزَلَ الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١]»[(١)].

وقال محمد بن كَعْب القُرَظي: «أنزَلَ الله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾، إلى قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]، فلمَّا تلاها عليهم ـ يعني: على اليهودِ ـ وأخبَرَهُمْ بأعمالهم الخبيثة؛ جَحَدُوا كلَّ ما أنزَلَ الله، وقالوا: ما أنزَلَ اللهُ على بشرٍ من شيء، ولا على موسى، ولا على عيسى، وما أنزَلَ اللهُ على نبيٍّ من شيء، قال: فحَلَّ حُبْوَتَهُ، وقال: ولا على أحدٍ، فأنزَلَ اللهُ جل ثناؤه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾»[(٢)].

وهذانِ الأثرانِ يبيِّنان أن قائلي هذه المقالةِ الشنيعةِ ساقتهم الحَمِيَّةُ، على نفيِ إنزالِ اللهِ للكتبِ عامَّةً! فكَفَرُوا بما يؤمنون به من نبوةِ موسى ﷺ؛ انتصارًا لأنفسهم، وتكذيبًا لرسولِ الله ﷺ، وحَسَدًا لما أنعَمَ اللهُ تعالى به عليه.

وقيل: إنَّ الآيةَ نزَلَتْ في المشركين[(٣)]؛ رُوِيَ ذلك عن

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٢٦٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٣٤٢)؛ كلاهما عن جعفر بن أبي المغيرة، عنه، به، وأخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص٣٤٥).

(٢) أخرجه الطَّبَري في تفسيره (٦/ ٢٨). وانظر الآثار في أن نزول هذه الآية كان في اليهود، في: الدُّر المنثور (٣/ ٢٤٥ و٣١٤ ـ ٣١٥).

(٣) ورجَّحه الحافظان: ابن جرير الطَّبَري، وابن كثير. انظر: جامع البيان (٧/ ٢٦٨)، تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٥٧).

ابنِ عباس رضي الله عنه، ومجاهد[١].

وذلك لعدة أمور:

أولها: أنَّ الآيةَ في سياقِ الخبرِ عن المشركين؛ فـ«الخَبرُ من أولِ السورةِ ومبتدئها إلى هذا الموضعِ خَبَرٌ عن المشركينَ من عَبَدةِ الأوثان، وكان قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١] موصولًا بذلك غيرَ مفصولٍ منه؛ فلم يَجُزْ لنا أن ندَّعي أن ذلك مصروفٌ عمَّا هو به موصولٌ إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها من خبرٍ أو عقل»[٢].

ثانيها: أنَّ إنكارَ إنزالِ اللهِ تعالى للكُتُبِ ليس مما تَدِينُ به اليهودُ، بل المعروفُ من دِينِ اليهودِ الإقرارُ بِصُحُفِ إبراهيم وموسى، وزَبُورِ داود، بينما العربُ قاطبةً كانوا ينكرون إرسالَ محمَّدٍ ﷺ؛ لأنه من البشر.

ثالثها: أنَّ هذه الآيةَ مكيةٌ.

والذي يَظْهَرُ ـ والعلمُ عند الله تعالى ـ أنَّ المقصودَ بذلك هم اليهود[٣]، وسياقُ الآية يدلُّ على ذلك؛ حيثُ قال سبحانه في الاحتجاج عليهم: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ [الأنعام: ٩١]؛ فاستَدَلَّ على ما أنكروه بالكتابِ الذي أثبتوه[٤]، والمشركونَ لم يُخْفُوا شيئًا من التوراة، كما أنهم لم يتعلَّموها دُونَ أن يَعْمَلُوا بها.

---

(١) أخرجه الطَّبَري (٧/ ٢٦٥)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٤١).

(٢) جامع البيان (٧/ ٢٦٨).

(٣) زعم بعض المفسرين: أن أولَ الآية خطابٌ مع الكفار، وآخرَهَا خطابٌ مع اليهود، وهذا ـ كما يقول الرازي ـ: «قولٌ فاسدٌ؛ لأنه يوجبُ تفكيك نَظْمِ الآية، وفسادَ تركيبها؛ وذلك لا يليقُ بأحسنِ الكلامِ، فضلًا عن كلامِ ربِّ العالمين». التفسير الكبير (١٣/ ٦٢).

(٤) وللمعارض أن يقول: لمَّا كان المشركون يؤمنون بأن الله قد أنزَلَ التوراةَ على موسى، حاجَّهم الله تعالى بذلك.

ولمَّا كان هذا القولُ غايةً في الجحودِ والإنكارِ، أبطلَهُ القرآنُ العظيمُ من ستةِ وجوه:

الوجه الأول: التنفيرُ مِنْ مقالتهم قبلَ قيلها؛ حيثُ نفى إجلالَهُمْ لله، وتعظيمَهُمْ له سبحانه قبلَ سَوْقِ مقالتهم؛ فقال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]؛ وذلك لأنَّ إنكارَ إنزالِ الكتب، فيه طعنٌ في الخالقِ سبحانه؛ إذْ يلزمُ منه أنَّ الرسلَ كَذَبُوا، وافتَرَوْا على الله، وهو تعالى شأنه يراهم، ويَنْصُرُهم، ويَكْبِتُ عدوَّهم، ويحقِّق وعدهم، وهذا تنقُّصٌ للخالق سبحانه، وطعنٌ في علمه، وقدرته؛ ولذلك قال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾.

الوجه الثاني في إبطال مقالتهم: إلزامُهُمْ بما يعتقدونه مِنْ إنزالِ اللهِ تعالى للتوراة، فقال لهم على سبيلِ المحاجَّة: إنْ كان الله تعالى لم يُنْزِلْ على بشرٍ شيئًا؛ فمَنِ الذي أنزَلَ التوراةَ التي جاء بها موسى؟! ولا شكَّ أن الجوابَ هو: أنزَلَهَا اللهُ، وهو جوابُ القرآنِ حيثُ قال تعالى في ختامِ الآية: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ جوابًا لقوله: ﴿مَنْ أَنزَلَ﴾، واسمُ «الله» مرفوعٌ بفعلٍ مضمرٍ تقديرُهُ: أنزلَهُ اللهُ، أو مرفوعٌ بالابتداء[1].

الوجه الثالث: إلزامُهُمْ بالإيمانِ بالقرآن؛ لأنهم إنْ أقرُّوا أنَّ اللهَ هو مَنْ أنزَلَ الكتابَ على موسى، فإنه يلزمهم الإيمانُ بالنبيِّ ﷺ؛ لأن رسالتَهُ مصدَّقةٌ في كتبهم؛ كما **قال تعالى**: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، **وقال تعالى**: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ

(١) تفسير ابن جزي (٢/ ١٦).

ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]، وقال هنا بعد ذكر نفيهم لإنزال الله كتابًا: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢].

ولذا ذمَّهم فقال: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

الوجه الرابع: الاحتجاجُ عليهم بما يعلمونه مِنْ كتبِ الله تعالى؛ فقال لهم: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ [الأنعام: ٩١]، وما تعلَّموه هو من كُتُبِ الله التي أنزلها، وهم يعلمون هذا جليًّا.

الوجه الخامس: التهديدُ والوعيدُ للمكذِّبين؛ وذلك في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، والمعنى: أنك إذا أقمتَ الحجةَ عليهم، وبَلَغْتَ في الإعذارِ والإنذارِ هذا المَبْلَغَ العظيم؛ فحينئذٍ لم يَبْقَ عليك مِنْ أمرِهم شيءٌ البتةَ، ونظيرُهُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

وحيثُ قَرَنَهُم بمن ادَّعى النبوةَ، ومَنِ ادَّعى إمكانَ معارضةِ القرآن؛ فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣ - ٩٤].

الوجه السادس: تبرئةُ النبيِّ ﷺ من اتهامهم له بابتداعِ الوَحْي؛ فقال بعد هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

ومِنْ أعظمِ الكذبِ أن ينفي أهلُ الكتاب: نُزُولَ كتابٍ من اللهِ تعالى على البشر!

المَطْلَبُ الثَّانِي

تَحَاضُّ الكافرينَ على تَرْكِ استماعِ القرآنِ

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ٢٦ ـ ٢٨].

هذا إخبارٌ من الله تعالى عن موقفِ المشركينَ مِنَ القرآنِ العظيمِ، وهذا كان منهم بمكةَ، إذا قرأَ الرسولُ ﷺ القرآنَ، كان المشركون يَطْرُدُونَ الناسَ عنه، ويقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[١]، في محاولةٍ منهم لحجبِ الحقِّ عن الناس، والحَيْلِ بينهم وبين الحقِّ الذي يتلوه عليهم النبيُّ ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾: «اللغوُ: السقطُ، وما لا يعتدُّ به من كلامٍ وغيره، ولا يحصُلُ منه على فائدةٍ ولا نَفْعٍ»[٢].

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما **في قوله تعالى:** ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾؛ قال: «بالتصفيرِ، والتخليطِ في المنطقِ على رسولِ الله ﷺ؛ إذا قرأَ القرآنَ قريشٌ تفعلُهُ»[٣].

وعن قتادةَ رضي الله عنه: ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾؛ قال: «يقولون: اجْحَدُوا به،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٢٧) عن ابن عباس رضي الله عنه. **وانظر:** الدُّر المنثور (٧/ ٣٢١).
(٢) لسان العرب، مادة: (لغا) (١٥/ ٢٥٠).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٢٧). **وانظر:** الدُّر المنثور (٧/ ٣٢١)، وقاله مجاهد أيضًا؛ كما في تفسيره (٢/ ٥٧١). **وانظر:** معاني القرآن، للنحاس (٦/ ٢٦٣).

وأَنْكِرُوهُ، وعادوه»[١].

وقال أبو العالية: «أراد: وَاقِعوا فيه، وعَيِّبوه».

وما قاله ابنُ عباس رضي الله عنهما هو الذي يدلُّ عليه ظاهرُ الآية، وإن كان قولُ قتادة، وأبي العاليةِ مُحتمِلًا لِدَلَالةِ لفظِ اللغوِ على وصفِهِ بسقطِ الكلام.

والقصدُ من هذا: التخليطُ؛ حتى لا يَسْمَعَ الناسُ القرآنَ من النبي ﷺ.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾؛ أي: لعلَّكم بفعلكم ذلك تَصُدُّونَ مَنْ أراد استماعَهُ عن استماعه؛ فلا يَسْمَعُهُ، أو بتحريفِ معنى ما سَمِعَهُ؛ فلا يفهمه؛ فتغلبون بذلك محمَّدًا ﷺ بزعمهم!

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢].

فالآيةُ تدلُّ على شدةِ بُغْضِهم وكراهيتهم لسماعِ القرآن.

وهذا العملُ الذي كان المشركون يأتونه إرثٌ سابقٌ يتوارثُهُ أعداءُ الرسل؛ كما ذَكَرَ اللهُ عنهم، فقال تعالى عن نبيه نُوحٍ عليه السلام: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

وقال الله تعالى لبني إسرائيل: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ﴾ [البقرة: ٩٣].

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ١١٢). وأخرجه عبد بن حميد؛ قاله في الدُّر المنثور (٧/ ٣٢١).

قال بعضُ العلماء: أي: بآذانكم، ولا تمتنعوا مِنْ أصلِ الاستماع(١).

وهو إرثٌ توارثَهُ أعداءُ الإسلامِ اليومَ؛ فهم يبذلون قصارى جُهْدِهم في صرفِ الناسِ عن سماعِ القرآن، وصَدِّ الناسِ عن فهمه؛ ويأبى اللهُ إلا أن يُتِمَّ نوره، ولو كره الكافرون.

وقد رصَدَ القرآنُ حالتهم عندَ استماعِ القرآن، وجوابَهُمْ للمرسلين؛ **فقال تعالى:** ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٣ ـ ٥].

فصرَّحوا للنبيِّ ﷺ بأنهم لا يستجيبون له، ولا يؤمنون به، ولا يَقْبَلُونَ منه ما جاءهم به؛ فذَكَرُوا له: أنَّ قلوبَهُمُ التي يعقلون بها ويفهمون، في أكنة؛ أي: أغطيةٍ، وأنَّ في آذانهم التي يسمعون بها وَقْرًا؛ أي: ثقلًا؛ وهو الصممُ، وأنَّ ذلك الصمَمَ مانعٌ لهم من أن يسمعوا من النبيِّ ﷺ شيئًا ومما يقول، وأنَّ مِنْ بينهم وبينه حجابًا مانعًا لهم من الاتصالِ والاتفاق؛ لأن ذلك الحجابَ يَحْجُبُ كلًّا منهما عن الآخر، ويحولُ بينهم وبين رؤيةِ ما بيديه ﷺ من الحق(٢).

ولمَّا كانتْ هذه المقولةُ مِنْ أَشَدِّ الصدِّ عن دِينِ الله، ولا تَحْمِلُ في طيَّاتِها سوى الكَيْدِ لهذا الدِّين، ومحاولةِ النيلِ منه، فقد أبطَلَهَا القرآنُ العظيمُ في مقامِ العَرْضِ، وفي مقامِ الرَّدِّ:

ففي مقامِ عَرْضِ المقولةِ:

١ ـ نبَّه على أنَّ هذه المقولةَ لا تصدُرُ إلا مِنْ كافرٍ لا يؤمنُ بالله العظيم؛ **فقال تعالى:** ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [فصلت: ٢٦].

---

(١) أضواء البيان (١/ ٤٠).
(٢) المصدر السابق (٧/ ٥ ـ ٦).

٢ ـ تصويرُ القرآنِ لِيَأْسِ المشركين، وأن الأمرَ بعدمِ استماعِ القرآنِ لا يعدو أنْ يكونَ رجاءً يتمنَّونه؛ فهم غيرُ موقنين بالغَلَبة، لكنَّهم يتأملونها!

فأظهَرَ عَرْضُ المقولة: الحالةَ النفسيَّةَ التي يَمُرُّ بها أعداءُ الدين، وخَوْفَهُمْ من هذه الدعوة، حتى وصَلَ الأمرُ إلى التحاضِّ على عدمِ الاستماعِ للقرآن، والتخليطِ على قارئه، وسامعِهِ، حتى لا يصلَ للآذانِ منه شيء!

وأمَّا في مقامِ إبطالِهِ للمقولة:

١ ـ فقد توعد قائلَ هذه المقولةِ بالعذابِ المهينِ يومَ القيامة؛ فقال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ٢٧ ـ ٢٨].

٢ ـ وسمَّى فعلَهُمْ إضلالًا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩].

٣ ـ ووصَفَ حالَ أتباعهم، وما يَتَمَنَّونَ أنْ يجازوهم به، وأنهم أصبحوا من الأسفلين، ولم يكونوا هم الغالبين!

ولمَّا كان القرآنُ العظيمُ هدايةَ الله للأولين والآخرين، فقد نهَجَ القرآنُ في الحَضِّ على سماعِ القرآنِ عدةَ أساليب، منها:

١ ـ الإنكارُ على مَنْ لم يتدبَّره، ويُعْمِلْ فِكْرَهُ في فهمه؛ **قال تعالى:** ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، **وقال سبحانه:** ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وهذا استفهامٌ إنكاريٌّ على مَنْ أعرَضَ عن القرآن؛ فلم يتدبَّره، ويفقه أمره ونهيه.

٢ ـ تحدِّي المعارضين أنْ يأتوا بسورةٍ مِنْ مثله[١]؛ وهذا مَدْعاةٌ للمنكرين أن يتدبَّروا هذا الكتابَ الذي يتحدَّاهم، ويُسَجِّلُ عليهم في كلِّ لحظةٍ عَجْزَهم عن معارضته، والإتيانِ بمثله.

فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، **وقال:** ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

---

(١) **يُنظر:** في مسألة تحدي المشركين أن يأتوا بمثل القرآن العظيم (ص٢٥١) من البحث.

المَطْلَبُ الثَّالِثُ

دَعْوَى المكذِّبين: أنَّ القرآنَ مُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللّه

ردَّ الكفارُ دعوةَ النبيِّ ﷺ بكلِّ ما أوتوه من قوة، وما عَلِمُوهُ من حجة، وحاولوا صدَّ الناسِ عنه، وعن دَعْوته.

وقد اختلَفَتْ أقوالُهم في تحديدِ مصدرِ القرآنِ الكريم، بعدَ أنِ اتفقَتْ قولتهم: أنه ليس مِنْ عندِ اللهِ تعالى، **فمِنْ مقالاتهم التي سطَّرها القرآن:**

١ ـ قولهم بأنَّ القرآنَ سِحْرٌ:

وهي مقولةٌ تتابَعَ عليها الكافرونَ في كلِّ أمة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠]، ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل: ١٣]، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٦]، ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣]، ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصافات: ١٥]، ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٠]، ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٧]، ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢]، ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ

مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦]، ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤].

والسِّحْرُ في كلام العرب: كلُّ ما خَفِيَ ولَطُفَ سَبَبُهُ(١).

وقد أبطَلَ القرآنُ هذه المقولةَ في أكثَرَ من موطنٍ وبأكثَرَ من طريق، منها:

الطريق الأول: أنَّ القرآنَ العظيمَ نَهَى عن السحرِ في أكثَرَ من موطن في كتابه:

تارَةً: بوصفِ أربابِهِ بالكفر؛ كما في **قوله تعالى**: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وتارَةً: بنفيِ الفلاحِ عنهم؛ **كما قال على لسان موسى** ﷺ: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧]؛ فكيف يتفقُ ـ مع ذلك ـ أن يكونَ ما يقولُهُ هو السِّحْرَ؟!

وقد قال بعضُ المشركين عندَ سماعه للقرآن: «واللهِ، ما هو بسحرٍ...»(٢).

---

(١) انظر: لسان العرب (سحر) (٣٤٨/٤)، النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير (٣٤٦/٢).

(٢) كما في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال أبو جهل، والملأُ من قريش: قد انتشَرَ علينا أمر محمد ﷺ، فلو التمستم رجلًا عالمًا بالسحرِ والكهانة والشعر، فقال عتبة: «علمتُ من ذلك علمًا، وما يخفى عليَّ إن كان كذلك، فأتاه، فلما أتاه، قال له: يا محمد، أنت خيرٌ أم هاشم؟ أنت خيرٌ أم عبد المطلب؟ فلم يجبه، قال: فيم تشتم آلهتنا، وتضلل آباءنا؟ فإن كنت إنما بك الرياسة، عقدنا ألويتنا لك؛ فكنت رأسنا ما بَقِيتَ، وإن كان بك الباءة، زوَّجناك عَشَرَةَ نسوةٍ تختار من أيِّ بنات قريش، وإن كان بك المال، جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك، ورسولُ الله ﷺ ساكتٌ لا يتكلَّم، فلما فرغ، قال رسول الله ﷺ: «(بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾)، حتى بلغ: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١ ـ ١٣]، فأمسَكْتُ بفيه، وناشدتُهُ الرحم، فكيف وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يَكْذِب، فخفتُ أن ينزلَ بكم العذاب». =

وقد حَفِلَتِ السُّنَّةُ كذلك بالتحذيرِ من السِّحْرِ، بل وَعَدِّهِ من الموبقات؛ كما في «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقاتِ...)[1]، وعَدَّ منها السحرَ.

الطريق الثاني: بيانُ منشأ قيلهم، وأنه لمجرَّدِ التلبيسِ على الخلقِ، والطعنِ في النبيِّ ﷺ؛ فلم يكنْ كلامُهم مبنيًّا على حجةٍ أصلًا؛ ولذلك **قال تعالى بعد سياق مقالتهم**: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣].

= أخرجه البيهقي في الدلائل (١/ ١٩٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٧٨)، بسنده إلى الأجلح بن عبد الله الكندي، عن الذيال بن حرملة، عن جابر بن عبد الله، ومن طريقه البيهقي في الاعتقاد (ص٢٦٧)، وأخرجه أبو نُعَيْم في دلائل النبوة (١/ ٢٢١)، وأبو يعلى في مسنده (٣/ ٣٤٩)، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٣٣٠)، قال: ثنا علي بن مسهر، عن الأجلح، به، ومن طريق ابن أبي شيبة رواه عَبْدُ بن حُمَيْد في مسنده (١/ ٣٣٧).

قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٢٩): «وهذا إسناد صالح؛ فالأجلح بن عبد الله الكندي، أبو جحيفة الكوفي يقال: اسمه يحيى، وإنما الأجلحُ لَقَبٌ له، وثَّقه يحيى بن معين، والعجلي، وقال أبو حاتم: «يُكتب حديثه، ولا يحتج به»، وقال النسائي: «ليس بذلك»، وقال ابن عدي: «لم أجد له حديثا مُنكرًا؛ إلا أنه يُعَدُّ من شِيعَةِ الكوفة، وهو عندي صدوقٌ، مستقيم الحديث»، وأما الذيال بن حرملة، فذكره ابن أبي حاتم في كتابه، ولم يذكره بجرح، وإنما قال: «روى عن ابن عمر، وجابر، وعنه الأجلح، وحجاج بن أرطاة، وفِطْر، سمعت أبي يقول ذلك». انتهى.

ورواه الإمام محمد بن إسحاق في السيرة، رقم (١٣٦٢)، فقال: ثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، قال: حُدِّثْتُ أن عتبة بن ربيعة. . . . فذكره هكذا مرسلًا بزيادة ونقص.

قال في مجمع الزوائد (٦/ ٢٠): «رواه أبو يعلى، وفيه الأجلح الكندي، وثَّقه ابن معين وغيره، وضعَّفه النسائي وغيره، وبقية رجاله ثقات». **وانظر**: الدُّر المنثور (٧/ ٣١٢).

(١) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب الشرك، والسحر من الموبقات (١٠/ ٢٢٣ الفتح).

قال عقب سياق هذه الفرية: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤].

فنفى استنادَهُمْ في هذه الفرية بدليلَيْنِ لا ثالثَ لهما:

أولهما: أن يكونَ لهم كتابٌ اعتَمَدُوا عليه في تلكَ المقولة.

الثاني: أن يكونَ قد أُرسِلَ لهم رسولٌ قبلَ النبيِّ ﷺ؛ فهم متَّبعون له، مكذِّبون لغيره.

ثم دعاهم بعد انتفاءِ طريقِ النقلِ، إلى اقتفاء طريق العقل؛ فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

٢ ـ زَعْمُ المشركين: أنَّ القرآنَ أساطيرُ الأوَّلين:

الأساطيرُ: جَمْعُ أُسْطُورةٍ، وهي الأباطيلُ[١].

وإنما عنى المشركون بقولهم: إنْ هذا إلا أساطيرُ الأولين: إنْ هذا القرآنُ الذي تتلوه علينا يا محمَّدُ إلا ما سَطَّرَ الأولون، وكتبوه من أخبارِ الأُمَم؛ كأنَّهم أضافوه إلى أنه أُخِذَ عن بني آدم، وأنه لم يُوحِهِ اللهُ إليه[٢].

وقد زعم المشركون بأنَّ القرآنَ العظيمَ هو من الأساطيرِ التي ابتَدَعَها الجَهَلةُ الأولون: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

وقد كرَّر القرآنُ العظيمُ هذه التهمةَ الإبليسيَّةَ من المشركينَ في ستة مواضع، هي على الترتيب: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ

---

(١) لسان العرب (٤/ ٣٦٣).

(٢) جامع البيان (٩/ ٢٣١).

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤]، ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥]، وفي سورة [المطففين: ١٣].

فوصَفَ المشركون القرآنَ بأنه من أساطيرِ الأولين، ووصَفُوا بعضَ قضاياه بذلك؛ كقضيَّةِ البعثِ بعدَ الموت: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٨].

ومقصودُهُمْ من هذا الوصف: القَدْحُ في صدقِ النبوَّة، وفي كونِ القرآنِ معجزًا؛ فكأنهم قالوا: إنَّ هذا الكلامَ مِنْ جنسِ سائرِ الحكاياتِ المكتوبة، والقِصَصِ المذكورةِ للأوَّلين، وأقاصيصِ الأقدمين!

وقد ذَكَرَ أصحابُ السِّيَرِ أن ممَّن تولَّى كِبْرَ هذه الدعوةِ النَّضْرَ بنَ الحارث، وكان ـ كما يقولُ ابنُ هشام[١] ـ مِنْ شياطينِ قريش، قَدِمَ الحِيرَةَ، وتعلَّم بها أحاديثَ ملوكِ الفرس، وأحاديثَ رُسْتُم، وإسفنديار[٢]، ثم يقول: بماذا محمَّدٌ كان أحسَنَ مني؟!

وكان يقولُ: والذي جعلها بَنِيَّةً[٣]؛ ما أدري ما يقولُ؛ إلا أني أرى

---

(١) هو: الإمام النحوي عبد الملك بن هشام بن أيوب الذهلي، عالم بالعربية، هذَّب السيرة النبوية، لابن إسحاق، توفي سنة (٢١٨هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٢٨).

(٢) رستم، وإسفنديار: من ملوك فارس.

(٣) أي: الكعبة المشرفة، قال ابن منظور في اللسان (بنى) (١٤/ ٩٥): «والبَنِيَّةُ، على فَعِيلة: الكَعْبةُ لشرفها؛ إِذْ هي أَشْرَفُ مَبْنِيّ، يُقال: لا وَرَبِّ هذه البَنِيَّةِ، ما كان كذا وكذا... وكانت تُدْعَى بَنِيَّةَ إبراهيمَ عليه السلام؛ لأنه بناها، وقد كَثُرَ قَسَمُهُمْ بربِّ هذه البَنِيَّة».

تحرُّكَ شفتيه، وما يقولُ إلا أساطيرَ الأولين، مثلما كنتُ أحدِّثكم عن القرونِ الماضية[1].

وقد أبطَلَ القرآنُ العظيمُ هذه الفِرْيةَ مِنْ خلال أمور، منها:

١ ـ بيانُ دافعِ المشركينَ في هذه الفِرْية، وهو المجادَلَةُ لا غيرُ؛ **فقال:** ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

فوصفهم بعَدَمِ الفهمِ؛ فقلوبُهُمْ محجوبةٌ، وآذانُهُمْ بالثقلِ مصبوبة، ووصَفَهُمْ بالعنادِ بحيثُ إنهم مهما يَرَوْا من الآيات فلن يؤمنوا.

٢ ـ بيانُ عجزهم عن إثباتِ دعواهم؛ فغايةُ ما اسطاعوا قولَهُ؛ كما أخبر الله تعالى عنهم **بقوله:**

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

---

(١) **انظر:** السيرة النبوية، لابن هشام (١/ ٣٠٠)، زاد المسير، لابن الجوزي (٣/ ١٨).

المَطْلَبُ الرَّابِعُ

ادعاءُ إمكانيَّةِ مُعارَضَةِ القرآن

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

وهذا المذكورُ عنهم مجرَّد دعوى رخيصةٍ لم يُلْقِ لها القرآنُ بالًا؛ إذْ عَرَفُوا، وعرَفَ السامعون: أن القرآنَ كلامُ الله تعالى، وأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بمثله، ولذلك عَجَزُوا عن الإتيانِ بِمِثْلِهِ رغمَ تحدِّي القرآنِ لهم في أكثرَ مِنْ موطن، وفي أكثرَ مِنْ مناسبة[1].

---

(١) أغرب الرازي كثيرًا عند تعرُّضه لبعضِ المقولات التي ذكرها القرآن عن المشركين؛ كقوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١]، وكقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [٩٠]، إلى آخر الآياتِ من سورة الإسراء.

أقولُ: أغرب الرازي إذْ زعم أن تلك المقولاتِ كانت من كلامِ المشركين، وقد ذكرها الله تعالى، فصدَقَ أنهم أتوا ببعضِ كلماتٍ معجزة، ثم أجابَ عن ذلك بجواب ركيك، وهذا نصه (١٥/ ١٢٦): «فإن قيل: هذا الكلام يوجب الإشكالَ من وجهين:

الأول: أن قوله: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، حكاه الله عن الكفار، وكان هذا كلامَ الكفار، وهو من جنسِ نظمِ القرآن؛ فقد حصَلَتِ المعارضةُ في هذا القَدْر، وأيضًا حكى عنهم أنهم قالوا - في سورة بني إسرائيل -: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾؛ وذلك أيضًا كلامُ الكفار؛ فقد حصَلَ من كلامهم ما يشبه نظمَ القرآنِ ومعارضَتَهُ؛ وذلك يدل على حصول المعارضة...

والجواب عن الأول: أن الإتيان بهذا القدر من الكلام لا يكفي في حصولِ المعارضة؛ لأن هذا المقدارَ كلامٌ قليلٌ لا يظهرُ فيه وجوهُ الفصاحةِ والبلاغة، وهذا الجوابُ لا يتمشَّى إلا إذا قلنا: التحدِّي ما وقع بجميع السور، وإنما وقع بالسورةِ الطويلةِ التي يظهر فيها قوة الكلام». **وانظر**: منه (٢١/ ٤٩)، **وهذا جوابٌ في غاية الوهن!** وذلك أن التسليمَ بالمقدِّمة التي ذكرها ساقه إلى هذا الجواب، والقولُ المختارُ =

قال السُّدِّيُّ: «كان النضرُ بنُ الحارثِ بنِ عَلْقمةَ أخو بني عبد الدار يختلفُ إلى الحِيرَةِ، فيسمعُ سَجْعَ أهلها وكلامهم، فلمَّا قَدِمَ مكةَ، سمعَ كلامَ النبيِّ ﷺ، والقرآنَ، فقال: قد سمعنا؛ لو نشاءُ لقلنا مثلَ هذا إنْ هذا إلا أساطير الأولين، يقولُ: أساجيع أهلِ الحيرة»[1].

فقد يمكنُ أن يكونوا كاذبين فيما أخبَرُوا به عن أنفسهم، وقد يمكنُ أن يكون قاله منهم أهلُ الضعفِ في هذه الصناعةِ دُونَ المتقدِّمين فيها، وقد يمكنُ أن يكونَ هذا الكلامُ إنما خرَجَ منهم وهو يَدُلُّ على عجزهم؛ ولذلك أورده اللهُ مَوْرِدَ تقريعهم؛ لأنه لو كانوا على ما وَصَفُوا به أنفسهم، لكانوا يتجاوزون الوعدَ إلى الإنجازِ، والضمانَ إلى الوفاء، فلما لم يفعلوا ذلك مع استمرارِ التحدِّي وتطاوُلِ زمانِ الفُسْحَةِ في إقامةِ

= الذي لا يصح سواه: أن ما أخبر به القرآنُ هو معنى كلامهم، أمَّا نَظْمُهُ، فهو من كلام الله تعالى، ومن جنسِ نظمِ القرآن، فليس لقائلِ هذه الشبهةِ ـ إن وُجِدَ ـ أدنى تعلُّق بها، وقد ذكر الله تعالى من أخبار الأمم السابقة، ومناظراتِ الأمم مع رُسُلهم ما يدلُّ على أن حكايةَ أقوالهم وقعَتْ في القرآن على المعنى، بدليل أن القصة الواحدة تأتي في القرآن على أكثر من نظم، ومقولاتُ فرعون مع موسى التي ذكرها القرآن تؤيِّد هذا المعنى.

انظر: الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم (١/ ٣٧)، قواعد التفسير، التحرير والتنوير، لابن عاشور (١/ ٦٧)، قال ابن عاشور: «القرآن يتصرَّفُ في حكاية أقوالِ المحكيِّ عنهم، فيصوغها على ما يقتضيه أسلوبُ إعجازه، لا على الصيغة التي صدَرَتْ فيها، فهو إذا حكى أقوالًا غير عربية، صاغ مدلولها في صيغة تبلغ حدَّ الإعجاز بالعربية، وإذا حكى أقوالًا عربية، تصرَّف فيها تصرفًا يناسب أسلوب المعبِّر، مثلُ ما يحكيه عن العرب؛ فإنه لا يلتزم حكايةَ ألفاظهم، بل يحكي حاصلَ كلامهم، وللعربِ في حكايةِ الأقوالِ اتساعٌ مدارُهُ على الإحاطة بالمعنى، دُونَ التزام الألفاظ، فالإعجازُ الثابتُ للأقوالِ المحكيةِ في القرآنِ هو إعجازٌ للقرآن، لا للأقوالِ المحكية».

(١) أخرجه الطَّبَري (٩/ ٢٣١)، قال: حدثني محمد بن الحسين، قال: ثنا أحمد بن المفضل، قال: ثنا أسباط، عنه، به.

الحجةِ عليهم بعجزهم عنه، عُلِمَ عجزُهم؛ إذْ لو كانوا قادرين على ذلك، لم يقتصروا على الدعوى فقط[١].

وهذه الدعوى التي أطلَقَهَا الكافرون هنا يَدُلُّ سياقُ الآياتِ على بطلانها من وجهين:

الأول: أنه بيَّن أن الآياتِ بلغتهم، وتُلِيَتْ عليهم، والآيةُ لا لَبْسَ فيها ولا غموض، فإعراضُهم عنها ـ والحالُ هذه ـ يبيِّن عنادَهُمْ، وضعفَ عقولهم.

الثاني: أنَّ وقوفَهُمْ عاجزينَ عن مجاراةِ القرآن، مع ادعائهم إمكانيةَ معارضته، مع التحدِّي الشديدِ الذي كان يواجهُهُمْ به النبيُّ ﷺ؛ كلُّ ذلك يدل دلالةً قطعيةً على كِذْبِهم، وضَعْفِهم عن معارضته.

وقد أجابَ القرآنُ عن شبهةِ الكافرين هذه في مواطنَ متعدِّدة، ومنها[٢]:

الأول: تحدِّي الكافرين عن الإتيانِ بمثلِ هذا القرآن؛ حيثُ تحدَّاهم الله تعالى أن يأتوا بمثله، وتدرَّج بهم في التحدي.

فأول ما نزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وهذه الآيةُ مكيةٌ، وعمَّ بها التحدِّي جميعَ معارضيه، وكان الكفارُ من أحرصِ الناسِ على إبطالِ قوله؛ فمعلومٌ أنهم لو كانوا قادرين على المعارضة، لعارضوه؛ فدَلَّ هذا على عجزهم عن معارضته.

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣ ـ ٣٤].

فعجزوا عن الإتيانِ بمثله، فلمَّا عجزوا عن ذلك، ولم يتمكَّنوا من

---

(١) انظر: إعجاز القرآن، للباقلاني (ص٤٣).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١/ ٧٧ ـ ٧٨).

معارضته، جاءهم بتخفيفِ التحدِّي؛ فتحدَّاهم بعشر سور؛ **فقال تعالى:** ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣، ١٤].

فلمَّا عَجَزُوا، تحدَّاهم أن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ؛ **فقال تعالى:** ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

«فأُفْحِمُوا عن الجوابْ، وتقطَّعت بهم الأسبابْ، وعدَلُوا إلى الحروبِ والعنادْ، وآثروا سَبْيَ الحريم والأولادْ، ولو قَدَرُوا على المعارضة، لكان أهونَ كثيرًا، وأبلَغَ في الحجة، وأكثَرَ تأثيرًا، هذا مع كونهم أربابَ البلاغةِ واللحنْ، وعنهم تؤخذُ الفصاحةُ واللسنْ»[1].

وعجزُهُمْ يَدُلُّ دلالةً قطعيةً على أنَّ كلامَ اللهِ تعالى معجزٌ، ليس من جنسِ كلامِ البشر.

ثم أعاد التحدِّيَ في المدينةِ بعدَ الهجرة، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

«**ووجهُ الدلالةِ من الآية من وجهين:**

أحدُهما: أنه قال: **أي:** فقد علمتم أنه حقٌّ، فخافوا اللهَ أن تكذِّبوه، فيحيقَ بكم العذابُ الذي وعَدَ به المكذِّبين، وهذا دعاءٌ إلى سبيلِ ربِّه بالموعظةِ الحسنة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٧٨). وانظر: الجواب الصحيح، لابن تيمية (٥/ ٤٢٢ ـ ٤٣٣)، الصواعق المرسلة، لابن القيم (٢/ ٤٦٨ ـ ٤٦٩).

والثاني: قوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٤].

ولَنْ: لنفيِ المستقبلِ، فثبَتَ الخبَرُ أنهم فيما يستقبلُ من الزمانِ لا يأتون بسورةٍ من مثله، كما أخبَرَ قبلَ ذلك»[١].

الموطن الثاني: التصريحُ المتواترُ في نصوصِ القرآنِ بأنه كلامُ الله.

ولذا كان مُعْجِزًا، وإعجازُهُ شاملٌ يعمُّ ما فيه من الفصاحةِ والبلاغةِ، والنظمِ والأسلوب، والإخبارِ بالمغيَّبات، في الماضي والمستقبل، وحُسْنِ دَلَالةِ ألفاظِهِ على المعاني، ومُعْجِزٌ من جهةِ معانيه التي أخبَرَ بها عن الله ﷻ وأسمائه، وصفاته، وملائكته، وغير ذلك، ومن جهة ما فيه من الدلائلِ اليقينيَّة، والأقيسةِ العقلية[٢].

الموطن الثالث: شهادةُ اللهِ ـ جل ذكره ـ أنَّ القرآنَ كلامُهُ[٣]؛ قال سبحانه: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

فكفى بشهادةِ اللهِ حجةً قطعيةً على أنه كلامه؛ لأنه لا يُتخيَّلُ أن يَنْسُبَ لله كلامًا لم يقله، ومع هذا يؤيِّدُ اللهُ قائله، ويَنْصُرُهُ، ويُخْزِي أعداءه، فسُنَّةُ الله تعالى شأنه تأبى هذا أشدَّ الإباء.

ولذلك **قال سبحانه**: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦].

«فلو كذَبَ عليه، لانتقَمَ منه؛ **لقوله تعالى**: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]»[٤].

الموطن الرابع: شهادةُ الملائكةِ على ذلك، كما في الآيةِ السابقة.

---

(١) الجواب الصحيح، لابن تيمية (٥/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦).

(٢) انظر: المرجع السابق (٥/ ٤٢٨). (٣) وهذا الوجه أخص من الوجه السابق.

(٤) نسبه في التفسير الكبير (٢٤/ ٤٥) لأبي مُسْلِم.

الموطن الخامس: أنه توعَّد من تجرَّأ على القولِ بذلك؛ فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

المَطْلَبُ الْخَامِسُ

ادعاءُ التناقُضِ في القرآنِ الكريم

دأَبَ المشركون على الطعنِ في القرآنِ بكلِّ سبيل، ومن ذلك: ادعاءُ التناقض فيه، وفي ذلك يقولُ الله تعالى:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓا۟ ءَأَـٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٧، ٥٨].

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: «لمَّا نزلَتْ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

قال المشركون: فالملائكةُ، وعيسى، وعُزَيْرٌ يُعْبَدُونَ مِنْ دُونِ الله؛ فنزلَتْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] عيسى، وعُزَيْرٌ، والملائكة»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لمَّا نزلَتْ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، شَقَّ ذلك على أهلِ مكة، وقالوا: شتَمَ الآلهةَ!

فقال ابن الزِّبَعْرَى: «أنا أَخْصُمُ لكم محمَّدًا، ادعوه لي، فدعي، فقال: يا محمَّد، هذا شيءٌ لآلهتنا خاصَّةً، أم لكلِّ مَنْ عُبِدَ من دون الله؟

قال: (بَلْ لِكُلِّ مَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ).

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه، رقم (٣٤٤٩) من طريق عكرمة، عنه، به، وقال: «حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، وأخرجه المقدسي في الأحاديث المختارة (١٠/ ٣٠٤) من طريق سعيد بن جُبَيْر، عنه، به.

فقال ابن الزِّبَعْرَى[(١)]: خُصِمْتَ وَرَبِّ هذه البَنِيَّةِ - يعني: الكعبةَ - ألستَ تزعُمُ يا محمَّد: أن عيسى عبدٌ صالح، وأنَّ عزيرًا عبدٌ صالح، وأنَّ الملائكةَ صالحون؟ قال: بلى.

قال: فهذه النصارى تعبُدُ عيسى، وهذه اليهودُ تعبُدُ عزيرًا، وهذه بنو مُلَيْحٍ تعبُدُ الملائكةَ؛ فضَجَّ أهلُ مكة وفَرِحُوا، فنزَلَتْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] عزيرٌ وعيسى والملائكةُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، ونزَلَتْ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] قال: هو الصحيح»[(٢)].

فقوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ [الزخرف: ٥٨]؛ **أي**: إلا من أجلِ الجدلِ والخصومةِ بالباطل.

وفي: ﴿يَصِدُّونَ﴾ قراءتان[(٣)].

---

(١) **هو**: عبد الله بن الزِّبَعْرَى بن قيس بن عدي القرشي السهمي، كان من أشد الناس على رسول الله ﷺ وعلى أصحابِهِ بلسانه ونفسه، وكان من أشعر الناس وأبلغهم، يقولون: إنه أشعرُ قريش قاطبة، قال ابن عبد البر في الاستيعاب: «كان يُهاجِي حَسَّان بن ثابت، وكعب بن مالك... ثم أسلم عام الفتح، بعد أن هرب يوم الفتح إلى نجران». **انظر**: الاستيعاب (٣/ ٩٠١ - ٩٠٣).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير، رقم (١٢٧٤٠)، والقطيعي في زوائد المسند، رقم (٢٩٢١)؛ من طريق عاصم بن بهدلة، قال في مجمع الزوائد (٧/ ١٠٤): «وفيه عاصم بن بهدلة، وثَّقه أحمد وغيره، وهو سيئ الحفظ، وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٣) قرأ هذا الحرف نافع وابن عامر والكسائي: «يَصُدُّونَ» بضم الصاد، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة: «يَصِدُّونَ» بكسر الصاد؛ فعلى قراءة الكسر: فمعنى: «يَصِدُّونَ»: يَضِجُّون، ويصيحون، وقيل: يضحكون، وقيل: معنى القراءتين واحد؛ كيَعْرِشُون، ويَعْرُشون، ويَعْكِفون، ويَعْكُفون، وعلى قراءة الضم: فهو من الصدود. **انظر**: السبعة، لابن مجاهد (ص٥٨٧)، التيسير، لأبي عمرو الداني (ص١٥٩)، الحجة في القراءات، لابن زنجلة (ص٦٥٢).
وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرؤها: «يَصِدُّونَ»؛ **يعني**: بكسر الصاد، يقول: يضجون، أخرجه ابن جرير الطَّبَري (٢٥/ ٨٧)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٨٥). =

وقد أبطَلَ القرآنُ العظيمُ هذه المقولةَ الباطلةَ بطريقةٍ عقليَّةٍ علميَّة، نقضًا وتقريرًا:

أما جانبُ التقرير:

فقد نصَّ القرآنُ العظيمُ على خلوِّه من التناقُضِ في ألفاظِهِ، وفي أخبارِهِ، وفي أوامرِهِ ونواهيه؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ومدَحَ نفسَهُ بارتفاعِ العِوَجِ والاضطرابِ عن القرآنِ العظيم؛ فقال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١، ٢].

فقولُهُ: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾؛ أي: لم يَجْعَلْ في القرآنِ عِوَجًا، فجاء بلفظةِ ﴿عِوَجَا﴾ نكرةً في سياق النفي؛ لتعمَّ جميعَ أنواعِ العِوَجِ؛ أي: لا اعوجاجَ فيه البتةَ، لا مِنْ جهةِ ألفاظه، فقد وقَعَتْ على أفصحِ ما تَعْرِفُ العرَبُ من الألفاظ، ولا مِنْ جهةِ المعاني، فأخبارُهُ كلُّها صِدْقٌ، وأحكامُهُ كلها عَدْلٌ؛ كما قال سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

= قال في اللسان (٣/ ٢٤٦): «صَدَّ يَصُدُّ صَدًّا: استغرب ضحكًا، وصَدَّ يصِدُّ صَدًّا: ضجَّ وعجٍ... قال الأزهري تقول: صَدَّ، يَصُدُّ، ويَصِدُّ، مثل: شَدَّ، يَشُدُّ، ويَشِدُّ، والاختيار: يَصِدُّونَ - بالكسر - وهي قراءة ابن عباس، وفسره: يضجون، ويعجون، وقال الليث - في قوله تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] -: أي: يضحكون».

قال الأزهري: «وعلى قول ابن عباس في تفسيره العمل، قال أبو منصور: يقال صَدَدتُ فلانًا عن أمره، أَصُدُّهُ صَدًّا، فصَدَّ يَصِدُّ؛ يستوي فيه لفظ الواقع واللازم، فإذا كان المعنى يضج ويعج، فالوجه الجيد: صَدَّ يَصِدُّ، مثل: ضَجَّ يَضِجُّ، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]، فالمُكاء: الصفيرُ، والتصديةُ: التصفيقُ، وقيل للتصفيقِ: تصديةٌ؛ لأن اليدين تتصافقان، فيقابل صفق هذه صفق الأخرى، وصدُّ هذه صدَّ الأخرى، وهما وجهاها، والصد: الهجران، ومنه: فيَصُدُّ هذا، ويَصُدُّ هذا؛ أي: يُعْرِضُ بوجهِهِ عنه».

وقوله: ﴿قَيِّمًا﴾؛ أي: مستقيمًا، لا اعوجاجَ فيه، ولا مَيْلَ.

ونقَلَ الواحديُّ[1]: أنَّ جميعَ أهلِ اللغةِ والتفسير قالوا: هذا من التقديمِ والتأخيرِ؛ والتقدير: أَنْزَلَ على عبدِهِ الكتابَ قَيِّمًا، ولم يَجْعَلْ له عِوَجًا.

واعترَضَ الرازيُّ على هذا التوجيه بما مفاده: أنَّ معنى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ يدلُّ على كونه كاملًا في ذاته، وقولُهُ: ﴿قَيِّمًا﴾ يدلُّ على كونه مُكمِّلًا لغيره، وكونُهُ كاملًا في ذاتِهِ مُتقدِّمٌ بالطبعِ على كونِهِ مكمِّلًا لغيره.

قال: «فثبَتَ بالبرهانِ العقليِّ أنَّ الترتيبَ الصحيحَ هو الذي ذَكَرَهُ اللهُ تعالى، وهو قولُهُ: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۝١ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١، ٢]؛ فظهَرَ أن ما ذكروه من التقديمِ والتأخيرِ فاسدٌ يمتنعُ العقلُ من الذَّهَابِ إليه»[2].

وقال في نفس هذا المعنى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

قد سَلِمَ من جميعِ العيوبِ في ألفاظِهِ ومعانيه، وأخبارِهِ وأحكامه[3].

وقال سبحانه: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣].

فقولُهُ: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: مصدِّقًا لما في كُتُبِ الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ قبله، ولِمَا أَخْبَرُوا به عن اللهِ ﷻ؛ وهذا دليلٌ على صحةِ القرآن؛ لأنه لو كان مِنْ عندِ غيرِ الله، لم يكنْ موافقًا لسائرِ الكتب.

---

(١) انظر: تفسير الواحدي (٣/ ١٩٢). (٢) التفسير الكبير (٣/ ١٩٢).

(٣) انظر: أضواء البيان، للشنقيطي (٣/ ١٩٢).

أما جانبُ النقضِ في هذه الآية:

فبيَّن أنهم قومٌ جادلوا بالباطل لِيُدْحِضُوا به الحقَّ، وليس لهم غرضٌ في جدالهم إلا المخاصَمَةَ، والمغالَبَةَ، والمعانَدة.

وبيَّن لهم أنَّ هذا العمومَ مخصوصٌ؛ كما في **قوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

فما دام الكلامُ عاد بعضُهُ على بعضٍ بحيثُ ينحلُّ في جمعِهِ أيُّ إشكال؛ فأيُّ دليلٍ في تناقضه؟!

ثم إن القرآن ضرَبَ صفحًا عن إبطالِ استدلالِهِمْ، وبيانِ ضعفِ مقالِهِمْ بالتفصيلِ في أصلِ الدعوى[1].

---

(١) ذكر بعضُ المفسرين، ومنهم الرازي: ثلاثةَ أوجهٍ لبطلان قول المشركين هذا، وهي:

- أن الله تعالى قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، ولم يقل: (وَمَنْ تعبدون)؛ لأن (ما) لا تتناولُ العقلاء، فهي خاصَّةٌ بأصنامهم، ولا تشملُ من عُبِدَ من دون الله من العقلاء، وهذا الوجه مما يُستبعد؛ فإن القومَ أهلُ لسان، ولا يُظَنُّ أن يجادلوا أحدهم، بل أفصحهم، بخلاف لغة قومه! بل إن إطلاق (ما) على العاقل واردٌ في القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد: ٣]، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الحشر: ١]، وحَمْلُ ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ على العمومِ أولى بلفظ الآية؛ لكن يبقى الفرق في العقلاء بين من عُبِدَ بغير إذنه، وبين من عُبِدَ بإذنه، ورضاه؛ كفِرْعَوْن، ونمروذ، وغيرهما.

- أن قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ خطابُ مشافهةٍ لمشركي مكة، وهم كانوا يعبدون الأصنام فقطْ، فلا مدخل لغيرهم في الحكم، وهذا أيضًا وجهٌ ضعيف؛ فإن الخطاب وإن كان خاصًا، فالعبرةُ بألفاظِ القرآن أن تكونَ عامَّةً لكلِّ من يصلح له الخطاب.

- أن كلمة (ما) ليستْ صريحةً في الاستغراق؛ بدليل أنه يصح إدخال لفظتي (الكل)، و(البعض) عليه، فيقال: إنكم وكل ما تعبدون من دون الله، أو: إنكم وبعض ما تعبدون من دون الله، وهذا الوجه كسابقيه؛ لأنه إبطال لمعنى الآية بدعوى الإجمال فيها، والمجمل لا يصح الاستدلال به. وقد يُستدل على بطلان قولهم من لفظ الآية أن يُقالَ: إنَّ لفظَ الآيةِ وإن كان عامًّا، فإن النصوص الدالَّة على تعظيم الملائكة وعيسى أخصُّ منه، والخاصُّ مُقَدَّمٌ على العام. انظر: التفسير الكبير (٢٢/ ١٩٣)، تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٠٠).

فابتدأ أولًا: بذكرِ منزلةِ عيسى عندَ الله تعالى؛ **فقال**: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩].

فبيَّن أن عيسى عبدٌ أنعَمَ اللهُ عليه بالرسالة، وجعَلَهُ آيةً، وقدوةً لبني إسرائيلَ؛ فهذه حقيقتُهُ التي نادى بها، فلم يأمُرْ أحدًا بعبادتِهِ؛ كما **قال تعالى**: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١].

فتقرَّر من هذا: أنَّ عيسى وإنْ كان قد عُبِدَ مِنْ دون اللهِ؛ فإنه لا يَتحمَّلُ انحرافَ أتباعِهِ فيه؛ ولهذه العلَّة ـ والله أعلم ـ سيُسْأَلُ يومَ القيامة على رؤوسِ الأشهادِ بما أخبرَ اللهُ به؛ **إذ قال**: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٧].

وقال في سياقِ هذه الآيات في الرَّدِّ عليهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٣ ـ ٦٥].

المَطْلَبُ السَّادِسُ

الاعتراضُ على ضربِ الأمثالِ في القرآن

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

تعدَّد كلامُ أهلِ العلمِ في سببِ نزولِ هذه الآيات:

فقال بعضُ أهلِ العلمِ: إنها نزَلَتْ في المنافقين:

فعن بعضِ أصحابِ النبيِّ ﷺ؛ أنها نزَلَتْ في المنافقين، قالوا: «لمَّا ضرَبَ اللهُ هذَيْن المثلَيْن للمنافقين؛ يعني: **قولَهُ:** ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧]، **وقولَهُ:** ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩] الآياتِ الثلاثَ، قال المنافقون: اللهُ أعلى وأجلُّ من أنْ يَضْرِبَ هذه الأمثالَ؛ فأنزَلَ الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾»[١].

وقيل: نزَلَتْ في المشركين:

فقال قتادةُ: «لمَّا ذكَرَ اللهُ العنكبوتَ والذُّباب، قال المشركونَ:

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١/ ١٧٧) من طريق السدي، في خبرٍ سمعَهُ من أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، ومرة: عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ.

ما بالُ العنكبوتِ والذبابِ يُذْكَرَان؛ فأنزَلَ الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]»[١].

وقد رجَّح الطبريُّ أنها نزَلَتْ في المنافقين؛ لأنَّ الأمثالَ المتقدِّمةَ لهذه الآيةِ في هذه السورةِ، كانتْ في المنافقين.

ونظامُ الآياتِ يَدُلُّ على أنَّ المرادَ بها هم اليهودُ؛ فإنَّ الله تعالى قال في خاتمةِ الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧]؛ وهذه من صفاتُ اليهودِ المتكرِّرةُ في القرآن[٢].

ولا يمنعُ أن تكونَ الآيةُ يرادُ بها الردُّ على كلِّ هؤلاء، خاصَّةً أنَّ المشركين ما فتئوا يأخذون عن اليهود، ويسمعون منهم، وأكثَرُ المنافقين إنما كانوا مِنَ اليهود؛ فلهذا كان اعتبارُ الجميعِ سببًا للنزولِ أولى وأقربُ، والله تعالى أعلم.

فأخبَرَ اللهُ ـ جل شأنه ـ أنَّ الكافرين إذا سَمِعُوا أمثالَ القرآن، قالوا: ماذا أراد اللهُ بهذا المَثَل؟ على سبيلِ الاعتراضِ، والاستنكار.

وقد أبطَلَ اللهُ تعالى مقولاتِ الاعتراضِ على كتابِهِ، أو شرعِهِ، بأكثَرَ من طريق:

منها: تقريرُ أنَّ اللهَ ـ جل شأنه ـ لا يستحيي أنْ يَضْرِبَ المَثَلَ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ٤١) عن معمر، عنه، به، ومن طريقه أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ١٧٨).

(٢) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (١/ ٢٤٦).

للناسِ بأصغَرِ ما خَلَقَ وأتفهِهِ؛ ليكونَ ضَرْبُ المَثَلِ عِظَةً للمُتَّعِظين، وفتنةً للزائغين.

ومنها: أنَّ سبيلَ المؤمنين هو عَدَمُ الاعتراضِ على كلامِ الله، وعلى شَرْعِهِ؛ فلذلك فهم يسلِّمون ويُذْعِنون.

ومنها: تصديرُ مقالةِ المعترضين على ضَرْبِ الأمثالِ بأنهم: الذين كَفَرُوا؛ تنفيرًا منها.

ومنها: بيانُ أنَّ فائدةَ ضربِ الأمثالِ هي الهدايةُ لمن يَرْغَبُها، ويَطْلُبُها، وإضلالُ مَنْ كان فاسقًا، ناقضًا لعهودِ اللهِ ومواثيقه؛ «فإنَّ ضَرْبَ الأمثالِ بالبعوضةِ فما فوقها إذا تَضمَّنَ تحقيقَ الحق وإيضاحَهُ، وإبطالَ الباطلِ وإدحاضَهُ؛ كان مِنْ أحسنِ الأشياء، والحَسَنُ لا يستحيا منه؛ فهذا جوابُ الاعتراض»[1].

ومن المقولاتِ في هذا الصَّدَدِ:

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

يُخْبِرُ اللهُ تعالى أنه لم يَجْعَلْ أصحابَ النارِ إلا ملائكةً، وإنما جعَلَ عِدَّتَهُمْ تِسْعةَ عشَرَ فتنةً للكافرينَ المعترضينَ على أمرِ اللهِ وشرعِهِ.

وقد أخبَرَ ابنُ عباس: أنَّ أبا جهلٍ[2] قال لقريش: ثَكِلَتْكُمْ

---

(١) بدائع الفوائد، لابن القيم (٤/٩٤٦).

(٢) وفي الإكمال، لابن ماكولا (١/٦٦) أن القائل هو: كِلْدة بن أسيد بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح أبو الأشدين.

أُمَّهَاتُكم، أَسْمَعُ ابنَ أبي كَبْشَةَ يُخْبِرُكم أنَّ خَزَنَة النارِ تِسْعَة عشَرَ، وأنتم الدُّهْمُ، أَفَيَعْجِزُ كلُّ عَشَرةٍ منكم أن يَبْطِشُوا برجلٍ من خَزَنةِ جهنَمَ!

فأُوحِيَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ أن يأتيَ أبا جَهْل، فيأخُذُهُ بيدِهِ في بطحاءِ مكة، فيقولُ له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤، ٣٥]، فلمَّا فعَلَ ذلكَ به رسولُ اللهِ ﷺ، قالَ أبو جَهْلٍ: «واللهِ، لا تَفْعَلُ أَنْتَ وَرَبُّكَ شَيْئًا؛ فَأَخْزَاهُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ»[١].

فبيَّن الله ـ جل ذكره ـ أنه قدَّر أنْ يكونَ عددُ خزنةِ جهنَّم تسعةَ عشَرَ فتنةً للكافرين، وزيادةً في إضلالهم، مع أنه لا يعلمُ أحدٌ عددَ جنودِ اللهِ تعالى، وفي «الصحيحين» من حديث مالك بن صعصعة[٢]:

(فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ السَّابِعَةَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قِيلَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قِيلَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَد أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟! مَرْحَبًا بِهِ، وَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَأَتَيْتُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، فَسَلَّمْتُ عَلَيهِ، فَقَالَ: مَرْحبًا بِكَ مِنِ ابْنٍ وَنبيٍّ، فَرُفِعَ لِي البَيْتُ المَعْمُورُ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: هَذَا البَيْتُ المَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا، لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِم...)[٣].

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٩/١٥٩) من طريق محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عنه، به، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/٣٢٩) عن قتادة.

(٢) هو: مالك بن صعصعة بن وهب بن عدي بن مالك بن غنم بن عدي بن عامر بن عدي بن النجار الأنصاري، وقيل: إنه من بني مازن بن النجار، لا يُختلف في صحبته، اشتهر بروايته لهذا الحديث. **انظر**: الاستيعاب (٣/١٣٥٢)، الإصابة في تمييز الصحابة (٥/٧٢٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب: باب ذكر الملائكة، رقم (٣٠٣٥)، ومسلم في كتاب باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، رقم (١٦٢).

وعن أبي ذر ﷺ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: (**إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا للهِ**)(١).

فأبطَلَ اللهُ تعالى اعتراضَ المشركينَ على عَدَدِ خزنةِ جهنَّمَ بأمورٍ ثلاثة:

الأول: أنَّ خزنةَ جهنَّمَ ملائكةٌ، واللبيبُ يعرفُ أنَّ بَيْنَ خلقِ الملائكة، وخَلْقِ البشرِ بَوْنًا لا يعرفُهُ إلا خالقُهما ـ جل شأنه ـ فالاعتراضُ على العدد، وإغفالُ جنسِ المعدود، مغالطةٌ في الاستدلال.

وثانيها: أنه سبحانه جعَلَ لهم هذا العَدَدَ، مع أنَّ له جنودَ السمٰواتِ والأرضِ؛ لتكونَ فتنةً لمن في قلبه مرض(٢).

وثالثها: أن ما جاء به القرآنُ هو الموافقُ لما في الكتبِ الإلهيَّةِ المتقدِّمة؛ ولذا قال سبحانه هنا: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [المدثر: ٣١].

قال قتادةُ: «ليستيقنَ أهلُ الكتابِ حِينَ وافَقَ عدةُ خَزَنةِ أهلِ النارِ ما

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد، بابٌ في قول النبي ﷺ: (**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قليلًا**)، رقم (٢٣١٢)، وقال: حديثٌ حسنٌ، وابن ماجه، باب الحزن والبكاء، رقم (٤١٩٠)، والحاكم في مستدركه، رقم (٣٨٨٣)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأخرجه البيهقي في سننه، رقم (١٣١١٥).

(٢) وعن رجل من بني تميم، قال: كنا عند أبي العوام، فقرأ هذه الآية: «تِسْعَةَ عَشَرَ». فقال: ما تقولون: أتسعةَ عشَرَ ألفَ مَلَكٍ، أو تسعةَ عشَرَ مَلَكًا، قال: فقلتُ: لا بل تسعةَ عشَرَ ملكًا، قال: ومِنْ أين تعلمُ ذلك؟ فقلتُ: لأنَّ الله يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر: ٣١].
قال: صَدَقْتَ، بيدِ كلِّ مَلَكٍ مِرْزَبَّةٌ من حديدٍ لها شعبتان، فيضربُ الضربةَ، فهوى بها سبعين ألفًا، ما بين منكبي كل ملك منهم مسيرة كذا وكذا؛ أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص٩٧)، قال: أنا حماد بن سلمة، عن الأزرق بن قيس، عن رجل من بني تميم، وأخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٥٧) من طريق عفان بن مسلم، قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن الأزرق، عنه، به.

في كتابهم»(١).

ومما يدلُّل على هذا: ما رواه جابرٌ ﷺ، قال:

قال ناسٌ من اليهودِ لناسٍ من أصحابِ النبيِّ ﷺ: هل يَعْلَمُ نبيُّكم عدَدَ خَزَنةِ جهنَّم؟

قالوا: لا ندري حتَّى نسأله، فجاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: يا محمَّدُ، غُلِبَ أصحابُكَ اليوم! قال: (**وَمَا غُلِبُوا؟**)، قال: سألَتْهُمْ يهودُ هل يَعْلَمُ نبيُّكم عدَدَ خَزَنةِ جهنَّم؟ قال: (**فَمَا قَالُوا؟**) قالوا: لا ندري حتى نَسْأَلَ نبيَّنا ﷺ، فقال: (**يُغْلَبُ قَوْمٌ سُئِلُوا عَمَّا لَا يَعْلَمُونَ، فَقَالُوا: لَا نَعْلَمُ حَتَّى نَسْأَلَ نَبِيَّنا؟! لَكِنَّهُمْ قَدْ سَأَلُوا نَبِيَّهُمْ، فَقَالَوا: أَرِنَا اللهَ جَهْرةً(٢)! عَلَيَّ بِأَعْدَاءِ اللهِ**)، فلما جاؤوا، قالوا: يا أبا القاسمِ، كم عددُ خَزَنةِ جَهَنَّمَ؟ قال: (**هَكَذَا أَوْ هَكَذَا**)، في مَرَّةٍ عَشرةً، وفي مرةٍ تسعةً، قالوا: نعم(٣).

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٣٢٩) عن معمر، عنه، به.

(٢) قال تعالى في شأنهم: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣].

(٣) أخرجه الترمذي في التفسير، باب: ومن سورة المدثر، رقم (٣٣٢٦) من طريق مجالد عن الشعبي، عنه، به، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق الشعبي، عن البراء، وحديث جابر أصح منه؛ قاله البيهقي وغيره. انظر: التخويف من النار (ص١٦٠).



المَبْحَثُ الرَّابِعُ

المَقُولاتُ المتعلِّقةُ بالنبوَّةِ والأنبياء

وفيه عَشَرَةُ مَطَالِبَ:

المطلب الأول: ادعاءُ النبوَّة.

المطلب الثاني: تكذيبُ الرُّسُلِ بعدَ وضوحِ الحَقِّ.

المطلب الثالث: دعواهُمْ أنَّ النبوَّةَ لا تصلُحُ للبَشَرِ.

المطلب الرابع: التعنُّتُ ومحاولَةُ تعجيزِ الرُّسُلِ.

المطلب الخامس: إيذاءُ الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلام.

المطلب السادس: الطعنُ في نيَّةِ النبيِّ ﷺ.

المطلب السابع: ادعاءُ المشركينَ أنَّ آلهتَهُمْ أفضلُ مِنْ عيسى بنِ مريم.

المطلب الثامن: عصيانُ أَمْرِ الرسل.

المطلب التاسع: قذفُ اليهودِ مَرْيَمَ عليها السلام بالزِّنَى.

المطلب العاشر: دعوى اليهودِ قَتْلَهُمْ عيسى بنَ مَرْيَمَ عليه السلام.

المطلب الأول

ادعاء النبوة

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

يُخْبِرُ اللهُ تعالى أنه لا أظلَمَ ممَّن اتصَفَ بهذه الصفاتِ الثلاثِ التي ذكَرَها اللهُ ﷻ.

ومنها: أنْ يَدَّعِيَ النبوَّةَ، وأنَّ الوحيَ يَنْزِلُ عليه.

وقد ذكَرَ المفسِّرون آثارًا على أنَّ هذه الآيةَ نزَلَتْ في عبد الله بن أبي السَّرْح، ومسيلمةَ الكذَّاب[1].

---

(١) ذكره الواحديُّ في أسباب النـزول (ص٣٥٦) عن الكلبي، عن ابن عباس، وقد ورد في هذه الواقعة أنها كانتْ من ابن خَطَل، وذكرها ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ٤٥٦)، قال الحافظ في تخريج الأحاديث والآثار (١/ ٤٤٥): «فروَى ابن عدي في الكامل، من حديث أصرم بن حوشب، عن أبي سنان، عن الضَّحَّاك، عن النزال بن سبرة، عن علي بن أبي طالب، قال: كان ابنُ خَطَلٍ يكتُبُ للنبيِّ ﷺ، فكان إذا نزَلَ: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، كتب: (رحيم غفور)، وإذا نزل: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، كتب: (عليم سميع)، فقال له النبيُّ ﷺ يومًا: اعْرِضْ عليَّ ما كتبتَ! فعرَضَ عليه، فقال له: ما هكذا أمليتك! ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، و(رحيم غفور)، و﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، و(عليم سميع) واحدٌ، فقال ابن خَطَلٍ: إنْ كان محمَّدٌ نبيًّا؛ فإني ما كنتُ أكتُبُ إلا ما أريد! ثم كفَرَ، ولَحِقَ بمكة، فقال النبيُّ ﷺ: (**مَنْ قتَلَ ابنَ خَطَلٍ، فله الجنةُ**)، فقُتِلَ يومَ فتحِ مكة، وهو متعلِّقٌ بأستارِ الكعبة، فأراد النبي ﷺ أن يستكتبَ معاويةَ، فكَرِهَ أن يأتي معاويةُ ما أتى من ابنِ خطل، فاستشارَ جبريل، فقال: (**استكْتِبْهُ؛ فإنه أمينٌ أَصْرَمُ**)».

قال البخاري، ومسلم، والنسائي: «متروك»، وقال ابن حبان: «كذَّاب يضع الحديث =

ولا جَرمَ أنَّ الآيةَ تَعُمُّهما، وتعمُّ كلَّ من ادعى النبوةَ، أو نسَبَ إلى اللهِ تعالى ما هو بريءٌ منه، سواءٌ في ذاتِهِ، أو في صفاتِهِ، أو في أفعالِهِ؛ فإنه يدخُلُ تحتَ هذا الوعيد.

وقد عظَّم اللهُ تعالى مَنْ زعَمَ أنه أُوحِيَ إليه، وهو في الحقيقةِ لم يُوحَ إليه شيء؛ وذلك لأنه افترى على الله كذبًا، وزُورًا، وقد أبطَلَ الحقُّ سبحانه مَنِ ادعى ذلك، وتوعَّده بالعذابِ الشديد، والنكالِ العتيد.

وقد صَحَّ عن النبيِّ ﷺ؛ أنه قال: (**وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي**)(١).

وقال في حديث الدَّجَّال: (**فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا وَقَدْ أَنْذَرَهُ**

= على الثقات»، وقال ابن معين: «كذَّاب خبيث»، وقال الحافظ: «وقال أبو الفتح اليعمري، في أواخر سيرته عيون الأثر، بعد أن ذكر حديث ابن عدي هذا: إنه وهَمٌ، والحملُ فيه على مَنْ دون النـزال، وإنما هذه الوقعةُ معروفةٌ عن ابن أبي سرح، وهو ممن أهدَرَ النبيُّ ﷺ دمه يومَ الفتح، كابنِ خَطَل، وتشفَّع ابن أبي سرح بعثمان بن عفان، فقبله ﷺ بعد تلوُّم، وحَسُنَ بعد ذلك إسلامه حتى لم يُنْقَمْ عليه فيه شيءٌ، ومات ساجدًا رحمه الله تعالى»، وقال قتادة: «نزلت في مسيلمة»؛ أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢١٣) عن معمر، عن قتادة، وكذا قال ابن جريج. وعن شرحبيل بن سعد، والسُّدِّي؛ أنها نزَلَتْ في عبد الله بن أبي سرح. انظر: مستدرك الحاكم (٣/ ٤٨)، وأخرجه الطَّبَري مختصرًا، قال: حدثني محمد بن الحسين، ثنا أحمد بن المفضل، ثنا أسباط، عن السُّدِّي، تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٤٦).

وقال عكرمة، وابن جريج: «نزَلَتْ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ في مسيلمةَ فيما كان يَسْجَعُ: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣] في عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، كان يكتُبُ للنبيِّ ﷺ، فكان فيما يملي: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فيكتب: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فيغيِّره، ثم يقرأُ عليه كذا وكذا لِمَا حوَّل، فيقول: نعم، سواء» فرجَعَ عن الإسلام، ولَحِقَ بقريش.

وعن عكرمة، قال: لمَّا نزَلَتْ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ [المرسلات: ١، ٢]، قال النضر - وهو من بني عبد الدار -: (والطاحناتِ طَحْنًا، والعاجناتِ عَجْنًا)، وقولًا كثيرًا، فأنزَلَ الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ قال في الدُّر المنثور (٣/ ٣١٧): «أخرجه عبد بن حُمَيْد».

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في باب ما ذكر عن بني إسرائيل رقم (٣٢٦٨)، ومسلم =

أُمَّتَهُ، وَهُوَ كَائِنٌ فِيكُمْ أَيَّتُهَا الْأُمَّةُ، إِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي وَلَا أُمَّةَ بَعْدَكُمْ...)[١].

وفي حديث ثوبان، قال ﷺ: (وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لا نَبِيَّ بَعْدِي)[٢].

ولشناعةِ هذه المقالةِ، فقد أبطَلَهَا القرآنُ الكريمُ من ثلاثةِ طرق:

أوّلها: مِنْ جانبِ التقريرِ: حيثُ أثبَتَ أنَّ النبيَّ ﷺ هو خاتمُ النبيِّين، وأنه لا نبيَّ بعده؛ **فقال تعالى في سورة الأحزاب:** ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وخاتَمُ النبيين: «آخِرُهم»؛ وهذا تفسيرٌ مجمعٌ عليه من السلف[٣].

أمَّا مِنْ جانبِ الإبطالِ: فإنه صدَّر تلكَ المقالةَ بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ وهو استفهامٌ إنكاريٌّ بمعنى النفي؛ **أي:** لا أحدَ أظلَمُ ممن هذا وصفُهُ.

ثم عقَّب بعد ذكرِ مقولتهم بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

= في باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، رقم (١٨٤٢).

(١) صحيح ابن حبان (١٥/ ١٩٦)، رقم (٦٧٨٨)، قال ابن حزم: «هذا مِنْ جوامعِ الكَلِمِ التي أوتيها رسولُ الله ﷺ؛ فإنَّ كلَّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كل نبيٍّ رسولًا؛ فلو قالَ ﷺ: «لا رسولَ بعدي»، لأمكن أن يقول: بعده نبي، لكنْ إذْ قال: (لَا نَبِيَّ بَعْدِي)، فقد صح أنه لا رسولَ بعده؛ لأن كلَّ رسول فهو نبي بلا شك». إحكام الأحكام (٤/ ٤٣٢).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها، رقم (٤٢٥٢)، والترمذي في جامعه، في باب ما جاء: لا تقوم الساعةُ حتى يخرُجَ كذابون، رقم (٢٢١٩)، وصَحَّحه ابن حِبَّان، رقم (٧٢٣٩).

(٣) أخرجه عبد الرزاق الصنعاني (٣/ ١١٨) عن قتادة، من طريق معمر، عنه، به، وأخرجه الطبري عنه (٢٢/ ١٦). وانظر: الدر المنثور (٦/ ٦١٧).

فقوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ [الأنعام: ٩٣] جوابُهُ محذوف؛ أي: لَرَأَيْتَ أمرًا عظيمًا(١) من منازعةِ الملائكةِ لأرواحِهِمْ عندَ قبضها.

وقوله: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣] اللامُ إمَّا أنْ تكونَ للعهدِ، فيرادَ مَنْ ذُكِرُوا آنفًا مِنْ مدَّعي النبوة، والمفترين على اللهِ الكذبَ، وقد تكونُ اللامُ للجنس، فتشملُ كلَّ ظالم، ويدخُلُ فيهم المذكورون في صدرِ الآيةِ دخولًا أوليًّا(٢).

وقوله: ﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ أي: شدائدِهِ وسَكَراتِهِ، وأصلُ الغَمْرةِ ما يَغْمُرُ من الماء، فاستعيرتْ للشدةِ الغالبة.

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ وذلك لقبضِ أرواحِ هؤلاءِ الظَّلَمة، أو حالَ تعذيبهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

قال ابنُ عباس ﷺ: «هذا عندَ الموتِ، والبَسْطُ: الضربُ، يضربونَ وجوهَهُمْ وأدبارهم»(٣).

﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ فإمَّا أنْ يكونَ أمرٌ لهم من الملائكةِ للتهديد، والوعيدِ، أو تكونَ عبارةً عن العنفِ في قَبْضِ أرواحِهِمْ، وانتشالِهَا في أجسادهم.

وقد رَوَى شُرَيْحُ بن هانئ، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ).

---

(١) انظر: إعراب القرآن، للنحاس (٢/ ٨٢)، مشكل إعراب القرآن، لمكي (ص٢٦١).
(٢) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٧/ ٤٥٢).
(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٢٥٧) من طريق علي بن أبي طلحة، عنه، به.

قال: فأتيتُ عائشةَ، فقلتُ: يا أمَّ المؤمنينَ، سمعتُ أبا هريرةَ يذكُرُ عن رسولِ اللهِ ﷺ حديثًا إنْ كان كذلك، فقد هلكنا!

فقالت: إنَّ الهالكَ مَنْ هلَكَ بقولِ رسولِ الله ﷺ، وما ذاك؟

قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: (**مَنْ أحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، أحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، ومَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ**)، وليس منا أحدٌ إلا وهو يَكْرَهُ الموتَ؟

فقالتْ: قد قاله رسولُ اللهِ ﷺ، وليس بالذي تَذْهَبُ إليه، ولكن إذا شَخَصَ البَصَر، وحَشْرَجَ الصدر، واقْشَعَرَّ الجِلْد، وتَشَنَّجَتِ الأصابع؛ فعند ذلك مَنْ أحبَّ لقاءَ الله، أحبَّ الله لقاءه، ومَنْ كره لقاءَ الله، كَرِهَ اللهُ لقاءه»[1].

وقد يكونُ المرادُ بقولهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣] تَحدِّيَ هؤلاءِ الظلمةِ أن يُخْرِجُوا أنفسَهم من العذابِ الذي يلاقونه على أيدي الملائكة.

---

(١) رواه مسلم، باب: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، رقم (٢٦٨٤).

المَطْلَبُ ٱلثَّانِي

تكذيبُ الرُسُلِ بعدَ وضوحِ الحَقِّ

• أولًا: التكذيبُ المجرَّد:

الآية الأولى

مِنَ المقولاتِ التي ذكَرَها اللهُ تعالى عن المكذِّبين: تكذيبُهُمُ المجرَّدُ عن الحجةِ لرسالةِ النبيِّ ﷺ؛ **قال تعالى:** ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣].

فلم يُظْهِروا أيَّ حجةٍ على نفي رسالته!

وهذه من علاماتِ إفلاسِهم وبَغْيِهم؛ فإنَّ رميَ المخالفِ بالكذبِ دون تبيينِ ذلك، لا يصدُرُ من محقٍّ أبدًا.

ولذلك أبطَلَ اللهُ تعالى مقولَتَهُمْ هذه من طريقين:

أولهما: شهادةُ اللهِ تعالى على صِدْقه، فاستَشْهَدَ على رسالتِهِ بشهادةِ اللهِ له، ولا بدَّ أن تُعْلَمَ هذه الشهادةُ وتقومَ بها الحجةُ على المكذِّبين له.

ومن نظائرِ هذه الآيةِ في القرآن: **قولُهُ تعالى:** ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

فأرشَدَهُ اللهُ تعالى أن يسألهم عن أعظمِ شهادةٍ على صدقه، وأكبرِها، ولم يَدَعِ المجالَ لهم ليجيبوا، فأجابَ سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩][١].

ومن الآيات: **قولُهُ تعالى**: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦].

«فكونُهُ سبحانه شاهدًا لرسولِهِ معلومٌ بسائرِ أنواعِ الأدلَّة: عقليِّها ونقليِّها، وفطريِّها وضروريِّها، ونظريِّها، ومَنْ نظَرَ في ذلك وتأمَّله، علم أنَّ الله سبحانه شَهِدَ لرسولِهِ أصدقَ الشهادة، وأعدَلَها، وأظهرَهَا، وصدَّقه بسائرِ أنواعِ التصديقِ بقولِهِ الذي أقامَ البراهينَ على صِدْقِهِ فيه، وبفعلِهِ، وإقرارِهِ، وبما فطَرَ عليه عبادَهُ من الإقرارِ بكماله، وتنزيهِهِ عن القبائح، وعما لا يليقُ به، وفي كلِّ وقتٍ يُحْدِثُ من الآياتِ الدالَّةِ على صدقِ رسولِهِ ما يقيمُ به الحجةَ، ويزيلُ به العُذْرَ، ويحكُمُ له ولأتباعِهِ بما وعَدَهُمْ به من العزِّ والنجاةِ، والظَّفَرِ والتأييد، ويحكُمُ على أعدائِهِ ومكذِّبيه بما توعَّدهم به من الخزيِ والنَّكَالِ والعقوباتِ المعجَّلةِ، الدالَّةِ على تحقيقِ العقوباتِ المؤجَّلة»[٢].

---

(١) قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ فيها وجهان:

• قيل: هو جواب السائل، وقوله: ﴿شَهِيدٌ﴾ خبرُ مبتدأ؛ أي: هو شهيدٌ؛ وهذا على قراءة من يقفُ على قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾.

• وقيل: هو مبتدأ، وقوله: ﴿شَهِيدٌ﴾ خبره؛ فأغنى ذلك عن جوابِ الاستفهام؛ وهذا على قراءة من لا يقف.

• وكلاهما صحيح، لكن الثاني أحسنُ، وهو أتمُّ؛ فإن كل أحد يعلم أن الله أكبر شهادة. انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٤/ ١٩٣).

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٤٧٠).

الطريق الثاني: الاستدلالُ بعلمِ اللهِ تعالى؛ **فقال سبحانه**: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣].

وهو استدلالٌ يتكرَّر في القرآنِ كثيرًا، ومفادُهُ: أنَّ علمَ اللهِ تعالى المحيطَ بكلِّ شيء، ينافي أنْ يَدَّعيَ مُدَّعٍ أنه رسولٌ من الله، ثم يكونُ له التأييدُ والنصرة، مع قَمْعِ أعدائه، وكثرةِ أتباعه[١].

ومِنْ شهادتِهِ سبحانه على صدقِ رسولِهِ ﷺ: ما أنزَلَهُ في الكتبِ المتقدِّمةِ من التبشيرِ به؛ ولذا قال في تهديدِ مَنْ كفَرَ من أهل الكتاب: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠][٢].

ومن نظائر هذا الاستدلال: **قولُهُ تعالى**: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

الآية الثانية

ذكَرَ اللهُ تعالى عن الكافرين أيضًا **قولَهُ**: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]؛ فرموه بالكذبِ ظلمًا، وزُورًا، وبهتانًا.

وقد أبطَلَ القرآنُ العظيمُ تكذيبَهُمْ له، وطَعْنَهمْ فيه ﷺ، مِنْ أربعةِ طرق:

الأول: أنه قرَنَ تعجُّبَهُمْ مِنْ أنَّ الإلهَ واحد، مع تكذيبهم للنبيِّ ﷺ؛

---

(١) **انظر**: التبيان، في أقسام القرآن، لابن القيم (ص١٤٦).
(٢) **انظر**: الجواب الصحيح، لمن بدل دين المسيح (٥/٤٠٧ ـ ٤٠٨).

فمَنْ تعجَّب من استحقاقِ الإلهِ أن يُفْرَدَ بالعبادة، لا يُسْتَبْعَدُ، ولا يستغربُ منه أن يكذِّبَ الرسلَ، ويقابلَهم ببهتانٍ هم منه براء.

الثاني: أنه صدَّر مقالتَهُمْ بوَصْفِهم بالكافرين؛ تنبيهًا على أنَّ هذا القولَ لا يصدُرُ إلا عن الكفرِ التامِّ؛ فإنَّ الكَذَّابَ هو الذي يخبرُ عن الشيءِ لا على ما هو عليه، بينما النبيُّ ﷺ يُخْبِرُهم بما دلَّت العقولُ السليمةُ على صحَّته؛ فكيف يكونُ كذابًا؟!(1).

الثالث: تهديدُهم، وتوعُّدهم بالعذاب، وتذكيرُهُمْ بمصارعِ الغابرين؛ **قال سبحانه**: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُولَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٢ - ١٥].

الرابع: إقسامُهُ جلَّ شأنه على أنَّ الرسولَ مرسلٌ حقًّا: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ١ - ٣].

كما أكَّد صحةَ رسالتِهِ في عدةِ مواضع، منها: **قولُهُ تعالى**: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

• ثانيًا: التكذيبُ اعتمادًا على إمهالِ اللهِ لهم:

ومن المقولاتِ التي أبطَلَها القرآن، وسفَّه قائليها: تكذيبُ النبيِّ ﷺ بحجة عدمِ معاجَلةِ اللهِ لشانئه، ومُبْغِضِيهِ بالعقوبة، **وقد ذكَرَ اللهُ تعالى مقولَتَهُمْ هذه، وردَّ عليهم فيها.**

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ

(1) انظر: التفسير الكبير (٢٦/ ١٥٥).

أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

يُخْبِرُ اللهُ تعالى عن اليهودِ أنهم كانوا إذا دخَلُوا على النبيِّ ﷺ، حَيَّوْهُ بتحيةٍ لا يرضاها الله تعالى، وهي قولهم: السامُ عليكَ يا محمد!

والسامُ هو الموتُ، فكانوا يبدؤون النبيَّ ﷺ بالسَّبِّ والشتمِ ظنًّا منهم أن محمدًا ﷺ لو كان صادقًا، لنبَّأه الله تعالى بقولهم.

«وهذا خاطرٌ من خواطرِ أهلِ الضلالةِ المتأصِّلةِ فيهم، وهي توهُّمُهُمْ أنَّ شأنَ اللهِ تعالى كشأنِ البشرِ في إسراعِ الانتقامِ والاهتزازِ مما لا يرضاهُ ومِنَ المعانَدَةِ.

وفي الحديثِ: (**لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ، يَدْعُونَ لَهُ نِدًّا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ**)[١].

على أنهم لجحودِهِمْ بالبعثِ والجزاءِ يَحْسَبُونَ أنَّ عقابَ اللهِ تعالى يظهرُ في الدنيا»[٢].

وقد أخبرَتْ عائشةُ ﵂، قالت: «استأذَنَ رَهْطٌ من اليهودِ على رسولِ اللهِ ﷺ، فقالوا: السامُ عليكم! فقالتْ عائشةُ: بل عليكُمُ السامُ واللعنةُ! فقال رسولُ اللهِ ﷺ: (**يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ**، قالت: ألم تَسْمَعْ ما قالوا؟ قال: **قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ**)[٣].

---

(١) أخرجه البخاري، باب لا أحد أصبر على أذى، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، رقم (٥٧٤٨)، ومسلم، باب لا أحد أصبر على أذى من الله ﷿، رقم (٢٨٠٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٥).

(٣) أخرجه الشيخان: البخاري، باب كيف الرد على أهل الذمة بالسلام، رقم (٥٩٠١)، ومسلم، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، وكيف يرد عليهم، رقم (٢١٦٤).

وفي روايةٍ قالت: «بل عليكُمُ السامُ والذَّامُ»، فقال رسولُ الله ﷺ: (**يَا عَائِشَةُ، لَا تَكُونِي فَاحِشَةً**)، فقالت: ما سَمِعْتَ ما قالوا؟ فقال: (أَوَلَيْسَ قَدْ رَدَدتُّ عَلَيْهِمُ الَّذِي قَالُوا، قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ)[١].

وعن عبد الله بن عمرو: «أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: سَامٌ عليكم، ثم يقولون في أنفسهم: لولا يعذِّبنا اللهُ بما نقول؛ فنزَلَتْ هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨][٢].

أي: أنهم كانوا إذا فعَلُوا ذلك، يقولونَ في أنفسهم، أو يقولُ بعضُهم لبعض: لو كان هذا نبيًّا، لعذَّبنا اللهُ بما نقولُ له في الباطن؛ لأنَّ اللهَ يعلمُ ما نُسِرُّه، فلو كان هذا نبيًّا حقًّا، لأوشَكَ أنْ يعاجلَنا اللهُ بالعقوبةِ في الدنيا[٣]، أو أنْ يكونَ مرادُهم: لو كان نبيًّا، لاستجيبَ له فينا ومِتْنا!

قال القرطبي: «وهذا موضعُ تعجُّبٍ منهم؛ فإنهم كانوا أهلَ كتاب، وكانوا يعلمون أنَّ الأنبياءَ قد يَغْضَبُونَ؛ فلا يُعاجَلُ مَنْ يُغْضِبُهم بالعذاب»[٤].

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنه: «كان المنافقونَ يقولونَ لرسولِ الله ﷺ إذا حَيَّوْهُ: سَامٌ عَلَيْكَ»[٥].

---

(١) أخرجه مسلم، رقم (٢١٦٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٧٠) برقم (٦٥٨١)، وحسَّن إسنادَهُ الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٢٤)، وقال في الدُّر المنثور: «إسناده جيد». الدُّر المنثور (٨/ ٨٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٢٤). (٤) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٢٩٤).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٤٣) معلقًا، وعزاه في الدُّر المنثور (٨/ ٨٠) لابن مردويه، وعبد الرزاق، ولم أجده في تفسيره، وبه جزم في التحرير والتنوير، واستبعد أن تكون المقالة لليهود؛ لأن سياق الآيات في المنافقين، والقولُ بأنها مقالةٌ لليهودِ يقودُ للتشتت في الضمائر.

وما ذكره غيرُ لازم؛ فقد يكون السياق في المنافقين حقًّا، وتكون هذه المقولة مما =

وهذا يدلُّ على أنَّ المنافقينَ فعَلُوا كما فعَلَ إخوانُهم اليهودُ في مخاطبةِ النبيِّ ﷺ.

فتكونُ هذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤].

قال مجاهدٌ: «يقولون القولَ بينهم، ثم يقولون: عسى اللهُ ألَّا يفشي علينا سرَّنا هذا»(١).

وقد أبطَلَ القرآنُ العظيمُ مقالةَ السُّوءِ هذه بأنْ توعَّدهم بجهنَّم وبئسَ المأوى والمصيرُ، جَرَّاءَ سوءِ ظنِّهم بربِّهم، وسوءِ صنيعهم.

• ثالثًا: اتهامُ النبيِّ ﷺ بتعلُّم القرآن:

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٥].

فأخبَرَ اللهُ تعالى عن المشركين أنهم يَتَّهِمون النبيَّ ﷺ بأنه دارَسَ غيره، وأخَذَ القرآنَ عنه!(٢).

= تلقَّاها المنافقون عن اليهود، وقد ورد عن أنس ﷺ أنها نزَلَتْ في اليهود، فلا مانع من حمل الآية على الفريقين، والله تعالى أعلم.

(١) تفسير مجاهد (١/ ٢٨٣).

(٢) وقد اختلفت القراءة في قوله: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ [الأنعام: ١٠٥]؛ فقرأ الجمهور: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ - بغير ألف - يعني: قرأتَ أنتَ يا محمد؛ قال ابن عباس: «تعلَّمت، وقرأتَ»؛ أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٦٥)، والطَّبَري (٧/ ٣٠٦)؛ من طريق عبد الله بن صالح، قال: حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عنه، به، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢١٦) عن معمر، عن قتادة؛ وهو قول مجاهد، والسُّدِّي، والضَّحَّاك، وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم.
وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: «وليقولوا دَارَسْتَ» - بألف - بمعنى: قرأتَ، وتعلَّمتَ من أهل الكتاب؛ وبها قرأ ابن عباس، فروي عنه أنه كان يقرأ: «دَارَسْتَ»: تَلَوْتَ، وخاصَمْتَ، وجادَلْتَ؛ فيما أخرجه الطَّبَري (٧/ ٣٠٧)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٦٥)، =

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

فأخبَرَ اللهُ تعالى أنهم يزعمون أنَّ النبيَّ ﷺ يتلقَّى ويتعلَّم القرآنَ من رجل، وأخبَرَ أنَّ مَنْ يميلون إليه، ويتَّهمونه به[1] رجلٌ أعجمي،

= والحاكم في مستدركه (٢/ ٢٦٠)، بسند قال عنه: صحيح على شرط الشيخين، وسعيد بن منصور في سننه (٥/ ٦٦)، وبها قرأ سعيد بن جُبَيْر؛ فيما رواه الطَّبَري (٧/ ٣٠٧)، ومجاهد؛ حيث قال: «وقال: فَاقَهْتَ: قرأتَ على يهود، وقرؤوا عليك»؛ أخرجه الطَّبَري في الموضع السابق.

وقرأ ابن عامر: «دَرَسَتْ» هذه الأخبار التي تتلوها علينا؛ أي: مضت، وانقطَعَتْ، وانمحَتْ، ويقرأ كذلك: «دُرِّسَتْ» ـ بضمِّ الدالِ مُشَدَّدًا ـ على ما لم يسم فاعله، ويُقرأ: «دُورِسَتْ» ـ بالتخفيف، والواوِ ـ على ما لم يسم فاعله، والواو مبدلة من الألف في دَارست، ويقرأ كذلك إلا أنه على ما لم يسم فاعله، ويقرأ: «دَرَسَ» من غير تاء، والفاعلُ النبي، وقيل: الكتاب؛ لقوله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٠٥]، وقوله: «وَلْيَتَولُوا»: اللامُ على الأمر، وفيه معنى التهديد؛ أي: فليقولوا ما شاؤوا؛ فإن الحق بيِّن؛ كما قال جل وعز: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]، فأما من كسر اللام، فإنها عنده لام كي، وتُسمَّى لام الصيرورة؛ **والمعنى**: أن السبب الذي أداهم إلى أن قالوا: دارست، هو تلاوةُ الآيات؛ وهذا كقوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، وهم لم يطلبوا بأخذه أن يعاديهم، ولكنْ كان عاقبةُ الأمر أن صار لهم عدوًا وحزنًا. **انظر**: التيسير، لأبي عمرو الداني (ص٨٧)، حُجَّة القراءات (١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥)، إملاء ما من به الرحمٰن (١/ ٢٥٦)، معاني القرآن، للنحاس (٢/ ٤٦٩).

قال الطَّبَري: «وأولى القراءات في ذلك عندي بالصواب: قراءةُ من قرأه: ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ بتأويل: قَرَأْتَ، وتعلَّمت؛ لأن المشركين كذلك كانوا يقولون للنبي ﷺ، وقد أخبر الله عن قيلهم ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]؛ فهذا خبر من الله ينبئ عنهم أنهم كانوا يقولون: إنما يتعلَّم محمَّد ما يأتيكم به من غيره...».

(١) وقد اختُلِفَ في تعيينه اختلافًا بينًا؛ فأخرج ابن جرير الطَّبَري، عن ابن عباس، قال: «كان رسولُ اللهِ يعلمُ قَيْنًا بمكة، وكان أعجميَّ اللسان، وكان اسمه بَلْعَام، فكان المشركون يرون رسولَ الله حين يدخل عليه، وحين يخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلِّمه بلعام؛ فأنزل الله الآية». وعكرمةُ قال: كان النبي يقرئ غلامًا لبني المغيرة =

لا يُحْسِنُ النطقَ بلغةِ العرب، والقرآنُ الذي بين أيديهم هو بلسانٍ عربيٍّ مبين، فكيفَ لرجلٍ أعجميٍّ أنْ يأتي بهذا القرآنِ العربيِّ المبينِ المُعْجِز[1]؟!

وقال في موطنٍ ثالثٍ في بيان هذه الفرية: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

وقد سبَقَ بيانُ معنى الأساطير[2].

وقوله: ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾؛ **أي:** نقَلَها، وكتَبَها عن غيرِهِ في الصباحِ والمساء.

وقد رَدَّ القرآنُ العظيمُ هذه الفِرْيَةَ التي قالَهَا المَشْرِكونَ من سبعةِ طرق:

الطريق الأول: نقضُ قولهم بطريقٍ عقليٍّ بيِّنٍ لا شكَّ فيه، وهو أنَّ من يتَّهمونه به رجلٌ أعجمي، ومعلومٌ لكلِّ ذي لب: أنَّ الأعجميَّ لا يستطيعُ أن يأتي بمثلِ ما يسمعونه مِنْ كلامٍ بليغٍ رصين، منزَّلٍ بلسانِهِمُ العربيِّ المبين!

الطريق الثاني: أنَّ نزولَ القرآنِ كان بعلمِ اللهِ سبحانه، وما كان كذلكَ فيستحيلُ أن يفتريه بَشَر، ويَنْسُبَهُ لله تعالى؛ فإنهم لمَّا زعموا أنه

= أعجميًّا. قال سفيان: أراه يقالُ له: يعيش، قال: فذلك قوله، وذكَرَ الآية، وقيل: غلامُ الفاكه بن المغيرة، واسمه: جَبْر، وكان نصرانيًّا، فأسلم، وقيل: اسمه يعيش عبدٌ لبني الحضرمي، وكان يقرأ الكتب الأعجمية، وقيل: غلام لبني عامر بن لؤي، وقيل: هما غلامان، اسم أحدهما يسار، واسم الآخر جَبْر، وكانا صيقليين يعملان السيوف، وكانا يقرأان كتابًا لهم، وقيل: كانا يَقرأان التوراة والإنجيل. جامع البيان (١٤/ ١٧٧)، تفسير القرآن العظيم (٢/ ٥٧٢).

(١) **يُنظر:** الجواب الصحيح، لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية (١/ ٤٠٤).

(٢) **يُنظر:** (ص٢٣٨).

أساطيرُ الأوَّلين اكتتبها، ردَّ عليهم سبحانه **قائلًا**: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]، فاستدلَّ عليهم بعلمِهِ سبحانه.

ومثلُهُ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

الطريق الثالث: بيانُ سببِ هذا الافتراءِ، وأنه ليس له دليلٌ صحيحٌ، ولا برهانٌ؛ وإنما الذي يَدْفَعُهم لهذه المقالةِ إنما هو افتراءُ الكذب؛ **فقال**: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]، ومن يفتري الكذبَ لا يكونُ رأيُهُ سديدًا، ولا يكونُ مُؤتَمَنًا على ما يقول.

الطريق الرابع: تأكيدُ مصدرِ القرآن، وأنه منزَّلٌ ممَّن لا يخفى عليه شيءٌ في الأرضِ، ولا في السماءِ؛ فهو العليمُ بما يُسِرُّهُ الخلائق، فكيف بما يجهرون به، ويَنْسُبونه له! فكان في هذا الطريقِ: استشهادٌ بعلمِ اللهِ تعالى على صدقِ ما يُخْبِرُ به النبيُّ ﷺ، ومثلُ هذا الاستدلالِ يُجْبِرُ كلَّ معترفٍ بربوبيةِ الخالقِ سبحانه من الإذعانِ له، فمتى ما نَسَبَ أحدٌ لله تعالى قولًا، واستَشْهَدَ على صدقِ ما نَسَبَهُ بعلمِ اللهِ تعالى، وشهودِهِ لما يقوله، وتصديقِ اللهِ تعالى له بما يَفْتَحُهُ عليه من التوفيقِ والتأييد؛ فهو يَدُلُّ دلالةً قطعيةً على صدقِ ما يُخْبِرُ به الرسولُ ﷺ[1].

الطريق الخامس: الأمرُ بالإعراضِ عن شُبُهاتهم، وافتراءاتهم؛ **فقال**: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٦، ١٠٧].

الطريق السادس: التهديدُ والوعيدُ لمن افترى هذه الأكاذيبَ،

(١) الجواب الصحيح، لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية (١/٤١٦).

وصَدَّ عن الإيمانِ به بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٤].

وقال لمن زعم أن القرآن: ﴿قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾، بقوله: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٢٦ ـ ٣٠].

الطريق السابع: أنَّ القرآنَ جاء مُخبِرًا بما في الكتبِ الإلهيةِ الأولى؛ كما **قال تعالى**: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣].

«فإنه أتاهُمْ بجليَّةِ ما في الصحفِ الأولى؛ كالتوراةِ والإنجيلِ، مع علمهم بأنه لم يأخُذْ عن أهلِ الكتابِ شيئًا، فإذا أخبَرَهُمْ بالغيوبِ التي لا يَعْلَمُها إلا نبيٌّ، أو مَنْ أخبره نبيٌّ، وهم يعلمون أنه لم يَعْلَمْ ذلك بخبرِ أحدٍ من الأنبياء؛ تبيَّن لهم أنه نبيٌّ، وتبيَّن ذلك لسائرِ الأمم؛ فإنه إذا كان قومُهُ المعادون، وغيرُ المعادين له مقرِّين بأنه لم يجتمعْ بأحدٍ يعلِّمه ذلك؛ صار هذا منقولًا بالتواتر، وكان مما أقرَّ به مخالفوه مع حِرْصِهم على الطعنِ لو أمكَنَ»[1].

• رابعًا: وصفُ الأنبياءِ بأنهم سَحَرَةٌ:

السِّحرُ ـ في لسانِ العرب ـ: كلُّ ما خَفِيَ ولَطُفَ سَبَبُهُ[2].

وقد تتابَعَتِ الأممُ المكذِّبةُ على هذه الفرية؛ فما مِنْ أمةٍ بُعِثَ فيها

(١) الجواب الصحيح، لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية (١/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨)؛ وعليه: فلا عبرة بما يتشدَّق به المستشرقون اليومَ من أنه ﷺ أخَذَ عن بعض أهل الكتاب؛ إذ لو كان ذلك قد حصل، لكان معاصروه من أهل الكتاب والمشركين تذرَّعوا في تكذيبهم له بذلك، ولو وقع، لنُقِلَ نقلًا متواترًا، فلما لم يُنْقَلْ، دل أنه لم يقع.

(٢) انظر: (ص٢٤٦) من البحث.

نبيٌّ إلا قالوا كما أخبرَ اللهُ عنهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٢ ـ ٥٥].

ورمى المشركونَ رسولَ اللهِ ﷺ بالسِّحْر، فقالوا تارةً: هو مسحورٌ! وقالوا تارةً: هو ساحرٌ!

قال تعالى عنهم: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٤٧ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٧، ٤٨].

وقال في سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٨، ٩].

وقال في سورة (صٓ): ﴿وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤].

وقد أبطَلَ القرآنُ العظيمُ هذه المقولةَ من أربعةِ طُرُق:

الطريق الأول: الاكتفاءُ بعلمِ اللهِ تعالى على صدقِ الرسولِ ﷺ، قال تعالى في سورةِ الأنبياءِ عن المشركين: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [٣].

فردَّ عليهم: ﴿قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنبياء: ٤].

والمعنى: أنَّ الله تعالى يسمعُ كلامَ نبيِّه، ويعرفُ مَرامه، فلو كان ما يقولُهُ افتراءً على الله، فاللهُ تعالى أحكم، وأعدلُ من أن يُمْهِلَهُ يَكْذِبُ عليه، وهو كلَّ يومٍ يعلي شأنه، ويزيدُ أتباعه، ويقوِّي سلطانَهُ؛ فتأييدُ اللهِ تعالى له على ما يدَّعيه، دليلٌ على أنه رسولٌ من عند الله تعالى، وأن ما يقوله هو كلامُ اللهِ تعالى، لا كلامُ أحدٍ من المخلوقين.

الطريق الثاني: ذَمُّ السحرِ والسَّحَرةِ؛ فوصَفَهم بالكفرِ تارَةً؛ كما في **قوله تعالى**: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وتارَةً بنفيِ الفلاحِ عنهم؛ **كما قال على لسانِ موسى** ﷺ: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧].

فكيف يتفقُ أن يكونَ ما يقولُهُ هو السحر؟!

وقد قال بعضُ المشركين عند سماعِهِ للقرآن: «واللهِ، ما هو بِسِحْرٍ...»[(١)].

وقد حَفِلَتِ السُّنَّةُ كذلك بالتحذيرِ من السحر، بل عدَّتها من الموبقات؛ كما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ....**)[(٢)]، وعَدَّ منها السحر.

الطريق الثالث: بيانُ دافعِ هذه المَقُولة، وأنَّ القومَ لم يَحْمِلْهم على هذه الفريةِ إلا طغيانُهم، وكُفْرُهم، وتكذيبُهم، فقال بعدَ أنْ بيَّن أنَّ رميَ الأنبياءِ والمرسلينَ بالسحرِ تتابَعَتْ عليه الأممُ: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

ولذا كان التوجيهُ القرآنيُّ للنبيِّ ﷺ - والحالُ أنَّ هؤلاءِ المكذِّبين لا يدفعُهُمْ لتكذيبِهِ ورَمْيِهِ بالسحرِ سوى طغيانِهم - كان التوجيهُ القرآنيُّ له بالإعراضِ عن تشغيبهم، وكَذِبِهم، والاكتفاءِ بتذكيرهم، وتبليغِهِمْ رسالةَ الله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٤ - ٥٥].

الطريق الرابع: بيانُ ضلالِ القومِ في هذه الفرية؛ **قال سبحانه**: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨].

فوصَفَهُمْ بالضلالِ في رَمْيِهم الرسولَ ﷺ بالسِّحْرِ؛ «لأنَّ كلَّ ما أتى

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٤٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب الشرك، والسحر من الموبقات، رقم (٦٤٦٥).

به الرسولُ مِنَ القرآنِ وغيرِهِ ظاهرُ الحال، لا تمويهَ فيه ولا تلبيسَ فيه، فقد كان ﷺ يتحدَّاهم بالقرآنِ حالًا بعدَ حالٍ مدةً من الزمان، وهم أربابُ الفصاحةِ والبلاغة، وكانوا في نهايةِ الحِرْصِ على إبطالِ أمره، وأقوى الأمورِ في إبطالِ أمرِهِ معارضةُ القرآن، فلو قَدَرُوا على المعارضة، لامتنَعَ ألَّا يأتوا بها؛ لأنَّ الفعلَ عندَ توافرِ الدواعي، وارتفاعِ الصارفِ، واجبُ الوقوع، فلمَّا لم يأتوا بها، دلَّنا ذلك على أنه في نفسه معجزةٌ، وأنهم عَرَفُوا حاله، فكيفَ يجوزُ أن يقال: إنه سِحْرٌ، والحالُ على ما ذكرناه، وكلُّ ذلك يدلُّ على أنهم كانوا عالمين بصدقه، إلا أنهم كانوا يموِّهون على ضعفائهم بمثلِ هذا القول، وإن كانوا فيه مكابرين»[(١)].

• خامسًا: وصفُ النبيِّ ﷺ بأنه شاعرٌ:

مِنَ المقولاتِ التي افتَرَاها المُشْرِكونَ على رسولِ اللهِ ﷺ: أنه شاعر!

قال الله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]، ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ [الصافات: ٣٦]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤١].

وقد أبطَلَ القرآنُ مقولَتَهُمْ هذه بطريقين:

أولهما: نفيُهُ لها، وتنزيهُ نبيِّه أن يكونَ شاعرًا؛ **فقال سبحانه:** ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

وعن عبد اللهِ بن الصامتِ، قال: قال أبو ذَرٍّ: «خَرَجْنا مِنْ قومنا غِفَارٍ، وكانوا يُحِلُّونَ الشهرَ الحرام، فخَرَجْتُ أنا وأخي أُنَيْسٌ، وآمَنَّا.

---

(١) التفسير الكبير (٢٢/ ١٢٢).

فانطَلَقَ أنيسٌ حتى أتى مكةَ، ثم جاء، فقلتُ: ما صنَعْتَ؟

قال: لَقِيتُ رجلًا بمكةَ على دِينِكَ، يزعُمُ أنَّ اللهَ أرسله!

قلت: فما يقولُ الناس؟

قال: يقولونَ: شاعرٌ، كاهنٌ، ساحرٌ - وكان أنيسٌ أحَدَ الشعراء -.

قال أنيسٌ: لقد سمعتُ قولَ الكَهَنةِ، فما هو بقولهم، ولقد وضَعْتُ قولَهُ على أَقْرَاءِ الشِّعْرِ، فما يلتئمُ على لسانِ أحدٍ بعدي أنه شِعْرٌ، واللهِ، إنه لصادقٌ، وإنَّهم لكاذبون...»[1].

وثانيهما: ذَمُّ الشعراء[2]، والإخبارُ بأن غالبَ حالهم الكذبُ؛ ولذا يتبعهم الغاوون مِنْ بني آدَمَ؛ **فقال سبحانه**: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤].

فكان في هذا تكذيبٌ للمشركينَ في دعواهم أنَّ النبيَّ ﷺ شاعر.

• سادسًا: وصفُ الأنبياءِ بالجُنُونِ:

مِنَ المقولاتِ التي أبطَلَها القرآنُ العظيم: وصفُ الأنبياءِ - صلى الله عليهم وسلم - بالجنون!

وهي فريةٌ أرادوا بها التشنيعَ عليهم، وصَرْفَ الناسِ عنهم؛ وإلا فهي أظهَرُ بطلانًا مِنَ الباطلِ نفسه[3]!

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، رقم (٢٤٧٣).

(٢) وقد استثنى من ذلك؛ فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، قال ابن جُزَيّ: «وأراد الشعراءَ الذين يُلْقُونَ من الشعر ما لا ينبغي؛ كالهجاءِ والمدحِ بالباطل، وغيرِ ذلك، وقيل: أراد شعراءَ الجاهلية، وقيل: شعراء كفار قريش الذين كانوا يؤذون المسلمين بأشعارهم، والغاوون: قيل: هم رواةُ الشعر، وقيل: هم سفهاءُ الناس الذين تُعْجِبهم الأشعارُ لما فيها من اللغو والباطل، وقيل: هم الشياطين». تفسير ابن جُزي (٣/ ٩٢).

(٣) ذكر الرازي في تفسيره (١٩/ ١٢٥): أن من شبهاتِ المشركينَ في نسبتهم الجنونَ =

قال الله تعالى عنهم: وقد بيَّن اللهُ تعالى أن هذه الفريةَ هي شأنُ المُبْطِلِينَ في كلِّ أمة؛ **فقال**: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

وهذا أسلوبٌ فرعونيٌّ، يراد به صرفُ الناسِ عن النبيين، وتشويهُ صورتهم في أعينِ الناس؛ طمعًا في حَجْبِ الحقيقةِ عنهم؛ **قال تعالى**: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٩].

وقد فَصَّلَ القرآنُ في هذه الشبهةِ التي أَطْلَقَها المُكذِّبونَ في شأنِ نبينا محمَّد ﷺ؛ **فقال تعالى**: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الحجر: ٦، ٧].

فتهكَّموا به بقولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾؛ فكأنهم يقولون: يا مَنْ يدعي ويزعُمُ أنه رسولٌ من الله تعالى؛ بدليلِ وصفهم إياهُ بالجنون.

وقد أبطَلَ القرآنُ العظيمُ هذه الفِرْيةَ من ستةِ طُرُق:

أولها: شهادةُ الله تعالى شأنُهُ على نفيِ الجنونِ عن نبيِّه ﷺ، وكفى بالله شهيدًا؛ **قال تعالى**: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]، بل بيَّن أن ما جاء به هو نعمةٌ منه عليه، وعلى قومِهِ؛ **ولذا قال**: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ

= للنبي ﷺ: «أنهم كانوا يَحْكُمُونَ عليه بالجنون، **وفيه احتمالان**:

الأول: أنه عليه السلام كان يظهر عليه عند نزول الوحي حالةٌ شبيهةٌ بالغشي؛ فظنوا أنها جنون؛ والدليل عليه قوله: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥١، ٥٢].

والثاني: أنهم كانوا يستبعدون كونه رسولًا حقًّا من عند الله تعالى؛ فالرجلُ إذا سمع كلامًا مستبعدًا من غيره، فربَّما قال له: هذا جنونٌ، وأنتَ مجنون؛ لبعدِ ما يذكُرُهُ من طريقةِ العقل».

بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢]، ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩].

ثانيها: أمرُهُمْ بالتفكُّرِ في شأنِ النبيِّ ﷺ وما جاء به؛ **قال تعالى**: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

فأمرَهُمْ أن يتفكَّروا منفردين ومجتمعين؛ لأنَّ الإنسانَ «الذي يطلُبُ معرفةَ الحقِّ والصوابِ له حالتان:

إحداهما: أن يكونَ ناظِرًا مع نفسه.

الثانية: أن يكونَ مُناظِرًا مع غيره.

فأمَرَهُمْ بخَصْلةٍ واحدة، وهي: أن يقوموا للهِ اثنَيْن اثنَيْن، فيتناظران، ويتساءلان بينهما، ويقومون واحدًا واحدًا، يقومُ كلُّ واحدٍ مع نفسه، فيتفكَّرُ في أمرِ هذا الداعي، وما يدعو إليه، ويستدعي أدلةَ الصِّدْقِ والكذبِ، ويَعْرِضُ ما جاء به عليها؛ ليتبيَّنَ له حقيقةُ الحال؛ فهذا هو الحِجَاجُ الجليل، والإنصافُ البيِّن، والنصحُ التام»(١).

فلينظروا فيما جاء به، وهل ما يقولُهُ هو كلامُ مجانين؟! ولا شكَّ أن المنصفَ منهم يعلمُ علمَ اليقين أنَّ ما جاء به النبيُّ ﷺ ليس ضربًا من الجنون، بل هو وحيٌ من ربِّ العالمين، فهو مِنْ جهةِ لفظِهِ: في أعلى دَرَجاتِ البلاغة؛ كما اعتَرَفُوا هم بذلك، ومِنْ جهةِ معانيه: لا افتراءَ فيه، ولا تناقضَ، ولا اختلافَ، يأمرُ بمعالي الأمورِ، وينهى عن سَفْسَافِها، يأمر بالعَدْلِ والإحسان، وإيتاءِ ذي القربى، وينهى عن الفحشاءِ والمنكرِ والبغي.

وليتفكَّروا في شأنِهِ ﷺ؛ فإنه كان عندهم محمودَ السِّيرَةِ والسَّرِيرة،

---

(١) الصواعق المرسلة، لابن القيم (٢/ ٤٧٢).

وكانوا يَرَوْنَ من حلمِهِ، وعلمِهِ، ورجاحةِ عقله، وحُسْنِ خُلُقِهِ، ما يدلُّ دلالةً واضحةً على أنه الرجلُ الكامل، والسيدُ الفاضل؛ ولهذا السببِ وصَفَهُ اللهُ تعالى بحُسْنِ الخلقِ في مطلعِ سورة (نون)، بعد أنْ نفى عنه الجنون؛ **فقال**: ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ١ ـ ٤].

فقولُهُ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ هو «كالتفسيرِ لما تقدَّم من **قوله**: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، وتعريفٌ لمن رماه بالجنونِ بأن ذلك كذبٌ، وخطأٌ؛ وذلكَ لأنَّ الأخلاقَ الحميدةَ، والأفعالَ المرضيَّةَ كانتْ ظاهرةً منه، ومَنْ كان موصوفًا بتلك الأخلاقِ والأفعال، لم يَجُزْ إضافةُ الجنونِ إليه؛ لأنَّ أخلاقَ المجانينِ سيئةٌ، ولمَّا كانتْ أخلاقُهُ الحميدةُ كاملةً، لا جرَمَ وصفَهَا اللهُ بأنها عظيمة.

ولهذا **قال**: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]؛ **أي**: لستُ متكلِّفًا فيما يظهرُ لكم مِنْ أخلاقي؛ لأنَّ المتكلِّفَ لا يدومُ أمرُهُ طويلًا، بل يَرْجِعُ إلى الطبع»[(١)].

وقد أشار القرآنُ العظيمُ لهذه الحجةِ، **فقال**: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝٣٦ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٦، ٣٧].

فقوله: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ إشارةٌ للحقِّ الذي يأمُرُ به.

ثالثها: أنَّ ما جاء به مصدِّقٌ للحقِّ الذي جاء به الأنبياءُ والرسلُ من قبله، وأَمْرُ أنبياءِ اللهِ ورسلِهِ لا يخفى على أجهلِ الناس؛ فأهلُ مكةَ كان منهم مَنْ هم بقايا على دِينِ إبراهيم عليه السلام؛ فهم يعرفون ذلك جيدًا، ولذلك أرشَدَ اللهُ تعالى مَنْ رماه بالجنون: أن ينظُرَ في مضمونِ دعوتِهِ، وما دعا له الأنبياءُ قبله؛ **فقال**: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ «فرد

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ٧١).

عليهم بأنَّ ما جاء به مِنَ التوحيدِ حقٌّ قام به البرهان، وتطابَقَ عليه المرسلون»[١].

قال قتادة: «أي: صدَّقَ مَنْ كان قبله مِنَ المرسلين»[٢].

وقال في سورة الحِجْرِ بعد ذكرِ مقولتهم:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٠ ـ ١٣].

رابعها: وَعْدُ المشركين بأنه سيَظْهَرُ مَنِ المجنون[٣]؛ إما في الدنيا، وإما في الآخرة؛ وهذا فيه تهديدٌ لهم، وتطمينٌ للنبيِّ ﷺ؛ **فقال:** ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ [القلم: ٥].

قال ابن عباس: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾، قال: تَعْلَمُ ويعلمونَ يومَ القيامةِ، ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦]، قال: «الشيطانُ؛ كانوا يقولون: إنه شيطان مجنون»[٤].

وهذا تفسيرُ جماهيرِ المفسِّرين من السلف، **على أن معنى المفتونِ هنا:** هو المجنونُ.

خامسها: تبيينُ السببِ الحقيقيِّ لردِّهم ما جاء به النبي ﷺ،

---

(١) تفسير البيضاوي (٥/ ١١)، وهذا الوجهُ في التفسير أقوى مِنْ قولِ بعضِ المفسِّرين: أي: مصدِّقًا ببشارةِ الأنبياءِ قبله، والذي يُضعِّفُ هذا التأويلَ: أن السورةَ مكيةٌ، والعربُ أعلمُ بالأنبياءِ الذين قبله مِنْ مضمونِ كتبهم، والله أعلم.

(٢) أخرجه الطبري من طريق سعيد بن أبي عروبة، عنه (٢٣/ ٥١)، وأخرجه ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٠٩) بدون إسناد.

(٣) **يُنظر:** جامع البيان (٢٩/ ١٨ ـ ٢٠)؛ وبه قال مجاهد، وكثير من المفسِّرين.

(٤) عزاه في الدُّر المنثور (٨/ ٢٤٤) إلى ابن المنذر، وأخرج ابن جرير الطَّبَري عن ابن عباس قوله: «﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾؛ قال: المجنون».

ولزعمهم أنه مجنون، وهو: أنَّ القومَ كانوا كارهين للحقِّ الذي جاء به، رَغْمَ اعترافِهِمْ به؛ **قال تعالى:** ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

سادسها: التبشيرُ بحفظِ اللهِ تعالى لنبيِّه ﷺ من المحادِّين، والمستهزئين؛ **فقال سبحانه:** ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٤ ـ ٩٥].

فأمرَهُ بالصَّدْعِ بدعوته، والإعراضِ عن المكذِّبين والشانئين، وطَمْأَنَهُ بأنه سيكفيه المستهزئين والمكذِّبين.

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٦ ـ ٩].

فكذَّبهم في اتهامِهِمْ للنبيِّ ﷺ بالجنونِ بتأكيدِ رسالته، وأنه ـ جل شأنه ـ هو الذي نزَّل عليه الذكرَ، وأنه حافظٌ للذكر، وحافظٌ لمن تنزَّل الذكرُ عليه.

وعلى التفسيرَيْنِ الوارِدَيْنِ في الآية، فإنَّ الآية تدلُّ على بيانِ حفظِ اللهِ تعالى لنبيِّه ﷺ، وكفى به سبحانه حافظًا: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

• سابعًا: وصفُ النبيِّ ﷺ بالكَاهِنِ:

الكِهَانةُ: «هي الإخبارُ عن الأمورِ الماضيةِ الخفيَّةِ بِضَرْبٍ من الظن»[1].

وقيل: «هي ادعاءُ عِلْمِ الغيب»[2].

---

(١) انظر: التعاريف (ص٢٠٢).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٢٢٢).

والكاهنُ: «الذي يتعاطَى الخَبَرَ عن الكائناتِ في مستقبَلِ الزمان، ويدَّعي معرفةَ الأسرار... والعرَبُ تسمِّي كلَّ مَنْ يتعاطى علمًا دقيقًا: كاهنًا، ومنهم مَنْ كان يسمِّي المنجِّمَ، والطبيبَ: كاهنًا»[١].

قال الرازي: «**إنَّ الكِهَانَةَ على قسمَيْن**:

قسمٌ يكونُ من خواصِّ بعضِ النفوسِ؛ فهو ليس بِمُكْتَسَب.

وقسمٌ يكونُ بالعزائمِ ودعوةِ الكواكبِ والاشتغالِ بهما؛ فبعضُ طرقه مذكورةٌ فيه، وإنَّ السلوكَ في هذا الطريقِ محرَّمٌ في شريعتنا؛ فعلى ذلك وجَبَ الاحترازُ عن تحصيلِهِ واكتسابه، والقسمُ الأولُ داخلٌ في علمِ العِرَافة»[٢].

قال الحافظ[٣] في الفتح: «وكانتِ الكِهَانةُ في الجاهليَّةِ فاشيةً، خصوصًا في العربِ؛ لانقطاعِ النبوَّةِ فيهم، **وهي على أصناف**:

منها: ما يَتَلَقَّوْنَهُ من الجن...

ومنها: ما يخبرُ به الجنيُّ مَنْ يواليه بما غابَ عن غيره، مما لا يطلعُ عليه الإنسانُ غالبًا...

ومنها: ما يستندُ إلى ظنٍّ، وتخمينٍ، وحَدْس...

ومنها: ما يستندُ إلى التجربةِ والعادة.

ومِنْ هذا القسمِ الأخيرِ: ما يضاهي السِّحْرَ، وقد يعتمدُ بعضُهم في ذلك بالزَّجْرِ، والطَّرْقِ، والنجومِ، وكلُّ ذلك مذمومٌ شرعًا»[٤].

---

(١) لسان العرب (١٣/ ٣٦٣).
(٢) أبجد العلوم (٢/ ٤٥٤).
(٣) **هو**: الحافظ شهاب الدِّين، أحمد بن علي بن حجر، حافظ الدنيا في زمنه، صاحب كتاب «فتح الباري، شرح صحيح البخاري»، من أجلِّ شروح الصحيح، قال السيوطي: «حَكَى أنه شَرِبَ ماءَ زمزم ليصلَ إلى مرتبةِ الذهبيِّ في الحفظ، فبلَغَهَا وزاد عليها»، توفي سنة (٨٥٢هـ). **انظر**: طبقات الحفاظ، للسيوطي (ص٥٥٢).
(٤) فتح الباري (١٠/ ٢١٦ ـ ٢١٧).

وقال: «الكِهَانةُ تارَةً: تستندُ إلى إلقاءِ الشياطين، وتارَةً: تستفادُ من أحكامِ النجوم، وكان كلٌّ من الأمرَيْنِ في الجاهليةِ شائعًا ذائعًا إلى أن أظهَرَ اللهُ الإسلامَ، فانكسَرَتْ شوكتُهم، وأنكَرَ الشرعُ الاعتمادَ عليهم»(١).

وقد نفى القرآنُ أنْ يكونَ القرآنُ كلامَ كاهنٍ؛ **فقال:** ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٢]، **وقال سبحانه:** ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩]، **وقال سبحانه:** ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٣].

فنزَّه النبيَّ ﷺ أنْ يكونَ كاهنًا، وبيَّن برهانَ ذلك وآيتَهُ؛ **فقال:** ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢].

وقد أبطَلَ اللهُ تعالى نسبةَ النبيِّ ﷺ للكُهَّانِ بأربعةِ أدلَّة:

أولـهـا: النفيُ الإلهيُّ أنْ تكونَ الشياطينُ قد ألقته له ﷺ، وكَفَى باللهِ شهيدًا؛ **فقال:** ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾.

ثانيها: امتناعُهُمْ عن النـزول به؛ **فقال:** ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ﴾، فبيَّن: أنهم لا يريدونَهُ لمنافاتِهِ لمقصودهم، فالذي لا ينبغي للفاعلِ هو الذي لا يريده؛ إمَّا لكونِهِ ممتنعًا من ذلك، أو لكونِهِ ممنوعًا منه.

ثالثها: عَجزُ الشياطينِ عن الإتيانِ به: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾؛ فهم لو أرادوا، لَمَا استطاعوا؛ وذلك لأنهم معزولونَ عن سَمَاعِهِ من الملأ الأعلى.

فبيَّن اللهُ جل ذكره: أنَّ «ما جاء به الرسولُ ﷺ مناقضٌ لمرادِ الشياطينِ غايةَ المناقضة، فلم يَحْدُثْ في الأرضِ أمرٌ أعظمُ مناقضةً لمرادِ

---

(١) فتح الباري (١/ ٤١).

الشياطينِ من إرسالِ محمَّد ﷺ، ونزولِ القرآنِ عليه، فيمتنعُ أن تفعلَ الشياطينُ ما لا يريدون إلا نقيضَهُ، وهم أيضًا ممنوعونَ من ذلك؛ بحيثُ لا يصلُحُ لهم ذلك، ولا يتأتَّى منهم؛ كما أنَّ الساحرَ لا ينبغي له أنْ يكونَ نبيًّا، والمعروفُ بالكذبِ والفجورِ لا ينبغي له مع ذلك أنْ يكونَ نبيًّا، ولا أنْ يكون حاكمًا ولا شاهدًا ولا مُفْتِيًا؛ إذِ الكذبُ والفجورُ يناقضُ مقصودَ الحكمِ والشهادةِ والفتيا؛ فكذلك ما في طَبْعِ الشيطانِ من إرادةِ الكذبِ والفجورِ، يناقضُ أن تَتنزَّلَ بهذا الكلامِ الذي هو في غايةِ الصدقِ والعدلِ، لم يَشتمِلْ على كذبةٍ واحدة، ولا ظلمٍ لأحد، **ثم قال:** ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١١]؛ فإنهم عن سمعِ هذا الكلامِ لمعزولون بما حُرِسَتْ به السماءُ من الشُّهُب؛ كما قال عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨، ٩].

فكان معروفًا عند الناسِ إخبارُ الكُهَّانِ عن الشياطين التي تَسترِقُ السمعَ، فلمَّا رأوا أنَّ السماءَ قد حُرِسَتْ حرسًا شديدًا خلافَ العادة، علموا أنَّ الشياطينَ مُنِعُوا استراقَ السمع، وعَلِمَتِ الجنُّ ذلك.

وقد تواتَرَتِ الأخبارُ بأنه حين المبعثِ كَثُرَ الرميُ بالشُّهُبِ[1]؛ وهذا

---

(١) أخرج الطبري (٢٩/ ١١٠) بسنده عن ابن عباس، قال: «كان الشياطينُ لهم مقاعدُ في السماءِ يستمعون فيها الوحيَ، فإذا سمعوا الكلمةَ، زادوا فيها تسعًا، فأما الكلمةُ، فتكون حقًّا، وأما ما زادوا، فيكونُ باطلًا، فلما بُعِثَ رسولُ الله ﷺ، مُنِعُوا مقاعدَهُمْ، فذكَرُوا ذلك لإبليس، ولم تكنِ النجومُ يُرمى بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس: ما هذا الأمرُ إلا لأمر حدَثَ في الأرض، فبعَثَ جنودَهُ، فوجدوا رسولَ الله ﷺ قائمًا يصلِّي بين جبلي نخلةَ، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدَثُ الذي حدَثَ في الأرض».
وأخرج الطبري عن سعيد بن جُبَيْر، قال: «كانت الجنُّ تستمع، فلما رُجِمُوا، قالوا: إن هذا الذي حدَثَ في السماء لشيء حدَثَ في الأرض، قال: فذهبوا يطلبون حتى رأوا النبيَّ ﷺ خارجًا من سوق عكاظ يصلِّي بأصحابه الفجر، فذهبوا إلى قومهم منذرين». =

أمرٌ خارقٌ للعادة، حتى خاف بعضُ الناسِ أن يكونَ ذلك لِخَرابِ العالم، حتى نظروا: هل الرميُ بالكواكبِ التي في الفلك، أم الرميُ بالشُّهُب؟ فلما رأوا أنه بالشُّهُب، علموا أنه لأمرٍ حدَثَ، وأرسلتِ الجنُّ تطلُبُ سببَ ذلك، حتى سمعتِ القرآنَ؛ فعلموا أنه كان لأجلِ ذلك»[١].

رابعها: مناقضةُ حالِ النبيِّ ﷺ لحالِ الكُهَّان؛ فالنبيُّ ﷺ عُرِفَ بالصادقِ الأمينِ[٢]، واشتَهَرَ عنه الصدقُ في مكةَ كلِّها، أمَّا الكهانُ، فإنهم كما أخبَرَ الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٣].

«والأفَّاكُ: هو الكَذَّابُ.

والأثيمُ: هو الفاجرُ.

فالشياطينُ تَتنزَّلُ على مَنْ يُحصِّلُ مقصودَهَا بنزولها عليه، وهو المناسبُ لها في الكذبِ والفجورِ، فأمَّا الصادقُ البارُّ، فلا يَحْصُلُ به مقصودُ الشياطين؛ فإنَّ الشيطانَ لا يطلُبُ الصدقَ والبِرَّ، وإنما يطلُبُ الكذبَ والفجور...

ومَنْ تنزَّلَتْ عليه الشياطينُ لا بدَّ أن يُخْبِرَ بالكذبِ؛ فإنَّ الشياطينَ يُلْقُونَ إليهم السمعَ، ولا يلقونَ إليهم ما سمعوه على وجهه، بل يَكْذِبُونَ فيه كثيرًا؛ إذْ كان أكثَرُ الشياطينِ الذين ينزلونَ عليهم كاذبينَ فيما ينزلونَ به عليهم، والشياطينُ ـ وإنْ كان كلُّهم كاذبًا ـ فليس كلُّ مَنْ ألقى السمعَ يَكْذِبُ فيما يلقيه، بل قد يصدُقُ أحدُهم فيما يلقيه مِنَ السمعِ ويسترقه،

= وانظر: دلائل النبوة، للأصفهاني (١/ ٦٦)، وللبيهقي (٢/ ٢٤٠).

(١) الجواب الصحيح، لابن تيمية (٥/ ٣٤٧ ـ ٣٥٤) بتصرف يسير.

(٢) عقد شيخ الإسلام في الجواب الصحيح فصلًا جمَعَ فيه الآثار الدَّالَّةَ على ذلك. فليُنظر: (٥/ ٣٥٨).

ولكنَّ أكثرهم يَكْذِبون، والذي يصدُقُ منهم مرةً، يكذبُ مراتٍ، والذي يَنْزِلُ عليه الشياطينُ أفاكٌ أثيمٌ.

فالفرقُ بين الصادقِ البارِّ الذي يأتيه المَلَكُ، والكاذبِ الأثيمِ الذي يأتيه الشيطانُ الرجيم، فَرْقٌ بيِّنٌ يُعْرَفُ بأدنى معرفةٍ بحالِ الاثنين.

ولمَّا كان الكاهنُ الذي يأتيه شيطانٌ قد يخبرُ ببعضِ الأمورِ الغائبة، بيَّن ـ سبحانه ـ أن هذا يكونُ ـ وإنْ صدَقَ في بعضِ الأخبار ـ كاذبًا فاجرًا، والذي يأتيه بالكذبِ، فلا يشتبهُ بمَنْ لا يكذبُ ولا يفجُرُ؛ وهذا ممَّا يبيِّن أنَّ النبيَّ لا يكونُ إلا بارًّا معصومًا أن يُصِرَّ على ذنبٍ»[1].

(١) الجواب الصحيح، لابن تيمية (٥/٣٥٦ ـ ٣٥٧).

المَطْلَبُ الثَّالِثُ

دعواهُمْ أنَّ النبوَّةَ لا تصلُحُ للبَشَرِ

من المقولاتِ التي ذكَرَها القرآنُ العظيمُ عن المشركينَ إنكارُهم لنبواتِ الأنبياءِ؛ زعمًا منهم أن النبوَّةَ لا تصلُحُ لبشر!

ولا شكَّ أنَّ القولَ ببشريَّةِ الرسولِ ﷺ هو ما جاء به القرآنُ نفسُهُ، وتكرَّر التذكيرُ به؛ كما في **قوله تعالى:** ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

وهذه الشبهةُ قديمةٌ قِدَمَ الدعوةِ إلى الله تعالى؛ **قال سبحانه:** ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقال سبحانه عن قوم نُوحٍ: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وقال عن قوم صالح: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣].

وقيلت عن قوم شُعَيْبٍ؛ كما **قال تعالى:** ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦].

وما مِنْ أُمَّةٍ إلا وواجَهُوا نبيَّهم بهذِهِ الشبهة.

والمرادُ من هذه الشبهةِ: نفيُ كونِ الرسولِ يُوحَى إليه؛ لأنَّ مَنْ يوحى إليه، ويبلِّغُ الرسالةَ لا بدَّ أن يكونَ ـ بزعمهم ـ من غيرِ جنسِ البشر.

وقد أشار القرآنُ العظيمُ لهذه الشبهة؛ **فقال تعالى:** ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨][(١)].

وقد بيَّن القرآنُ كذلك: أنَّ هذه الآياتِ التي طلَبَها المشركونَ، لم يَطْلُبُوها اهتداءً، وإنَّما عنادًا؛ كما **قال تعالى:** ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقد اقترَحَ المشركونَ أمرَيْنِ فيمن يُرْسَلُ إليهم:

أولهما: أنْ يكونَ الرسولُ مَلَكًا على الحقيقة؛ **قال تعالى:** ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: ٢١].

---

(١) وقد ذكر الكلبي: أن مشركي مكة قالوا: يا محمَّد، واللهِ لا نؤمنُ لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله، ومعه أربعةٌ من الملائكةِ يشهدون أنه من عند الله، وأنك رسوله! انظر: جامع البيان (١٥/ ١٦٥).

وأخرج الطَّبَري (١٥/ ١٦٥) بسنده عن ابن عباس: «أن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، ورجلًا من بني عبد الدار، وأبا البختري أخا بني أسد، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ونُبَيْهًا ومُنَبِّهًا ابنَي الحجاج السهميَّيْنِ، اجتمعوا، أو مَنِ اجتمَعَ منهم بعدَ غروبِ الشمس عند ظهرِ الكَعبة، فقال بعضُهم لبعضٍ: ابعثوا إلى محمد، فكلِّموه وخاصموه؛ حتى تُعْذِرُوا فيه، فبعثوا إليه: أنَّ أشرافَ قومِكَ قد اجتمعوا إليك ليكلِّموك، فجاءهم رسولُ الله ﷺ سريعًا، وهو يظنُّ أنه بدا لهم في أمره بَدَاءٌ، وكان عليهم حريصًا، يحبُّ رُشْدَهُم، ويَعِزُّ عليه عَنَتُهُم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد، إنا قد بَعَثْنا إليك؛ لِنُعْذِرَ فيك، وإنا والله ما نعلمُ رجلًا من العرب أدخَلَ على قومه ما أدخلْتَ على قومك! لقد شَتَمْتَ الآباء، وعِبْتَ الدِّين، وسَفَّهْتَ الأحلام، وشَتَمْتَ الآلهة، وفَرَّقْتَ الجماعة، فما بقي أمرٌ قبيحٌ إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك!... إلى أن قال له أحدهم: فوالله، لا أومنُ لك أبدًا حتى تتخذَ إلى السماء سلمًا ترقى فيه وأنا أنظُرُ حتى تأتيها وتأتي معك بنسخة منشورة، معك أربعة من الملائكة يشهدون لك: أنك كما تقول، وايمُ اللهِ، لو فعلتَ ذلك لظننتُ ألا أصدِّقك...».

ومما يشهد لهذا المعنى: **قولُهُ تعالى:** ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨]، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣].

ثانيهما: أنْ يُرْدَفَ الرسولُ البشريُّ ﷺ بالملائكة، كما **قال تعالى:** ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨]، ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣].

ومع أنَّ كلا الاقتراحَيْنِ مجرَّدُ تحكُّم وتعنُّتٍ بلا دليلٍ وبرهان، **إلا أنَّ القرآنَ العظيمَ قد تولَّى إبطالَ هذه المقولةِ، وبيانَ فسادها:**

فالبيانُ الأول: أنَّ سُنَّةَ اللهِ تعالى أنَّ مَنْ طلَبَ الآيات، فلم يؤمنْ بعد معاينتها؛ فإنه يُعجَّلُ له العذاب.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨، ٩].

ومعنى: ﴿لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ **أي:** لَعُجِّلَ لهم العذابُ، أو لقامتِ الساعةُ، أو لزهقتْ أرواحُهم؛ لِعَدَمِ إمكانهم التلقِّي عن المَلَكِ مباشرة.

والقرآنُ يؤيِّدُ القولَ الأول؛ وأنَّ مَنْ كذَّب بعد معاينتِهِ للآياتِ التي طلبها، فإنه يستأصلُ؛ كما **قال تعالى:** ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وفي الكلام حذفٌ، والتقديرُ: وما منعنا أن نُرْسِلَ بالآياتِ التي اقترَحُوها إلا أن يكذِّبوا بها، فيَهْلِكُوا؛ كما فُعِلَ بِمَنْ كان قبلهم[1].

---

(١) انظر: جامع البيان (١٥/١٠٧)، الجامع للقرطبي (١٠/٢٨١)، معاني القرآن (٤/١٦٦).

عن ابن عباس قال: سألَ أهلُ مكةَ النبيَّ ﷺ أن يجعلَ لهم الصفا ذَهَبًا، وأن يُنحِّيَ عنهم الجبالَ؛ فيزرعوا، فقيل له: إنْ شئتَ أن نستأنيَ بهم؛ لعلَّنا نجتني منهم، وإنْ شئتَ أن نُؤْتِيَهُمُ الذي سألوا: فإنْ كَفَروا أُهْلِكُوا كما أُهْلِكَ مَنْ قبلهم؟

قال: «بل تستأني بهم؛ فأنزَلَ الله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ [الإسراء: ٥٩]»[1].

وقال: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ [ص: ١٤، ١٥].

والثاني: أن طبيعةَ البَشَرِ تختلفُ عن طبيعةِ الملائكة؛ ولهذا فلو أراد اللهُ أن يبعثَ للبشَرِ مَلَكًا؛ فإنه سيكونُ على الهيئةِ البشريَّةِ التي تناسبُهم، ولو كان ذلك كذلك، فإنه سيلتبسُ عليهم الأمر! ويَحارُونَ هل المرسَلُ عليهم مَلَكٌ في صورةِ بَشَر، أم بَشَرٌ يدَّعي أنه من الملائكة؟

قال تعالى في بيانِ فسادِ اقتراحِهِمْ، ومقولَتِهم: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

الجواب الثالث: أنَّ الأنبياءَ الذين كانوا قبله كانوا مِنْ جنسِ البشرِ، لا مِنْ جنس الملائكةِ؛ **قال تعالى:** ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ [الرعد: ٣٨]؛ فإذا جاز ذلك في حقِّهم، فلِمَ لا يَجُوزُ أيضًا مثلُهُ في حقه[2]؟!.

وقد أرشَدَ القرآنُ المشكِّكين في نبوةِ البشرِ إلى سؤالِ أهل الكتاب؛ **فقال تعالى:** ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

---

(١) أخرجه الطَّبَري في جامع البيان (١٥/ ١٠٧).

(٢) التفسير الكبير (٢/ ٣٥٤).

فاسْأَلُوا أهلَ الذكرِ؛ **يعني**: أهلَ الكُتُبِ الماضيةِ: أبشرًا كانتِ الرسلُ التي أتتكم أمْ ملائكةً؟ فإنْ كانوا ملائكةً، أنكرتم، وإنْ كانوا بشرًا فلا تُنْكِرُوا أن يكونَ محمَّدٌ رسولًا[1].

الجواب الرابع: أنَّ تخصيصَ هؤلاءِ الأنبياءِ بالنبوَّةِ هو محضُ مِنَّةٍ من الله تعالى؛ فهو الوهَّاب لما يشاء ما شاء، وقد نبَّه القرآنُ على هذه المسألة؛ كما في **قوله تعالى**: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ [ص: ٨ ـ ١٠].

فبيَّن أن إنزالَ الذكرِ على النبيِّ ﷺ رحمةٌ ممَّن له خزائنُ كلِّ شيء، وهو العزيزُ الوهَّاب.

وقال في الزخرف: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣١ ـ ٣٢].

---

(١) أخرجه الطبري (١٤/ ١٠٩) من طريق الضَّحَّاك، وقال قتادة: «**يعني**: أهلَ التوراة، يقول: سلوهم: هل جاءهم إلا رجالٌ يوحى إليهم؟»؛ أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره (٣/ ٢٢) من طريق معمر، عن الكلبي، عنه، به. وانظر: معاني القرآن، للنحاس (٤/ ٦٨).

المَطْلَبُ الرَّابِعُ

التعنُّتُ ومحاولَةُ تعجيزِ الرُّسُلِ

وقَفَ المشركون مِنْ دعوةِ الأنبياء - صلى الله عليهم وسلم - موقفَ العناد، والتعجيزِ مِنَ اللحظةِ الأولى التي قاموا فيها بِدَعْوَتِهم إلى عبادةِ اللهِ تعالى وحده، وطرْحِ عبادةِ ما سواه.

ومِنْ مواقفهم التي سجَّلها القرآن: التعنُّتُ في المسألة، وترتيبُ إيمانِهِمْ على انصياعِ الأنبياءِ - صلى الله عليهم وسلم - لِمَا يطلبونه منهم!

فتارَةً يطلبون رؤيةَ اللهِ تعالى! وتارةً رؤيةَ الملائكة! وأخرى أن يكونَ رسولُهُمْ من الملائكة! ورابعةً: أن يريهم الرسولُ ﷺ بعضَ المعجزاتِ المحسوسة؛ كتفجيرِ الأرضِ ينابيعَ، أو تحويلِ الصفا ذَهَبًا! إلى غيرِ ذلك مِنَ الخوارقِ التي ما أرادوا بها سوى التعنُّتِ، وتضليل الآخرين.

وقد قَصَّ اللهُ تعالى علينا أنَّ مِنْ أسبابِ العقوباتِ التي نزَلَتْ ببني إسرائيل: تَعَنُّتَهُمْ في المسألة، وَطَلَبَهُمُ المعجزاتِ والخوارقَ، مع ما رَأَوْهُ من الآياتِ الباهرة، والمعجزاتِ الظاهرة؛ **فقال سبحانه**: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥].

وقال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣].

فكان في هذه الآيةِ تحذيرٌ لمن تعنَّت في قَبُولِ دعوةِ النبيِّ ﷺ،

واقتَرَحَ رؤيةَ المعجزاتِ والآيات، مع ما جاء به النبيُّ ﷺ من أعظم معجزةٍ على الإطلاق، وهو القرآنُ الكريم، ومع كثيرٍ مِنَ الآياتِ التي رَأَوْها، وشاهدوها[١].

وفي هذه الآيات تسليةٌ للنبيِّ ﷺ عما يراه مِنْ قومه، وأنَّ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرهطِ الكريمِ قد عَانَوْا من تعنُّتِ أقوامِهم، وتكذيبِهم، وجحودِهم.

فقولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥]؛ الخطابُ هنا لبني إسرائيلَ المعاصرينَ للنبيِّ ﷺ، ونُسِبَ القولُ لهم؛ لأنه قولُ أسلافهم، وهم السبعونَ رجلًا الذين اختارَهُمْ موسى عليه السلام لميقاتِ ربِّه[٢].

وقد أخبرَ السُّدِّيُّ: أن هذا حصَلَ لهم بعدَ أنْ عبَدُوا العجلَ الذي اتخذَهُ السَّامِرِيُّ لهم؛ فكتَبَ اللهُ عليهم: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]؛ فاجتلَدَ الذين عبدوه، والذين لم يَعْبُدُوا بالسيوفِ؛ فكان مَنْ قُتِلَ مِنَ الفريقَيْنِ شهيدًا، حتى كَثُرَ القتلُ، فكادوا أن يَهْلِكوا، حتى قُتِلَ منهم سبعون ألفًا، وحتى دعا موسى وهارون: ربَّنا! هلَكَتْ بنو إسرائيل، فأمَرَهُمْ أن يضعوا السلاح، وتاب عليهم، فكان مَنْ قُتِلَ منهم كان شهيدًا، ومَنْ بَقِيَ كان مكفَّرًا عنه؛ فذلك قولُهُ تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤]، ثم إنَّ اللهَ تعالى أمَرَ موسى أن يأتيه في ناسٍ مِنْ بني إسرائيلَ يعتذرونَ إليه من عبادةِ العجل، فوعَدَهُمْ مَوْعِدًا، واختار موسى قومَهُ سبعينَ رجلًا، ثم ذهَبَ ليعتذروا من عبادةِ العجل، فلمَّا أَتَوْا ذلك، قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾؛ فإنك قد كَلَّمْتَهُ، فأَرِنَاه! فأخذَتْهُمُ الصاعقةُ، فماتوا، فقام موسى يبكي، ويدعو اللهَ ويقولُ: ربِّ، ماذا أقولُ لبني إسرائيلَ إذا أتيتُهُمْ

---

(١) التفسير الكبير (٣/ ٧٨).
(٢) جامع البيان (١/ ٢٨٩).

وقد أهْلَكْتَ خيارَهم؟!: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

فأوحى اللهُ إلى موسى: أنَّ هؤلاءِ السبعينَ ممَّن اتخذوا العجلَ؛ فذلك حين يقولُ موسى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] الآية[1].

قال مجاهدٌ: «بعدَ أنْ خرَجَ موسى بالسبعينَ مِنْ قومِهِ يَدْعُونَ اللهَ ويسألونه: أنْ يكشفَ عنهم البلاءَ، فلم يَستجِبْ لهم، عَلِمَ موسى أنهم قد أصابوا مِنَ المعصيةِ ما أصابَ قومَهُمْ»[2].

وعن الفضل بنِ عيسى ابنِ أخي الرقاشي: «أنَّ بني إسرائيلَ قالوا ذاتَ يومٍ لموسى: ألستَ ابنَ عمِّنا ومِنَّا، وتزعُمُ أنك كَلَّمْتَ ربَّ العزة؛ فإنا لن نؤمنَ لك حتى نرى اللهَ جهرةً!

فلمَّا أن أَبَوْا إلا ذلك، أوحى اللهُ إلى موسى أنِ اختَرْ مِنْ قومكَ سبعين رجلًا، فاختارَ موسى مِنْ قومه سبعين رجلًا خِيرَةً، ثم قال لهم: اخرُجُوا، فلمَّا بَرَزُوا، جاءهم ما لا قِبَلَ لهم به، فأخذَتْهُمُ الرجفةُ، قالوا: يا موسى! رُدَّنا.

فقال لهم موسى: ليس لي مِنَ الأمرِ شيءٌ، سألتُمْ شيئًا فجاءكم؛ فماتوا جميعًا.

قيل: يا موسى، ارجِعْ، قال: رَبِّ إلى أينَ الرجعةُ[3]»؟

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري (١/ ٢٩٢) من طريق عمرو بن حماد، عن أسباط، عنه، به. **وانظر**: الدر المنثور (٥/ ٥٩٤).

(٢) أخرجه ابن جرير الطَّبَري في تفسيره (٩/ ٧٤)، قال: حدثني الحارث، قال: ثنا عبد العزيز، قال: ثنا أبو سعد، عنه، به.

(٣) أخرجه ابن جرير الطَّبَري في تفسيره (٣/ ٥٦٧).

قوله: ﴿جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة: ٥٥]؛ أي: علانيةً[١].

قال قتادة: «عوقبَ القومُ فأماتَهُمُ اللهُ عقوبةً، ثم بعثَهُمْ إلى بقيةِ آجالِهِمْ ليتوفَّوها»[٢].

وقد ردَّ اللهُ تعالى على طَلَبِهم لرؤيتِهِ مع رؤياهم لِمَا جاء به موسى من الآياتِ والبراهين، وبعدَ سماعِهِمْ لخطابِ اللهِ لموسى ﷺ، بإهلاكِهِمْ بالصاعقةِ، ثم إحيائهم.

ووجهُ بطلانِ ما طلبوه يتضحُ مِنْ خمسةِ أوجه:

أولـهـا: أنَّ تكذيبَ الرسلِ بعدَ دَلَالةِ المُعْجزات، ووضوحِ الحق، وعنادَهُمْ والتعنُّتَ عليهم، بطلبِ إنزالِ الملائكة، أو رؤيةِ الله ـ: استكبارٌ عن الحقِّ عظيم، وعتوٌّ كبير، يستحقُّ صاحبُهُ النكالَ والتقريع؛ ولذا شدَّد اللهُ النكيرَ على من تعنَّتَ ذلك التعنُّتَ، واستكْبَرَ عن قَبُولِ الحق[٣].

وثانيها: أنَّ رؤيةَ اللهِ تعالى لا تحصُلُ إلا في الآخرة؛ فكان طَلَبُها في الدنيا مستنكرًا.

وثالثها: أنَّ حكمَ اللهِ تعالى أن يزيلَ التكليفَ عن العبدِ حالَ ما يرى اللهَ؛ فكان طلَبُ الرؤيةِ طلبًا لإزالةِ التكليف.

ورابعها: لا يمتنعُ أن يَعْلَم اللهُ تعالى أنَّ في منعِ الخلقِ عن رؤيتِهِ سبحانه في الدنيا ضَرْبًا مِنَ المصلحةِ المهمَّة؛ فلذلك استنكَرَ طلَبَ الرؤيةِ في الدنيا؛ كما عَلِمَ أنَّ في إنزالِ الكتابِ من السماء، وإنزالِ الملائكةِ من السماءِ مفسدةً عظيمة؛ فلذلك استَنْكَرَ طلبَ ذلك.

---

(١) قاله ابن عباس؛ فيما رواه ابن جرير الطَّبَري في تفسيره (١/ ٢٨٩) من طريق ابن جريج.

(٢) عزاه في الدُّر المنثور (١/ ١٧٠) لابن جرير الطبري، ولم أره في تفسيره.

(٣) أضواء البيان (٦/ ٣٨).

وخامسها: أنَّ الأمرَ لله؛ **قال تعالى**: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [غافر: ٧٨].

«**وتقريرُهُ**: أنَّ المعجزةَ الواحدةَ كافيةٌ في إزالةِ العذرِ والعِلَّة، وفي إظهارِ الحجةِ والبينة، فأمَّا الزائدُ عليها، فهو مفوَّضٌ إلى مشيئةِ الله تعالى: إنْ شاء أظهَرَهَا، وإنْ شاء لم يُظْهِرْها؛ ولا اعتراضَ لأحدٍ عليه في ذلك»[١].

(١) التفسير الكبير (١٩/ ٥٠).

المَطْلَبُ الْخَامِسُ

ايذاءُ الأنبياءِ عليهم السلام

• أولًا: ايذاءُ اليهودِ لنبيِّ اللهِ موسى ﷺ:

أخبَرَ اللهُ ﷻ عن أذيَّةِ اليهودِ لموسى عليه السلام؛ فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقد بيَّنت السُّنَّةُ هذا الايذاءَ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: (إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سَتِّيرًا، لا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ، فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالُوا: مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسَتُّرَ، إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ: إِمَّا بَرَصٌ، وَإِمَّا أُدْرَةٌ، وَإِمَّا آفَةٌ) .

وَإِنَّ اللهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى، فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ، فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الحَجَرِ، ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ، أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ، وَطَلَبَ الحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرُ، ثَوْبِي حَجَرُ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللهُ، وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ، وَقَامَ الحَجَرُ، فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ، وَطَفِقَ بِالحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ؛ فَوَاللهِ إِنَّ بِالحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ، ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا؛ فذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟

مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩](١).

• ثانيًا: إيذاءُ المنافقينَ للنبيِّ ﷺ:

أخبَرَ القرآنُ العظيمُ في أكثَرَ من موطنٍ عن أذيَّةِ المنافقينَ لرسولِ اللهِ ﷺ وتَجرُّئِهِمْ على ذلك؛ لِكُفْرِهم، ومَكْرِهم، وسوءِ اعتقادِهِمْ بربِّهم.

ومِنَ المقولاتِ التي ذَكَرها القرآنُ العظيمُ عنهم:

الآية الأولى

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: «يعني: أنه يَسْمَعُ مِنْ كلِّ أحد»(٢).

«وغَرَضُهم منه: أنه ليس له ذَكَاءٌ ولا بعدُ غَوْرٍ، بل هو سليمُ القلبِ سريعُ الاغترارِ بكلِّ ما يَسْمَع؛ فلهذا السببِ سَمَّوْهُ بأنه أذن»(٣).

قال السُّدِّيُّ: «اجتمَعَ ناسٌ من المنافقين فيهم جَلَّاسُ بنُ سُوَيْد بن

---

(١) أخرجه الشيخان: البخاري، كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، رقم (٣٢٢٣)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى عليه السلام رقم (٢٣٧١).

قال ابن عباس: عابوه بأنه آدَرُ؛ أخرجه الطبري (٢٢/ ٥١) من طريق سعيد بن جبير، وعبد الله بن الحارث، وقاله قتادة، والحسن؛ فيما أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ١٢٤) من طريق معمر، عنهما، به.

(٢) أخرجه ابن جرير الطَّبَري (١٠/ ١٦٨) عن ابن عباس، به، وعلقه البخاري في صحيحه، ولفظه: «أُذُنٌ يُصدِّق»؛ صحيح البخاري مع الفتح (٨/ ٢١٦)؛ وهو قول مجاهد، وعطاء، وقتادة، وغيرهم من المفسِّرين. انظر: الدُّر المنثور (٤/ ٢٢٨).

(٣) التفسير الكبير (١٦/ ٩٣).

صامت، وجَحْشُ بنُ حِمْيَر، ووديعةُ بنُ ثابت، فأرادوا أن يَقَعُوا في النبي ﷺ، فنهى بعضُهم بعضًا، وقالوا: إنا نخافُ أن يبلُغَ محمدًا، فَيَقَع بكم، وقال بعضُهم: إنما محمَّدٌ أُذُنٌ نَحْلِفُ له فيصدِّقُنا؛ فنزَلَ: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ الآية [التوبة: ٦١][1]».

والأُذُنُ: هو الرجلُ الذي يصدِّقُ كلَّ ما يَسْمَعُ، ويَقْبَلُ قولَ كلِّ أحد، سُمِّيَ بالجارحةِ التي هي آلةُ السماعِ؛ كأنَّ جملتَهُ أُذُنٌ، وأصلُهُ من: أَذِنَ، يَأْذَنُ: إذا استَمَعَ له[2].

وقد اختلَفَتِ القراءةُ في هذه الكلمة[3]:

فقرَأَ عامَّةُ القراء: ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ [التوبة: ٦١] بالإضافةِ؛ **أي**: هو **أُذُنُ** خيرٍ، لا أذنُ شَرٍّ.

وقرأ عاصمٌ - في رواية الأعمش، وعبد الرحمٰن، عن أبي عكرمة، عنه -: «أُذُنٌ خَيْرٌ» مرفوعَيْن منونَيْنِ؛ على تقدير: فمَنْ يستمعُ منكم، ويكونُ قريبًا منكم، قابلًا للعُذْرِ؛ خيرٌ لكم.

وقرأ نافع: «أُذْن» ساكنةَ الذال[4].

وقد أبطَلَ القرآنُ العظيمُ غَمْزَ المنافقينَ لرسولِ اللهِ ﷺ بأنه أُذُنٌ بطريقين:

أولهما: عَكْسُ الدليلِ عليهم؛ وهو المسمَّى بـ«القولِ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/١٨٢٦).

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري (١٠/١٦٨)، الكشاف، للزمخشري (٢/٢٧١)، التفسير الكبير (١٦/٩٢ - ٩٥).

(٣) انظر: السبعة في القراءات، لابن مجاهد (١/٣١٥)، حجة القراءات، لابن زنجلة (١/٣١٩).

(٤) قال ابن زنجلة: «كأنه استثقَلَ ثلاثَ ضمَّات، فسكَّن، وقرأ الباقون: بضم الذال على أصل الكلمة». حجة القراءات (١/٣١٩).

بالمُوجَبِ»[١]، فأوجَبَ له مِنْ قَدْحِهم خيريَّةَ الصفةِ التي يقدحونَ فيها: وهو أنه أُذُن؛ ولكنْ نِعْمَ الأُذُنُ، ويجوزُ أن يريدَ: هو أُذُنٌ في الخيرِ والحقِّ، وفيما يجبُ سماعُهُ وقَبُولُهُ، وليس بأذنٍ في غير ذلك، وهذا من غايةِ المدحِ؛ فإنَّ العاليةَ تتأثَّر بما يناسبها؛ أي: أنه عليه الصلاة والسلام يسمعُ ما ينفعكم، وما فيه صلاحُكُمْ دون غيره.

وفي الآياتِ تعريضٌ بأنَّ المنافقينَ أُذُنُ شَرٍّ، يسمعونَ آياتِ اللهِ تعالى، ولا ينتفعون بها، ويسمعونَ قولَ المؤمنينَ ولا يقبلونه.

فما أحسَنَهَا مِنْ مقابلةٍ بين الفريقين!

ثم قال: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ [التوبة: ٦١]: ففسَّر كونَهُ أُذُنَ خَيْرٍ: بأنه يصدِّقُ بالله، ويَقْبَلُ من المؤمنين أعذارَهُمْ، وهو رحمةٌ له؛ فلا يكشفُ أسرارَهُمْ، ولا يَفضَحَهُم؛ «فسلَّم لهم قولَهُمْ فيه؛ إلا أنه فسَّرهُ بما هو مدحٌ له وثناءٌ عليه، وإن كانوا قَصَدُوا به المَذَمَّةَ والتقصيرَ بفطنتِهِ وشهامتِهِ، وأنه مِنْ أهلِ سلامةِ القلوبِ والغِرَّة».

الثاني: توعُّدُ مَنْ يؤذي رسولَ اللهِ ﷺ بالعذابِ الأليم؛ **فقال:** ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١]؛ وهذا على سبيلِ المقابلةِ؛ «لأنه إذا كان يسعى في إيصالِ الخيرِ والرحمةِ إليهم، مع كونهم في غايةِ الخُبْثِ والخزي، ثم إنهم بعدَ ذلكَ يُقابِلونَ إحسانَهُ بالإساءةِ، وخيراتِهِ بالشرور؛ فلا شكَّ أنهم يستحقُّون العذابَ الشديدَ من الله تعالى»[٢].

---

(١) الكشاف، للزمخشري (٢/ ٢٧١)، وقال: «ودل عليه قراءة حمزة: ﴿وَرَحْمَةٍ﴾ بالجر عطفًا عليه؛ أي: هو أُذُنُ خيرٍ ورحمةٍ لا يسمعُ غيرهما ولا يقبله». **انظر:** السبعة في القراءات، لابن مجاهد (١/ ٣١٥)، حجة القراءات، لابن زنجلة (١/ ٣١٩)، وقد سبق في الباب التأصيلي التعريف بهذا المصطلح. **انظر:** (ص٩٤) من البحث.

(٢) التفسير الكبير (١٦/ ٩٣)، تفسير النسفي (٢/ ٩٥)، روح المعاني، للآلوسي (١٠/ ١٢٧).

الآية الثانية

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

وقد سبَقَ الحديثُ عن هذه الآية، وعن قائليها، والغَرَضُ هنا بيانُ ما في كلمتهم هذه مِنْ أذيَّةٍ لرسولِ الله ﷺ، وسوءِ ظنٍّ به[١].

فقولهم: «لو كان محمَّدٌ نبيًّا، لَعَلِمَ ما نقولُ»[٢] **فيه إيذاءٌ للنبيِّ ﷺ من جهتين:**

أولهما: مِنْ نفسِ الكلمة؛ فإنَّها دعاءٌ عليه بالموتِ والهلاك.

ثانيهما: مِنْ جهةِ اعتقادِهِمْ كَذِبهُ ـ حاشاه من ذلك! ـ وأنه لو كان نبيًّا حقًّا، لَعَلِمَ بالأمرِ.

وقد توعَّدهم اللهُ جَرَّاءَ سوءِ ظنِّهم بربِّهم، وسوءِ صنيعهم بأنْ توعَّدهم جهنمَ؛ هي حَسْبُهم، وبئس المأوى والمصير.

---

(١) **يُنظر** (ص١٧٥).

(٢) **يُنظر** (ص١٧٦) من البحث.

المَطْلَبُ السَّادِسُ

الطعنُ في نيَّةِ النبيِّ ﷺ

لم يترُكِ المشركونَ طريقةً للطعنِ في النبيِّ ﷺ إلا سَلَكُوها، ومِنْ تلك الطرق:

اتهامُ النبيِّ ﷺ بأنه يريدُ مُلْكًا، أو حظًّا دنيويًّا مِنْ دعوته!

وقد ذكَرَ القرآنُ العظيمُ مَقُولَتَهُمْ تلك في موضعَيْنِ:

الموضع الأول

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٧، ٥٨](١).

قال بعضُ المفسِّرين(٢): إنَّ كفارَ قريشٍ لمَّا سمعوا النبيَّ ﷺ يذكُرُ عيسى، وسمعوا **قولَ اللهِ تعالى:** ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩].

قالوا للنبيِّ ﷺ: ما تريدُ بذكرِ عيسى إلا أنْ نَعْبُدَكَ كما عَبَدَ النصارى عيسى.

وعلى هذا، فالمعنى أنهم ضرَبُوا عيسى مثلًا للنبيِّ ﷺ في عبادةِ الناسِ لكلٍّ منهما، زاعمينَ أنه يريدُ أن يُعْبَدَ كما عُبِدَ عيسى.

وعلى هذا القولِ: فمعنى **قوله:** ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾؛ أي:

---

(١) سبق الكلام على هذه الآية بالتفصيل. انظر: (ص٢٥٧).

(٢) **انظر:** الكشاف (٤/ ٢٦٣)، التفسير الكبير (٢٧/ ١٩٠)، أضواء البيان (٧/ ١٢٥).

ما ضربوا لك هذا المَثَلَ إلا لأجلِ الخصومةِ بالباطلِ، مع أنهم يعلمون أنَّك لا ترضى أنْ تُعْبَدَ بوجهٍ من الوجوه.

وقد أبطَلَ القرآنُ العظيمُ هذه التهمةَ مِنْ أربعة وجوه:

الوجه الأول: وصفُ القرآنِ لِفِعْلِهم بأنه كان لمجرَّدِ الجدل، وليس لِطَلَبِ الحق، أو لفهمِ الكلام، والجَدَلُ إذا لم يكنْ لطلبِ الحقِّ، كان من الجدلِ المذمومِ المنهيِّ عنه.

الوجه الثاني: وصفُ القرآنِ لهم بأنَّهم أصحابُ مُخاصَمةٍ، لا أصحابُ اهتداءٍ ولا تعلُّم.

الوجه الثالث: بيانُ حقيقةِ عيسى بن مريم، وأنه عبدٌ لله تعالى، فهو لم يَدْعُ أصلًا لعبادتِهِ؛ كما أنَّ النبيَّ ﷺ لم يَدْعُ يومًا لعبادته.

الوجه الرابع: أمرُ النبيِّ ﷺ بالدعوةِ إلى التوحيدِ الخالص، ودعوتُهُ لذلك، وهذا جاء في سياق الآيات؛ **قال تعالى:** ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

والقرآنُ مليءٌ في تقريرِ هذا الأصلِ، فأغنى عن بيانه.

«ولا شكَّ أن كفارَ قريشٍ متيقِّنون في جميع المدَّة التي أقامها ﷺ في مكةَ قبلَ الهجرةِ بعدَ الرسالة، وهي ثلاثَ عَشْرَةَ سنةً: أنه لا يدعو إلا إلى عبادةِ اللهِ وحده لا شريكَ له، فادعاؤُهُمْ أنه يريدُ أن يعبدوه افتراءٌ منهم، وهم يعلمون أنهم مفترون في ذلك»[١].

الموضع الثاني

قوله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦].

---

(١) أضواء البيان (٧/ ١٢٥).

فتواصَوْا بالصبرِ على عبادةِ أصنامهم، وقَدَحُوا في دعوةِ النبيِّ ﷺ؛ إذْ زعموا أن ما يدعو له شيءٌ يرادُ للتوصُّلِ إلى مَلْكٍ أو غِنًى![1]

قال ابنُ جرير: «أي: إنَّ هذا القولَ الذي يقولُ محمد، ويدعونا إليه مِنْ قول: «لا إلٰه إلا الله» شيءٌ يريدُهُ منا محمَّد، يطلُبُ به الاستعلاءَ علينا، وأن نكونَ له فيه أتباعًا، ولسنا مجيبيه إلى ذلك».

«وهذه شبهةٌ لا تروجُ إلا على السُّفهاء؛ فإنَّ مَنْ دعا إلى قولِ حق، أو غيرِ حق، لا يُرَدُّ قولُهُ بالقدحِ في نيته، فنيَّتُهُ وعملُهُ له، وإنما يُرَدُّ بمقابلته بما يُبْطِلُهُ ويُفْسِدُهُ من الحججِ والبراهين، وهم قَصْدُهم أنَّ محمدًا ما دعاكم إلى ما دعاكم إلا لِيَرْأَسَ فيكم، ويكونَ معظَّمًا عندكم ومتبوعًا»[2].

وقد أبطَلَ القرآنُ العظيمُ مقالتَهُمْ هذه:

الوجه الأول: تهديدُهُمْ بعذابِ الآخرة، ومصيرِ الأممِ المكذِّبةِ قبلهم؛ قال تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۚ بَل لَّمَّا

---

(١) ذكر الزمخشري في الكشاف (٤/ ٧٥) ثلاثة أوجه في تفسير قوله تعالى: ﴿لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]:
«إن هذا الأمر لشيء يراد؛ أي: يريدُهُ الله تعالى ويَحْكُمُ بإمضائه، وما أراد اللهُ كونَهُ فلا مَرَدَّ له، ولا ينفعُ فيه إلا الصبر، أو:
إن هذا الأمر لشيءٌ من نوائب الدهر يرادُ بنا؛ فلا انفكاكَ لنا منه، أو:
إن دينكم لشيءٌ يُراد؛ أي: يُطْلَبُ ليؤخذَ منكم وتُغْلَبُوا عليه، و(أنْ) بمعنى: (أيْ)؛ لأن المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما جرى لهم؛ فكان انطلاقُهم مضمَّنًا معنى القول، ويجوز أن يراد بالانطلاق الاندفاعُ في القول، وأنهم قالوا: امشوا؛ أي: اكْثُرُوا واجْتَمِعوا؛ من مَشَتِ المرأةُ: إذا كَثُرَتْ ولادتها؛ ومنه الماشية للتفاؤل؛ كما قيل لها: الفاشية». يُنظر: جامع البيان (٢٢/ ١٢٦)، المحرر الوجيز (٤/ ٤٩٤)، تفسير البيضاوي (٥/ ٣٧)، تفسير القرطبي (١٥/ ١٥١)، تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن (ص٧١٠).

يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص: ٨]، ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٤ ـ ١٥].

الوجه الثاني: بيانُ كَذِبِهم وافترائِهِمْ على النبيِّ ﷺ؛ حيثُ كان يُخْبِرُهُمْ بمهمَّته، وغايةِ دعوته؛ **كما قال سبحانه في آخر هذه السورة**: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥]، ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

المَطلَبُ السَّابِعُ

ادعاءُ المشركينَ أنَّ آلهتَهُمْ أفضلُ مِنْ عيسى بنِ مريم

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٧، ٥٨].

وذلك أنَّ الكفارَ لمَّا سمعوا أنَّ النصارى يَعْبُدونَ عيسى، قالوا: إذا عَبَدُوا عيسى، فآلهتُنَا خيرٌ من عيسى، وإنما قالوا ذلك؛ لأنهم كانوا يَعْبُدُونَ الملائكة(١).

قال بعضُ العلماء: ومرادُهُمْ بالاستفهامِ تفضيلُ معبوداتهم على عيسى، قيل: لأنهم يتخذون الملائكةَ آلهةً، والملائكةُ أفضلُ عندهم من عيسى؛ وعلى هذا: فمرادُهم أنَّ عيسى عُبِدَ مِنْ دونِ اللهِ، ولم يكنْ ذلك سببًا لكونِهِ في النار، ومعبوداتُنَا خير من عيسى؛ فكيفَ تزعُمُ أنهم في النار(٢)؟

وطريقةُ القرآنِ في إبطالِ قولهم هذا تَظْهَرُ من وجوه:

الوجه الأول: إثباتُ استحقاقِ اللهِ تعالى للعبادة دُونَ غيرِهِ من المخلوقين؛ وهذا أشهرُ مِنْ أن يستدلَّ عليه، ومِنَ الآياتِ الدالَّةِ على ذلك في نفس السورة: قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) سبق بيان التأويلات الواردة في الآية في مبحث: ادعاء التناقض في القرآن (ص٢٥٧).

(٢) أضواء البيان (٧/ ١٢٥).

هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦٤]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

كما احتجَّ عليهم بتوحيد الربوبية الذين يؤمنون به؛ **فقال**: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].

الوجه الثاني: إبطالُ زَعْمِهم أن الملائكةَ بناتُ الله؛ وهذا أشار له القرآن في نفس السورة؛ **قال تعالى**: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ١٥ ـ ٢٠].

الوجه الثالث: تقريرُ أنَّ الملائكةَ عبادٌ للهِ تعالى كذلك؛ **قال الله تعالى**: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨].

فإذا تقرَّر أن عيسى عبدٌ للهِ تعالى؛ والملائكةُ عبيدُ اللهِ كذلك، والله تعالى أمَرَ بعبادتِهِ دُونَ ما سواه؛ بطَلَتْ بكلِّ هذه المقدِّماتِ حجتُهُمْ، فلا يستحقُّ أحدٌ أن يُعْبَدَ سوى اللهِ تعالى.

الوجه الرابع: أنه ليس للملائكةِ مَيْزَةٌ عن عيسى بنِ مريم تخوِّلهم لأن يُعْبَدُوا من دون الله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

المَطْلَبُ الثَّامِنُ

عِصْيانُ أَمْرِ الرُّسُلِ

أسيادُ هذا المطلبِ هم اليهودُ؛ فقد كانوا آيةً في عصيانِ الرسلِ وتَكْذِيبِهِمْ، بل وتَقْتِيلِهم!

وقد ذَكَرَ اللهُ تعالى عنهم عصيانَ الامتثالِ لأمرِ اللهِ تعالى بأن يقولوا: حِطَّةٌ، **قال تعالى**: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨، ٥٩].

وقال في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٦١].

وحِطَّةٌ: فِعْلَةٌ من الحَطِّ، بمعنى الوضع مِنْ قول القائل: حَطَّ اللهُ عنك خطاياك، فهو يَحُطُّها حِطَّةً، بمنزلةِ الرِّدَّةِ، والحِدَّةِ، والمِدَّةِ، من حَدَدتُ، ومَدَدتُ؛ **أي**: دعاؤنا ومسألتنا لك: حِطَّةٌ لذنوبنا؛ **أي**: حَطٌّ، ووَضْعٌ لها عنا، فهي بمعنى طلب المغفرة، ورُفِعَتْ لأنها خبَرُ مبتدأٍ محذوف(١).

قال عكرمة: «أي: احطُطْ عنا ذنوبَنَا»(٢).

---

(١) **انظر**: لسان العرب (حطط) (٧/ ٢٧٣)، جامع البيان (١/ ٣٠٠)، أضواء البيان (٧/ ٢٧٨).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٢٧٨).

والبابُ المقصودُ بابٌ في بيتِ المقدسِ، على قولِ ابنِ عباس رضي الله عنهما[(١)].

وقد كان بابُ القريةِ بابًا ضيقًا[(٢)]، لا يمكنُ لأحدٍ دخولُهُ حتى يركع.

فمَنَّ اللهُ تعالى عليهم بأنْ أمَرَهم بدخولِ بيتِ المقدس، وأنْ يأكلوا من طيباتِ ما فيه ما شاءَ اللهُ لهم، وأن يتمتَّعوا بما فيه مِنَ الرَّغَد، شاكرينَ لربِّهم، راكعينَ له، منيبينَ له، وأخبَرَ أنَّ مَنِ امتثَلَ أمرَهُ هذا، فسيُغْفَرُ له ذنبه، وتُحَطُّ عنه خطيئته.

فقابَلوا هذه النعمَ والمِنَنَ بأن عَصَوْا أمرَ الله، وعَصَوا أمرَ رسولِهِ عليه السلام! وحرَّفوا الكلمَ عن مواضعه، واستَكْبَرُوا أن يدخلوا البابَ رُكَّعًا، بل زَحَفُوا للوراءِ حالَ دخولهم؛ وهذا لِشِدَّةِ جَهْلِهم وغَيِّهم ـ نعوذُ بالله من ذلك ـ.

قال ابنُ مسعود رضي الله عنه: «قيل لهم: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ [البقرة: ٥٨]، فدخلوا مُقْنِعِي رؤوسِهِم، ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ [الأعراف: ١٦١]، فقالوا: حِنْطَةٌ، حبةٌ حمراءُ فيها شعيرة،؛ فذلك قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأعراف: ١٦٢]»[(٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (**قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ**: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ [البقرة: ٥٨] **فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ**

---

(١) أخرجه ابن جرير؛ وبه قال مجاهد. انظر: تفسير ابن جرير (١/ ٢٩٩). وقال قتادة: «القريةُ هي أرض بيت المقدس»؛ أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ٤٦) من طريق معمر، عنه، به، ومن طريقه الطبري في تفسيره (١/ ٢٩٩)، وأخرجه الطبري عن عدد من المفسِّرين. وقيل: إن هذا الباب الذي أُمِرُوا بالدخولِ منه اسمه بابُ حِطَّة، فأمروا بالدخولِ منه؛ فإن «مَنْ كان خاطئًا، غُفِرَتْ له خطيئته، ومن كان محسنًا، زاده الله»؛ وهذا قول قتادة؛ أخرجه عنه عبد بن حميد؛ كما في الدر المنثور (١/ ١٧٣).

(٢) قاله ابن عباس؛ أخرجه عنه ابن جرير (١/ ٣٠٠)، والحاكم، رقم (٣٠٤٠)، وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يُخرِّجاه».

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٩٦)؛ وهو قول قتادة، والحسن البصري؛ كما في تفسير عبد الرزاق (١/ ٤٧).

عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ)(١).

وقد عاقَبَهم اللهُ تعالى على عِصْيانِ أمره، وتحريفِ الكلمِ عن مواضعه بما أخبَر؛ **فقال:** ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩].

والرِّجْزُ في لغة العرب: العَذَابُ(٢).

وفسَّره أبو العالية: بالغَضَب(٣).

قال الشعبيُّ: «الرِّجْزُ: إمَّا الطاعون، وإما البرد»(٤).

وفسَّره ابن زيد بأنه: «بعَثَ اللهُ جل وعز عليهم الطاعونَ، فلم يُبْقِ منهم أحدًا، وبَقِيَ الأبناءُ، ففيهم الفضلُ والعبادةُ التي توصفُ في بني إسرائيلَ والخير، وهلَكَ الآباءُ كلُّهم، أهلكهم الطاعون»(٥).

قال الطبريُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وقد دَلَّلْنَا على أنَّ تأويلَ الرجزِ العذابُ، وعذابُ اللهِ جل ثناؤه أصنافٌ مختلفة، وقد أخبَرَ اللهُ جل ثناؤه أنه أنزَلَ على الذين وَصَفْنا أمرَهُمُ الرجزَ مِنَ السماء، وجائزٌ أن يكونَ ذلك طاعونًا، وجائزٌ أن يكونَ غيرَهُ، ولا دَلَالةَ في ظاهرِ القرآن، ولا في أثرٍ عن الرسولِ ثابتٍ أيُّ أصنافِ ذلك كان، فالصوابُ من القولِ في ذلك: أنْ يقالَ: كما **قال الله** عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في باب: حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، رقم (٣٢٢٢)، ومسلم في أول كتاب التفسير، رقم (٣٠١٥).

(٢) **انظر:** لسان العرب (رجز) (٥/٣٤٩)، مختار الصحاح (ص٩٩).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ١٢٠) من طريق عصام بن رواد، ثنا آدم، ثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عنه، به.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ١٢٠) من طريق علي بن الحسين، ثنا عمرو بن إسماعيل بن مجالد، ثنا أبي، عن مجالد.

(٥) أخرجه الطبري (١/ ٣٠٥) من طريق ابن وهب، عنه، به.

بفسقهم، غيرَ أنه يَغْلِبُ على النفسِ صحةُ ما قاله ابنُ زَيْد؛ للخبرِ الذي ذكَرْتُ عن رسولِ الله ﷺ في إخبارِهِ عن الطاعون: (**أَنَّهُ رِجْزٌ، وَأَنَّهُ عُذِّبَ بِهِ قَوْمٌ قَبْلَنَا**)[١]، وإنْ كنتُ لا أقولُ: إنَّ ذلك كذلك يقينًا؛ لأنَّ الخبَرَ عن رسولِ اللهِ ﷺ لا بيانَ فيه: أيُّ أمةٍ عُذِّبَتْ بذلك، وقد يجوزُ أنْ يكونَ الذين عذِّبوا به كانوا غيرَ الذين وصَفَ اللهُ صفتَهُمْ في قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩]»[٢].

وقد ذكر كثيرٌ من المفسِّرين: **أنَّ قولَ الله تعالى**: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

كان بسببِ عِصْيانِهِمْ أمرَ اللهِ بالدخولِ لبيتِ المقدس، وقولِهم: حِطَّةٌ، فقال مجاهدٌ رَحِمَهُ اللهُ:

«أمَرَ موسى قومَهُ أنْ يدخلوا البابَ سُجَّدًا، ويقولوا: حِطَّةٌ، وَطُئْطِئَ لهم البابُ ليسجدوا فلم يَسْجُدوا، ودخَلُوا على أدبارهم، وقالوا: حِنْطة، فنتَقَ فوقهم الجبلَ، يقولُ: أخرَجَ أصلَ الجبلِ مِنَ الأرضِ فَرفَعَهُ فوقهم؛ كالظُّلَّةِ، والطُّورُ - بالسُّرْيانية -: الجبَلُ، تخويفًا؛ فدخَلُوا سجدًا على خوفٍ، وأعيُنُهُمْ إلى الجبل، وهو الجبَلُ الذي تجلَّى له ربُّه»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها، رقم (٢٢١٨) من حديث أسامة بن زيد، قال رسول الله ﷺ: (**الطَّاعُونُ رِجْزٌ أَوْ عَذَابٌ أُرْسِلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ، فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا، فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ**). وقَالَ أَبُو النَّضْرِ: «**لَا يُخْرِجُكُمْ إِلَّا فِرَارٌ مِنْهُ**».

(٢) جامع البيان (١/٣٠٦).

(٣) أخرجه الطبري من طريق عيسى - بن بن أبي نجيح، عنه، به. **انظر**: جامع البيان (١/ ٣٢٥)؛ وهو قول السُّدي، ومُحْتَمَلُ قول قتادة، وأبي العالية. وتفسيرُ: ﴿نَتَقْنَا﴾: رَفَعْنا، هو تفسيرُ ابن عباس؛ أخرجه عنه البخاري في صحيحه مُعَلَّقًا، كتاب التفسير، =

الآية الثانية

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣].

هذه الآيةُ تذكُرُ مقولةً من مقولاتِ السُّوءِ التي اشتهَرَ بها اليهودُ، وهي تبيِّن ما جُبِلَ عليه هؤلاءِ من اللؤمِ، والعنادِ، وشدةِ الكفر ـ نعوذُ بالله من ذلك ـ!

فذكَرَ اللهُ تعالى بهذه الآيةِ اليهودَ المعاصرينَ للنبيِّ ﷺ بفعلِ أسلافهم، وكيفَ أنَّ الله تعالى أخَذَ ميثاقَهم، وزاد على ذلك أنْ رفَعَ الجبلَ فوقَ رؤوسهم؛ تهديدًا ووعيدًا لهم، ومع ذلك قابَلُوا الأمرَ بعدمِ الطاعةِ والعصيان!

وقد بيَّن القرآنُ سببَ ذلك: وأنه لِمَا امتَلأَتْ به قلوبُهم من الإشراكِ بالله؛ **فقال**: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ﴾.

أي: وأُشْرِبُوا في قلوبهم حُبَّ العجلِ الذي عكَفُوا عليه في غِيَابِ موسى عنهم، فبقيتْ مَحَبَّتُهُ عالقةً في قلوبهم حتى بَعْدَ نسفِ موسى له.

قال قتادةُ: «أُشْرِبُوا حبَّه، حتى خَلُصَ ذلك إلى قلوبهم»[(١)].

وذهَبَ بعضُ أهل التفسير: إلى أنَّ المرادَ بالآية: أنهم شَرِبُوا سُحَالةَ العِجْلِ، أو الماءَ الذي اختَلَطَ به، فَبقِيَ في نفوسهم.

= باب: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، رقم (٢٧)، ووصله ابن أبي حاتم (٥/ ١٦١٠) من طريق علي بن أبي طلحة، عنه، به؛ وهذا مما يؤيد اعتماد البخاري رَحِمَهُ اللهُ على صحيفة علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه الطبري (١/ ٤٢٤)، وابن أبي حاتم (١/ ١٧٦)؛ كلاهما من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عنه، به؛ وهو قول أبي العالية، والربيع بن أنس.

قال علي بن أبي طالب: «عَمَدَ موسى الى العِجْل، فوضَعَ عليه المَبَارِدَ، فبَرَدَهُ بها، وهو على شاطئ نهر؛ فما شَرِبَ أحدٌ من ذلك الماءِ ممَّن كان يعبُدُ العجلَ، إلا اصفرَّ وجهُهُ مثلَ الذهب»(١).

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأَوْلَى التأويلين... تأويلُ من قال: وأُشْرِبوا في قلوبهم حُبَّ العجل؛ لأنَّ الماءَ لا يقالُ منه: أُشْرِبَ فلانٌ في قلبه، وإنما يقال ذلك في حُبِّ الشيء، فيقالُ منه: أُشْرِبَ قلبُ فلانٍ حُبَّ كذا، بمعنى: سُقِيَ ذلك، حتى غلَبَ عليه، وخالط قلبَهُ؛ **كما قال زهير**:

فَصَحَوْتُ عَنْهَا بَعْدَ حُبٍّ دَاخِلٍ وَالحُبُّ يُشْرَبُهُ فُؤَادُكَ دَاءَ

قال: ولكنَّه ترَكَ ذكرَ الحُبِّ، اكتفاءً بفهم السامعِ لمعنى الكلامِ؛ إذ كان معلومًا أنَّ العجلَ لا يُشْرَبُ القلبَ، وأَن الذي يَشْرَبُ القلبَ منه حبُّه»(٢).

فكان الردُّ الإلهيُّ على كُفْرِهم وعصيانهم: أنْ سفَّه ما هم عليه، وذَمَّ ما هم متَّبعوه؛ **فقال**: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣].

وهذا من أبلغِ التكذيبِ لهم! فهم يزعمون أنَّهم مُتَّبِعُونَ للتوراةِ،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ١٧٦) من طريق أبي عبد الرحمٰن السُّلمي، ونحوه عن السدي، وسعيد بن جبير، وابن جُرَيْج. انظر: تفسير الطبري (١/ ٤٢٣)، تفسير ابن أبي حاتم.

(٢) تفسير الطبري (١/ ٤٢٣). وانظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (١/ ١٨٠)، التفسير الكبير، للرازي (٣/ ١٧١)، والبيت في ديوانه (ص٣٣٩)، قال شاكر في تعليقه: «وهو هناك «تُشْرِبُهُ» بضم التاء وسكون الشين وكسر الراء ونصب «فؤادَكَ»، وشرحه فيه دليل على ذلك؛ فإنه قال: «تدخله»، وقال: «تشربه»: تلزمه، ولكن استدلال الطبري، كما ترى يدل على ضبطه مبنيًّا للمجهول، ورفع «فؤادك». وحُبٌّ داخلٌ، وداءٌ داخلٌ: قد خالطَ الجوفَ، فأدخَلَ الفسادَ على العقلِ والبدن».

فقال مَنْ أوحى التوراةَ لهم: بئسما تأمُرُكُمْ به التوراةُ إنْ كانتْ تأمُرُكُمْ بما تفعلون!

قال الطبريُّ رَحِمَهُ اللهُ: «كذَّبهم اللهُ بذلك؛ لأنَّ التوراةَ تنهى عن ذلك كلِّه، وتأمُرُ بخلافه، فأخبَرَهُمْ أنَّ تصديقَهُمْ بالتوراةِ إنْ كان يأمُرُهُمْ بذلك؛ فبئسَ الأمرُ تأمُرُ به، وإنَّما ذلك نفيٌ من اللهِ تعالى ذكرُه عن التوراةِ أنْ تكونَ تأمُرُ بشيءٍ مما يكرهُهُ اللهُ من أفعالهم، وأنْ يكونَ التصديقُ بها يدُلُّ على شيءٍ من مخالفةِ أمرِ الله، وإعلامٌ منه جل ثناؤه أنَّ الذي يأمرهم بذلك أهواؤهم، والذي يَحْمِلُهُمْ عليه البغيُ والعدوان»(١).

فقولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣] يراد به التشكيكُ في إيمانِهِمْ، والقدحُ في صِحَّةِ دعواهم(٢).

الآية الثالثة

قوله تعالى عنهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢١ ـ ٢٦].

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٢٤).

(٢) انظر: التفسير الكبير، للرازي (٣/ ١٧١).

هذا طرَفٌ في قصةِ موسى عليه السلام مع بني إسرائيلَ لمَّا استحثَّهم على الجهادِ والقتالِ لاستعادةِ بيتِ المقدس[١] ممَّن استولى عليه بعدَ خروجِ يعقوبَ عليه السلام وبنيه إلى مِصْرَ لمَّا وفَدُوا على يُوسُفَ عليه السلام[٢].

فتلطَّف معهم موسى غايةَ التلطُّف، حيثُ استحثَّهم بالدخولِ على أعدائهم، وذكَّرهم بِنَعمِ الله عليهم، الدينيَّةِ والدنيويَّة، وبِوَعْدِهم بأنَّ الله تعالى قد كتَبَ لهم هذه الأرضَ، وخصَّهم بها، وأنهم منصورون على عدوِّهم، وحذَّرهم من التولِّي والإدبارِ عن القتال.

فتذرَّعوا ـ كما أخبَرَ الله تعالى عنهم ـ بأن فيها قومًا جبَّارين؛ **أي**: عظيمي الأجسادِ والبنية[٣]، فَعَصُوا الأمرَ بالدخول، وأكَّدوا ذلك بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢]، فتصدَّرت ـ الجملةُ بحرف ـ التأكيد «إنَّ»، مع تحقيقِ النفي بـ«لَن» الدالَّةِ على نفي المستقبل؛ **أي**: لا ندخُلُها الآنَ، ولا في المستقبلِ، ثم علَّقوا دخولَها بشرطِ خروجِ الجبَّارين منها[٤].

---

(١) اختلف علماء السلف في تحديدِ الأرضِ المباركة؛ فقيل: هي جبلُ الطور وما حوله، وقيل: هي إيلياء، وقيل: هي أرض فلسطين، وبعضُ أرضِ الأُرْدُنِّ. **انظر**: تفسير الطبري (٦/ ١٧١)، زاد المسير، لابن الجوزي (٢/ ٣٢٣)، الدُّر المنثور (٣/ ٤٧).

(٢) **انظر**: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٣٧).

(٣) قال السمعاني في تفسيره (٢/ ٢٦): «الجبارُ: هو كلُّ عاتٍ يُجْبِرُ الناسَ على مراده، والله ـ تعالى ـ جَبَّارٌ يُجْبِرُ الخلقَ على مراده، وذلك منه حقٌّ وله مدح، وأما الجبروتُ للخلق ذَمٌّ، وأصلُ الجبارِ المتعظِّمُ الممتنعُ عن الذلِّ والقهر؛ ومنه يقال: نخلةٌ جَبَّارة: إذا كانتْ طويلةً ممتنعةً على وصولِ الأيدي إليها، وسمَّى أولئك القومَ جَبَّارين؛ لطولهم، وامتناعِهم بقوَّةِ أجسادهم، والقصةُ في ذلك أن هؤلاء كانوا في مدينة أرِيحَا بالشام، وكان فيها ألفُ قريةٍ في كلِّ قريةٍ ألفُ بستان، وكان فيها العمالقة، وبقيةٌ من قوم عاد، وهي مدينة الجبارين».

(٤) **انظر**: إغاثة اللهفان، لابن القيم (٢/ ٣١٣).

وتأمَّل سوءَ أَدَبِهم حيثُ صدَّروا الكلامَ مع نبيِّ اللهِ موسى عليه السلام بقولِهم: يا موسى[1]!

فأنكَرَ عصيانَهُمْ رجلانِ منهم مَنَّ اللهُ تعالى عليهم بالإيمان؛ فقالوا ـ كما أخبَرَ الله ـ: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]؛ فاستحثُّوهم على الدخول، دُونَ أنْ يُفْلِحَ ذلك؛ فقالوا: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

فأصرُّوا على التكذيبِ والعِصْيان، فكان الردُّ عليهم من موسى عليه السلام؛ حيث أخبَرَ اللهُ عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥، ٢٦].

فعاقبهم اللهُ بالتِّيهِ، وحِرْمانِ دُخُولِهم الأرضَ المقدَّسةَ أربعينَ سنةً، فخرَجُوا للتِّيهِ، وهو قوله: ﴿يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يحارون فيها، ويَضِلُّونَ، ومِنْ ذلك قيل للرجلِ الضالِّ عن سبيلِ الحق: تائِهٌ، وقضى اللهُ أن يموتَ نبيُّه موسى عليه السلام في ذلكَ الوقت، وماتَ في التِّيهِ كلُّ مَنْ أبى دخولَ الأرضِ المقدَّسة[2].

ثم بعد مضيِّ الوقتِ المحدَّدِ لهم، بعَثَ لهم يُوشَعَ بنَ نُونٍ، فأخرَجَهُمْ من التِّيهِ، وقاتَلَ حتى فُتِحَتْ لهم الأرضَ المقدَّسة.

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم (٢/ ٣١٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٦/ ١٨٢ ـ ١٨٣)، تفسير أبي المظفر السمعاني (٢/ ٢٨).

المَطْلَبُ التَّاسِعُ

قذفُ اليهودِ مَرْيَمَ عليها السلام بالزِّنى

وهذه من كُفْرياتِ اليهودِ التي ذكَرَها القرآنُ العظيم، وجعَلَها سببًا لِلَعْنِهم، والطبعِ على قلوبهم؛ **قال تعالى:** ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٥، ١٥٦].

فقولُهُ تعالى في مطلعِ الآية: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ منفصلٌ عما قبله، وتقديرُ الكلامِ: «فبما نَقْضِهم ميثاقَهُمْ وكُفْرِهم بآياتِ الله وبكذا وبكذا، لَعَنَّاهم وغَضِبْنا عليهم، فترَكَ ذكرَ «لعنَّاهم»؛ لدلالةِ **قوله:** ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ على معنى ذلك؛ إذْ كان مَنْ طُبعَ على قلبِهِ، فقد لُعِنَ وسُخِطَ عليه، وإنما قلنا: ذلك أولى بالصواب؛ لأن الذين أخذتهم الصاعقةُ إنما كانوا على عهدِ موسى، والذين قَتَلُوا الأنبياءَ، والذين رَمَوْا مريمَ بالبهتانِ العظيم، وقالوا: قَتَلْنا المسيحَ، كانوا بعدَ موسى بدهرٍ طويل، ولم يُدْرِكِ الذين رَمَوْا مريمَ بالبهتانِ العظيم زمانَ موسى، ولا مَنْ صُعِقَ من قومه...»[1].

والبهتانُ: مصدرٌ مِنْ قولك: بَهَتَهُ: إذا قَابَلَهُ بأمرٍ مُبْهِتٍ يحارُ معه الذهن، والبهتُ: الافتراءُ، والرميُ بالباطل[2].

---

(١) جامع البيان، للطبري (٦/ ١١).
(٢) **انظر:** لسان العرب (بهت) (٢/ ١٣).

قال ابنُ عباس: «رَمَوْها بالزنى»[1].

وهذا البهتانُ الذي رَمَوْها به ليس هو قولَهُمْ كما في سورة مريم: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٧، ٢٨].

فإنَّ قولَهم هذا قبلَ سماعهم حُجَّتَها التي أَظْهَرَها اللهُ بكلامِ عيسى عليه السلام؛ **حيثُ قال**: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩، ٣٠].

وإنما كان قَذْفُهُمْ لها «مع رؤيتهم الآية في كلام عيسى في المَهْد، وإلَّا فلولا الآيةُ، لكانوا في قولهم جَارِينَ على حكمِ البشرِ في إنكارِ حَمْلٍ مِنْ غيرِ ذَكَرٍ»[2].

---

(١) أخرجه ابن جرير (٦/ ١٢)، وابن أبي حاتم (٤/ ١١٠٩) من طريق علي بن أبي طلحة، عنه، به، وكذلك قال السُّدِّيُّ، وجويبر، ومحمد بن إسحاق، وغير واحد، قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٧٤): «وهو ظاهرٌ من الآية: أنهم رموها وابنها بالعظائم، فجعلوها زانية، وقد حمَلَتْ بولدها من ذلك، زاد بعضهم: وهي حائضٌ؛ فعليهم لعائنُ اللهِ المتتابعةُ إلى يوم القيامة». وانظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٢/ ٢٤٤).

(٢) المحرر الوجيز، لابن عطية (٢/ ١٣٢). وانظر: الجواب الصحيح، لابن تيمية (٢/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣).

المَطْلَبُ العَاشِرُ

دَعْوَى اليهودِ قَتْلَهُمْ عيسى بنَ مَرْيَمَ عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧].

هذا من مقولات اليهود ـ قبَّحهم الله ـ التي كذَّبهم القرآنُ بها؛ حيث قال سبحانه: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٧ ـ ١٥٩].

فذكَرَ الباري سبحانه: أنهم لم يقتلوه، ولكنَّهم قتَلُوا مَنْ أُلْقِيَ عليه شبهُ المسيحِ عليه السلام، فظنُّوه هو؛ فقتلوه[1].

وبيَّن أن الذين ادعَوْا قتلَهُ وصَلْبَهُ إنما أخَذُوا ذلك عمَّن قتَلُوا شبيهَهُ، فليس معهم علمٌ، ولا برهانٌ، ولا حجةٌ، وإنما اتبعوا قولَ اليهود؛ لأنَّ الذين تولَّوْا صَلْبَ المصلوبِ المشبَّهِ به هم اليهود، ولم يكن أحدٌ من النصارى شاهدًا لهم، بل كان الحواريُّون خائفينَ غائبين؛ فلم يشهدْ أحدٌ منهم الصلبَ، وإنما شَهِدَهُ اليهودُ الذين أخبروا الناسَ: أنهم صَلَبُوا المسيح، والذين نقَلُوا أن المسيحَ صُلِبَ ـ من النصارى، وغيرِهم ـ إنما نقلوه عن أولئك اليهود، وهم شُرَطٌ من أعوانِ الظَّلَمة، لم يكونوا

(١) ذكر الطبري وغيرُهُ من المفسِّرين كثيرًا من الآثار في صفة الشبه الذي غَرَّ اليهودَ، لا دليلَ عليها من كتاب، ولا أثر صحيح؛ فالله أعلم بهيئة التشبيه الذي وقع.

خلقًا كثيرًا يمتنعُ تواطُؤهُمْ على الكذب[١].

وأكَّد عدَمَ يقينهم مِنْ قتلهم للمسيح عليه السلام؛ فإنَّهم قتلوه مع شكِّهم هل هو هو، أم لا؛ **قال تعالى:** ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧].

وأخبر سبحانه إخبارًا يقينيًّا عما حَلَّ بالمسيحِ عليه السلام، وأنه رُفِعَ للسماءِ بأمرِ العزيزِ الحكيم.

وأنَّ المسيحَ سينزلُ في آخرِ الزمان، فيؤمنُ به يومئذٍ كلُّ يهوديٍّ، ونصرانيٍّ، ولا يبقى على ظهرِ الأرضِ إلا ملةُ الإسلام[٢].

قال شيخُ الإسلام رحمه الله:

«وهذا عندَ أكثرِ العلماءِ معناه قبلَ مَوْتِ المسيح.

وقد قيل: قبلَ موتِ اليهوديِّ؛ وهو ضعيف.

كما قيل: إنه قبلَ موتِ محمَّد؛ وهو أضعفُ؛ فإنه لو آمَنَ به قبلَ الموتِ، لنفعَهُ إيمانه به؛ فإنَّ اللهَ يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يغرغرْ، وإن قيل: المرادُ به الإيمانُ الذي يكونُ بعدَ الغرغرةِ، لم يكنْ في هذا فائدةٌ؛ فإنَّ كلَّ أحدٍ بعد موتِهِ يؤمنُ بالغيبِ الذي كان يجحدُهُ، فلا اختصاصَ للمسيحِ به، ولأنه **قال:** ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]، ولم يقلْ: بعدَ موته.

ولأنه لا فَرْقَ بين إيمانِهِ بالمسيحِ، وبمحمَّد ـ صلوات الله عليهما وسلامه ـ واليهوديُّ الذي يموتُ على اليهوديَّةِ يموتُ كافرًا بمحمَّدٍ والمسيحِ ـ عليهما الصلاة والسلام ـ.

ولأنه **قال:** ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]، **وقوله:** ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩] فعلٌ مقسمٌ عليه، وهذا إنما

---

(١) الجواب الصحيح، لابن تيمية (٤/ ٣٣). **وانظر:** جامع البيان، للطبري (٦/ ١٦).

(٢) وهو قولُ جماهير المفسِّرين، ورجَّحه الإمام الطبري، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم. **انظر:** جامع البيان، للطبري (٦/ ٢١ ـ ٢٢)، الجواب الصحيح، لابن تيمية (٤/ ٣٤ ـ ٣٧)، هداية الحيارى، لابن القيم (ص٢٣٥)، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٢٥٤).

يكونُ في المستقبل؛ فدلَّ ذلك على أنَّ هذا الإيمانَ بعدَ إخبارِ الله بهذا، ولو أريدَ به قبلَ موت الكتابيِّ، لقال: وإنْ مِنْ أهلِ الكتابِ إلا مَنْ يؤمنُ به، لم يقل: لَيُؤْمِنَنَّ به.

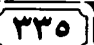
وأيضًا: فإنه قال: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء: ١٥٩] وهذا يَعُمُّ اليهودَ والنصارَىٰ؛ فدلَّ ذلك على أنَّ جميعَ أهلِ الكتابِ اليهودِ والنصارى يؤمنونَ بالمسيحِ قبلَ موتِ المسيحِ؛ وذلك إذا نزَلَ آمنَتِ اليهودُ والنصارى بأنه رسولُ اللهِ ليس كاذبًا كما تقولُ اليهود، ولا هو اللهُ كما تقوله النصارى، والمحافظةُ على هذا العموم أولى مِنْ أن يُدَّعى أنَّ كلَّ كتابيٍّ ليؤمننَّ به قبلَ أن يموتَ الكتابيُّ؛ فإنَّ هذا يستلزمُ إيمانَ كلِّ يهوديٍّ ونصرانيٍّ، وهذا خلافُ الواقعِ، وهو لما قال: وإنْ مِنْ أهلِ الكتاب إلا ليؤمنَنَّ به قبلَ موته، دلَّ على أن المرادَ بإيمانهم قبلَ أن يموتَ هو، عُلِمَ أنه أريدَ بالعمومِ عمومُ مَنْ كان موجودًا حين نزوله؛ أي: لا يتخلَّف منهم أحَد عن الإيمانُ به لا إيمانُ من كان منهم ميتًا، وهذا كما يقالُ: إنه لا يبقى بلدٌ إلا دخَلَهُ الدجالُ إلا مكةَ والمدينة؛ أي: مِنَ المدائنِ الموجودة حينئذٍ.

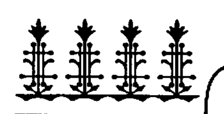
وسببُ إيمانِ أهلِ الكتابِ به حينئذٍ ظاهرٌ؛ فإنه يظهرُ لكلِّ أحدٍ أنه رسولٌ مؤيَّدٌ ليس بكذَّاب، ولا هو ربّ العالمين؛ فالله تعالى ذكَرَ إيمانهم به إذا نزَلَ إلى الأرضِ، فإنه تعالى لما ذكَرَ رفعَهُ إلى الله بقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وهو ينزلُ إلى الأرضِ قبلَ يومِ القيامة، ويموتُ حينئذٍ، أخبَرَ بإيمانهم به قبل موته؛ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١].

وفي «الصحيحين»: عن النبيِّ ﷺ، أنه قال: (**يُوشِكُ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابن مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا وَإِمَامًا مُقْسِطًا؛ فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ**)(١).

---

(١) الجواب الصحيح، لابن تيمية (٤/ ٣٤ - ٣٧).





المَبْحَثُ الْخَامِسُ

المَقُولاتُ المتعلِّقةُ بالغيبيات

وفيه أربعةُ مطالب:

المطلب الأول: تسميةُ الملائكةِ إناثًا.

المطلب الثاني: ادعاءُ عِلْمِ الغَيْب.

المطلب الثالث: إنكارُ البَعْثِ والجزاء.

المطلب الرابع: المَقُولاتُ المتعلِّقةُ بالقَضَاءِ والقَدَر.

المطلب الأول

تسميةُ الملائكةِ إناثًا

من الافتراءاتِ العظيمةِ التي أنكَرَها القرآنُ العظيم، وذَمَّ قائليها: القولُ بأنَّ الملائكةَ بناتُ الله ـ تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا ـ.

وقبلَ التفصيلِ في مَقُولاتِ المشركينَ في هذه المسألة، أُمهِّدُ بتعريفِ لفظِ الملائكة:

تعريفُ الملائكة:

الملائكةُ: جمعُ مَلْأَكٍ، أوِ مَأْلَكٍ، ثم حذفتِ الهمزةُ تخفيفًا، وقدِّمت، وجُمِعَ؛ فقيل: ملائكةٌ؛ فيكونُ مشتقًّا من المَلَكِ، أو من الأَلُوكَةِ، وهي الرِّسَالة[1]؛ وذلك أنَّ الملائكةَ هم رسُلُ اللهِ تعالى إلى خلقه.

وقد أخبر النبيُّ ﷺ أن الملائكةَ مخلوقاتٌ نورانيَّةٌ؛ فقال ﷺ: (**خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ...**)[2].

وقد أخبَرَ القرآنُ العظيمُ عن المشركينَ أنهم زعَمُوا أنَّ الملائكةَ إناثٌ؛ **قال تعالى**: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

وبَنَوْا على هذا الزعمِ الباطل، والرأيِ العاطلِ: رأيَيْنِ أخريَين؛ فقالوا: الملائكةُ بناتُ الله! ثم عَبَدُوها معه! فأخطؤوا خطأً كبيرًا في كلٍّ

---

(١) انظر: لسان العرب (ألك) (١٠/٣٩٨)، مشكل إعراب القرآن، لمكي (ص٨٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد، باب أحاديث متنوعة، رقم (٦٠).

مقامٍ من هذه المقاماتِ الثلاث[١].

وقد أشارَ القرآنُ العظيمُ لهذه المقولةِ في أكثرَ من موطن:

فقال: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

والإصفاءُ بالشيء: جَعْلُهُ خالصًا، والهمزةُ للإنكار، والفاءُ للعطفِ على مقدَّر؛ **أي**: أفضَّلكم على نفسِهِ؛ فخصَّكم بأفضلِ الأولادِ على وجه الخلوص[٢].

ثم ختَمَ إنكارَهُ لمقولتهم بتشنيعها، وعِظَمِها في الإفكِ والافتراءِ والبهتانِ؛ فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

حيثُ نَسَبُوا الولَدَ لله، وخصُّوه بما يزدرون مِنَ الولد، وهُنَّ الإناث، فرَضُوا لربِّهم بما لا يَرْضَوْنَهُ لأنفسهم.

وبجعلِ الملائكةِ الذين هم مِنْ أشرفِ خلقِ اللهِ أَدْوَنَهُمْ[٣].

والتعبيرُ بالإناثِ دون البناتِ؛ لاستهجانِ مقولتهم، وتعظيمها.

ومعنى الآية: «أفخصَّكم ربُّكم على وجهِ الخصوصِ والصفاءِ بِأفضلِ الأولادِ وهم البنون، ولم يجعلْ فيهم نصيبًا لنفسِهِ، واتخَذَ لنفسِهِ أَدْوَنَهُمْ وهي البناتُ؛ وهذا خلافُ المعقولِ والعادة؛ فإنَّ السادةَ لا يؤثرون عبيدَهُمْ بأجودِ الأشياءِ وأصفاها، ويتخذون لأنفسهم أردَأَها وأدوَنها، فلو كان جل وعلا مُتَّخِذًا ولدًا سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا؛ لاتَّخَذَ أجوَدَ النصيبَين، ولم يتخذْ أردأَهما، ولم يصطَفِكم دونَ نفسِهِ بأفضلهما؛ وهذا الإنكار متوجِّهٌ على الكفارِ في قولهم: الملائكةُ بناتُ الله؛ ﷻ عما

---

(١) **انظر**: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٦٢١).

(٢) **انظر**: تفسير أبي السعود (٥/ ١٧٣)، روح المعاني (١٥/ ٨٢).

(٣) تفسير البيضاوي (٣/ ٤٤٧).

يقولون علوًّا كبيرًا؛ فقد جعلوا له الأولادَ، ومع ذلك جعلُوا له أضعَفَها وأردأَها وهو الإناث، وهم لا يرضونها لأنفسهم(١).

وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٩ ـ ٢٢].

وقال: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الصافات: ١٤٩ ـ ١٥٧].

والمعنى: سَلْ يا محمَّدُ هؤلاءِ المشركين(٢): ألربِّكَ البناتُ؟! وهذا سؤالُ توبيخٍ وتقريعٍ.

وقوله: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ﴾؛ **أي**: هل كانوا حاضرين لِخَلْقِنا إيَّاهم إناثًا(٣).

---

(١) أضواء البيان (٣/ ١٥٧).

(٢) وذلك أن جُهَيْنَةَ، وخزاعةَ، وبني مليح، وبني سَلَمة، وعبد الدار، زعموا أنَّ الملائكةَ بناتُ الله. **انظر**: الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ١٣٣).

(٣) قرأ الجمهور: «أَشَهِدُوا» ـ بفتح الألف والشين ـ جعلوا الفعلَ لهم؛ **أي**: أَحَضَرُوا خَلْقَهم حين خُلِقُوا، وحجتُهم قوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٥٠].

وقرأ نافع: ﴿أَشْهِدُوا۟﴾ ـ بضم الألف المسهلة مع فتحة الهمزة ـ **أي**: أحضروا خلقهم، كما تقول: أشهدتك مكان كذا، وكذا؛ **أي**: أحضرتك، وحجتُهُ قوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٥١]، والأصل: (أأشهدوا) بهمزتين، الأولى: همزة الاستفهام بمعنى: الإنكار، والثانية: همزة التعدية، ثم خففت الهمزة الثانية من غير أن تدخل بينهما ألفًا. **انظر**: السبعة، لابن مجاهد (١/ ٥٨٥)، حجة القراءات (ص٦٤٧).

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

فالمشركون ـ قبَّحهم الله ـ جعلوا الملائكةَ الذين هم عبادُ الرحمٰنِ إناثًا، ثم ادعَوْا أنهم بناتُ الله، ثم عَبَدُوهم، فاقترَفُوا الجريمةَ العظمى في المقاماتِ الثلاث[١].

وقد أبطَلَ القرآنُ العظيمُ هذه الفريةَ مِنْ أربعةِ أوجه:

الوجه الأول: نفيُ علمهم بحقيقةِ الملائكة؛ فليس لديهم دليلٌ حسيٌّ بهذا الشأن؛ ولذا **قال تعالى:** ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٥٠]؛ **أي:** وهم حاضرون، وسؤالُهُ لهم على وجهِ الإنكارِ، والتوبيخِ، والتقريع.

«وإنما خَصَّ علمَ المشاهَدة؛ لأنَّ أمثالَ ذلك لا تعلمُ إلا بها؛ فإنَّ الأنوثةَ ليستْ من لوازمِ ذاتهم لتمكنَ معرفتُهُ بالعقلِ الصرفِ، مع ما فيه من الاستهزاء، والإشعارِ بأنهم لفرطِ جَهْلِهم يَبُتُّونَ به كأنهم قد شاهدوا خلقهم»![٢].

الوجه الثاني: تهديدُهُمْ، وتوعُّدهم بأنَّ شهادَتَهُمْ بذلك الكفرِ، ستكتبُ عليهم، وسوفَ يسألونَ عنها؛ **قال تعالى:** ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، **وقال سبحانه:** ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]، **وقال:** ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، **وقال تعالى:** ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].

وقال في شأن مسألتهم عن ذلك الافتراءِ والكفرِ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ

---

(١) أضواء البيان (٣/ ١٥٨).
(٢) تفسير البيضاوي (٥/ ٢٩).

وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]، وقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦].

الوجه الثالث: بيانُ أنهم فعَلُوا ذلك بدون عِلْمٍ؛ فلم ينزلِ اللهُ عليهم كتابًا يقرُّ ذلك، فهم بما فيه مستمسكون، وإنما مجرَّدُ التقليد، واتباعِ الأولين؛ ولذلك قال: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الصافات: ١٥٧].

«أي: هاتوا برهانًا على ذلك يكونُ مُستَنَدًا إلى كتاب منزَّلٍ من السماءِ عن اللهِ تعالى أنه اتخَذَ ما تقولونه؛ فإنَّ ما تقولونه لا يمكنُ استنادُهُ إلى عقل، بل لا يَجوِّزُهُ العقلُ بالكلية»(١).

الوجه الرابع: وهو مأخوذٌ من مناسبةِ الآيةِ التي أخبَرَ اللهُ تعالى فيها: أنهم جعلوا الملائكةَ إناثًا، والآيةِ التي قبلها، حيثُ أخبَرَ اللهُ تعالى أن الإناثَ جُبِلْنَ على الضعفِ، والرِّقَّةِ؛ **قال تعالى**: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٧ ـ ١٨]:

فأبانَ أنَّ المرأةَ تنشأُ وتَشِبُّ في الحليةِ والترف، وهي عندَ الخصامِ واللَّجَاجِ لا تستطيعُ الإبانةَ عن حجَّتها على الوجهِ الصحيح(٢)، في الوقتِ الذي أخبَرَ القرآنُ عن الملائكةِ أنهم موصوفونَ بالقوَّةِ، والشدةِ، وضخامةِ الخلق.

فهناك فرقٌ بين خِلْقَةِ الإناثِ، وخِلْقَةِ الملائكةِ، فكان في هذا التناسُبِ بيانٌ لضعفِ قولهم، واللهُ تعالى أعلم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٤).

(٢) **انظر**: تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٦)، تفسير النسفي (٤/ ١١١).

المَطلَبُ الثَّانِي

ادعاءُ عِلمِ الغَيب

تتابَعَ على ادعاءِ الزُّلْفَى عندَ اللهِ في الآخرة اليهودُ، والنصارى، وبعضُ مشركي العرب، ولمَّا كان قولُهم هذا فيه ادعاءٌ لعلم لا قدرةَ لبشرٍ على معرفته، كذَّب القرآنُ هذه الدعوى، وردَّ عليها بطريقةٍ عقليَّةٍ منطقيَّة، وعلميةٍ إيمانية.

فممَّا قاله اليهودُ ما ذكره اللهُ تعالى عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠].

وذَكَر سبحانه عن أهل الكتاب من اليهودِ والنصارى أنهم قالوا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤].

وقال بعضُ المشركين(١)، كما ذَكَرَ اللهُ تعالى عنه: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧].

---

(١) وهو: العاص بن وائل السَّهْمي؛ فعن مسروق، قال: سَمِعْتُ خَبَّابًا قال: جِئْتُ العَاصِيَ بْنَ وَائِلٍ السَّهْمِيَّ أَتَقَاضَاهُ حَقًّا لِي عِنْدَهُ فَقَالَ: لَا أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، فَقُلْتُ: لَا؛ حَتَّى تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ، قَالَ: وَإِنِّي لَمَيِّتٌ ثُمَّ مَبْعُوثٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّ لِي هُنَاكَ مَالًا وَوَلَدًا فَأَقْضِيكَهُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧]، أخرجه البخاري، باب: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾، رقم (٤٤٥٥)، ومسلم في كتاب المنافقين، رقم (٢٧٩٥).

وقد حمَلَ بعضُ العلماءِ كلامَ العاصِ هنا على الاستهزاء، وهو محتملٌ. انظر: التفسير الكبير (٢١/٢١٣)؛ ويدل له ما قاله الحسن: «كان لرجل من أصحاب =

وقد أبان سبحانه السببَ الذي أورَدَ عليهم هذا اللَّبْسَ، وهو ما أنعَمَ اللهُ تعالى عليهم في هذه الدنيا!

فهم لِمَا هم فيه من أُبَّهَةِ الغنى، يظنُّون أنَّ لهم عندَ اللهِ الحُظْوةَ في الدنيا، وكذا في الآخرة؛ وهذا مِنْ جَهْلِهم، واغترارِهم بالحياةِ الدنيا، وزينتها؛ فقال: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، وقال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

وقد أبطَلَ القرآنُ العظيمُ دعواهم تلك، وسفَّه ظنَّهم من ثلاثة أوجه:

أولها: إبطالُ زعمهم، وتبيينُ كَذِبِهِمْ فيما ادعَوْهُ:

فعندما ردَّ على اليهودِ، كان جوابه: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠].

فبيَّن لهم على طريقةِ السبرِ والتقسيم: أن ما ادعوه لا يخلو دليلُهُمْ عليه من أمرين:

الأول: أن يكونوا قد اتخَذُوا عهدًا مِنَ اللهِ تعالى بهذا؛ وهو منتفٍ؛ بدليلِ إنكارِهِ عليهم ذلك.

الثاني: أن تكونَ دعواهم كاذبةً لا حقيقةَ لها، بل هي قولٌ على اللهِ بلا علم؛ وهو الحقُّ هنا.

وأضاف احتمالًا ثالثًا لا تخرُجُ تلك الدعوى عنها[1] **في قوله**: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧].

= النبيِّ ﷺ دَيْنٌ على رجلٍ من المشركين، فأتاه يتقاضاه، فقال: ألستَ مع هذا الرجل؟ قال: نعم، قال: أليس يزعُمُ أن لكم جنةً، ونارًا، وأموالًا، وبنين؟ قال: بلى، قال: اذهَبْ، فلستُ بقاضيك إلا ثَمَّةَ». الدُّر المنثور (٥/ ٥٢٦).

(١) يُنظر: أضواء البيان (٣/ ٤٩٢).

فأجابه القرآنُ **بقوله تعالى:** ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ كَلَّآ﴾ [مريم: ٧٨، ٧٩]؛ **فلا تخلو دعواه تلك من ثلاثة احتمالات:**

الاحتمـال الأول: أنه اطلَعَ على الغيبِ، وعَلِمَ أنَّ الله تعالى كتَبَ له ما ادعاه.

الاحتمال الثانـي: أنْ يكون اللهُ تعالى قد عَهِدَ له عهدًا بهذا.

الاحتمال الثالث: أن يكونَ قوله مجرَّدَ دعوى كاذبةٍ لا حقيقةَ لها، بل هي محضُ افتراءٍ على الله تعالى، وهو الحقُّ بِدَلَالةِ ما تلاه من الوعيدِ له على هذا الافتراء: ﴿كَلَّاۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٧٩، ٨٠].

ومن إبطالِ القرآنِ لهذه المقالةِ: أنه صدَّر ذِكْرَ مقالتهم بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ [مريم: ٧٧]؛ والهمزةُ فيه إنكاريةٌ.

ثم أعقَبَ ذِكْرَ مقالته بـ﴿كَلَّآ﴾ المفيدةِ للردعِ والزجر، فهم لم يطلعوا على الغيب؛ فيعلموا ما أُعِدَّ لهم في الآخرة.

ولم يأخذوا مِنَ اللهِ عهدًا أن يؤتيهم ما ادَّعَوْهُ، فلم يَبْقَ إلا أنهم افترَوْا على اللهِ كذبًا وزورًا.

الوجه الثاني: أنه توعَّدهم بالآخرة بنقيضِ ما ادعَوْهُ: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٦]، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤].

فأوعَدَهُ بأنَّ ما قاله سيُكْتَبُ، وسيحاسبُ عليه يومَ القيامة: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩].

وأنَّ ما ادعاه غيرُ صحيح، بل ويأتينا فَرْدًا؛ **أي:** بلا مال، ولا ولدٍ، ولا وليٍّ، ولا نصير: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

الوجه الثالث: التحدي، والمباهلة[١] لهؤلاء الذين ادعوا الزلفى لهم في الآخرة:

أمَّا أهلُ الكتاب، فأخبَرَ الله تعالى عنهم على سبيلِ التحدِّي ما ينقُضُ قولَهم؛ فقال في سورةِ البقرةِ عن اليهود: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٤، ٩٥]، وقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٦، ٧].

فعن ابن عباسٍ، قال: قال أبو جهلٍ: لَئِنْ رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يصلِّي عند الكعبةِ، لِآتِيَنَّهُ حتى أطأَ على عنقه، قال: فقال ﷺ: **(لَوْ فَعَلَ، لَأَخَذَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عِيَانًا، وَلَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوُا الْمَوْتَ، لَمَاتُوا وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ فِي النَّارِ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، لَرَجَعُوا لا يَجِدُونَ أهلًا ولا مالًا)**[٢].

وعن ابن عباس قال: «قل لهم يا محمَّدُ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: الجنةَ؛ كما زعمتُمْ، ﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾؛ يعني: المؤمنين، ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: أنها لكم خالصة من دون المؤمنين.

فقال لهم رسول الله ﷺ: **(إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي مَقَالَتِكُمْ، فَقُولُوا:**

---

(١) سبق التعريف بها (ص١٠٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٢٢٦) بإسناد على شرط البخاري، وأخرج البخاريُّ الجزءَ الأولَ من الحديث إلى قوله: «لأخذته الملائكة عيانًا»، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا﴾ [العلق: ١٥]، رقم (٤٩٥٨).

اللَّهُمَّ أمِتْنَا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ، لَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَقُولُ ذلِكَ إلَّا غَصَّ بريقِهِ، فَمَاتَ مَكَانَهُ)، فأبَوْا أن يفعلوا، وكَرِهُوا ما قال لهم، فنـزَلَ: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الجمعة: ٧]؛ يعني: عَمِلَتْهُ أيديهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٥]: أنهم لن يَتَمَنَّوْهُ.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ عند نزولِ هذه الآية: (**واللهِ لا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا**).

وعن ابن عباسٍ في قوله: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ [الجمعة: ٦]؛ أي: ادْعُوا بالموتِ على أيِّ الفريقَيْنِ أكذب»(١).

وعن ابن عباس، عن رسولِ الله ﷺ، قال: «لَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوُا الْمَوْتَ، لَمَاتُوا وَلَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ»(٢).

وقال في شأنِ النصارى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

وقال في شأنِ المشركين: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [مريم: ٧٥].

قيل: أَمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ في هذِهِ الآيةِ الكريمة أنْ يقولَ هذه الكلماتِ، على سبيلِ المباهَلَةِ بينه وبين المشركين، «**وإيضاحُ معناه**: قُلْ يا نبيَّ الله ﷺ لهؤلاءِ المشركين الذين ادعَوْا أنهم خيرٌ منكم، وأنَّ الدليلَ على ذلك أنهم خيرٌ منكم مقامًا، وأحسَنُ منكم نَدِيًّا: مَنْ كان منا ومنكم

---

(١) أخرجه ابن جرير الطَّبَري (١/ ٤٢٥).

(٢) أخرجه البخاري، رقم (٤٩٥٨)، والترمذي، رقم (٣٣٤٨)، والنسائي، رقم (٤٩٥٨)؛ من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن عبد الكريم، به، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

في الضلالة؛ أي: الكفرِ والضلالِ عن طريقِ الحق؛ فلْيَمْدُدْ له الرحمٰنُ مدًّا؛ أي: فأَمَهَلَهُ الرحمٰنُ إمهالًا فيما هو فيه، حتى يستدرجَهُ بالإمهال، ويموتَ على ذلك، ولا يَرْجِعَ عنه، بل يستمرَّ على ذلك حتى يَرَى ما يُوعِدُهُ الله، وهو إمَّا عذابٌ في الدنيا بأيدي المسلمين، أو بغيرِ ذلك، وإما عذابُ الآخرة؛ إنْ ماتوا وهم على ذلك الكُفْر، وعلى ذلك التفسيرِ: فصيغةُ الطلب المدلولُ عليها باللامِ في **قوله**: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ [مريم: ٧٥]، على بابها، وعليه فهي لامُ الدعاءِ بالإمهالِ في الضلالِ على الضالِّ من الفريقَيْن، حتى يرى ما يُوعَدُهُ من الشر، وهو على أقبحِ حال من الكفر والضلال، واقتصَرَ على هذا التفسير: ابنُ كثير، وابنُ جرير، وهو الظاهرُ من صيغةِ الطلبِ في **قوله**: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾»[1].

أما قوله تعالى شأنه عن اليهود: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٥]، **وقوله**: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٥]. **فهذا النفْي الإلهيُّ القاطعُ يحتملُ ثلاثةَ معانٍ**:

أولها: أنْ يكونَ على ظاهره، ويكونَ المرادُ به تحدِّيَهُمْ أن يَتمنَّوُا الموتَ، ولو بألسنتهم! وهذا لم يقعْ منهم مع شدةِ عداوتهم ومخاصمتهم للنبيِّ ﷺ، وحِرْصِهم على تكذيبه؛ فكان في هذه الآية «معجزةٌ باهرةٌ للنبيِّ ﷺ، وهي أنه في مقامِ المناظَرَةِ مع الخصومِ الذين هم أحرَصُ الناسِ على عداوتِهِ وتكذيبه، وهو يُخْبِرُهم خبرًا جزمًا أنهم لن يَتَمَنَّوُا الموتَ أبدًا، ولو علموا مِنْ نفوسهم أنهم يَتَمَنَّوْنَهُ، لوجدوا طريقًا إلى

---

(١) أضواء البيان، للشنقيطي (٣/ ٤٨٧)، والمعنى الثاني للآية: أن يكونَ المرادُ بها الإخبارَ عن سنةِ اللهِ في الضالِّين؛ وعليه: فالمعنى: أن الله أجرى العادةَ بأنه يمهلُ الضالَّ، ويملي له فيستدرجه، حتى يرى ما يُخْزيه؛ وهو اختيار الفخر الرازي في تفسيره (٢١/ ٢١١).

الردِّ عليه، بل ذَلُّوا وغُلِبُوا، وعلموا صحةَ قوله، وإنما منعهم من تمنِّي الموتِ معرفتُهُمْ بما لهم عندَ اللهِ تعالى من الخزيِ والعذابِ الأليمِ بِكُفرِهم بالأنبياء، وقَتْلِهِم لهم، وعداوتِهِمْ لرسولِ الله ﷺ.

فإن قيل: فهلَّا أظهروا التمنِّيَ، وإن كانوا كاذبين، فقالوا: فنحنُ نتمنَّاه!

قيل: وهذا أيضًا معجزةٌ أخرى، وهي أنَّ اللهَ تعالى حبَسَ عن تمنِّيه قلوبَهُمْ، وألسنَتَهُمْ، فلم تُرِدْهُ قلوبُهم، ولم تنطقْ به ألسنَتُهُمْ؛ تصديقًا **لقوله**: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]»[1].

قال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وبيانُ هذه الملازمةِ: أنَّ نِعَمَ الدنيا قليلةٌ حقيرةٌ

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٢٧٦)، وذكر هذا الوجهَ ابنُ جُزَيٍّ في تفسيره (١/ ٥٤)، قال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما الدليلُ على أنه ما وُجِدَ التمني؟ قلنا: من وجوه:
أحدهـا: أنه لو حصَلَ ذلك، لَنُقِلَ نقلًا متواترًا؛ لأنه أمرٌ عظيمٌ، فإنَّ بتقدير عدمِهِ: يثبُتُ القولُ بصحَّةِ نبوةِ محمد ﷺ، وبتقديرِ حصولِ هذا التمنِّي: يبطُلُ القولُ بنبوته، وما كان كذلك، كان من الوقائعِ العظيمة؛ فوجَبَ أن ينقل نقلًا متواترًا، ولمَّا لم ينقل، علمنا أنه لم يوجد.
وثانيها: أنه عليه الصلاة والسلام مع تقدُّمه في الرأيِ والحزم، وحسن النظرِ في العاقبة، والوصولِ إلى المنصبِ الذي وصَلَ إليه في الدُّنيا والدِّين، والوصولِ إلى الرياسةِ العظيمةِ التي انقاد لها المخالفُ قهرًا، والموافقُ طوعًا، لا يجوز - وهو غير واثق من جهة ربه بالوحي النازل عليه - أن يتحدَّاهم بأمرٍ لا يأمنُ عاقبةَ الحال فيه، ولا يأمنُ مِنْ خَصْمِهِ أن يَقْهَرَهُ بالدليلِ والحجة؛ لأن العاقل الذي لم يجرِّب الأمورَ لا يكادُ يرضى بذلك؛ فكيف الحالُ في أعقلِ العقلاء؟ فيثبُتُ أنه عليه الصلاة والسلام ما أقدم على تحرير هذه الأدلة، إلا وقد أوحى الله تعالى إليه بأنهم لا يَتَمَنَّوْنه.
وثالثهـا: ما رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام قال: (**وَلَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوُا الْمَوْتَ، لَمَاتُوا وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ فِي النَّارِ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا**)، وقال ابن عباس: «لو تمنوا الموتَ، لَشَرِقُوا به، ولماتوا»، وبالجملةِ: فالأخبار الواردةُ في أنهم ما تَمَنَّوْا، بلَغَتْ مبلغَ التواتر؛ فحصَلَتِ الحجة». التفسير الكبير، للرازي (٣/ ١٧٤).

بالقياس إلى نِعَمِ الآخرة، ثم إنَّ نعمَ الدنيا على قلَّتها كانتْ منغَّصةً عليهم بسببِ ظهورِ محمد ﷺ، ومنازعتِهِ معهم بالجدالِ والقتال، ومَنْ كان في النعمِ القليلةِ المنغَّصة، ثم إنْ تيقَّن أنه بعدَ الموتِ لا بدَّ وأنْ ينتقلَ إلى تلك النعمِ العظيمة، فإنَّه لا بدَّ وأنْ يكونَ راغبًا في الموت؛ لأنَّ تلك النعمَ العظيمةَ مطلوبة، ولا سبيلَ إليها إلا بالموت، وما يَتوقَّفُ عليه المطلوبُ، وجَبَ أن يكونَ مطلوبًا؛ فوجَبَ أن يكونَ هذا الإنسانُ راضيًا بالموت متمنِّيًا له، فثبَتَ أنَّ الدارَ الآخرةَ لو كانتْ لهم خالصةً، لوجَبَ أن يتمنوا الموتَ.

ثم إنَّ الله تعالى أخَبَر أنهم ما تمنَّوُا الموتَ، بل لن يتمنوه أبدًا، وحينئذٍ يلزمُ قطعًا بطلانُ ادعائهم في قولهم: إنَّ الدارَ الآخرةَ خالصةٌ لهم مِنْ دُونِ الناس»[١].

والمعنى الثاني في الآية: أنْ تكونَ الآيةُ إخبارًا عن واقعِ حالهم، وأنَّهم مع ما هم فيه من الكُفْرِ، والكذبِ، ومتابعةِ أسلافهم مِنْ قَتَلةِ الأنبياء، ومكذِّبي الرسل، يستحيلُ أن يكونوا من أهلِ الجنة، وأن يكونوا أبناءَ الله، وأحباءَ له، فأخبَرَ سبحانه: أنهم لا يتمنونَهُ أبدًا بما قدَّمت أيديهم مِنَ الأوزارِ والذنوبِ الحائلةِ بينهم وبين ما قالوه[٢]؛ فقال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٩٥].

المعنى الثالث: أنْ تكونَ هذه الآيةُ من جنسِ آيةِ مُباهَلَةِ النصارى[٣].

«فلمَّا عاندوا، ودَفَعُوا الهدى عِيَانًا، وكَتَمُوا الحق، دعاهم إلى أمرٍ

---

(١) التفسير الكبير، للرازي (٣/ ١٧٣).

(٢) انظر: المرجع السابق، وتفسير ابن جُزَيٍّ (١/ ٥٤).

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ =

يحكُمُ بينهم وبينه، وهو أن يَدْعُوا بالموتِ على الكاذبِ المفترِي، والتمنِّي سؤالٌ ودعاء، فتمنَّوُا الموتَ، وادْعُوا به على المبطلِ الكاذبِ المفتري.

وعلى هذا فليس المرادُ: تَمَنَّوْهُ لأنفسكم خاصَّةً؛ كما قاله أصحابُ القولَيْن الأولَيْن، بل معناه: ادْعُوا بالموتِ، وتَمَنَّوْهُ للمبطل؛ وهذا أبلغُ في إقامةِ الحجة، وبرهانِ الصِّدْق، وأسلَمُ من أن يُعَارِضُوا رسولَ اللهِ بقولهم: فتمنَّوْهُ أنتم أيضًا إنْ كنتم محقِّين أنكم أهلُ الجنة؛ لِتَقْدَمُوا على ثوابِ اللهِ وكرامتِهِ»[1].

= وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/٢٧٧)، ومن الأدلة التي ذكرها ابنُ القيم لترجيح القولِ الثالث، قوله: «وهم كانوا أحرصَ شيءٍ على معارضته، فلو فهموا منه ما ذَكَرَهُ أولئك، لعارضوه بمثله، وأيضًا: فإنا نشاهدُ كثيرًا منهم يتمنَّى الموتَ لضرِّه، وبلائِهِ، وشدةِ حاله، ويدعو به، وهذا بخلافِ تمنِّيه والدعاء به على الفرقة الكاذبة؛ فإن هذا لا يكون أبدًا، ولا وقَعَ من أحدٍ منهم في حياة النبي ﷺ البتة؛ وذلك لعلمهم بصحةِ نبوَّتِهِ، وصدقِهِ، وكفرِهِمْ به حسدًا، وبغيًا؛ فلا يَتمنَّوْهُ أبدًا؛ لعلمهم أنهم هم الكاذبون؛ وهذا القولُ هو الذي نختاره، والله أعلم».

المَطْلَبُ الثَّالِثُ

إنكارُ البَعْثِ والجزاءِ

- **تعريفُ البعثِ في اللغة، ولسانِ الشرع:**

قال في اللسان[1]: «**البعثُ في كلامِ العَرَبِ على وجهين:**

أحدُهما: الإرسالُ؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ [الأعراف: ١٠٣]؛ **معناه**: أرسَلْنا.

وثانيهما: الإثارةُ؛ تقولُ: بَعَثْتُ البعيرَ فانبَعَثَ؛ **أي**: أثرتُهُ فثارَ».

والمعنى الثاني هو المعنى الشرعيُّ؛ ولذلك قال ابن منظور بعد ذكره للتعريفين السابقين:

«والبعثُ أيضًا: إحياءُ الموتى؛ ومنه **قوله تعالى**: **﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾** [البقرة: ٥٦]؛ **أي**: أحييناكم.

وبَعْثُ الموتى: نَشْرُهُمْ ليومِ البعث».

وقد كان المشركون ينكرونَ البعثَ بعدَ الموت، ويعدُّونه ضربًا من المستحيلات، وينكرونَ على النبيِّ ﷺ وَعْدَهُ لهم به أشدَّ النكير، وقد كَثُرَ حديث القرآنِ حولَ هذه القضية؛ لأنها مِنْ قضايا الإيمانِ الكبرى التي لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ بِدُونِ الإيمان بها.

فعن ابن عباسٍ ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: قال الله: (**كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ؛ فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ؛ فَزَعَمَ أَنِّي لا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ: فَقَوْلُهُ: لِي**

---

(١) لسان العرب (بعث) (٢/ ١١٧) بتصرف.

وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا)[١].

وقد تعدَّدت طرقُ القرآنِ في ذكرِ مقولاتهم في هذا الشأن، وسلَكَ القرآنُ مسالكَ عِدَّةً في الردِّ عليهم ببراهينَ متعدِّدةٍ، وأدلةُ القرآنِ في هذا البابِ على ثلاثةِ أنواع:

• أولًا: الأدلَّةُ السمعيَّةُ:

أثبتَ اللهُ تعالى شأنُهُ البعثَ بعدَ الموت، وهو ركنٌ من أركانِ الإيمانِ، لا يصحُّ الإيمان بدونه، وقد رَدَّ الله تعالى على منكري البعثِ بإثباتِهِ من جهة السمعِ، وهو خطابُ الشارع.

فقال في مقام تقريرِ عقيدةِ البعث: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وقال في مقام الرد على منكري البعث: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨].

• ثانيًا: الأدلَّةُ العقليَّةُ[٢]:

الدليل الأول: الاستدلالُ على البَعْثِ بِخَلْقِ الناس أولَ مَرَّةٍ:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُل

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، رقم (٤٢١٢)، وأخرجه من طريق أبي هريرة في كتاب التفسير أيضًا، باب تفسير: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، رقم (٤٦٩٠).

(٢) اهتم المفسِّرون بذكر هذه الطرق عند تفسير الآيات الدَّالَّةِ على البعثِ والنشور، ومن أبرز من اهتمَّ بذلك منهم الشيخ الشنقيطي كَلَّلَهُ في أضواء البيان، ولشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم نَفَسٌ طويلٌ في تقريرِ ذلك، فانظر: مجموع الفتاوى (٩/ ٢٢٤ - ٢٢٥)، إعلام الموقعين، لابن القيم (١/ ١٤٠)، الصواعق المرسلة (٢/ ٤٧٣ - ٤٨١)، مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٨).

كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٤٩ ـ ٥١].

فاستَبْعَدُوا البعثَ لاستحالتِهِ في عقولهم القاصرة؛ فكيفَ يُبْعَثُونَ وقد صيَّرهم الموتُ عظامًا بالية، ورفاتًا بائدة.

ولعلَّ إنكارَهُمْ للبعثِ كان استجابةً لحيلهم النفسيَّةِ للتنصُّلِ من الإيمانِ بالنبيِّ ﷺ، والإذعانِ لدعوته؛ وإلا فإنَّ اعتراضاتِهِمْ وشبهاتِهِمْ أكثرُ من هذه القضية.

فردَّ عليهم **بقوله**: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وهذا استدلالٌ من أوضح ما يكونُ عليه الاستدلال، فالمخاطَبُ مؤمنٌ أنَّ الخالقَ هو اللهُ تعالى، وأنَّ البشَرَ وُجِدُوا بعدَ العدم؛ ولذا ذكَّرهم القرآنُ بالنشأةِ الأولى، وأنَّ مَنْ قدَرَ عليها بعدَ عَدَمٍ؛ قادرٌ بطريقِ الأولى على إعادةِ ما تفرَّقَ، وتبعثَرَ من الأجزاءِ في النشأة الثانية.

وقد جاء الجوابُ: بالإثباتِ، والتأكيد؛ فقال لهم: بل لو كنتم خَلْقًا أكبَرَ، وأقوى؛ كالحجارةِ والحديدِ؛ فإنَّ الله تعالى قادرٌ على إعادتكم بعدَ فنائكم!

وأكد ذلك تأكيدًا آخر، **فقال**: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾.

قال مجاهدٌ: سألتُ ابنَ عباسٍ عن ذلك؟ فقال: «هو الموتُ»[١].

قال ابن عمر: «لو كنتم مَوْتَى، لأحييتُكُمْ»[٢].

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٣٩٤)، وقال: «صحيح على شرط مسلم، ولم يخرِّجه».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١١٨)؛ وهذا قول جماهير السلف؛ كسعيد بن جبير، =

وقال مجاهد: «السماءُ، والأرضُ، والجبال»[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٦ ـ ٦٧].

والمرادُ بالإنسانِ هنا: الكافرُ؛ فهو مِنْ إطلاقِ العامِّ، والمرادُ به الخصوصُ.

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ﴾ [الحج: ٥].

ففصَّل في ذِكْرِ خلقِ الإنسان، وأطوارِ إيجاده، ورعايةِ اللهِ تعالى شأنه لتقلُّبِ خلقه؛ ليبدِّدَ شكَّهم في البعث.

وقال سبحانه في قصة صاحبِ الجنة: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ۝٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٣٨ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ

= وأبي صالح، والحسن، وقتادة. انظر: تفسير عبد الرزاق (٢/ ٣٧٩)، تفسير الطبري (١٥/ ٩٧).

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٧٩).

مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢].

«فإنكم إنما عَلِمْتُمُ النشأةَ الأولى في بطون أُمَّهَاتِكم، ومَبْدَأُها مما تُمْنُوْنَ، ولن نُغْلَبَ على أن ننشئكم نشأةً ثانيةً فيما لا تعلمون، فإذا أنتم أمثالُ ما كنتم في الدنيا في صُوَرِكُمْ وهيئاتكم، وهذا مِنْ كمالِ قدرةِ الربِّ تعالى ومشيئته، فلو تذكَّرتم أحوالَ النشأةِ الأولى، لدلَّكم ذلك على قدرةِ منشئها على النشأة التي كذَّبتم بها؛ فأيُّ استدلالٍ وإرشادٍ أحسنُ من هذا، وأقربُ إلى العقلِ والفهمِ، وأبعدُ من كلِّ شبهةٍ وشك؟! وليس بعدَ هذا البيانِ والاستدلالِ إلا الكفرُ بالله وما جاءتْ به الرسلُ والإيمان»[1].

الدليل الثاني: الاستدلالُ بخَلْقِ السمٰواتِ والأرض:

وقد رَدَّ اللهُ تعالى بهذا البرهانِ على مَنْ أنكرَ البعثَ؛ فقال سبحانه في سورة (المؤمنون):

﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ

(١) التبيان، في أقسام القرآن، لابن القيم (ص١٢٤).

يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨١ ـ ٨٩].

فردَّ عليهم إنكارَهُمْ للبعثِ والنشورِ ببيانِ كمالِ ربوبيَّته، وقيوميَّته على خَلْقه، فهو مالكُ الأرض، ومَنْ فيها، ومالكُ السمٰوات السبع، وربُّ العرشِ العظيم، والذي بيده مُلْكُ كلِّ شيء[1] وخزائنُهُ، والذي «يمنعُ مَنْ شاء ممَّن شاء، ولا يمنعُ أحدٌ منه أحدًا شاءَ أنْ يهلكَهُ أو يعذِّبه؛ لأنه هو القادرُ وحده على كلِّ شيء، وهو القاهرُ فوقَ عباده، وهو الحكيمُ الخبير»[2].

فمَنْ كان هذا شأنَهُ، فهو قادرٌ على بَعْثِهم بعد مَوْتهم، وجَمْعِ أجزائهم مهما تَفرَّقَتْ واستحالَتْ؛ فإنَّ الإعادةَ أهونُ في نظرِ العقولِ من بدءِ خلقِ هذه الأجرامِ الهائلةِ العظيمة.

وقد خاطَبَهُمُ القرآنُ في هذه الآياتِ على طريقةِ التقريعِ والتبكيت، وأتى بالسؤال، وتولَّى الإجابةَ عليه:

فقال في الآية الأولى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

«والجوابُ هنا محذوفٌ؛ ثقةً بدَلَالةِ الاستفهامِ عليه؛ أي: إن كنتم من أهل العلم، ومِنَ العقلاءِ، أو عالمينَ بذلك، فأَخْبِروني به!

وفي الآيةِ من المبالَغةِ في الاستهانةِ بهم، وتقريرِ فَرْطِ جهالتهم ما لا يخفى.

ويقوِّي هذا: أنه أخبَرَ على الجوابِ قبلَ أن يجيبوا؛ فقال سبحانه: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾؛ وذلك لأنَّ بداهة العقلِ تضطرُّهم إلى الاعترافِ بأنه

---

(١) لأن الملكوت من المُلْك، والتاءُ فيه للمبالغة. انظر: لسان العرب (١٠/ ٤٩٢).
(٢) أضواء البيان (٥/ ٣٥٠). وانظر: الكشاف (٣/ ٢٠٢).

سبحانه خالقُها؛ ولذلك جاء الجوابُ على اعترافهم تبكيتًا لهم: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٥]»[١].

وختَمَ الآياتِ **بقوله**: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٩]؛ **أي**: كيف تُخْدَعُونَ وتضلَّلون وتُصْرَفُونَ عن توحيدِهِ، وطاعتِهِ، بالشبهِ الباطلةِ، مع ظهورِ براهينِهِ القاطعة، وأدلتِهِ الساطعة؟![٢].

وردَّ اللهُ تعالى بهذا الدليلِ على مَنْ قال: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، **فقال تعالى**: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠].

ووجهُ هذا الدليل: أنَّ الحاملَ لهم على إنكارِ البعثِ والنشورِ هو الاستحالةُ؛ فكيف تعادُ الأرواحُ بعدَ زهوقها، وكيف تعادُ الأبدانُ بعد نفوقها؟!

فبيَّن لهم: أنَّ القادرَ على خَلْقِ هذه الأجرامِ الضخمة؛ قادرٌ مِنْ بابِ أولى على إعادةِ خلقِ الإنسان، الضعيفِ، الهَزيل.

ومِنْ لطيفِ الاستدلالِ بخَلْقِ الأجرامِ العظيمةِ على البعثِ: **قولُهُ تعالى**: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

---

(١) روح المعاني (١٨/ ٥٨) بتصرف يسير.

(٢) **انظر**: التفسير الكبير (٢٣/ ١٠١)، أضواء البيان (٥/ ٣٥٠)، روح المعاني (١٨/ ٥٨).

أي: يفصِّلُ لكم الآياتِ، ويبيِّنها، ويكرِّرها: لعلَّكم توقنون بأنكم ستُبْعَثُونَ، وتُلَاقُونَ ربَّكم، ومِنْ هذه الأدلة: قدرةُ اللهِ العظيمةُ على خلقِ هذه الأجرام الهائلة، وعلمُهُ المحيطُ بها، وهي تجري لأجلٍ مسمًّى معلومٍ؛ فمَنْ شَمِلَ عِلْمُهُ وقدرتُهُ هذه المخلوقاتِ، فمِنْ باب أَوْلى سيبعثكم مِنْ بعد موتكم.

الدليل الثالث: العدلُ بينَ البَشَر، يقتضي البعثَ والجَزَاءَ:

قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

فاللامُ تعليليَّةٌ؛ أي: يعيدُ الخَلْقَ بعدَ موتهم؛ ليَجْزِيَ المُحْسِنَ، ويحاسبَ المسيء[1].

فإنَّ مَنْ خلَقَ الخلقَ بعلمه، ثم سلَّط عليهم تكاليفَ الأمرِ والنهي؛ لا بدَّ أن يحاسبَهُمْ على ذلك.

ومِنْ هذا البابِ جاءتِ الآياتُ القرآنيةُ مؤكِّدةً هذا المعنى، ومُنْكِرةً على مَنْ ظنَّ أن يتركَ الحكيمُ الخبيرُ خلقَهُ سُدًى، دُونَ حسابٍ، ولا جزاء:

قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ [المطففين: ٤].

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]؛ أي: كيف يظنُّ أنْ يُتْرَكَ بعدَ موته، فلا يُبْعَثَ[2]، ولا يحاسب!

---

(١) انظر: التسهيل، لابن جزي (٨٩/٢)، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤٠٨/٢)، تفسير أبي السعود (١١٩/٤).

(٢) لم أجد هذا المعنى سوى في تفسير ابن كثير، ونسبه للسُّدِّيِّ، ولم أر من ذهب إليه، بل قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والحسن البصري، وهو قولٌ للسُّدِّي أيضًا: إن المقصود بالآية: أن يُتْرَكَ هَمَلًا، وباطلًا، لا يؤمر، ولا يُنهى. انظر: تفسير عبد الرزاق الصنعاني (٣٣٤/٣)، جامع البيان، للطبري (٢٠٠/٢٩ ـ ٢٠١)، تفسير =

ثم استدَلَّ على هذا الإنكارِ بما بعده مِنَ الآيات، وأنَّ مَنْ خلقَهُ مِنْ نطفةٍ، ثم عَلَقةٍ، ثم سوَّى خلقه، فلا بدَّ أن يحييه، ويحاسبه.

• ثالثًا: الأدلَّةُ الحِسِّيَّةُ:

الدليل الأول: إحياءُ بعض الموتى في دَارِ الدنيا[(١)]:

حيث ذَكَرَ اللهُ تعالى في خمسةِ مواطنَ من سورةِ البقرةِ إحياءَ اللهِ لبعضِ الموتى:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦].

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ

= ابن أبي حاتم (١٠/٣٣٨٩)، الدر المنثور (٨/٣٦٣)، حتى قال الإمام أبو عبد الله، محمد بن إدريس الشافعي ـ وهو مَنْ هو في معرفة لسان العرب، والتفسير ـ: «فلم يختلفْ أهلُ العلمِ بالقرآن ـ فيما علمت ـ أن السُّدَى الذي لا يؤمر ولا ينهى». **انظر**: الأم (٧/٢٩٨).

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/٤٥٣): «والظاهرُ أنَّ الآية تعمُّ الحالَيْن؛ **أي**: ليس يُتركُ في هذه الدنيا مُهمَلًا لا يُؤمَرُ ولا يُنهى، ولا يُتركُ في قبرِهِ سُدًى لا يُبعَثُ، بل هو مأمورٌ مَنهيٌّ في الدنيا، محشورٌ إلى الله في الدار الآخرة».

(١) **انظر**: أضواء البيان (٢/٣٤٠).

نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِىۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ووجهُ الدَّلالةِ من هذه الآياتِ: أنَّ مَنْ أحيا نفسًا واحدةً بعدَ موتها؛ قادرٌ على إحياءِ جميعِ النفوسِ؛ كما **قال تعالى**: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨].

والذي يعنينا مِنَ المواطنِ الخمسةِ الموطنان الأخيران؛ لأنهما جاءا في موطن الردِّ والإبطال لما خالَفَ الحقَّ.

ففي الآيةِ الأولى: ذكَرَ اللهُ تعالى عن بعضِ عبادِهِ أنه لما مَرَّ بأرضٍ قَفْرٍ مُجْدِبة، استبعَدَ أنْ تعودَ لها الحياةُ؛ فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَاۖ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وقد اختلَفَ المفسِّرون فيه[1]: فقيل: كان رجلًا؛ كافرًا، شاكًّا

---

(١) اختلف أهل العلم بالتفسير من القائل؛ فأخرَجَ ابن أبي حاتم (٢/ ٥٠٠)، قال: حدثنا عصام بن رواد، ثنا آدم، ثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق الهَمْداني، عن ناجية بن كعب الأسدي، عن علي بن أبي طالب: أنه عُزَيْرٌ ﷺ؛ وبه قال ابن عباس، والحسن، والضَّحَّاك، وقتادة؛ حيث قال: «هو عُزَيْرٌ مرَّ على قريةٍ خَرِبةٍ، فتعجَّب، فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩] أول النهار، فلبث مئة عام، ثم بعثه في آخر النهار، فقال: كم لبثتَ؟ قال: يومًا، أو بعضَ يوم، قال: بل لبثت مئةَ عام»؛ أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٠٦) عن معمر، عن قتادة؛ وهذا هو القول المشهور عن المفسِّرين.

وقال بعضُ المفسِّرين: هو رجلٌ من بني إسرائيل، فقيل هو: حزقيل بن بوار، وقيل: هو الخضر.

قال الطبري: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره عَجَّبَ =

في البعث، وقال جماهيرُ المفسِّرين: إنه كان مسلمًا.

فجعَلَ اللهُ تعالى إحياءَ حمارِهِ بعدَ أنْ أرِمَ وبَلِيَ آيةً له، ولكلِّ مَنْ يسمعُ خبرَهُ على إحياءِ اللهِ للموتى.

وقال تعالى في قصة إبراهيم: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فأمرَهُ اللهُ أنْ يأخُذَ أربعةً من الطير، فيَذْبَحَهُنَّ، ثم يَخْلِطَ بين لحومهن، وريشِهِنَّ ودمائهن، ثم يُجَزِّئَهُنَّ على أربعةِ أَجْبُلٍ، ثم يدعوهن، قال الحسن: «فلمَّا فعَلَ، نودي: أيتُهَا العظامُ المتمزِّقة، واللحومُ المتفرِّقة، والعروقُ المتقطِّعة، اجتمعْنَ يَرُدَّ اللهُ فيكنَّ أرواحَكُنَّ، فوثَبَ العظمُ إلى العظم، وطارتِ الريشةُ إلى الريشة، وجرى الدمُ إلى الدم، حتى رجَعَ إلى كلِّ طائرٍ دمُهُ ولحمُهُ وريشه»[1].

فكانتْ آيةً لإبراهيمَ عليه السلام ولمن بعده.

الدليل الثاني: إحياءُ الأرضِ بَعْدَ موتها:

وهذا دليلٌ حسيٌّ، قريبٌ من المخاطَبين، فهم يَرَوْنَ الأرضَ كيف

= نبيِّه ممَّن قال إذْ رأى قريةً خاويةً على عروشها: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، مع علمِهِ أنه ابتدأ خلقَهَا من غيرِ شيء؛ فلم يقنعه علمِهِ بقدرتِهِ على ابتدائها، حتى قال: أنَّى يحييها اللهُ بعد موتها؟ ولا بيانَ عندنا من الوجه الذي يصحُّ مِنْ قِبَلِهِ البيانُ على اسمِ قائلِ ذلك، وجائزٌ أن يكون ذلك عُزيرًا، وجائزٌ أن يكون إرميا، ولا حاجة بنا إلى معرفةِ اسمه؛ إذْ لم يكن المقصودُ بالآيةِ تعريفَ الخلقِ اسمَ قائل ذلك، وإنما المقصودُ بها تعريفُ المنكرينَ قدرةَ اللهِ على إحيائِهِ خلقَهُ بعد مماتهم، وإعادتِهِمْ بعدَ فنائهم، وأنه الذي بيده الحياة والموت...». انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٥٠٠)، تفسير الصنعاني (١/ ١٠٦)، تفسير الطبري (٣/ ٢٨)، تفسير ابن كثير (١/ ٣١٥)، الدر المنثور (٢/ ٢٦).

(١) عزاه في الدر المنثور (٢/ ٣٥) لابن المنذر.

تكونُ مقفرةً، مُجْدِبةً، فإذا أُنْزِلَ الغيثُ، انقلَبَ حالُها، وبُعِثَ جمالُها، وعادَتْ لها الحياةُ بعد ذهابها.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥ ـ ٧].

وقال سبحانه: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

وقال سبحانه: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩].

فجعَلَ إنباتَ الأرضِ بعدَ قَفْرِها آيةً على إحياءِ الأبدانِ بعدَ تحلُّلِها، وتفرُّقِها، استدلالًا بالنظيرِ على نظيرِهِ؛ فلِقُرْبِ الاستدلالِ بإحياءِ الأرضِ على إحياءِ البشرِ؛ عبَّر عن الأمرَيْنِ بالإخراجِ؛ **فقال:** ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾، **وقال:** ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[1].

الدليل الثالث: إخراجُ النار من الشَّجَرِ الأَخْضَرِ:

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٨٠].

وهذا دليلٌ حسيٌّ مشاهدٌ قريبٌ من المخاطَبين، يَرَوْنَهُ، ويعانونه، وهو استدلالٌ بالقدرةِ الإلهيَّةِ على إخراجِ الضدِّ من ضده؛ فمَنْ يُخْرِجُ الحيَّ من الميت، ويخرجُ الميتَ من الحي، يخرجُ النارَ الحارَّةَ اليابسة،

---

(١) انظر: إعلام الموقعين (١/ ١٨٦).

من الغصن البارِدِ، الرَّطْب، وهو الذي يعيدُ الحياةَ للجسمِ الميِّت، فيحيي ما أَرِمَ مِنَ العظام، وما بلي مِنَ الأبدان[١].

قال في التسهيل: «هذا دليلٌ آخَرُ على إمكانِ البعث؛ وذلك أنَّ الذين أنكروه من الكفَّارِ والطبائعيِّين، قالوا: طبعُ الموتِ يضادُّ طبعَ الحياة، فكيف تصيرُ العظامُ حيةً، فأقام اللهُ عليهم الدليلَ من الشجرِ الأخضرِ الممتلئ ماء[٢]، مع مضادَّةِ طبعِ الماءِ للنارِ...»[٣].

طرقُ القرآنِ في إبطالِ قولهم:

أولًا: ترهيبُ المكذِّبين مِنْ يومِ البعثِ الذي ينكرونَهُ، لإيقاظِ وِجْدانِهم، وتحريكِ مَشاعِرِهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٢٩ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٩، ٣٠].

فلمَّا ذكَرَ إنكارَهُمُ البعثَ، أعقَبَهُ بوصفِ حالهم حين يُحْشَرُونَ إلى الله، وهو حالُ البعثِ الذي أنكروه.

وهذا أسلوبٌ قرآنيٌّ فريدٌ في المناظرة، ففي خِضَمِّ عَرْضِ شبهتهم، وما هم فيه من باطل القول، ينتقلُ بهم الموقفُ إلى لحظةِ وقوفهم بين يَدَي الله تعالى يسألهم عن بَعْثِهم بعدَ موتهم بأسلوبِ استفهامٍ تقريري!

---

(١) يُنظر في دلالة هذه الآية: التفسير الكبير (٢٦//٩٦)، إعلام الموقعين، لابن القيم (١/١٩٨)، الصواعق المرسلة، له أيضًا (٢/ ٤٧٥)، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٥٨٣).

(٢) نبَّه ابن عاشور في التحرير والتنوير (٢٣/ ٧٧) بأن المرادَ بالخُضْرةِ هنا كنايةٌ عن الرُّطُوبة، فالله أعلم.

(٣) انظر: التسهيل، لعلوم التنزيل، لابن جُزَيٍّ (٣/ ١٦٧).

وحينئذٍ لا يجدون سوى التسليمِ والاعترافِ: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ [الأنعام: ٣٠].

«وأكَّدوا ذلك بالقَسَم؛ تحقيقًا لاعترافِهِمْ للمعتَرَفِ به؛ لأنَّه معلومٌ لله تعالى؛ أي: نُقِرُّ ولا نشكُّ فيه، فلذلك نقسمُ عليه.

فشبَّه حالَهُمْ في الحضورِ للحسابِ بحالِ عبدٍ جَنَى، فقُبِضَ عليه، فوقَفَ بين يَدَيْ ربِّه، وبذلك تظهرُ مزيةُ التعبيرِ بلفظ: ﴿رَبِّهِمۡۚ﴾ دونَ اسمِ الجَلَالة»[١].

ويتبع هذا: توبيخُهُمْ يومَ القيامة؛ **قال تعالى**: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا﴾ [الكهف: ٤٨].

ثانيًا: الاستدلالُ بخَبَرِ اللهِ تعالى، وخبَرِ رسولِهِ ﷺ على إمكانيَّةِ البعثِ بعدَ الموت؛ وهذا الدليلُ السمعي.

ثالثًا: الاستدلالُ بالأدلَّةِ العقليَّةِ؛ كالقياسِ على النشأةِ الأولى، وعلى خَلْقِ السمٰواتِ والأرض، وتسخيرِ الشمسِ والقمر؛ وهذا كلُّه من بابِ قياس الأولى.

رابعًا: الاستدلالُ بالأدلَّةِ الحِسِّيَّةِ، وقد مضى بيانُ ذلك.

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٢٤٥).

المَطْلَبُ الرَّابِعُ

المَقُولاتُ المتعلِّقةُ بالقَضَاءِ والقَدَر

• أولًا: كُفْرُهُمْ بالقضاءِ والقَدَر:

ذكَرَ اللهُ عز شأنه عن الكافرينَ أنهم كانوا يَنْعَوْنَ على مَنْ يخرُجُ للغزو، أو التجارة، فيلقى حَتْفَهُ، ويزعمونَ أنه لو مكَثَ بين أظهرهم، لَمَا أصابَهُ مكروه، ولا لَحِقَهُ أذًى؛ **قال تعالى في شأنهم:**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

فذكَرَ اللهُ تعالى مقالَتَهُمْ في سياقِ التنفيرِ منها، ومِنْ أصحابها، ثم كَرَّ عليها بالإبطال، وبيانِ سفاهةِ قائليها، ونَقْصِ عقولهم!

أما مقولتُهُمْ فكانت: ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾.

وفي الآيةِ محذوفٌ يدلُّ عليه الكلامُ، والتقديرُ: إذا ضرَبُوا في الأرض، فماتوا، أو كانوا غزاةً، فقُتِلُوا؛ لو كانوا عندنا، ما ماتوا، وما قتلوا؛ **فقوله:** ﴿مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ يَدُلُّ على موتهم وقتلهم(١).

فزعَمُوا أنَّ مَنْ مات، أو قُتِلَ في غَزَاة، لو لم يَخْرُجْ إليها، لَمَا مات، ولَمَا قتل!

وقال تعالى عن المنافقين: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

---

(١) تفسير الواحدي (١/ ٢٣٩).

وهذا إخبارٌ من الله تعالى عن المنافقين في غَزْوَةِ بَدْرٍ، لمَّا استَحَرَّ القتلُ بالمسلمينَ، قالوا: لو كنا نملِكُ مِنَ الأمرِ شيئًا، ما قُتِلْنَا ههنا، فعن الزُّبَيْر بن العَوَّام، قال: «واللهِ، إني لَأَسْمَعُ قولَ معتِّب بن قُشَيْرٍ أخي بني عمرو بن عوف، والنعاسُ يغشاني ما أسمعُهُ إلا كالحُلْمِ حين قال: لو كان لنا مِنَ الأمرِ شيءٌ، ما قُتِلْنَا هاهنا»[1].

وقد أبطَلَ القرآنُ مقولةَ هؤلاءِ الكافرين مِنْ أربعةِ وجوه:

أولها: بيانُ أنَّ الأقدَار بِيَدِ اللهِ تعالى، فهو الذي يحيي ويميت، وهو البصيرُ بعباده، العالمُ بِمَصَالِحِهِمْ في الدارَيْن: ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٥٦]، **وقال**: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، **وقال**: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

الثاني: تحدِّيهم بأنْ يستطيعوا بتخلُّفهم أن يدفعوا الموتَ عن أنفسهم؛ **فقال سبحانه**: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

الثالث: بيانُ أنَّ ما قالوه من خصالِ الكفار، فصدَّرَ المقولةَ بوصفِ قائليها بالكُفْر، تنفيرًا، وتحذيرًا.

الرابع: أنَّ حكمةَ اللهِ تعالى اقتضَتْ أن يُهْزَمَ المسلمونَ في معركةِ أُحُدٍ، لغاياتٍ يعلمُها سبحانه، منها: الابتلاءُ والامتحان، حتى يَتميَّزَ المؤمنُ من المنافق؛ **قال سبحانه**: ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ «فاللامُ متعلِّقةٌ بفعلٍ متأخِّرٍ، تقديره: وليبتلي وليمحِّص فعلَ هذه الأمورِ الواقعة، والابتلاءُ هنا: هو الاختبارُ،

---

(١) أخرجه الطبري (٤/ ١٤٣)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٩٥)؛ كلاهما من طريق ابن إسحاق، ثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير، عنه، به. قال عبد الواحد المقدسي في الأحاديث المختارة (٣/ ٦٠): «إسناده حسن».

والتمحيصُ: تخليصُ الشيءِ مِنْ غيره، **والمعنى**: لِيَخْتَبِرَهُ، فَيَعْلَمَهُ عِلْمًا مساوقًا لوجودِهِ، وقد كان متقرِّرًا قبلَ وجودِ الابتلاءِ أزلًا، وذاتُ الصدورِ: ما تنطوي عليه مِنَ المعتقَدات؛ هذا هو المرادُ في هذه الآية»[1].

الخامس: التحذيرُ من مشابَهَتِهِمْ في هذه الخَصْلةِ الذميمة؛ فنهى اللهُ سبحانه عبادَهُ أن يتشبَّهوا بالقائلين: لو كان كذا وكذا، لَمَا وقَعَ قضاؤُهُ بخلافه.

وقد قال النبي ﷺ: (**وَإِيَّاكَ وَاللَّوَّ؛ فَإِنَّ اللَّوَّ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**)[2].

السادس: أنَّ مَنْ ترَكَ الإيمانَ بالقضاءِ والقدر، أُورِثَ حسرةً في قلبه؛ لكثرةِ ما يتندَّمُ على ما وقَعَ به من مكروه، ويتحسَّر على ما فاته من محبوب، بخلافِ المؤمنِ بالقضاءِ والقدر؛ فإنه يقول: (**قَدَرُ اللهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ**)[3]، فتسكُنُ نفسُهُ، وتَقَرُّ عينُهُ، ولا يصيبُهُ إلا ما كتَبَ اللهُ له.

• ثانيًا: الاحتجاجُ بالقَدَرِ على المَعَايِبِ:

قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٨، ١٤٩].

وفي آية النحل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

---

(١) المحرر الوجيز، لابن عطية (١/ ٥٢٩).

(٢) أخرجه مسلم، باب في الأمر بالقوَّة، وتركِ العجز، والاستعانةِ بالله، وتفويضِ المقادير لله، رقم (٢٦٦٤).

(٣) جزء من الحديث السابق، وتمامه: (**وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ، كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**).

وقال في سورة الزخرف عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠].

وقال في سورة (يس): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧].

وقد تضَمَّنتِ الآياتُ الثلاثُ الأُوَلُ: دعوى المشركينَ: أنَّ اللهَ لو شاءَ، ما عَبَدُوا مِنْ دُونِهِ من شيء، ولا أَشْرَكُوا به شيئًا[1].

وتضمَّنت الآيةُ الرابعةُ التي في سورة (يس) احتجاجَهُمْ بالمشيئةِ المطلقةِ على تركِ فعلِ الخير.

وكذَّبهم اللهُ تعالى في الآياتِ الأَرْبَع؛ **فقال في آيةِ الأنعام:**

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٨، ١٤٩].

والذي فعلَهُ الذين مِنْ قبلهم: هو الكُفْرُ بالله، والكذبُ على الله في جعلِ الشركاءِ له، وأنَّهم حرَّموا ما لم يحرِّمه؛ فأخبَرَ أنه كافَأَهُمْ على

(١) ذهب بعضُ العلماء إلى أن هذه الآيات الثلاث ليست من باب المقولاتِ الباطلة؛ ومن هؤلاء مجاهد، والنحاس؛ حيث قال في معاني القرآن له (٧/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥): «هذه آيةٌ مُشْكِلَةٌ، وقد تكلَّم فيها العلماء؛ فَمِنْ أحسن ما قالوا: أن قوله ﷻ: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الزخرف: ٢٠] مردودٌ إلى قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾؛ فالمعنى: أن الله جل وعز لم يَرُدَّ عليهم قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]؛ وإنما المعنى: ما لهم بقولهم: «الملائكةُ بناتُ اللهِ» مِنْ علم، وما بعده يدلُّ على أن المعنى على هذا؛ لأن بعده: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢١]؛ أي: أم أنزلنا عليهم كتابًا فيه هذا، وفي الآيةِ قولٌ آخر: وهو أن معنى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾، ما لهم عذرٌ في هذا؛ لأنهم رأوا أن ذلك عذر لهم، فردَّ الله ذلك عليهم؛ فالردُّ محمولٌ على المعنى».

افترائهم بتعذيبهم، ثم وبّخهم على هذا الافتراء؛ **فقال لهم**: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ **أي**: هل عندكم من علمٍ يأمُرُكُمْ فيه ربُّكم بالشركِ، وتحريمِ ما لم يحرِّم؟

وقال في آية النحل: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النحل: ٣٣].

وقال في الزخرف: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠].

والتكذيبُ الذي أطلقَهُ القرآنُ في حقِّهم قد يُظَنُّ أنه منافٍ لما أثبتَهُ القرآنُ في مواضعَ متعدِّدة؛ **كقوله**: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: ١٠٧]، **وقولِهِ تعالى**: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، **وقولِهِ تعالى**: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣].

فتحريرُ القول: «أنَّ مرادَ الكفارِ بقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقولِهِمْ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] مرادُهُمْ به: أنَّ اللهَ لمَّا كان قادرًا على منعهم مِنَ الشرك، وهدايتِهِمْ إلى الإيمان، ولم يَمْنَعْهُمْ من الشركِ؛ دَلَّ ذلك على أنه راضٍ منهم بالشركِ في زَعْمِهم، قالوا: لأنه لو لم يكنْ راضيًا به، لَصَرَفَنَا عنه؛ فتكذيبُ اللهِ لهم في الآياتِ المذكورةِ منصبٌّ على دَعْواهم أنه راضٍ به، واللهُ جل وعلا يكذِّبُ هذه الدعوى في الآيات المذكورة **وفي قوله**: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]؛ فالكفارُ زَعَمُوا أنَّ الإرادةَ الكونيَّةَ القدريَّةَ تستلزمُ الرضا، وهو زعمٌ باطل، وهو الذي كذَّبهم اللهُ فيه من الآياتِ المذكورة»[1].

(١) أضواء البيان (٧/ ٩٢ ـ ٩٣)، وهذا التوجيه رجَّحه السمعاني في تفسيره (٢/ ١٥٥)، وابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٣٠٨)، والشوكاني في فتح القدير (٤/ ٥٥٠)، والآلوسي في روح المعاني (٢٥/ ٧٢).

قال أبو السعود[١]: «فمبنى كلامِهِمُ الباطلِ على مقدمتَيْن:

إحداهما: أنَّ عبادتَهُمْ لهم بمشيئتِهِ تعالى.

والثانيـة: أنَّ ذلك مستلزمٌ لكونها مرضيَّةً عنده تعالى.

ولقد أخطؤوا في الثانية؛ حيثُ جَهِلُوا أنَّ المشيئةَ عبارةٌ عن ترجيحِ بعضِ المُمْكِناتِ على بعضٍ كائنًا ما كان، مِنْ غيرِ اعتبارِ الرضا أو السخطِ في شيءٍ من الطرفَيْن؛ ولذلك جُهِّلُوا بقوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ [الزخرف: ٢٠]؛ **أي:** بما أرادوا بقولهم ذلك مِنْ كونِ ما فعلوه بمشيئتِهِ الارتضاء، لا بمطلقِ المشيئة؛ فإنَّ ذلك محقَّقٌ يَنْطِقُ به ما لا يحصى مِنَ الآياتِ الكريمة»[٢].

«وقيل: إنهم كانوا يقولون: إنَّ الله أمَرَنَا بالشرك؛ **كما قال في الأعراف:** ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

وكأنَّ قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ **أي:** هو الذي أمرنا بالشرك؛ فالردُّ في هذا لا في حصولِ الشركِ بمشيئته؛ فإنه حقٌّ وصدقٌ، وبه يقول أهل السُّنَّة»[٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧].

يخبرُ اللهُ تعالى عن المشركين[٤] أنهم جَمَعُوا جملةً من الضلالات، والعصيانِ، ومن ذلك: أنهم كانوا يمتنعونَ عن الإنفاقِ على المحتاجين،

---

(١) هو: الشيخ محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، توفي سنة (٩٥١هـ). **انظر:** طبقات المفسِّرين، للداوودي (١/ ٣٩٨).

(٢) تفسير أبي السعود (٨/ ٤٣).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٩٢ ـ ٩٣).

(٤) أغرب الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ أن الخطاب لليهود. **انظر:** تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣١٩٧).

والمساكين، فإذا قيل لهم: أَطْعِمُوا هؤلاءِ المَحَاوِيجَ، والمساكينَ، أجابوا بالاحتجاجِ بالمشيئةِ الإلهيَّة، فقالوا: لو شاءَ اللهُ إطعامَهُمْ، لأطعمهم؛ فِلِمَ نُطْعِمُهم؟!

«وهذا مما يدلُّ على جَهْلِهم العظيم، أو تجاهُلِهم الوخيم؛ فإنَّ المشيئةَ ليستْ حجةً لعاصٍ أبدًا؛ فإنه وإنْ كان ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فإنه تعالى مكَّن العبادَ، وأعطاهُمْ من القوَّةِ ما يَقْدِرُونَ به على فعلِ الأمرِ واجتنابِ النهي، فإذا تركوا ما أُمِرُوا به، كان ذلك اختيارًا منهم، لا جبرًا لهم، ولا قهرًا»(١).

وفي عَدِّ فعلهم هذا، وقِيلِهِمْ في عدادِ ما جاؤوا به مِنَ الطوامِّ والبلايا؛ ذَمٌّ لِمَا وقَعَ منهم؛ حيثُ قرَنَ اللهُ تعالى احتجاجَهُمْ بتركِ النفقةِ، مع شركهم باللهِ تعالى، وإنكارِهِمْ للبعثِ والنشور.

كما أنَّ إظهارَ الموصولِ مِنْ قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأحقاف: ٧] في مقام الإضمار، مع أن مقتضى الظاهرِ أنْ يقال: (قالوا: أَنُطْعِمُ)؛ لبيانِ أنَّ صدورَ هذا القولِ منهم إنما هو لأجلِ كُفْرِهم، ولأجلِ إيمانِ

---

(١) تفسير الكريم الرحمٰن (ص٦٩٧)، وقد يكونُ المرادُ بقولهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧]: الامتناعَ عن إطعامهم، فيقولون: لا نطعمُ مَنْ لو يشاء الله لأطعمه، وإذا كان هذا رزقناه الله، فلماذا لم يرزقكم، فلو شاء الله، لأطعمكم كما أطعمنا! فيكون كلامُهم تعنتًا، واستهزاء.

وقد ذهب بعضُ المفسِّرين إلى القول بأن قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧] خطابٌ من الله تعالى، وردٌّ على المشركين. قال الشاطبي: «فهذا منهم امتناعٌ عن الإنفاق بحجةٍ قَصْدِهم فيها الاستهزاءُ، فردَّ عليهم بقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ لأن ذلك حَيْدٌ عن امتثال الأمر، وجوابُ أنفقوا أن يُقال: نَعَمْ أو لا، وهو الامتثالُ أو العصيان، فلمَّا رجعوا إلى الاحتجاج على الامتناع بالمشيئةِ المطلقةِ التي لا تعارض، انقلَبَ عليهم من حيثُ لم يعرفوا؛ إذ حاصله أنهم اعترضوا على المشيئةِ المطلقةِ بالمشيئةِ المطلقةِ؛ لأن الله شاء أن يكلِّفهم الإنفاق، فكأنهم قالوا: كيف يشاء الطلبَ منا، ولو شاء أن يطعمهم لأطعمهم، وهذا عينُ الضلالِ في نفس الحجة». الموافقات (٣/ ٣٥٥ ـ ٣٥٨).

الذين سُئِلَ الإنفاقُ عليهم(١).

وقريبٌ من هذه الآياتِ احتجاجُ المناهضينَ لدعوةِ النبيِّ ﷺ بأنَّ اللهَ طَبَعَ على قلوبهم:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]، وقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

فزَعَمُوا: أنَّ قلوبهم في أَكِنَّةٍ مِنْ سماعِ الحقِّ؛ فأبطَلَ اللهُ تعالى ادعاءَهُمْ؛ **فقال**: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وجاء إبطالُ مقولتهم بـ﴿بَلْ﴾ للإضرابِ الإبطاليِّ، والباءُ في **قوله**: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ سببيَّةٌ؛ **أي**: أن سببَ الطبعِ على قلوبهم، هو كُفْرُهم، والأكنةُ، والوَقْرُ، والطبعُ: كلُّها من باب واحد.

مع أنه تعالى أثبَتَ هذا الأمرَ في مواطنَ أُخَرَ؛ **كقوله تعالى**: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥]، ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧].

وهذا لا تَنَاقُضَ فيه؛ «فاللهُ إنما جعَلَ على قلوبهم الأكنةَ، وطبَعَ عليها، وختَمَ عليها، وجعَلَ الوَقْرَ في آذانهم، ونحوَ ذلك من الموانعِ من الهدى؛ بسببِ أنهم بادروا إلى الكُفْر، وتكذيبِ الرسلِ، طائعين مختارين؛ فجزاهم اللهُ على ذلك الذنبِ الأعظمِ: طَمْسَ البصيرة،

---

(١) **انظر**: التحرير والتنوير (٢٣/ ٨٣).

والعَمَى عن الهدى، جزاءً وفاقًا، فالأكنةُ، والوَقْرُ، والحجابُ المذكورة: إنما جعَلَهَا اللهُ عليهم مجازاةً لكفرهم الأوّل، ومِنْ جزاءِ السيئةِ: تَمَادِي صاحبِها في الضلال، وللهِ الحكمةُ البالغةُ في ذلك»[١].

وقد أبطَلَ القرآنُ العظيم دعوى الكفارِ هذه بأربعةِ طُرُقٍ:

أولًا: تكذيبُهُمْ في دعواهم وزَعْمِهِمْ أنَّ اللهَ أمرَهُمْ بالشركِ، أو رضيه لهم؛ بدليلِ تَرْكِهِمْ عليه؛ **فقال**: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وقال في سورة الأعراف: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٢٨].

ثانيًا: نَفْيُ استنادِهِمْ إلى علمٍ يُحْتَجُّ به في هذه الدعوى؛ **فقال في الزخرفِ بعدَ سياقِ مقولتهم**: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف: ٢١].

ثالثًا: بيانُ حقيقةِ حالهم، وأنَّهم لم يؤمروا بالكُفْرِ، ولم يُقَرُّوا عليه، ولم يجدوا أثارةً من علمٍ في دعواهم تلك، وإنما سائقُهُمْ في ذلك هو تقليدُهُمْ لآبائهم التقليدَ الأعمى؛ **فقال**: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]؛ **أي**: شريعة وملة، وهي الكفر وعبادة الأوثان.

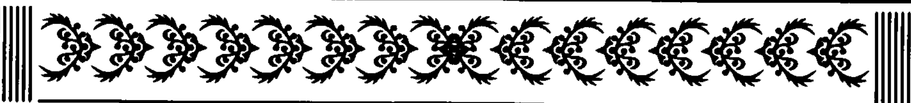
رابعًا: إثباتُ نقيضِ دعواهم، وأنَّ الله تعالى قد أرسَلَ الرسلَ، وأنزَلَ الكُتُبَ؛ لعبادتِهِ وحده لا شريكَ له؛ **فقال**: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٥ ـ ٦).

مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

فأبانَ في هذه الآيةِ الكريمة: أنه بعَثَ في كلِّ أمةٍ رسولًا، وأَمَرَهُمْ أن يَعْبُدُوا اللهَ، ويجتنبوا عبادةَ ما سواه.



ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي

المَقُولاتُ المتعلِّقةُ بالتشريعِ

وفيه سبعةُ مباحثَ:

- المبحث الأول: اعتراضُهُمْ على وقوعِ النسخِ في القرآن.
- المبحث الثاني: اعتراضُهُمْ على تحويلِ القِبْلَة.
- المبحث الثالث: المَقُولاتُ المتعلِّقةُ بالجهاد، وفيه مطلبان:
  - المطلب الأول: التخلُّفُ عن الخروجِ للجهاد.
  - المطلب الثاني: التنفيرُ من الخروجِ للجهاد.
- المبحث الرابع: قولُ الرَّجُلِ لزوجتِهِ: أنتِ عليَّ كظَهْرِ أُمِّي.
- المبحث الخامس: انتسابُ الرجلِ لغيرِ أبيه.
- المبحث السادس: المَقُولاتُ المتعلِّقةُ بتحكيمِ الشريعة، وفيه مطلبان:
  - المطلب الأول: الإعراضُ عن تحكيمِ الشريعة.
  - المطلب الثاني: الاعتراضُ على أمرِ اللهِ وشَرْعِهِ.
- المبحث السابع: افتراءاتُ المُشْرِكينَ في التحليلِ والتحريم، وفيه خمسة مطالب:
  - المطلب الأول: التحريمُ والتحليلُ بالتحكُّمِ والهوى.
  - المطلب الثاني: تحريمُ بعضِ الأنعامِ والزروعِ على بعضهم.
  - المطلب الثالث: تحريمُ جُزْءٍ من الأنعام.
  - المطلب الرابع: تركُ التسميةِ على الأنعام.
  - المطلب الخامس: تحريمُ اللَّبنِ، وأَجِنَّةِ الأنعامِ على النساء.



المَبْحَثُ الأَوَّلُ

اعتراضُهُمْ على وقوعِ النَّسْخِ في القرآن

أخبَرَ اللهُ تعالى عن المشركينَ أنهم قالوا: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١].

فأخبر ـ جل شأنه ـ أنَّ هؤلاءِ المشركينَ إذا وقَعَ نسخٌ وتبديلٌ في القرآنِ العظيم مِنْ قِبَلِ الله تعالى، اتخذوا ذلك ذريعةً للطعنِ في القرآن، والطعنِ في النبي ﷺ، فجعلوه مفتريًا، والقرآنَ مفترًى!

قال مجاهد: «نَسَخْناها: بَدَّلناها، رفعناها وأثبتنا غيرها»(١).

قال ابن زيد: «قالوا: تأتي بشيء وتنقُضُهُ فتأتي بغيره، قال: وهذا التبديلُ ناسخٌ، ولا نبدِّلُ آيةً مكانَ آية إلا بنسخ»(٢).

قال ابن عباس: «هو عبدُ اللهِ بنُ سعد، أو غيرُهُ، الذي كان واليًا بمصرَ يكتُبُ لرسولِ الله ﷺ، فزَلَّ، فلَحِقَ بالكفار، فأمَرَ به رسولُ الله ﷺ أن يُقْتَلَ يوم الفتح، فاستجارَ له عثمانُ بنُ عفان رسولَ اللهِ ﷺ، فأجاره رسولُ الله ﷺ»(٣).

وقد فسَّر ابن عباس هذه الآيةَ بالنسخ، وضرَبَ أمثلةً للنسخِ وقَعَتْ

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري (١٤/ ١٧٦) من طريق حجاج، عن ابن جريج، عنه، به، وروى عنه ابنُ أبي نجيح قريبًا من هذا اللفظ.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري (١٤/ ١٧٦) من طريق ابن وهب، عنه، به.

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه (/ ٣٣٦١)، وقال: حديث صحيح الإسناد، ولم يخرِّجاه.

في القرآن(١).

وقد أبطَلَ القرآنُ العظيمُ هذه المقولةَ من أوجه:

الوجه الأول: إثباتُ وقوعِ النسخِ في القرآن، وأنَّ الله تعالى شأنه يبدِّلُ منه ما شاء في فترةِ الوحيِ والتـنـزيل، فإذا انقطَعَ الوحي، انقطَعَ النسخ(٢).

الوجه الثاني: أنَّ هذا النسخَ إنما هو بعلمِ الله، وعلمُهُ بما يُصْلِحُ عبادَهُ، ويَصْلُحُ لهم؛ فهو يشرعُ لعباده في أوقاتٍ دُونَ أوقاتٍ ما هو أوفقُ لهم، وأرفقُ بهم(٣)؛ ولذلك أتى بالجوابِ في صورةِ اعتراضٍ، فكان أبلَغَ في الردِّ عليهم(٤).

---

(١) فعن عكرمة، عن ابن عباس، في قولِهِ تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النحل: ١٠١] الآيَةَ، وقال تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]، فأوَّلُ مَا نُسِخَ مِنَ القرآنِ القِبْلَةُ، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٤]، فنُسِخَ مِنْ ذلكَ فقال: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩].
أخرجه النسائيُّ في السنن الصغرى، رقم (٣٤٩٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٤٠١)، وأخرجه النسائي (/ ٣٥٥٤)، وفيه: «وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ إلى قولِهِ: ﴿إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨] وذلكَ بِأَنَّ الرَّجُلَ كان إذا طَلَّقَ امرأتَهُ، فهو أَحَقُّ بِرَجْعَتِها، وإنْ طَلَّقَهَا ثَلاثًا فنَسَخَ ذلكَ فقال: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]».

(٢) **انظر**: الناسخ والمنسوخ، للنحاس (١/ ٤١ ـ ٤٣)؛ حيث أنكَرَ رَحِمَهُ اللهُ على القائلين بأن النسخ حقٌّ للإمام!

(٣) **انظر**: جامع البيان، للطبري (١٤/ ١٧٦)، التسهيل، لعلوم التـنـزيل، لابن جزي (٢/ ١٦٢)، المحرر الوجيز، لابن عطية (٣/ ٤٢٠)، زاد المسير (٤/ ٤٩١)، التبيان، في أقسام القرآن، لابن القيم (ص١٤٤)، الدر المنثور (٥/ ١٦٧).

(٤) **انظر**: البرهان، في علوم القرآن، للزركشي (٣/ ٥٩).

الوجه الثالث: إثباتُ جهلِ المنكرينَ للنسخِ والتبديل، والجاهلُ لا يُرْجَعُ لقوله، ولا يُوثَقُ بعلمه؛ ولذلك **قال سبحانه**: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١].

الوجه الرابع: تأكيدُ إثباتِ النسخ؛ بإثباتِ أصلِ القرآن، وأنه منزَّلٌ من الله تعالى، نزَلَ به رُوحُ القُدُسِ، جبريلُ ﷺ.

الوجه الخامس: إشارةٌ لحِكَمٍ جليلةٍ من حِكَمِ التبديلِ والنسخ؛ وهي: تثبيتُ المؤمنين؛ فإنَّ الأحكامَ التشريعيَّةَ قد تَنْزِلُ على التدريج، ويقَعُ في هذا التدريجِ تبديلٌ ونسخ، وفي كلٍّ هذا: تثبيتٌ للمؤمنين، ورحمةٌ وهدايةٌ بهم، «وفيه تعريضٌ بحصولِ أضدادِ هذه الخصالِ لغيرهم»[١].

الوجه السادس: أنَّ الله تعالى شأنه: «كذَّب جميعَ المشركينَ بافترائِهِمْ على الله، وأخبَرَ أنهم أحقُّ بهذه الصفة مِنْ رسولِ الله ﷺ؛ فقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]»[٢].

فمن رأى آيةً لا يأتي بها إلا نبيٌّ، ثم كذَّب بها، فهو المفترِي الكاذبُ[٣].

---

(١) **انظر**: فتح القدير، للشوكاني (٣/ ١٩٤).
(٢) **انظر**: جامع البيان، للطبري (١٤/ ١٨١).
(٣) **انظر**: معاني القرآن، للنحاس (٤/ ١٠٦).



المَبحَثُ الثَّانِي

اعتراضُهُمْ على تحويلِ القِبْلَةِ

قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

عن البَرَاء بن عازب رضي الله عنهما: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ صلَّى إلى بيتِ المَقْدِسِ ستةَ عشَرَ شهرًا، أو سبعةَ عشَرَ شهرًا، وكان يعجبُهُ أن تكونَ قبلته قِبَلَ البيت، وأنه صلَّى، أو صلَّاها، صلاةَ العصر[1]، وصلَّى معه قومٌ، فخرَجَ رجلٌ ممَّن كان صلَّى معه، فمَرَّ على أهلِ المسجد وهم راكعون، قال: أَشْهَدُ بالله، لقد صلَّيتُ مع النبيِّ ﷺ قِبَلَ مكة، فداروا كما هم قِبَلَ البيت، وكان الذي مات على القِبْلةِ قَبْلَ أن تُحوَّلَ قِبَلَ البيتِ رجالًا قُتِلُوا، لم نَدْرِ ما نقولُ فيهم، فأنزَلَ الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أنَّ رسولَ الله ﷺ لمَّا هاجَرَ إلى المدينةِ،

---

(١) وفي سنن النسائي، رقم (١١٠٠٤) من حديث أبي سعيد بن المعلَّى قال: «كُنَّا نَغْدُو لِلسُّوقِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَنَمُرُّ عَلَى الْمَسْجِدِ، فَنُصَلِّي فِيهِ، فَمَرَرْنَا يَوْمًا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَاعِدٌ عَلَى الْمِنبَرِ، فَقُلْتُ: لَقَدْ حَدَثَ أَمْرٌ فَجَلَسْتُ، فَقَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، حَتَّى فَرَغَ مِنَ الآيَةِ، قُلْتُ لِصَاحِبِي: تَعَالَ نَرْكَعُ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَنَكُونَ أَوَّلَ مَنْ صَلَّى، فَتَوَارَيْنَا فَصَلَّيْنَا، ثُمَّ نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَصَلَّى لِلنَّاسِ الظُّهْرَ يَوْمَئِذٍ».

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، رقم (٤٢١٦)، ومسلم في الصلاة، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة، رقم (٥٢٥).

أمره اللهُ أن يستقبلَ بيتَ المقدسِ، ففَرِحَتِ اليهودُ، فاستقبلها رسولُ الله ﷺ بضعةَ عشَرَ شهرًا، وكان رسولُ الله ﷺ يحبُّ قبلةَ إبراهيم، فكان يدعو الله، وينظُرُ إلى السماء، فأنزَلَ اللهُ جلَّ شأنه ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤]؛ أي: نحوه، فارتاب من ذلك اليهودُ، وقالوا: ما ولَّاهم عن قِبْلَتِهِمُ التي كانوا عليها؟ فأنزَلَ الله: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢][(١)]».

فأفاد هذان الأثران: أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى إلى بيتِ المقدسِ منذُ هجرتِهِ إلى المدينة؛ لحكمةٍ أرادها الله تعالى، وهي الابتلاءُ والاختبار؛ كما قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣][(٢)].

وأنَّ النبيَّ ﷺ تحوَّل إلى مكةَ بعدَ بِضْعةَ عشَرَ شهرًا.

فاستَغَلَّ اليهودُ ـ كما في الروايةِ السابقة[(٣)] ـ والمنافقون[(٤)] تحوُّلَهُ هذا، وتَبِعَهُمْ على هذا المشركون.

---

(١) أخرجه الطبري (٢/ ٤) من طريق علي بن أبي طلحة، عنه، به.

(٢) ولعل في ذلك أيضًا تلطفًا باليهود رجاءَ أن يُسْلِموا معه.

(٣) وبه فسَّره البراء، وابن عباس، وكثيرٌ من المفسرين. **انظر**: جامع البيان (٢/ ٥)، تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٤٧).

(٤) فعن ابن عباس، قال: «لَمَّا صُرِفَتِ القِبْلَةُ عَنِ الشَّامِ، إِلَى الكَعْبَةِ، وَصُرِفَتْ فِي رَجَبٍ عَلَى رَأْسِ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا مِنْ مَقْدَمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ المَدِينَةَ، أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ رِفَاعَةُ بْنُ قَيْسٍ، وَقَرْدَمُ بْنُ عَمْرٍو، وَكَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ، وَنَافِعُ بْنُ أَبِي نَافِعٍ؛ هَكَذَا قَالَ ابن حُمَيْدٍ، وَقَالَ أَبُو كُرَيْبٍ: وَرَافِعُ بْنُ أَبِي رَافِعٍ، وَالْحَجَّاجُ بْنُ عَمْرٍو حَلِيفُ كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ، وَالرَّبِيعُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ، وَكِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، مَا وَلَّاكَ عَنْ قِبْلَتِكَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا وَأَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَدِينِهِ؟ ارْجِعْ إِلَى قِبْلَتِكَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا، نَتَّبِعْكَ وَنُصَدِّقْكَ، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ فِتْنَتَهُ عَنْ دِينِهِ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٢، ١٤٣]؛ أي: =

وقد أجمَلَ السديُّ هذا الأمر؛ فقال: «لمَّا وُجِّهَ النبيُّ ﷺ قِبَلِ المسجدِ الحرامِ، اختلَفَ الناسُ فيها؛ فكانوا أصنافًا:

فقال المنافقون: ما بالُهم كانوا على قِبْلةٍ زمانًا، ثم تَرَكُوها وتوجَّهوا غيرها.

وقال المسلمون: ليتَ شِعْرَنا عن إخواننا الذين ماتوا وهم يُصلُّونَ قِبَلَ بيتِ المقدس؛ هل يَقْبَلُ اللهُ منا ومنهم أم لا.

وقال اليهود: إنَّ محمدًا اشتاقَ إلى بلدِ أبيه، ومَوْلِدِهِ، ولو ثبَتَ على قبلتنا، لكنا نرجو أن يكونَ هو صاحبَنَا الذي ننتظر!

وقال المشركون مِنْ أهلِ مكَّة: تحيَّر على محمَّد دِينُهُ، فتوجَّه بقبلتِهِ إليكم، وعَلِمَ أنكم أهدى منه، ويُوشِكُ أن يَدْخُلَ في دينكم؛ فأنزَلَ اللهُ في المنافقين: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ١٤٢، ١٤٣]، وأنزَلَ في الآخرينَ الآياتِ بعدها»[١].

فلفظُ السفهاءِ شاملٌ لكلِّ هذا اللفيف: من اليهودِ، والمنافقينَ، ومشركي مكَّة، ومَنْ في قلبه مَرَضٌ.

وأصلُ السَّفَهِ: الخِفَّةُ، والطيشُ، فيقالُ للجاهلِ: سفيهٌ؛ لطيشِهِ، ويقالُ لمن قَلَّ عَقْلُه، أو ضَعُفَ رأيُهُ: سفيه[٢].

فوصَفَ اللهُ تعالى أصحابَ هذه المقولةِ بالسفهاء؛ لخفةِ عقولهم،

= ابتلاءً واختبارًا، ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾؛ أي: ثبَّت الله، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾: يقول: صلاتكُمْ بالقِبْلَةِ الأولى، وتَصْدِيقَكُمْ نبيَّكم واتباعَكُمْ إيَّاهُ إلى القِبْلَةِ الآخِرَةِ؛ أي: لَيُعْطِيَنَّكُمْ أجْرَهُمَا جَمِيعًا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، إلى قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٢ ـ ١٤٧]»؛ أخرجه ابن جرير (٢/٣)، وابن أبي حاتم (١/٢٤٨).

(١) أخرجه الطبري (٢/٥) من طريق أسباط.

(٢) **انظر:** لسان العرب (سفه) (١٣/٤٩٩).

وقلةِ عِلْمهم، وضِيقِ عَطَنهم؛ فخِفَّةُ عقولهم أوجَبَتْ لهم الاعتراضَ على أمرِ الله تعالى، وقلةُ عِلْمهم أوجَبَتْ لهم استهجانَ حُكْمِ الله، وضيقُ عَطَنِهِمْ أوجَبَ لهم المبادرةَ لإنكارِ أمرِ الله، والله أعلم.

وقد أبطَلَ اللهُ تعالى مقولةَ هؤلاءِ من طرق:

أولها: أنَّ الحكمَ والتصرُّفَ والأمرَ كلَّه لله تعالى، فهو ربُّ المشرقِ والمغربِ، وأينما توجَّه عابدوه بأمره، فهو في وجهتهم؛ **قال تعالى:** ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]؛ **أي:** الشأنُ كلُّه في امتثالِ أوامرِ الله، فحيثُما وَجَّهَنَا، توجَّهنا؛ فالطاعة في امتثالِ أمره، ولو وَجَّهَنا في كلِّ يوم مراتٍ إلى جهاتٍ متعدِّدة، فنحنُ عبيده، وفي تصرُّفه، وخُدَّامُهُ حيثما وَجَّهَنَا، توجَّهنا»[١].

فردَّ على اليهود الذين أخلُّوا بمصدرِ التلقِّي، فكانوا كما أخبَرَ اللهُ تعالى عنهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١][٢].

ثانيها: أنَّ هذه القبلةَ هي الهدايةُ إلى الصراطِ المستقيم؛ ولذلك **قال:** ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٩١).

(٢) وفيه ردٌّ على الذين يُقدِّسُون البقاعَ، وقد أخرج الإمام مالك في الموطأ، رقم (١٤٥٩) عن شيخه يحيى بن سعيد؛ أن أبا الدرداءِ كتَبَ إلى سَلْمانَ الفارسيِّ: «أنْ هَلُمَّ إلى الأرضِ المقدَّسةِ»، فكتَبَ إليه سَلْمانُ: «إنَّ الأرضَ لا تُقَدِّسُ أحدًا، وإنما يُقَدِّسُ الإنسانَ عَمَلُهُ». قال سيد قطب: «فالجهاتُ، والأماكنُ لا فَضْلَ لها في ذاتها، وإنما يُفَضِّلُهَا، ويُخَصِّصُها: اختيارُ اللهِ وتوجيهُهُ، وعن طريقِها يسيرونَ إلى صراطٍ مستقيم؛ بذلكَ يُقرِّرُ حقيقةَ التصورِ للأماكنِ والجهات، وحقيقةَ المصدرِ الذي يَتلقَّى منه البشَرُ التوجيهات، وحقيقةَ الاتجاهِ الصحيح، وهو الاتجاهُ إلى اللهِ في كلِّ حال». في ظلال القرآن (١/ ١٣٠).

ومن الهدايةِ إلى الصراطِ المستقيمِ: أنْ تُنْسَخَ القِبْلَةُ إلى البيتِ الحرام:

فهو مأوَى الأفئدة، ومَحَلُّ أمنها؛ **قال تعالى:** ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، **وقال:** ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وهو قِوَامٌ لأمرِ الناس؛ **قال تعالى:** ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، وقِوَامَةُ البيتِ تشملُ القوامةَ الدنيويَّة، والقوامةَ الأخرويَّة.

وهو موضعُ تشريفٍ لم يَنَلْهُ مسجدٌ قبله؛ فالله تعالى هو الذي اختاره؛ **قال سبحانه:** ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، ولشرفه عنده أضافه لنفسه؛ **فقال:** ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ [قريش: ٣].

وهذه الهدايةُ هي التي ضَلَّ عنها أهلُ الكتابِ قبلَ هذه الأمةِ؛ أخبَرَ عنها النبيُّ ﷺ؛ كما روَتْ أمُّنا عائشةُ رضي الله عنها: «إنَّهم لا يَحْسُدُونا على شيءٍ كما يَحْسُدونا على يومِ الجمعةِ التي هدانا اللهُ لها وضَلُّوا عنها، وعلى القِبْلةِ التي هدانا اللهُ لها وضَلُّوا عنها، وعلى قَوْلِنا خَلْفَ الإمامِ: آمِينَ»[1].

ثالثها: أنَّ تحويلَهم إلى البيتِ الحرامِ لغايةِ أن يكونوا هُمُ الشهداءَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، رقم (٢٥٠٧٣)، وابن خزيمة في صحيحه، رقم (٥٧٤)، وصَحَّحه، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم (٢٢٧١)، وصحَّحَهُ الحافظ المنذري في الترهيب والترغيب (١/ ١٩٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسُّنَّة فيها، باب: الجهر بالتأمين، رقم (٨٥٦)، ولفظه: «ما حَسَدَتْكُمُ اليهودُ على شيء، ما حَسَدَتْكُمْ على السَّلام، والتأمين»، صحَّحَه البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١٠٦) وقال: «هذا إسنادٌ صحيحٌ احتجَّ مُسْلِمٌ بجميع رواته». انظر: فتح الباري (١١/ ٤).

على الناس يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فجعل تحويلَهم للقبلةِ غايةً لجعلِهِمْ خيارَ الأمم؛ وذلك بكونهم شهداءَ على الأممِ؛ لأنَّ الجميعَ معترفون لهم بالفضلِ، وعلوِّ المَكَانة؛ فخصَّهم الله باستقبالِ البيت، وخصَّهم بأكملِ الشرائعِ، وأقومِ المناهجِ، وأوضحِ المذاهب[١].

فالوسَطُ: هو العَدْلُ، والخِيَار[٢]، وكذلك هذه الأمَّة، هي وسَطٌ في شَرْعِها، وأهلُها خيارٌ عدولٌ في حُكْمِهم.

رابعها: أنَّ في تحويلِ القبلةِ حِكَمًا لله تعالى، منها: اختبارُ نفوسِ المؤمنين، وفتنةُ القلوبِ المريضة؛ قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣].

والقبلةُ التي كانوا عليها هي التوجُّهُ لبيتِ المقدس؛ فإنَّ الله تعالى أوجَبَ على النبيِّ ﷺ أنْ يَتوجَّهَ في صلاتِهِ لبيتِ المقدس[٣]؛ فكان ﷺ إبَّانَ وجودِهِ في مكَّةَ يجعلُ البيتَ بينه وبين بيتِ المقدس[٤]، فلمَّا هاجَرَ للمدينةِ، استقبَلَ بيتَ المقدس، واستَدْبَرَ الكعبة.

قال قتادة: «كانتِ القبلةُ فيها بلاءٌ وتمحيص... وقد يبتلي الله

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم (١/ ١٩٢). (٢) انظر: جامع البيان (٢/ ٦ ـ ٧).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الصلاة، باب القبلة، رقم (١٠١٠) من طريق أبي إسحاق السبيعي، عن البراء بن عازب، قال: «صَلَّيْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَصُرِفَتِ الْقِبْلَةُ إِلَى الْكَعْبَةِ بَعْدَ دُخُولِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ بِشَهْرَيْنِ»، وأخرجه الدارقطني من نفس الطريق (١/ ٢٧٣)، وليس فيه: «وصُرِفَتِ القِبْلَةُ إلى الكعبةِ بعدَ دخولِهِ إلى المدينةِ بشهرَيْنِ»، وهو مخالفٌ لما في الصحيح، وقد سبق قبل صفحات.

(٤) حكاه الزهري. انظر: فتح الباري (٣/ ٤٥٥).

العبادَ بما شاء مِنْ أمرِهِ الأمرَ بعدَ الأمر؛ لِيَعْلَمَ مَنْ يطيعُهُ ممَّن يعصيه، وكلٌّ ذلك مقبولٌ إذا كانَ في إيمانٍ باللهِ، وإخلاصٍ له، وتسليمٍ لقضائه»[١].

---

(١) أخرجه الطبري (٢/ ١٢) من طريق بشر بن معاذ، عن يزيد بن سعيد، عنه، به. وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٥١).



المَبْحَثُ الثَّالِثُ

المقولاتُ المتعلِّقةُ بالجهادِ في سبيلِ اللهِ تعالى

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التخلُّفُ عن الخروجِ للجهاد.

المطلب الثاني: التنفيرُ من الخروجِ للجهادِ في سبيلِ الله.

المَطْلَبُ الأَوَّلُ
التخلف عن الخروج للجهاد

الآية الأولى

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩].

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لمَّا أراد النبيُّ ﷺ أن يَخْرُجَ إلى غزوةِ تَبُوكَ، قال لِجَدِّ بنِ قيس: **(مَا تَقُولُ فِي مُجَاهَدةِ بَنِي الأَصْفَر)؟**

فقال: «إنِّي أخشى إنْ رأيتُ نساءَ بني الأصفرِ أنْ أُفْتَنَ فائْذَنْ لي ولا تَفْتِنِّي»؛ فأنزَلَ الله: **﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾** [التوبة: ٤٩][١].

«فقالوا: ائْذَنْ لنا، ولا تَفْتِنَّا بالنساءِ».

فأبطَلَ اللهُ تعالى دعواهم في قولِهِ: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ بأمرَيْن:

أولهما: أنَّهم وقَعُوا بِعِصْيانهم في الفِتْنة؛ فقال: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾؛ أي: أنَّ الفتنةَ الحقيقيَّةَ هي التي سقَطُوا فيها، وهي فتنةُ التخلُّف عن الجهاد، ومعصيةُ الله، ومعصيةُ رسولِهِ ﷺ أعظَمُ من الفتنةِ التي يخافون الوقوعَ فيها[٢].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، رقم (١٢٦٥٤) من طريق الضَّحَّاك بن مزاحم، عنه، به، قال في مجمع الزوائد (٧/ ٣٠): «وفيه يحيى الحماني؛ وهو ضعيف»، وعزاه في الدُّر المنثور (٤/ ٢١٣) لابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبي الشيخ. وفي تفسير الطَّبَري آثار مرسلة عن التابعين. يُنظر منه: (١٠/ ٤٢).

(٢) انظر: الكشاف، للزمخشري (٢/ ٢٥٦)، تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٦٣)، تفسير الكريم الرحمٰن (١/ ٣٣٩).

وقيل: إنَّ انكشافَ حالهم للمؤمنينَ هو الفِتْنةُ الحقيقيَّةُ التي ادَّعُوا الفرارَ منها(١).

«وفي التعبير عن الافتتانِ بالسقوطِ في الفتنةِ: تنزيلٌ لها منزلةَ المهواةِ المُهْلِكةِ، المُفْصِحَةِ عن تردِّيهم في دَرَكاتِ الردى أسفلَ سافلين.

﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ﴾ [التوبة: ٤٩]؛ أي: في عينها ونفسها، ﴿سَقَطُوا۟﴾: لا في شيءٍ مغايرٍ لها، فضلًا عن أنْ يكونَ مَهْرَبًا ومخلصًا عنها؛ وذلك بما فَعَلُوا من العزيمةِ على التخلُّف، والجراءةِ على الاستئذانِ بهذه الطريقةِ الشنيعة، ومِنَ القعودِ بالإذنِ المبنيِّ عليه، وعلى الاعتذاراتِ الكاذبة.

وفي التصديرِ بحرفِ التنبيهِ مع تقديمِ الظرفِ إيذانٌ بأنهم وقَعُوا فيها، وهم يحسبون أنها مَنْجًى من الفتنة؛ زعمًا منهم أنَّ الفتنةَ إنما هي التخلُّفُ بغيرِ إذن»(٢).

الثاني: دخولُ النارِ؛ فقال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩]: وهذا توعُّدٌ شديدٌ لهم، فجعَلَ النارَ محيطةً بهم كيف ما تقلَّبوا؛ فهي مآلُهم ومصيرُهم(٣).

الآية الثانية

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ [الفتح: ١١].

وهذه الآيةُ نزَلَتْ بعد أنْ طلَبَ النبيُّ ﷺ مِنْ قبائلِ العربِ المحيطةِ بالمدينةِ أن يَخْرُجوا معه إلى مكةَ؛ للاعتمار، وتحسُّبًا لما قد يطرأُ في مسيره.

---

(١) **انظر:** المحرر الوجيز، في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٤٢).

(٢) **انظر:** تفسير أبي السعود (٤/ ٧٢) بتصرف.

(٣) **انظر:** المحرر الوجيز، في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٤٢).

قال مجاهدٌ عن الأعراب: هم: «أعرابُ المدينة: جُهَيْنة، ومُزَيْنة، استتبعهم لخروجِهِ إلى مكة، قالوا: نذهبُ معه إلى قومٍ قد جاؤوه فقَتَلُوا أصحابه؛ فنقاتلهم، فاعتلُّوا بالشغل!»(١).

وقيل: إنَّ هذا التخلُّفَ كان بعدَ أنْ قفَلَ النبيُّ ﷺ من الحديبية، وتوجَّه إلى خيبر.

قال جُوَيْبِرٌ: «كان النبيُّ ﷺ حين انصرَفَ من الحديبيةِ، وسار إلى خيبر، تخلَّفَ عنه أناسٌ من الأعراب، فلَحِقُوا بأهاليهم»(٢).

وهذه الآيةُ ذكَرَتِ المقولةَ قبلَ أن يقولها هؤلاءِ الأعرابُ، فأخبَرَتْ أنهم سيعتذرون عن تخلُّفهم بانشغالهم بالأموالِ والأولاد.

فجَمَعُوا في عُذْرِهم بينَ الأموالِ والأولاد؛ ليمنعوا عن أنفسهم اللَّوْمَ؛ لأنَّ انشغالَ الإنسانِ بالمالِ لا يَعْذِرُهُ في التخلُّف؛ فضمُّوا لذلك الانشغالَ بالأهل(٣).

---

(١) أخرجه الطبري (٢٦/٧٨) من طريق ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عنه، به. وجويبرٌ هو جابر بن سعيد الأزدي البلخي، يُكنى بجويبر، يروي التفسير عن عكرمة، توفي بعد سنة (١٤٠هـ)، وهو ضعيفٌ في الحديث، لم يعبأ الأئمة بنقله، لكن ما كان من باب التفسير، أو النقل عن الضَّحَّاك، فمحتملٌ. انظر: تقريب التهذيب (ص١٤٣)، التهذيب (٢/١٠٦).

(٢) أخرجه عن جويبر عبد بن حُمَيْد؛ كما في الدر المنثور (٧/٥١٨)، وهو مرسلٌ؛ كما ترى، وعند ابن مردويه: عن ابن عباس، قال: «انْصَرَفَ رسولُ اللهِ ﷺ من الحُدَيْبِيَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ حَتَّى إذا كَانَ بين الْمَدِينَة وَمَكَّة، نزَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْفَتْح، فَقَالَ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، إِلَى قَوْله: ﴿عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١ ـ ٣]، ثمَّ ذكَرَ اللهُ الأَعْرَابَ ومخالَفَتَهُمْ للنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿خَبِيرًا﴾ [الفتح: ١١] ثـمَّ قَـالَ لـلأعـراب: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إِلَـى قَـوْلِـهِ: ﴿سَعِيرًا﴾ [الفتح: ١٢، ١٣]، ثمَّ ذكَرَ الْبَيْعَةَ، فَقَالَ: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]؛ لفتح الْحُدَيْبِيَة». انظر: الدر المنثور (٧/٥٢٤).

(٣) انظر: التفسير الكبير، للرازي (٢٨/٧٦).

فأبطَلَ اللهُ تعالى قولَهُمْ مِنْ أربعةِ أوجه:

الوجه الأول: كشفُ حقيقةِ أمرِهم، وأنَّ تخلُّفهم لم يكن لانشغالهم، **ولكنْ لِمَا انطَوَتْ عليه نفوسُهُم المريضةُ من:**

١ ـ سوءِ الظنِّ باللهِ تعالى، وسوءِ الظنِّ بما سينقلبُ به النبيُّ ﷺ والمؤمنونَ معه مِنْ مسيرهم ذلك؛ ويدُلُّ على هذا الوجه **قوله تعالى**: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١١، ١٢].

فبيَّن أنهم ظنوا السيِّئَ من الظنِّ؛ فتعذَّروا عن الخروجِ معه، وهذا الظنُّ الذي ظنوه: يشبهُ أنْ يكونَ ـ والله أعلم ـ الشكَّ بما كان عليه النبيُّ ﷺ؛ فظنُّوا أنَّ اللهَ سيَخْذُلُهُ، ولن ينصره؛ وهذا ضربٌ من النفاقِ انطَوَتْ عليه نفوسُهم، يرجِّحه الوجهُ الثالثُ في الردِّ عليهم.

٢ ـ ولِمَا كانوا عليه من النفاقِ؛ كما **قال تعالى**: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

وقال بعضُ المفسِّرين(١): إن ما عناه الله تعالى **بقوله**: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ هو اعتذارُهُمْ، فهم يقولون: استَغْفِرْ لنا، وكأنهم نَدِمُوا على ما فرَّطوا فيه، وهم في الحقيقةِ لا يعتقدونَ ذلك.

الوجه الثاني: معالجةُ سبَبِ مرضِ قلوبهم؛ وذلك أنهم أُتُوا من ضعفِ ثقتهم باللهِ تعالى، وضعفِ توكُّلهم عليه، فأخبَرَهُمْ أنَّ أَزِمَّةَ الأمورِ

---

(١) كابن جرير رَحِمَهُ اللهُ حيث اقتصرَ عليه، ولم يذكر الوجه الأول. انظر: جامع البيان (٢٦/ ٧٨)، التفسير الكبير (٢٨/ ٧٧)، تفسير البيضاوي (٥/ ٢٠٢)، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ١٩٠).

بيدِ اللهِ تعالى، فما كتبه لا مُبدِّلَ له، فإنْ أراد بهم سوءًا، فلن يمنعهم تخلُّفهم عن الخروجِ منه، ولن يمنعهم العُذْر، وإبداءُ التوبةِ منه أيضًا.

كما أنه لو أراد بهم نفعًا، فلن يثنيه عنهم ما سيلاقونه مِنَ القتالِ ونَصَبِه.

وهذا الردُّ من أبلغِ ما تُداوَىٰ به النفوس، إذا ادْلَهَمَّتِ الخطوب، وشَحَّتِ النفسُ أن تَبْذُلَ في سبيلِ الله تعالى.

الوجه الثالث: تهديدُ المنافقين، ومرضى القلوبِ منهم، أصحابِ الظنِّ السيئ بالله تعالى، بأنَّ مصيرَهُمْ جهنَّمُ وساءت مصيرًا؛ **فقال سبحانه**: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ [الفتح: ١٣].

الوجه الرابع: إظهارُ حقيقتهم؛ حيثُ أبانَ أنَّ هؤلاءِ القومَ كما أنهم يفرُّون عندَ الهلَع، فهم يَكْثُرُونَ عند الطمع؛ **فقال في التبيين بحالهم**: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: ١٥].

قال جُوَيْبِرٌ في تتمَّة أثره السابق:

«كان النبيُّ ﷺ حِينَ انصرَفَ من الحديبيةِ، وسار إلى خَيْبَر، تخلَّفَ عنه أناسٌ من الأعرابِ، فلَحِقُوا بأهاليهم، فلمَّا بَلَغَهُمْ أنَّ النبيَّ ﷺ قد افتتَحَ خَيْبَر، ساروا إليه وقد كان أمرُهُ ألَّا يعطي أحدًا تَخَلَّفَ عنه مِنْ مغنم خيبر، ويقسم مَغْنَمَهَا مَنْ شَهِدَ الفتحَ، وذلك **قوله**: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾؛ **يعني**: ما أمَرَ اللهُ نبيَّه ﷺ ألَّا يعطي أحدًا تخلَّف عنه مِنْ مغنمِ خَيبَرَ شيئًا».

وهذه عقوبةٌ لهم مِنْ جنسِ عملهم؛ فهم تخلَّفوا عندَ المغرمِ، فعوقبوا بالحِرْمانِ عندَ المغنم، والله تعالى أعلم.

المَطْلَبُ الثَّانِي

التنفير من الخروج للجهاد في سبيل الله

الآية الأولى

ذكَرَ اللهُ عز شأنه عن المنافقين[1] أنهم كانوا يَنْهَوْنَ غيرَهم عن القتالِ في سبيلِ الله، ويستغلُّون ما يصيبُ المؤمنينَ في سبيلِ ذلكَ ـ من قتلٍ، أو جَرْحٍ، أو نَصَبٍ، أو وَصَبٍ ـ لمنهجهم ذلك؛ **فقال تعالى في شأنهم:**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٦ ـ ١٥٨].

فذكَرَ اللهُ تعالى مَقالَتَهُمْ في سياقِ التنفيرِ منها، ومِنْ أصحابها، ثم كَرَّ عليها بالإبطال، وبيانِ سفاهةِ قائليها، ونَقْصِ عقولهم!

أمَّا مقولتُهم فكانتْ: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾.

فزعَمُوا أنَّ من مات، أو قُتِلَ في غَزَاة، لو لم يَخْرُجْ إليها، لَمَا مات، ولَمَا قتل؛ وهذا لضعفِ دينهم، وقلةِ فهمهم.

قال مجاهدٌ والسُّدِّيُّ: هذا قولُ عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ بنِ سَلُولَ،

---

(١) وقد قال بعض أهل التفسير أن هذه الآيات نَزَلَتْ في الكفار، قال الحسن: «هذا قول الكفَّار إذا مات الرجلُ يقولون: لو كان عندنا ما مات، فلا تقولوا كما قال الكفار». انظر: الدُّر المنثور (٢/ ٣٧٥). والآية محتملة للأمرين، والله أعلم.

والمنافقين(١).

وهو الراجحُ؛ لأنَّ الله تعالى ذكَرَ في ختامِ الآياتِ المنافقين، وكرَّر هذا الفعلَ في سياقِ كلامِهِ عن المنافقين.

قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٧، ١٦٨].

وقد تضمَّن كلامُهم جُرْمَيْنِ كبيرَيْن:

أما أولهما: فضعفُ إيمانِهِمْ بالقضاءِ والقَدَر؛ وقد عدَّ اللهُ ذلك كفرًا كما في مَطْلَعِ الآية.

ثانيهما: نَهْيُ المؤمنينَ عن الخروجِ للقتالِ في سبيلِ الله؛ وذلك أنَّهم كانوا يُرْهِبُونَ من أرادَ الخروج، ويخوِّفونه من الموتِ أو القتلِ؛ كما في هذه الآية، وكما في **قوله تعالى:** ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١]، **وقولِهِ:** ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨].

وقد نهى اللهُ سبحانه عبادَهُ أن يتشبَّهوا بالقائلين: لو كان كذا وكذا، لَمَا وقَعَ قضاؤُهُ بخلافه؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبيُّ ﷺ: **(وَإِيَّاكَ وَاللَّوَّ؛ فَإِنَّ اللَّوَّ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ)**(٢).

---

(١) أخرجه ابن جرير الطَّبَري في تفسيره (٤/ ١٤٧) من طريق ابن أبي نجيح، عن مجاهد، ومن طريق أسباط، عن السُّدِّي، وانظر: الدُّر المنثور (٢/ ٣٧٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤).

وعن عوف بن مالك؛ أنَّ النبيَّ ﷺ قضى بين رجلَيْنِ، فقال المقضيُّ عليه ـ لما أدبَرَ ـ: حَسْبُنا اللهُ ونعمُ الوكيلُ، فقال النبيُّ ﷺ: **«إنَّ اللهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ، فَقُلْ: حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»**[1].

«فنهى النبيُّ ﷺ أن يقولَ عن جَرَيانِ القضاءِ ما يضرُّهُ ولا ينفعُهُ، وأمرَهُ أنْ يَفْعَلَ من الأسبابِ ما لا غِنَىٰ له عنه، فإنَّ أعجزَهُ القضاءُ، قال: حَسْبِيَ اللهُ، فإذا قال: حَسْبِيَ اللهُ، بعدَ تعاطي ما أمرَهُ من الأسباب، قالها وهو محمودٌ؛ فانتَفَعَ بالفعلِ والقولِ، وإذا عجَزَ وترَكَ الأسباب، وقالها، قالها وهو ملومٌ بتركِ الأسبابِ التي اقتضتها حكمةُ اللهِ ﷻ؛ فلم تَنْفَعْهُ الكلمةُ نَفْعَهَا لِمَنْ فعَلَ ما أُمِرَ به»[2].

وقد أبطَلَ القرآنُ مقولةَ هؤلاءِ المنافقين مِنْ سبعةِ وجوه:

أولًا: وَصْفُهُمْ بالكفرِ في قولهم تلكَ المقولةَ.

ثانيًا: بيانُ أنَّ الأقدارَ بِيَدِ اللهِ تعالى؛ فهو الذي يحيي ويميت، وهو البصيرُ بعباده، العالمُ بمصالحهم في الدارَيْن: ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٥٦]؛ «فإنَّ المحييَ والمُمِيتَ هو اللهُ، ولا تأثيرَ لشيءٍ آخرَ في الحياةِ والموت، وأنَّ علمَ اللهِ لا يَتغيَّرُ، وأنَّ حُكْمَهُ لا ينقلبُ، وأنَّ قضاءَهُ لا يتبدَّلُ؛ فكيفَ ينفعُ الجلوسُ في البيتِ من الموت؟!»[3].

ثالثًا: إبطالُ وَهْمِهِم، حيثُ ظنوا أنَّ مَنْ ماتَ في سبيلِ اللهِ قد خَسِرَ الدنيا وحُطَامَها، وما يجمعُهُ فيها أهلُها؛ فما عندَ اللهِ تعالى لِمَنْ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، رقم (٢٤٠٢٩)، وأبو داود، في كتاب الأقضية، باب الرجل يحلف على حقه، رقم (٣٦٢٧)، والنسائي في كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يقول إذا غلبه أمر، رقم (١٠٤٦٢)، والطبراني في الكبير، رقم (١٣٩)، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم (٢٠٥١٤).

(٢) الوابل الصيب، لابن القيم (١/ ٢٢٩).

(٣) التفسير الكبير (٩/ ٤٦).

قُتِلَ في سبيله، أو مات على نيةِ القتالِ في سبيلِ الله: خيرٌ من الدنيا وما عليها: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧].

«فالموتُ لا بدَّ واقعٌ، ولا محيصَ للإنسانِ مِنْ أن يُقْتَلَ أو يموت، فإذا وقَعَ هذا الموتُ، أو القتلُ في سبيلِ الله، وفي طَلَبِ رِضْوانه؛ فهو خيرٌ من أنْ يُجْعَلَ ذلك في طلبِ الدنيا ولذَّاتها التي لا ينتفعُ الإنسانُ بها بعدَ الموتِ البتة، وهذا جوابٌ في غايةِ الحسنِ والقوَّة؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ إذا توجَّه إلى الجهادِ، أعرَضَ قلبُهُ عن الدنيا، وأقبَلَ على الآخرة، فإذا ماتَ فكأنه تخلَّص عن العدو، ووصَلَ إلى المحبوب، وإذا جلَسَ في بيتِهِ خائفًا من الموت، حريصًا على جَمْعِ الدنيا، فإذا مات، فكأنه حُجِبَ عن المعشوق، وأُلْقِيَ في دارِ الغُرْبة، ولا شكَّ في كمالِ سعادةِ الأوَّل، وكمالِ شقاوةِ الثاني»[(١)].

ولذلك قال: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٦]؛ أي: «إنَّ هذه الحسرة إنما تحصُلُ يومَ القيامةِ في قلوبِ المنافقين إذا رَأَوْا تخصيصَ اللهِ المجاهدينَ بمزيدِ الكَرَامات، وإعلاءِ الدرجات، وتخصيصَ هؤلاءِ المنافقينَ بمزيدِ الخِزْيِ واللعنِ والعقاب»[(٢)].

رابعًا: وَصْفُ ما أفضى إليه الشهداءُ عندَ ربِّهم بالمغفرةِ والرحمةِ: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

«فرحمةُ اللهِ ومغفرتُهُ خيرٌ من نعيمِ الدنيا؛ **لوجوه**: **أحدها**: أنَّ مَنْ يطلُبُ المالَ، فهو في تَعَبٍ من ذلكَ الطَّلبِ في الحال، ولعلَّه لا ينتفعُ به غدًا؛ لأنه يموتُ قبلَ الغد، وأمَّا طلَبُ الرحمةِ والمغفرة؛ فإنه لا بدَّ وأنْ ينتفع به؛ لأنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ وعده، **وثانيها**: هبْ أنه بَقِيَ إلى الغد؛ لكنْ

---

(١) التفسير الكبير (٩/٤٦). (٢) المرجع السابق.

لعلَّ ذلك المالَ لا يبقى إلى الغد، فكم مِنْ إنسانٍ أصبَحَ أميرًا، وأمسى أسيرًا، وخيراتُ الآخرةِ لا تزول؛ **لقوله:** ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٤٦]، **ولقوله:** ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، **وثالثها:** بتقديرِ أن يبقى إلى الغد، ويبقى المالُ إلى الغد، لكنْ لعله يحدُثُ حادثٌ يمنعك عن الانتفاعِ به؛ مثلُ: مَرَضٍ، وألمٍ، وغيرِهما، ومنافعُ الآخرةِ ليستْ كذلك، **ورابعها:** بتقديرِ أنه في الغدِ يمكنُك الانتفاعُ بذلك المال، ولكنْ لذَّاتُ الدنيا مشوبةٌ بالآلام، ومنافعُهَا مخلوطةٌ بالمَضَارِّ، وذلك مما لا يخفى، وأمَّا منافعُ الآخرةِ فليستْ كذلك، **وخامسها:** هَبْ أنَّ تلك المنافعَ تحصُلُ في الغدِ خالصةً عن الشوائب، ولكنَّها لا تدومُ، ولا تستمرُّ، بل تنقطعُ وتفنى، وكلَّما كانت اللذةُ أقوى وأكمَلَ، كان التأسُّفُ والتحسُّرُ عند فواتها أشدَّ وأعظَمَ، ومنافعُ الآخرةِ مصونةٌ عن الانقطاعِ والزوال، **وسادسها:** أنَّ منافعَ الدنيا حسيةٌ، ومنافعُ الآخرةِ عقليَّةٌ، والحسيةُ خسيسة، والعقليَّةُ شريفة؛ أَتَرَى أنَّ انتفاعَ الحمارِ بلذَّةِ بطنِهِ وفرجِهِ يساوي ابتهاجَ الملائكةِ المقرَّبينَ عند إشراقِها بالأنوارِ الإلهية؟!»[١].

خامسًا: التذكيرُ بأنَّ مَنْ مات على فراشه، أو قُتِلَ في سبيلِ الله، ومَنْ عُمِّرَ في هذه الدنيا، أو مات في شبابه، كلُّهم سيحشرونَ إلى الله تعالى؛ فيجازي كلُّ عبد بما يستحقه!

وقوله: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨]: «**يفيدُ الحصرَ، معناه:** إلى اللهِ يُحْشَرُ العالمون؛ لا إلى غيره، وهذا يَدُلُّ على أنه لا حاكمَ في ذلك اليوم، ولا ضارَّ، ولا نافعَ، إلا هو؛ **قال تعالى:** ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، **وقال تعالى:** ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]»[٢].

---

(١) التفسير الكبير (٩/٤٦).
(٢) المرجع السابق.

سادسًا: إبطالُ تصوُّرِ المنافقين بأنَّ الحياةَ هي هذه الدنيا التي يعيشونها، ويتمتَّعون بها، بل الحياةُ الحقيقيَّةُ هي ما أعدَّهُ اللهُ تعالى لمن قتل في سبيله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١].

وفي هذا السياقِ تحضيضٌ للمؤمنين ألا يلتفتوا إلى مقولةِ المنافقينَ المثبِّطين؛ فإخوانُهُمُ الشهداءُ يستبشرونَ بالمجاهدين الذين لم يَكْتُبِ اللهُ لهم الشهادةَ بعدُ، وأنهم في دارٍ لا خوفَ فيها، ولا حُزْنَ، بل في فضلِ الله تعالى الذي لا يُضِيعُ أَجْرَ المؤمنين.

سابعًا: تحدِّي القائلين بدفعِ الموتِ حالَ حصوله عن أنفسهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

ولا شكَّ أنهم لا يستطيعون دَرْءَ الموتِ عن أنفسهم، فساعةُ الأجلِ لا يَمْنَعُها تخفِّي صاحبِها، ولا تمنُّعُهُ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ﴾ [النساء: ٧٨].

فإذا كانوا لا يستطيعونَ دَرْءَ الموتِ عن أنفسهم حالَ تخبِّيهِمْ، وتمنُّعِهِمْ من الخروجِ؛ فكيف يزعمونَ أنَّ عدَمَ الخروجِ مانعٌ من الموت: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فهذه سبعةُ وجوهٍ في إبطالِ مقولةِ المنافقين، وشُبْهَتِهِمْ في التلبيسِ على المؤمنين، ورَدْعِ كلِّ مَنْ في قلبِهِ مرضٌ يمنعُهُ من الخروجِ في سبيلِ اللهِ تعالى، والجهادِ في سبيله.

الآية الثانية

ومما ذَكَرَهُ القرآنُ مِنْ مقولاتهم في التنفيرِ عن الجهاد، وتثبيطِ المؤمنين عنه: قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١].

وقائلُ هذه المقالةِ رَجُلٌ من بني سَلِمةَ ممَّن صَعُبَ عليه السفرُ إلى تَبُوكَ في الحَرِّ(١).

فردَّ اللهُ تعالى عليهم: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١]؛ فأوعدهم النارَ، وعامَلَهُمْ بنقيضِ قَصْدِهم؛ إذْ فرُّوا من حَرِّ الدنيا، فوقعوا في حَرِّ الآخرة!

---

(١) أخرجه ابن جرير الطَّبَري (١٠/ ٢٠٠) عن محمد بن كعب القرظي: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ إِلَى تَبُوكَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ الآيةَ [التوبة: ٨١]. وأخرجَ ابنُ مردويه، عن جابر بن عبد الله، قال: اسْتَدَارَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ رجالٌ من الْمُنَافِقِينَ حِينَ أَذِنَ لِلْجَدِّ بنِ قَيْسٍ؛ ليستأذنوهُ ويقولوا: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لنا؛ فَإِنَّا لَا نستطيعُ أَنْ نَنْفِرَ فِي الْحَرِّ، فَأَذِنَ لَهُمْ، وأَعْرِضْ عَنْهُمْ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ الآية». انظر: الدُّر المنثور (٤/ ٢٥٦).



المَبْحَثُ الرَّابِعُ

قولُ الرَّجُلِ لزوجتِهِ: أَنْتِ عليَّ كَظَهْرِ أُمِّي

حرَّم اللهُ تعالى الظِّهَارَ(١)، وعدَّهُ من الزُّورِ الباطل، والبهتانِ الكبير؛ فقال سبحانه في ذَمِّ وصفِ الرجلِ لزوجتِهِ بأُمِّه: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

فنفى أن تكونَ زوجةُ الرجلِ بمظاهرتِهِ منه أُمَّهُ، وضرَبَ لذلك مَثَلًا في أولِ السورةِ، فقال: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤].

قصَدَ بها التمثيلَ؛ فكما أنَّ الرجلَ لا يمكنُ أن يكونَ في جوفِهِ قلبان، كذلكَ لا يمكن أن تكون زوجته أمًّا له!(٢).

وفي قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ﴾:

إمَّا أن يكونَ المقصودُ: أنَّ وَصْفَ الزوجةِ بأنها كالأمِّ قولٌ تقولونه

---

(١) الظهارُ: قولُ الرجلِ لامرأته: أنتِ عليَّ كظَهْر أمي. انظر: الدر النقي، في حل ألفاظ الخرقي، لابن عبد الهادي (٢/ ٥٧٥)، طلبة الطلبة، للنسفي (ص٢١٥)، وأصل الظهار مأخوذ من الظَّهر، قال في اللسان (ظهر) (٤/ ٥٢٨): «وإنما خصُّوا الظَّهْرَ دونَ البطن والفخذ والفرج، وهذه أولى بالتحريم؛ لأن الظهر موضعُ الركوب، والمرأةُ مركوبةٌ إذا غُشِيَتْ؛ فكأنه إذا قال: أنتِ عليَّ كظهر أمي؛ أراد: ركوبُكِ للنكاح عليَّ حرام؛ كركوبِ أمي للنكاح، فأقام الظهرَ مقامَ الركوب؛ لأنه مركوب، وأقام الركوب مقام النكاح؛ لأن الناكح راكب؛ وهذا من لطيفِ الاستعاراتِ للكناية».

(٢) انظر: الكشاف (٣/ ٥٢٨)، وقد ضعَّف الرازي هذا الوجه في تفسيره (٢٥/ ١٦٧).

بألسنتكم، ولا حقيقةَ له، بل تبقى الحليلةُ زوجةً لا أمًّا؛ ولذلك قال: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ [الأحزاب: ٤]، ففيه إيماءٌ على أنَّ ما تقولونه باطلٌ.

أو أن يكونَ المقصودُ: أنَّ هذا الفعلَ على شناعته، وهذه الكلمةَ على ما فيها من الزُّورِ والبهتان، خرَجَتْ مِنْ أفواهكم؛ للتنفيرِ من معاودة مثلِ هذه الألفاظ.

وهذه الإشارةُ قد توسَّع القرآنُ في الكلام عنها في سورة المجادَلَة[1]؛ **فقال الله تعالى**: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ١، ٢].

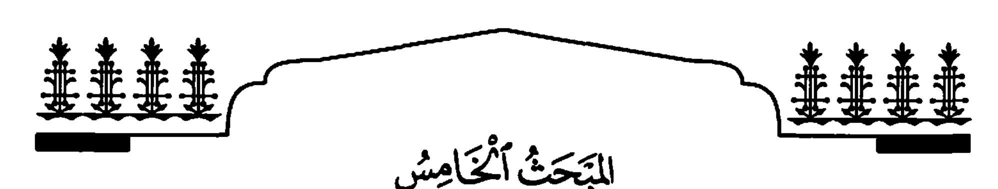
فأبطَلَ القرآنُ هذه المقولةَ المُنْكَرةَ، والعادَةَ القبيحة، وأنصَفَ المرأةَ مِنْ تعدِّي بعضِ الرجال، وانتقاصِهِ لها، وذلك مِنْ خلال التالي:

أولًا: نفيُ أنْ يكونَ لهذه الكلمةِ حقيقةٌ في ميزانِ الشرعِ، والواقع؛ فالزوجةُ لا تصيرُ أمًّا بمجرَّدِ كلمةٍ تخرُجُ مِنْ فيِّ الإنسانِ؛ **ولذلك قال تعالى**: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾، وأكَّد ذلك **بقوله**: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾.

ثانيًا: أنه عَدَّ هذه الكلمةَ منكرًا، وزُورًا مِنَ القول؛ **فقال**: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾.

والمسلمُ مأمورٌ بأن يجتنبَ كلَّ منكرٍ، وكلَّ زور، ومنه هذه الكلمةُ الظالمة.

(١) وسورة المجادلة نزلت قبل سورة الأحزاب. انظر: الإتقان (١/ ٣٩).



المَبْحَثُ الْخَامِسُ

انتسابُ الرَّجُلِ لغيرِ أبيه

حرَّم الإسلامُ أن ينتسبَ الرجُل لغيرِ أبيه، أو أن يُدْعَى لغيرِ أبيه؛ فقال ﷻ:

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤، ٥].

عن ابن عباس ﵄، قال: كان مِنْ أمرِ زيدِ بنِ حارثةَ ﵁؛ أنه كان في أخوالِهِ بني مَعْنٍ من بني ثُعَلٍ من طيِّئ، فأصيبَ في غِلْمةٍ من طيِّئ فقَدِمَ به سوقَ عُكَاظ، وانطلَقَ حَكِيم بن حِزَام بن خُوَيْلِد إلى عكاظ يتسوَّقُ بها، فأوصتْهُ عمَّته خديجةُ رضي الله عنها أنْ يبتاع لها غلامًا ظريفًا عربيًّا إنْ قدَرَ عليه، فلمَّا جاء، وجَدَ زيدًا يباعُ فيها، فأعجَبَهُ ظَرْفُهُ فابتاعه، فقَدِمَ به عليها، وقال لها: إني قد ابتعتُ لك غلامًا ظريفًا عربيًّا، فإنْ أعجَبَكِ فخذيه؛ وإلا فدعيه؛ فإنه قد أعجبني، فلمَّا رأته خديجةُ أعجَبَها فأخذَتْهُ فتزوَّجها رسولُ اللهِ ﷺ وهو عندها، فأعْجَبَ النبيَّ ﷺ ظَرْفُهُ فاستوهَبَهُ منها، فقالت: هو لَكَ، فإنْ أردتَّ عتقَهُ فالولاءُ لي، فأبى عليها فوهَبَتْهُ له إنْ شاء أعتَقَ، وإنْ شاء أمسَكَ، قال: فشَبَّ عند النبي ﷺ.

ثم إنه خرَجَ في إبلٍ طالبٍ إلى الشامِ، فمَرَّ بأرضِ قومه، فعرَفَهُ عمُّه فقام إليه، فقال: مَنْ أنتَ يا غلام؟ قال: غلامٌ مِنْ أهلِ مكة.

قال: مِنْ أنفُسِهم؟ قال: لا.

قال: فحُرٌّ أنت أم مملوكٌ؟ قال: بل مملوكٌ.

قال: لِمَنْ؟ قال: لمحمَّد بن عبد الله بن عبد المُطَّلِب.

فقال له: أعربيٌّ أنت أم عجميٌّ؟ قال: بل عربيٌّ، قال: ممَّن أهلُكَ، قال: مِنْ كَلْب، قال: مِنْ أيِّ كَلْب، قال: مِنْ بني عبدود، قال: ويحك، ابنُ مَنْ أنت، قال: ابنُ حارثةَ بنِ شَرَاحيل، قال: وأينَ أُصِبْتَ، قال: في أخوالي، قال: ومَنْ أخوالُكَ، قال: طيئ، قال: ما اسمُ أمِّك، قال: سُعْدَى، فالتزَمَهُ، وقال: ابنُ حارثة، ودعا أباه، وقال: يا حارثةُ، هذا ابنُكَ، فأتاه حارثةُ، فلمَّا نظَرَ إليه، عرَفَهُ، قال: كيف صنَعَ مولاك إليك، قال: يُؤْثِرُني على أهلِهِ وولدِهِ، ورُزِقْتُ منه حُبًّا، فلا أصنعُ إلا ما شئتُ، فَرَكِبَ معه أبوه وعمُّه وأخوه حتى قَدِمُوا مكةَ، فلَقُوا رسولَ اللهِ ﷺ، فقال له حارثةُ: يا محمَّدُ، أنتم أهلُ حَرَمِ الله وجيرانُهُ وعندَ بيته، تفكُّون العانيَ، وتطعمونَ الأسير، ابني عبدُكَ؛ فامتنَّ علينا، وأَحْسِنْ إلينا في فدائِهِ؛ فإنك ابنُ سيِّد قومِهِ، فإنا سنرفعُ لك في الفداءِ ما أحببتَ.

فقال له رسولُ الله ﷺ: (**أُعْطِيكُمْ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ**)، قالوا: وما هو، قال: (**أُخَيِّرُهُ فَإِنِ اخْتَارَكُمْ، فَخُذُوهُ بِغَيْرِ فِدَاءٍ، وَإِنِ اخْتَارَنِي، فَكُفُّوا عَنْهُ**)، قالوا: جَزَاكَ اللهُ خيرًا؛ فقد أَحْسَنْتَ، فدعاه رسولُ اللهِ ﷺ فقال: (**يَا زَيْدُ، أَتَعْرِفُ هَؤُلَاءِ؟**) قال: نَعَمْ؛ هذا أبي وعمِّي وأخي.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: (**فَأَنَا مَنْ قَدْ عَرَفْتَهُ؛ فَإِنِ اخْتَرْتَهُمْ، فَاذْهَبْ مَعَهُمْ، وَإِنِ اخْتَرْتَنِي، فَأَنَا مَنْ تَعْلَمُ**)، فقال زيدٌ: ما أنا بمختارٍ عليكَ أَحَدًا أبدًا؛ أنتَ مني بمكانِ الوالدِ والعَمِّ، قال له أبوه وعمُّه: يا زيدُ، تختارُ العبوديَّةَ على الربوبيَّة، قال: ما أنا بمفارقٍ هذا الرجلَ.

فلمَّا رأى رسولُ الله ﷺ حِرْصَهُ عليه، قال: (**اشْهَدُوا أَنَّهُ حُرٌّ، وَإِنَّهُ**

ابْني يَرِثُني وَأَرِثُه)، فطابَتْ نفسُ أبيه وعمِّه لِمَا رَأَوْا من كرامتِهِ عليه، فلم يَزَلْ في الجاهليَّة يدعى: زَيْدَ بنَ محمَّد؛ حتى نزَلَ القرآن: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥]؛ فدعي زيدَ بنَ حارثة»[١].

قال مجاهد: «نزَلَتْ هذه الآيةُ في زيدِ بنِ حارثة»[٢].

وقال ابنُ زيد: «كان زيدُ بنُ حارثةَ حين مَنَّ اللهُ ورسولُهُ عليه يقال له: زيدُ بنُ محمد، كان تبنَّاه؛ فقال الله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]»[٣].

فأبطَلَ القرآنُ هذه العادةَ من طريقَيْن:

أولهما: أنَّ الحقيقةَ لا تَتَغيَّرُ بتغيُّرِ وصفها؛ فالأبناءُ بنسبتهم لغيرِ آبائِهِمْ لا يكونونَ أبناءَهُمْ، بل يبقى الرجلُ ولدًا لأبيه؛ فهذا هو الحقُّ الذي يرضاه اللهُ، والسبيلُ الذي يهدي إليه.

وقد ذكَرَ بعض أهلِ العلم: أنَّ قولَ الله تعالى في مطلعِ هذه الآية: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤]، قُصِدَ بها التمثيلُ لمن دُعِيَ لغيرِ أبيه[٤]، فكما أنَّ الرجلَ لا يمكنُ أن يكونَ في جوفِهِ

---

(١) عزاه في الدُّر المنثور (٦/ ٥٦٣ ـ ٥٦٤) لابن مردويه.

(٢) أخرجه الطَّبَري (٢١/ ١١٩) من طريق ابن أبي نجيح، عنه، به.

(٣) أخرجه الطَّبَري (٢١/ ١١٩) من طريق ابن وهب، عنه، به.

(٤) وقيل: «إن هذه الآية نزَلَتْ في رجلٍ من قريش يُسمَّى جَمِيل بن مَعْمَر، ويقال: ابن أسد بن حبيب الجمحي الفِهْري، وكان رجلًا داهيةً قويَّ الحفظ، وكان يُقال له: ذو القلبين؛ لأنه كان يزعم أن له قلبين، كلٌّ منهما بعقل وافر! فأنزَلَ الله تعالى هذه الآية ردًّا عليه»؛ رواه العوفي، عن ابن عباس، وقاله مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، واختاره ابن جرير. **انظر**: جامع البيان (٢١/ ١١٨)، الدُّر المنثور (٦/ ٥٦٤)، تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٦٦).

وقيل: إن الآية نزَلَتْ في بعض المنافقين؛ فأخرَجَ الإمام أحمد، رقم (١٢٦٧) بسنده عن قابوس بن أبي ظبيان، قال: إن أباه حدَّثه، قال: قلت لابن عباس: أرأيتَ قولَ الله تعالى: =

قلبان، كذلك لا يمكنُ أن يكونَ للرجلِ أبَوان[١].

قال الزهريُّ[٢]: «بلَغَنا أنَّ ذلك كان في زيدِ بنِ حارثة، ضرَبَ له مثلًا، يقولُ: ليس ابنُ رجلٍ آخَرَ ابنَكَ»[٣].

الثاني: أنَّ الأعدَلَ والأصلَحَ أن ينسبَ الرجُل لأبيه، فإنْ جُهِلَ أبوه، سُمِّيَ أخًا، أو مولًى.

قال ابنُ جُرَيْج: «إنْ لم تعرفْ أباه؛ فأخوكَ في الدين، ومولاكَ مولى فُلَان»[٤].

وقال مقاتلٌ: «إنْ لم تعلموا لهم آباءً تدعوهم إليهم، فانسبوهم: إخوانَكُمْ في الدين؛ إذْ تقولُ: عبدُ الله، وعبدُ الرحمٰن، وعُبَيْدُ الله، وأشباههم من الأسماء، وأن يُدْعَى إلى اسمِ مولاه»[٥].

وقد ورَدَ في السُّنَّةِ التشديدُ في ادعاءِ الرجلِ لغيرِ أبيه؛ فمنه:

عن سعدٍ ﷺ، قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: (**مَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ، فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ**).

= ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤] ما عَنَى بذلك؟ قال: «قام رسولُ الله ﷺ يومًا يصلِّي، فخطَرَ خطرة، فقال المنافقون الذين يصلُّون معه: ألا تَرَوْنَ له قلبين: قلبًا معكم، وقلبًا معهم؛ فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾، ورواه الترمذي، رقم (٣١٩٩)، وقال: وهذا حديث حسن.

(١) انظر: الكشاف (٣/ ٥٢٨)، تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٦٦)، وقد ضعَّف الرازي (٢٥/ ١٦٧) هذا الوجه.

(٢) هو: الإمام محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، الإمام السَّوِيّ، والرَّاوي الرَّوِيّ، أمير المؤمنين في الحديث، وأول من قام بجمع السُّنَّة النبوية، توفي سنة (١٢٥هـ). انظر: حلية الأولياء، لأبي نُعيم (٣/ ٣٦٠)، سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٢٦).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ١١١) عن معمر، عنه، به، ومن طريقه أخرجه الطَّبَري (٢١/ ١١٩).

(٤) عزاه في الدُّر المنثور (٦/ ٥٦٤) لابن المنذر، ولم أره في تفسيره.

(٥) عزاه في الدُّر المنثور (٦/ ٥٦٤) لابن أبي حاتم، ولم أره في تفسيره.

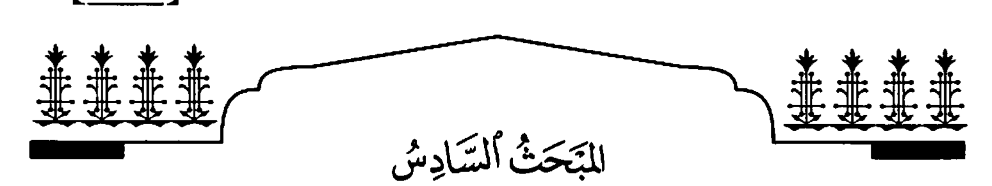
فذكرتُهُ لأبي بَكْرة، فقال: وأنا سَمِعَتْهُ أُذُنَاي، ووعاهُ قَلْبي، من رسولِ الله ﷺ[١].

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: (**لَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ؛ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ أَبِيهِ، فَهُوَ كُفْرٌ**)[٢].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الفرائض، باب من ادعى إلى غير أبيه، رقم (٦٣٨٥).

(٢) المرجع السابق، رقم (٦٣٨٦).



المَبْحَثُ السَّادِسُ

المَقُولاتُ المتعلِّقةُ بتحكيمِ الشريعةِ

وفيه مطلبان:

المطلـب الأول: الإعراضُ عن تحكيمِ الشريعةِ.

المطلب الثاني: الاعتراضُ على أمرِ اللهِ وشَرْعِهِ.

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

الإعراضُ عن تحكيمِ الشريعةِ

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

• سببُ نزولِ الآية:

عن البَرَاءِ بنِ عازب، قال: مُرَّ على النبيِّ ﷺ بيهوديٍّ مُحمَّمًا مجلودًا، فدعاهم ﷺ، فقال: (**هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟**)، قالوا: نعم، فدعا رجلًا مِنْ عُلَمائهم، فقال: (**أَنْشُدُكَ بِاللهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟**) قال: لا، ولولا أنَّكَ نَشَدتَّني بهذا، لم أُخبِرْك، نجدُهُ الرجمَ، ولكنَّه كَثُرَ في أشرافنا؛ فكنا إذا أخذنا الشريف، تَرَكْناه، وإذا أخذنا الضعيفَ، أَقَمْنا عليه الحَدَّ، قلنا: تعالوا، فلنجتمعْ على شيءٍ نقيمُهُ على الشريفِ والوضيعِ، فجعَلْنا التحميمَ والجَلْدَ مكانَ الرجمِ؛ فقال رسولُ الله ﷺ: (**اللهُمَّ، إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ**)، فأمَرَ به فرُجِمَ، فأنزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: ٤١]، يقولُ: ائتوا محمدًا ﷺ؛ فإنْ أمَرَكُمْ بالتحميمِ والجلدِ، فخذوه، وإنْ أفتاكُمْ بالرجمِ، فاحذروا؛ فأنزَلَ اللهُ

تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] في الكفار كلها[١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ؛ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بيهوديٍّ ويهوديةٍ قد زنيا، فانطلَقَ رسولُ اللهِ ﷺ حتى جاء يهودَ، فقال: (مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ عَلَى مَنْ زَنَى؟)، قالوا: «نُسَوِّدُ وجوهَهُما، ونَحْمِلُهما، ونخالفُ بين وُجُوهِهِما، ويطاف بهما، قال: (فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)، فجاؤوا بها فقرؤوها، حتى إذا مَرُّوا بآيةِ الرجمِ، وضَعَ الفتى الذي يقرأُ يَدَهُ على آيةِ الرجمِ، وقرَأَ ما بين يديها، وما وراءَهَا، فقال له عبدُ اللهِ بنُ سَلَامٍ، وهو مع رسولِ الله ﷺ: مُرْهُ فَلْيَرْفَعْ يَدَهُ، فرفَعَهَا، فإذا تحتها آيةُ الرجمِ، فأمَرَ بهما رسولُ اللهِ ﷺ، فرُجِما، قال عبد الله بن عُمَر: كنتُ فيمن رَجَمَهُما، فلقدْ رأيتُهُ يقيها من الحجارةِ بنَفْسِهِ»[٢].

وعن سَعِيد بن المسيّب[٣][٤]؛ أنَّ أبا هريرةَ حدَّثهم أنَّ أحبارَ يهودَ

---

(١) أخرجه الإمام مسلم، باب رجم أهل الذمة اليهود في الزنى، رقم (١٧٠٠).

(٢) المصدر السابق، رقم (١٦٩٩)، وأخرجه البخاري برقم (١٦٩٩).

(٣) هو: الإمام الكبير، أبو محمد، سعيد بن المُسَيَّب بن حَزَن المخزومي، سمع من أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، من فقهاء المدينة، وقيل: بل أفقههم، قال قتادة: ما رأيت أحدًا قط أعلم بالحلال والحرام منه، توفي سنة (٩٤هـ). انظر: حلية الأولياء (٢/ ١٦١)، طبقات الحفاظ (ص٢٥).

(٤) أخرجه الطَّبَري (٦/ ٢٣٢)، قال: «حدثنا هناد، وأبو كريب، قالا: ثنا يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، قال: ثني الزهري، قال: سمعتُ رجلًا من مُزَيْنَةَ يحدِّث عن سعيد بن المُسَيَّب، به.
وقد ذكر المفسِّرون روايات أخرى، ففي المسند (٢/ ٥٤٢)، رقم (١٢٩٥) من طريق الشعبي، عن جابر بن عبد الله ﷺ، أن رجلًا من اليهود قتَلَ رجلًا من أهل دينه، فقالوا لحلفائهم من المسلمين: سلوا محمدًا، فإن كان يقضي بالدية، اختصمنا إليه، وان كان يقضي بالقتل، لم نأته». وأخرجه الطبراني (١٢/ ٢٥٧) عن ابن عباس. =

اجتمعوا في بيتِ المِدْرَاس[(١)] حين قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ، وقد زنى رجلٌ منهم بعد إحصانِهِ بامرأةٍ من يهود قد أحصَنَتْ، فقالوا: انطَلِقُوا بهذا الرجلِ، وبهذه المرأةِ، إلى محمدٍ ﷺ، فاسألوه كيف الحكمُ فيهما، فولُّوه الحكمَ عليهما؛ فإنْ عَمِلَ فيهما بعملكم من التحميم، وهو الجلدُ بِحَبْلٍ من ليفٍ مطليٍّ بقار، ثم يُسَوَّدُ وجوهُهما، ثم يُحْمَلانِ على حمارَيْنِ، وتحوَّلُ وجوههما مِنْ قبلِ دُبُرِ الحمار، فاتْبَعُوهُ؛ فإنَّما هو مَلِكٌ. وإن هو حكَمَ فيهما بالرجمِ، فإنه نبيٌّ، فاحذروه على ما في أيديكم أنْ يَسْلُبَكُمُوهُ. فأتوه، فقالوا: يا محمَّدُ، هذا الرجلُ قد زنى بعدَ إحصانِهِ بامرأةٍ قد أحصَنَتْ، فاحكُمْ فيهما، فقد ولَّيناك الحكمَ فيهما، فمشى رسولُ الله ﷺ، حتى أتى أحبارَهُمْ في بيتِ المدراسِ، فقال: **(يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، أَخْرِجُوا إِلَيَّ أَعْلَمَكُمْ)** فأخرَجُوا إليه عبدَ اللهِ بنَ صُورِيَا الأعورَ، وقد روى بعضُ بني قُرَيْظَةَ أنهم أخرَجُوا إليه يومئذٍ مع ابنِ صُورِيَّا أبا ياسرِ بنَ أَخْطَبَ، ووهْبَ بنَ يهودا، فقالوا: هؤلاءِ علماؤُنا، فسألهم رسولُ اللهِ ﷺ حتى حصلَ أمرهم، إلى أن قالوا لابن صوريا: هذا أعلَمُ مَنْ بقي بالتوراةِ، فخلا به رسولُ اللهِ ﷺ، وكان غلامًا شابًّا مِنْ أحدثهم سِنًّا، فألَظَّ به رسولُ الله ﷺ المسألةَ، يقولُ: **(يَا ابْنَ صُورِيَّا، أَنْشُدُكَ اللهَ، وَأُذَكِّرُكَ أَيَادِيَهُ عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ اللهَ حَكَمَ فِيمَنْ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانِهِ بِالرَّجْمِ فِي التَّوْرَاةِ؟)**[(٢)]؟

= وانظر: الدُّر المنثور (٣/ ٧٥).

(١) يُقال: المِدْرَاسُ على صيغة مِفْعَالٍ من الدَّرْس، ويُقال: المَدَارِسُ على صيغة المَفَاعِلِ ممن يُدَرِّسُ الكتاب، وهو كبيرهم، وبكلا اللفظين ورَدَ في الآثار. انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير (٢/ ١١٣)، فتح الباري، للحافظ ابن حجر: المقدمة (ص١١٦)، (١٢/ ٣١٨).

(٢) قال النووي: «قال العلماء: هذا السؤالُ ليس لتقليدهم، ولا لمعرفةِ الحكمِ منهم؛ =

فقال: اللهمَّ نَعَمْ، أَمَا واللهِ يا أبا القاسم، إنَّهم ليعلمونَ أنَّك نبيٌّ مرسلٌ، ولكنَّهم يَحْسُدُونَكَ، فخرَجَ رسولُ الله ﷺ، فأمَرَ بهما فرُجِمَا عندَ بابِ مسجدِهِ في بني عثمانَ بنِ غالبِ بنِ النجار. ثم كفَرَ بعد ذلك ابنُ صوريا؛ فأنزَلَ الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١](1).

فقوله تعالى: ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ [المائدة: ٤١]؛ **أي:** لم يأتوك إيمانًا بك، ورضًا بِحُكْمِك.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١]؛ وذلك بزعمهم أنَّ حكمَ اللهِ في الزاني المُحْصَنِ في التوراةِ هو التحميمُ.

= فإنما هو لإلزامهم بما يعتقدونه في كتابهم، ولعلَّه قد أُوحِيَ إليه أنَّ الرجمَ في التوراةِ الموجودةِ في أيديهم لم يغيِّروه، أو أَخبَرَهُ من أسلَمَ منهم». شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ٢٠٨).

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٠): «فهذه الأحاديثُ دالَّةٌ على أن رسولِ الله ﷺ حكَمَ بموافقةِ حكمِ التوراة، وليس هذا مِنْ بابِ الإكرامِ لهم بما يعتقدونَ صحَّته؛ لأنهم مأمورون باتباعِ الشرعِ المحمديِّ لا محالة، ولكن هذا بوحيٍ خاصٍّ من الله ﷻ إليه بذلك، وسؤالُهُ إياهم عن ذلك ليقرِّرهم على ما بأيديهم مما تواطؤوا على كتمانِهِ وجَحْدِهِ وعدمِ العمل به تلك الدهورَ الطويلة، فلما اعترَفُوا به مع علمهم على خلافِهِ، بان زيغُهم وعنادُهم وتكذيبُهم لما يعتقدون صحَّته من الكتاب الذي بأيديهم، وعدولُهُمْ إلى تحكيمِ الرسولِ ﷺ، إنما كان عن هَوًى منهم وشَهْوة؛ لموافقةِ آرائهم، لا لاعتقادِهِمْ صحةَ ما يحكُمُ به».

(1) أخرجه الطَّبَري (٦/ ٢٣٢)، قال: «حدثنا هناد، وأبو كريب، قالا: ثنا يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، قال: ثني الزهري، قال: سمعتُ رجلًا من مزينة يحدِّث عن سعيد بن المُسَيَّب، به.

وقد ذكر المفسِّرون روايات أخرى، ففي المسند (٢/ ٥٤٢ ـ رقم/ ١٢٩٥) من طريق الشعبي، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه؛ أن رجلًا من الْيَهُود قتَلَ رجلًا من أهل دينِهِ، فَقَالُوا لحلفائهم من الْمُسلمينَ: سلوا مُحَمَّدًا ﷺ؛ فَإِنْ كَانَ يقْضِي بِالدِّيَةِ، اختصَمْنا إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ يقْضِي بِالْقَتْلِ، لم نأته». وأخرجه الطبراني (١٢/ ٢٥٧) عن ابن عباس. **وانظر:** الدُّر المنثور (٣/ ٧٥).

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: ٤١]؛ **أي**: التحميمُ، اعْمَلُوا به، ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٤١]؛ **أي**: إنْ أمركم بالرجم، فلا تعملوا به.

وقد ذكَرَ اللهُ تعالى منهجهم الباطلَ هذا؛ كما في **قوله تعالى**: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣].

فقوله: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ﴾؛ **أي**: التوراة[(١)].

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾؛ **أي**: في شأنِ الزانيَيْنِ المذكورين.

وقد رَدَّ القرآنُ العظيمُ على هذه المقولةِ الباطلة، والمنهجِ الرديء، **بقوله**: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١].

والمرادُ بالفتنةِ: تلك الكُفْرياتُ التي تقدَّم ذكرها، فالمرادُ: ومَنْ يردِ اللهُ كفرَهُ وضلالتَهُ، فلن يَقْدِرَ أحدٌ على دفعِ ذلك عنه[(٢)].

ثم أكَّد ذلك **بقوله**: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

فلم يردِ اللهُ أن يطهِّر قلوبَهُمْ بالإيمان؛ لأنه تعالى عَلِمَ أنه لن ينجعْ فيها، ولم يُرِدْ أن يطهِّر قلوبَهُمْ عن الكفرِ، والنفاقِ، والحَسَد.

فدلَّ ذلك على أنَّ مَنْ كان مقصودُهُ بالتحاكُم إلى الحكمِ الشرعي: «اتِّباعَ هواه، وأنه إنْ حُكِمَ له رَضِيَ، وإنْ لم يُحْكَمْ له سَخِطَ، فإنَّ ذلك مِنْ عدمِ طهارةِ قلبه، كما أنَّ من حاكَمَ وتحاكَمَ إلى الشرعِ ورَضِيَ به،

---

(١) أخرجه الطَّبَري (٣/٢١٨) عن ابن عباس، من طريق سعيد بن جُبير، وعكرمة، عنه، به، ورجَّحه، وقيل: المراد بالكتاب: هو القرآن العظيم.

(٢) قال الرازي (١١/ ١٨٢): «دلت هذه الآية على أن الله تعالى غيرُ مريدٍ إسلامَ الكافر، وأنه لم يُطَهِّرْ قلبه من الشكِّ والشرك، ولو فعَلَ ذلك، لآمَنَ، وهذه الآيةُ من أشدِّ الآياتِ على القَدَريَّة».

وافقَ هواه أو خالفه؛ فإنه مِنْ طهارةِ القلب، ودَلَّ على أنَّ طهارةَ القلبِ سببٌ لكلِّ خير، وهو أكبرُ داعٍ إلى كلِّ قولٍ رشيد، وعملٍ سديد»(١).

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٤٣].

«أي: ليس هذا دأبَ المؤمنين، وليسوا حَرِيِّيَنَ بالإيمان؛ لأنهم جعلوا آلهتَهُمْ أهواءَهُمْ، وجعَلُوا أحكامَ الإيمانِ تابعةً لأهوائهم»(٢).

وهذه الخَصْلةُ الذميمةُ وَرِثَهَا المنافقونَ عن إخوانِهِمُ اليهود؛ فكانوا كما أخبَرَ الله تعالى عنهم بقوله:

﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: ٤٨ ـ ٥٠].

قال مقاتلٌ: «نزلَتْ هذه الآيةُ في بِشْرٍ المنافق، وكان قد خاصَمَ يهوديًّا في أرضٍ، وكان اليهوديُّ يجرُّه إلى رسولِ اللهِ ﷺ ليحكُمَ بينهما، وجعَلَ المنافقُ يجرُّه إلى كعبِ بنِ الأشرف، ويقولُ: إنَّ محمدًا يَحِيفُ علينا».

وقال الضحاك: «نزَلَتْ في المغيرةِ بنِ وائل، كان بينه وبين عليِّ بنِ أبي طالب أرضٌ، فتقاسما، فوقَعَ إلى عليٍّ منها ما لا يصيبُهُ الماءُ إلا بمشقَّة، فقال المغيرة: بِعْنِي أرضَكَ، فباعها إياه، وتقابضا، فقيل للمغيرة: أَخَذْتَ سبخةً لا ينالُها الماء، فقال لعليٍّ: اقبضْ أرضَكَ؛ فإنما اشتريتها إنْ رَضِيتَهَا، ولم أَرْضَها، فلا ينالُها الماءُ، فقال عليٌّ: بل اشتريتَهَا ورَضِيتَهَا وقَبَضْتَها وعَرَفْتَ حالها، لا أقبلها منك، ودعاه إلى أنْ يخاصمَهُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقال المغيرة: أما محمَّدٌ، فلستُ آتِيهِ، ولا أحاكمُ إليه؛ فإنه يبغضني، وأنا أخاف أن يَحِيفَ عليَّ، فنزلَتْ هذه الآية».

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن (ص٢٣٢). (٢) المرجع السابق.

قال قتادة: «أناسٌ من المنافقين أظهَرُوا الإيمانَ والطاعةَ، وهم في ذلكَ يصدُّون عن سبيلِ اللهِ وطاعتِهِ، وجهادٍ مع رسوله ﷺ»(١).

وقال الحسَنُ البصريُّ: «إنَّ الرجلَ كان يكونُ بينه وبين الرجلِ خصومةٌ أو منازعةٌ على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ، فإذا دُعِيَ إلى النبيِّ ﷺ، وهو محقٌّ، أذعَنَ وعَلِمَ أنَّ النبيَّ ﷺ، سيقضي له بالحق، وإذا أراد أن يَظْلِمَ فدُعِيَ إلى النبيِّ ﷺ، أعرَضَ، وقال: انْطَلِقْ إلى فلان، فأنزَلَ الله...»(٢).

فذمَّهم على كلِّ واحدٍ من هذه الأوصاف، فكان في قلوبهم مرضٌ وهو النفاقُ، وكان فيها شكٌّ وارتياب، وكانوا يخافون الحَيْفَ من الرسولِ عليه الصلاة والسلام، وكُلٌّ واحدٍ من ذلك كفرٌ ونفاق(٣).

ومعنى: «مذعنين»؛ أي: طائعين غيرَ مُكْرَهين، يقال: قد أَذْعَنَ فلانٌ بحقِّه: إذا أقرَّ به طائعًا غيرَ مستَكْرَهٍ، وانقاد له وسلَّم.

قال ابن الأعرابي: «مذعنين: مقرِّين خاضعين»، والإذعانُ: الإسراعُ أيضًا(٤).

لمَّا ذكر تعالى في الأقسامِ كونَهُمْ خائفين من الحَيْفِ، أبطَلَ ذلك بقوله: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: ٥٠]؛ أي: لا يخافون أن يَحِيفَ الرسولُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ عليهم لمعرفتهم بأمانتِهِ وصيانته، وإنما هم ظالمون، يريدون أن يَظْلِمُوا مَنْ له الحقُّ عليهم، وهم له جحودٌ، وذلك شيءٌ لا يستطيعونه في مجلسِ رسولِ الله ﷺ، ثم يَأْبَوْنَ المحاكمةَ إليه(٥).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٦٢٢). وانظر: الدُّر المنثور (٦/ ٢١٣).
(٢) المرجع السابق. (٣) التفسير الكبير (٢٤/ ٢٠).
(٤) انظر: لسان العرب (١٣/ ١٧٢)، المفردات في غريب القرآن (١/ ١٧٨)، غريب القرآن، للسجستاني (١/ ٤٤٥).
(٥) التفسير الكبير (٢٤/ ٢٠).

قال الطبري: «وقولُهُ: ﴿بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [النور: ٥٠]، يقولُ: ما خافَ هؤلاءِ المُعْرِضونَ عن حكمِ اللهِ وحكمِ رسوله؛ إذْ أعرضوا عن الإجابةِ إلى ذلك ممَّا دُعُوا إليه: أن يَحِيفَ عليهم رسولُ اللهِ، فيجورَ في حكمِهِ عليهم، ولكنَّهم قومٌ أهلُ ظلمٍ لأنفسهم؛ بخلافهم أمرَ ربِّهم، ومعصيتِهِمُ اللهَ فيما أمرَهُمْ من الرضا بحكمِ رسولِ الله ﷺ فيما أحبُّوا وكرهوا، والتسليمِ له»[١].

قال ابن حزم: «ليس في هذه الآيةِ بيانٌ أنهم معروفون بأعيانهم، وإنما هي صفةُ مَنْ سَمِعَها عرَفَها مِنْ نفسه، **وهي تخرج على وجهين:**

أحدهما: أنْ يكونَ مَنْ فعَلَ ذلك كافرًا، وهو أنْ يعتقدَ النِّفَارَ عن حكمِ رسولِ الله ﷺ، ويَدِينَ بألَّا يرضى به؛ فهذا كفرٌ مجرَّد.

والوجه الثاني: ينقسمُ قسمَيْن:

أحدهما: أنْ يكون فاعلُ ذلك مُتبِعًا لهواه في الظلمِ ومحاباةِ نفسه، عارفًا بقبحِ ما فعَلَهُ في ذلكَ، ومعتقدًا أنَّ الحقَّ في خلافِ فعله؛ فهذا فاسقٌ، وليس كافرًا.

والثاني: أنْ يَفْعَلَ ذلك مقلِّدًا لإنسانٍ في أنه قد شَغَفَهُ تعظيمُهُ إياه وحُبُّهُ؛ موهمًا نفسَهُ أنه على حق.

وهذه الوجوهُ كلُّها موجودةٌ في الناس، فأهلُ هذَيْن القسمَيْنِ الآخرَيْنِ مخطئون عصاةٌ، وليسوا كفارًا.

ويكون معنى **قوله تعالى:** ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧]؛ أي: وما أولئكَ بالمطيعين؛ لأنَّ كلَّ طاعةٍ لله تعالى، فهو إيمانٌ، وكلُّ إيمانٍ

---

(١) جامع البيان (١٨/ ١٥٦).

طاعةٌ لله تعالى؛ فمَنْ لم يكنْ مطيعًا لله تعالى في شيءٍ ما، فهو غيرُ مؤمنٍ في ذلك الشيءِ بعينه، وإنْ كان مؤمنًا في غيرِ ذلك مما هو فيه مطيعٌ للهِ تعالى»(١).

وقد أبطَلَ اللهُ تعالى ما حكاه عن اليهودِ بأمور:

الأول: تبيينُ أنَّ إعراضَهم عن حكمِ الله، وحكمِ رسولِهِ ﷺ، هو بسببِ مرضِ قلوبهم، وفسادها.

الثاني: توعُّدُهم وتهديدُهم على مصيرِهِمْ في الآخرة.

الثالث: أمرُ الرسولِ ﷺ بأنْ يحكُمَ بينهم بالحقِّ إن جاؤوه(٢): ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

الرابع: إنكارُهُ عليهم تحكيمَهُمْ لرسولِهِ ﷺ في مسألةٍ حكَمَ اللهُ فيها بين أيديهم في التوراة، وهو موافقٌ لما جاء به النبي ﷺ.

«ثم تركوا قَبُولَ ذلك الحكمِ، فعدَلُوا عما يعتقدونه حُكْمًا حقًّا إلى

---

(١) المحلى (١١/ ٢١٢).

(٢) قال الشافعي في أحكام القرآن (٢/ ٧٩): «فإذا وادع الإمام قومًا من أهل الشرك، ولم يشترط أن يجري عليهم الحكم، ثم جاءوه متحاكمين، فهو بالخيار بين أن يحكم بينهم، أو يدع الحكم، فإن اختار أن يحكم بينهم؛ حكم بينهم حكمه بين المسلمين، فإن امتنعوا بعد رضاهم بحكمه حاربهم، قال: وليس للإمام الخيار في أحد من المعاهدين الذين يجري عليهم الحكم إذا جاءوه في حد لله ﷻ وعليه أن يقيمه، قال: وإذا أبى بعضهم على بعض ما فيه له حق عليه فأتى طالب الحق إلى الإمام يطلب حقه، فحق لازم للإمام ـ والله أعلم ـ أن يحكم له على من كان له عليه حق منهم، وإن لم يأته المطلوب راضيًا بحكمه، وكذلك إن أظهر السخط لحكمه لما وصفت من قول الله ﷻ: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] فكان الصغار ـ والله أعلم ـ: أن يجري عليهم حكم الإسلام، وبسط الكلام في التفريع».

ما يعتقدونه باطلًا؛ طَلَبًا للرُّخْصة؛ فلا جرَمَ ظهَرَ جهلُهم وعنادُهم في هذه الواقعةِ من وجوه:

أحدها: عدولُهُمْ عن حكمِ كتابهم، **والثاني**: رجوعُهُمْ إلى حكم مَنْ كانوا يعتقدون فيه أنه مبطلٌ، **والثالث**: إعراضُهُمْ عن حكمِهِ بعدَ أنْ حكَّموه.

فبيَّن اللهُ تعالى حالَ جَهْلِهم وعنادِهم لئلا يَغْتَرَّ بهم مغترٌّ أنهم أهلُ كتابِ الله، ومِنَ المحافظينَ على أمرِ الله»[١].

(١) التفسير الكبير (١١/١٨٦).

المطلب الثاني

الاعتراضُ على أمرِ اللهِ وشَرْعِهِ

• أولًا: الاعتراضُ على أمرِ الله:

أولُ منِ اعترَضَ على أمرِ الله تعالى هو إبليسُ؛ حيثُ أُمِرَ بالسجودِ لآدَمَ، فأبى؛ اعتراضًا على أمرِ الله تعالى، فزعَمَ أنه أولى بأن يُسْجَدَ له، لا أنْ يَسْجُدَ هو لغيره!

وقد ذكَرَ اللهُ خبرَهُ في سبعةِ مواضعَ من كتابه[1]، وبيَّن سبَبَ استنكافِهِ عن السجودِ لآدم، وبيَّن أنَّ الشبهةَ عرَضَتْ له حيثُ ظنَّ أنَّ عُنْصُرَهُ أكرَمُ وأفضلُ من عنصرِ خلقِ آدم، فهو خُلِقَ من نار، وآدَمُ خلقَ مِنْ طين!

قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣].

وقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

وذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ الجانَّ خُلِقَتْ من نارِ السموم؛ كما في **قوله تعالى:** ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧].

---

(١) في المواطن التالية: (البقرة: ٣٤)، (الأعراف: ١١ ـ ١٣)، (الحجر: ٣٠ ـ ٣٤)، (الإسراء: ٦١)، (الكهف: ٥٠)، (طه: ١١٦)، (صٓ: ٧٣ ـ ٧٦).

قال ابن عباس: «السَّمُومُ الحارَّةُ التي تَقْتُل»[١].

وسُمِّيَتْ نارَ السموم؛ لأنها تنفُذُ في مَسَامِّ البدنِ؛ لشدَّةِ حَرِّها.

وقال: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمٰن: ١٥].

والمارجُ: اللهيبُ المختلِطُ الذي لا دخانَ فيه[٢].

وعن عائشةَ ﵂، قالت: قال رسولُ الله ﷺ: (**خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**)[٣].

وبيَّن القرآن أنَّ سببَ امتناعِهِ عن السجودِ: ما جُبِلَتْ عليه نفسُهُ من الكِبْرِ، والزَّهْوِ، والإباء؛ **فقال تعالى**: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ [طه: ١١٦].

قال قتادة: «حسَدَ عدوُّ اللهِ إبليسُ آدَمَ على ما أعطاهُ اللهُ من الكرامة، وقال: أنا ناريّ، وهذا طينيّ، فكان بَدْءُ الذنوبِ الكِبْر، استَكْبَرَ عدوُّ الله أن يَسْجُدَ لآدم؛ فأهلَكَهُ اللهُ بِكِبْرِهِ وحَسَده»[٤].

وقد أبطَلَ القرآنُ قولَ إبليسَ مِنْ أربعةِ أوجه[٥]:

---

(١) أخرجه الطبري (١٤/ ٣٠) من طريق أبي إسحاق، عن التميمي، عنه، به. وقيل: هو لهب النار؛ كما عند الطبري.

(٢) انظر: لسان العرب (مرج) (٢/ ٣٦٦)، المفردات، للراغب الأصفهاني (ص٤٦٥)، غريب القرآن، للسجستاني (ص٤٢٥).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، بابٌ في أحاديث متفرقة، رقم (٢٩٩٦).

(٤) أخرجه الطبري (١٤/ ٣٠) من طريق بشر، قال: حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعيد، عنه، به.

(٥) ذكر بعض المفسرين أنَّ قياسَ إبليسَ باطلٌ من ثلاثة أوجه: =

الوجه الأول: إخراجُهُ من الجنة؛ جزاءَ عصيانِهِ لأمرِ الله تعالى؛ **قال سبحانه**: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٢، ١٣].

الوجه الثاني: أنَّ اللهَ تعالى أحلَّ عليه لعنتَهُ إلى يومِ الدين: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٥].

ولعنتُهُ هي رَجْمُهُ المذكورُ[1] في **قولِهِ تعالى**: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤].

الوجه الثالث: معاملتُهُ بنقيضِ قَصْده؛ فإنه قصَدَ التعاظُمَ، والتكبُّرَ؛ فأخرجَهُ اللهُ تعالى صاغرًا ذليلًا[2]؛ **فقال**: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

الوجه الرابع: أنه أوعده بدخول النار؛ **فقال سبحانه**: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥].

= **الأول**: أنه فاسدُ الاعتبارِ؛ لمخالفةِ النصِّ الصريح. **الثاني**: أن النارَ ليستْ بخيرٍ من الطين، بل الطينُ خيرٌ من النار؛ لأنَّ طبيعتها الخِفَّةُ والطيشُ والإفسادُ والتفريق، وطبيعةُ الطين: الرزانةُ، والإصلاحُ، حيث يُودَعُ به الحَبُّ؛ فيُخرِجُ ثمرًا.

الثالث: أنه لو سُلِّم تسليمًا جدليًّا أن النارَ خيرٌ من الطين؛ فإنه لا يلزمُ من ذلك أنَّ إبليسَ خيرٌ من آدم؛ لأنَّ شرفَ الأصلِ لا يقتضي شرفَ الفرع، بل قد يكونُ الأصلُ رفيعًا، والفرعُ وضيعًا. من أضواء البيان (١/ ٣٤) بتصرف. **وانظر**: التفسير الكبير (١٤/ ٢٨)، فيض القدير، للمناوي (٣/ ٤٥٠).

(١) قاله قتادة. أخرجه عنه عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره (٣/ ١٧٠) من طريق معمر، عنه، به، وقاله النَّحاس في معاني القرآن (٦/ ١٣٩)، وقال في إعراب القرآن (٣/ ٤٧٣): «أي: مرجومٌ بالكواكبِ والشُّهُب».

(٢) **انظر**: أضواء البيان (١/ ٤٥).

• ثانيًا: الاعتراضُ على شَرْعِهِ:

اعتراضُ المشركين على تحريمِ الربا(١):

أجمع المسلمون على تحريم الربا؛ للنصوصِ المتواترةِ في تحريمِهِ؛ كقوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: (**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ**)، قالوا: يا رسولَ الله، وما هُنَّ؟ قال: (**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلَاتِ**)(٢).

---

(١) **الرِّبَا في اللغة**: النموُّ والزِّيَادَةُ والارتفاع؛ يُقال: رَبَا الشيءُ، يربو: إذا زاد، ونما، وعلا، ومنه: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ١٠]؛ أي: زائدة، **واصطلاحًا**: «الزِّيَادَةُ في أشياءَ خاصة، والزِّيَادَة على الدَّينِ مقابلَ الأجلِ مطلقًا». اختاره د. عمر المترك في كتابه الرِّبَا والمُعَامَلاتِ المصرفية (ص٤٣)، وانظر: الدُّرّ النقي (٢/ ٤٤٤)، أنيس الفقهاء (ص٢٤١)، المبسوط (١٢/ ١٠٩)، المغني (٦/ ٥١)، البنوك الإسلامية للطَّيار (ص٤٥).

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قول الله تعالى: =

قال ابن تيمية[(١)]: «والربا نَوْعان[(٢)]:

جليٌّ: حُرِّمَ؛ لما فيه مِنَ الضررِ والظُّلْم.

وخفيٌّ: حُرِّمَ؛ لأنه ذريعةٌ إلى الجليِّ.

فربا النَّسَأِ من الجليِّ؛ فإنه يضرُّ المحاويجَ ضررًا ظاهرًا؛ وهذا مجرَّب، والغنيُّ يأكُلُ أموالَ الناسِ بالباطل؛ لأن ماله ربًا من غير نفع حصَلَ للخلق؛ ولهذا جعَلَ اللهُ الربا ضدَّ الصدقات؛ **فقال**: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، **وقال**: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]. . .

فنهى عن الربا الذي فيه ظُلْمُ الناس، وأمَرَ بالإحسانِ إلى الناسِ المضادِّ للربا».

والربا المعنيُّ بهذه الآيات: كان في ربا الجاهلية، حيثُ يكونُ للرجلِ على آخَرَ دَيْنٌ، فيأتيه عند محلِّ الأجلِ، فيقولُ له: إمَّا أن تقضي،

= ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًاۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، رقم (٢٦١٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها، رقم (٨٩).

(١) في تفسير آياتٍ أشكَلَتْ على كثير من العلماء (٢/ ٥٧٤).

(٢) أما النوع الأول؛ فهو (رِبَا الجاهلية) أو رِبَا الديون، أو النسيئة، **وله صورتان**:

الأولى: أن يَقَرَّ في ذمةِ شخصٍ لآخر دَيْنٌ، فإذا حَلَّ الأجلُ، طالبه ربُّ الدَّين، فقال المدين: زدني في الأجل؛ أزدك في الدَّراهم؛ ففعَلَ.

الثانية: أن يُقْرِضَ شخصٌ آخَرَ عشرةَ دراهم ـ مثلًا ـ بأحد عشَرَ، أو نحو ذلك.

والنوع الثاني؛ وهو رِبَا البيوع ـ الخَفِيّ من الرِّبَا ـ وتحريمُهُ ثابتٌ بالسُّنَّةِ في حديث: (الذَّهَبُ بالذَّهَبِ.....) إلخ، وهو قسمان: رِبَا الفضل، ورِبَا النَّسَاء؛ فإذا باع الشخصُ غيرَهُ درهمًا بدرهمَيْن، مع تعجيل البدلَيْن؛ فهو رِبَا فضل، وإن باعه دينًا بِعَشَرَةِ دراهم، أو صاعًا من تمرٍ بصاعٍ من شعير، مع تأخير أَحَدِ البدلين، كان ذلك رِبَا نَساء. قاله في معجم المصطلحات الاقتصادية (ص١٧٦) (بتصرف). **وانظر**: الرِّبَا والمُعَامَلاتِ المصرفية، للمترك (ص٥٣ ـ ١٥٢)، البنوك الإسلامية للطَّيَّار (ص٤٥ ـ ٥٥).

وإمّا أن تُرْبِي! فإنْ قضاه؛ وإلا زاده المَدِينُ في المال[١]، وزاده الغريمُ في الأجل؛ فيكونُ قد باع المالَ بأكثر منه إلى أجلٍ؛ فأمرَهُمُ اللهُ إذا تابوا ألَّا يطالبوا إلا برأسِ المال.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

يخبرُ اللهُ ﷻ عن المرابينَ أنهم يُبْعَثُونَ يومَ القيامةِ كالمجنونِ الذي يُصْرَعُ مما به مِنْ مَسِّ الجن؛ وذلك عقوبةٌ لهم على جمعهم بين أكلِ الربا، وبين تحليلِهِ لأنفسهم[٢].

وعبَّر بالأكلِ؛ لأنه أقوى مقاصدِ الإنسانِ في المال، ولأنه يَدُلُّ على جَشَعِهم؛ فأُقِيمَ الأكلُ ـ وهو مِنْ توابعِ الكسبِ ـ مُقَامَ الكَسْبِ كلِّه؛ فاللباسُ والسكنى والادخارُ والإنفاقُ على العيالِ وغيرُ ذلك داخلٌ كُلُّه في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ﴾[٣].

قال ابن عباس: «ذلك حين يُبْعَثُ من قبره»[٤].

وقال: «آكلُ الربا يُبْعَثُ يوم القيامةِ مجنونًا يُخْنَقُ»[٥].

---

(١) وهذا مأثور عن زيد بن أسلم؛ أخرجه عنه مالك في الموطأ (٢/ ٦٣). وقال مجاهد، وعطاء، وقتادة: إن رِبَا الجاهليةِ كان كذلك. انظر: سنن البيهقي (٥/ ٢٧٥)، تَفْسِير الطَّبَري (٦/ ٨)، الدُّر المنثور(٢/ ٧١)، العجاب، لابن حجر (١/ ٦٣٦ ـ ٦٣٧).

(٢) فسَّره باستحلاله سعيد بن جُبير؛ فيما أخرجه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٥٤٤).

(٣) انظر: المحرر الوجيز (١/ ٣٧١).

(٤) أخرجه الطَّبَري (٣/ ١٠٢) من طريق سعيد بن جُبير، عنه، به.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٥٤٤) من طريق سعيد بن جُبير، عنه، به، وأخرجه أبو يعلى في مسنده (٥/ ٧٤) من طريق محمد بن السائب الكلبي؛ وهو كذاب. انظر: مجمع الزوائد (٤/ ١٢٠).

قال قتادةُ: «تلك علامةُ أهلِ الربا يومَ القيامة؛ بُعِثُوا، وبهم خَبَلٌ من الشيطانِ»[١].

وقد ذهَبَ بعضُ المفسِّرين إلى القولِ بأنَّ ذلك في الدنيا، وأنَّ المعنى على سبيلِ الاستعارة؛ فإنهم لشدةِ حِرْصِهم، وجَشَعِهم على المالِ، تراهم في سَعْيِهم خلفَهُ كالمجنونِ الذي به صَرَعٌ؛ وهذا كما يقالُ لمن يُسْرِعُ في مشيه، مع التخليطِ في حَرَكاتِهِ: يمشي كالمجنون[٢].

وهذا القولُ يضعِّفُهُ قراءةُ ابن مسعود[٣]، وما تظاهَرَتْ به أقوالُ مفسِّري السلفِ مما ذُكِرَ سابقًا.

وأمَّا استدلالُهم بأنَّ البيعَ مثلُ الربا، فهم لا يعنون قياسَ الربا على البيع؛ لأنَّ المشركينَ الذين نَزَلَتِ الآياتُ فيهم لا يعترفونَ بالبيوعِ الشرعيَّةِ أصلًا، وإنما يعنون: أنَّ البيعَ فيه زيادةٌ على رأسِ المال، والربا كذلك، فلِمَاذا حَرَّمَ الربا، وأَحَلَّ البيع[٤]؟

قال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: «هو الرجلُ إذا حَلَّ مالُهُ على صاحبه، فيقولُ المطلوبُ للطالبِ: زِدْني في الأجل، وأزيدُكَ على مالك، فإذا فعَلَ ذلك،

---

(١) أخرجه الطَّبَري (٣/ ١٠٢)، وبه قال عكرمة، والحسن، وقتادة، والضَّحَّاك، والربيع، والسُّدِّي، وابن زيد، ومقاتل بن حيان، وغيرهم من أئمة المفسِّرين. يُنظر: جامع البيان (٣/ ١٠٢)، تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٥٤٤)، وفُسِّرَ بأن معناه: أن الناس يخرجون من الأجداث سراعًا، لكنْ آكل الربا، يربو الربا في بطنه، فيريدُ الإسراع، فيسقُطُ، فيصيرُ بمنزلةِ المتخبِّطِ من الجنون. انظر: التفسير الكبير (٧/ ٧٩)، فتح الباري (٤/ ٣١٤).

(٢) انظر: المحرر الوجيز (١/ ٣٧٢).

(٣) قرأ ابن مسعود: «الذين يأكُلُونَ الربا لا يَقُومُونَ إلا كما يَقُومُ الذي يتخبَّطُهُ الشيطانُ من المَسِّ يومَ القيامة»؛ أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٥٤٤) من طريق أبي بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حنيف، عن أبي عبد الله بن مسعود، عن أبيه، به.

(٤) انظر: التفسير الكبير (٧/ ٨٠)، تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٢٨).

قيل لهم: هذا ربًا، قالوا: سواءٌ علينا إنْ زدنا في أول البيعِ، أو عندَ محلِّ المالِ؛ فهما سواءٌ؛ فذلك قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾ [البقرة: ٢٧٥]»[١].

وهذا الاعتراضُ على الشريعةِ بدليلِ العقلِ أبطلَهُ القرآنُ العظيمُ من ثلاثةِ طرق:

الأول: المعارَضَةُ بدليلِ الشرعِ، وإذا جاء دليلُ الشرعِ، سقَطَ دليلُ العقلِ؛ **قال تعالى**: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ [البقرة: ٢٧٥]؛ فكان الردُّ[٢] هنا تنبيهًا وتعليمًا لهم: أنَّ الأمرَ للهِ تعالى؛ فهو الذي يحكُمُ لا معقِّبَ لحكمه؛ فعلى العبدِ إنْ جهلَ الحكمةَ في أمرِ اللهِ تعالى: أن يَتَّهِمَ عقلَهُ، ويمتثل للأمر[٣].

الثاني: شناعةُ حالِ المرابي يومَ القيامةِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٥٤٤ ـ ٥٤٥)، قال: حدثنا أبو زرعة، ثنا يحيى، حدثني ابن لهيعة، حدثني عطاء، عنه، به.

(٢) وهذا قول جماهير المفسرين؛ أن قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ ردٌّ من الله تعالى عليهم في قيلهم، وقال بعضُ المفسِّرين: الكلامُ متصلٌ، وكلُّه من قيل المرابين، وتقديره: تلك الصورةُ الشنيعةُ لحالِ المرابي في الآخرة؛ لأنهم قالوا: البيعُ كالربا، ومع ذلك فقد أَحَلَّ اللهُ البيعَ، وحرَّم الربا؛ فكان كلامُهم اعتراضًا على الشارعِ ـ جل وعلا ـ وهذا التفسيرُ محتملٌ؛ لكنه بحاجة إلى إضمار في قوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ولا شك أن المعنى الذي لا يحتاجُ إلى تقديرِ إضمارٍ أولى من القول باحتياجه، والله تعالى أعلم. يُنظر: جامع البيان (٣/ ١٠٢)، التفسير الكبير (٧/ ٨٠ ـ ٨١)، تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٢٨)، فتح الباري (٤/ ٣١٤).

(٣) أخرج أبو نعيم في الحلية، عن جعفر بن محمد؛ أنه سُئِلَ: لم حَرَّم اللهُ الربا؟ قال: «لئلا يتمانعَ الناسُ المعروفَ»، وفي المحرر الوجيز (١/ ٣٧٢): «حَرَّم اللهُ الربا؛ ليتقارَضَ الناس»، وقال بعضُ العلماء: «حرَّمه الله؛ لأنه مَتْلَفَةٌ للأموال، مَهْلَكَةٌ للناس». انظر: الدُّر المنثور (٢/ ١٠٥).

وقد ورَدَ في السُّنَّةِ ما يبيِّن شناعةَ ما يلقاه المرابي منذُ مبعثِهِ إلى دخولِهِ النارَ ـ أعاذنا الله منها ـ.

فعن سَمُرَةَ بن جُنْدُبٍ، في حديثِ المنام الطويل: «**فَأَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ حَسِبْتُ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ، وَإِذَا فِي النَّهْرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ الحِجَارَةَ عِنْدَهُ، فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا**»[1].

وعن ابن عباسٍ، قال: «يقالُ يومَ القيامةِ لآكلِ الربا: خُذْ سِلَاحَكَ للحربِ، وقرأ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، قال: «ذلك حِينَ يُبْعَثُ من قبره»[2].

الثالث: سوءُ عاقبةِ الربا؛ وذلكَ مِنْ خلالِ المقابَلَةِ بينه وبين الصَّدَقةِ: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

ففسِّر مَحْقُ الربا:

١ ـ **بالنقص في الدنيا**؛ قال ابنُ عباس: «﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾: ينقُصُ الربا، ﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: قال: يزيدُ فيها»[3].

٢ ـ **وفُسِّرَ بالنقصِ في الآخرة**، وممَّن قال ذلك الضحاكُ؛ فقد

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التعبير، باب: باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، رقم (٦٦٤٠).

(٢) أخرجه ابن جرير (٣/ ١٠٢)، وابن أبي حاتم (٢/ ٥٥٠)؛ كلاهما من طريق ربيعة بن كلثوم، قال: حدثني أبي، عن سعيد بن جبير، عنه، به.

(٣) أخرجه الطَّبَري (٣/ ١٠٢) من طريق ابن جريج، عنه، به.

أخرَجَ ابنُ المنذر[١] عنه، قال: «أمَّا: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: ٢٧٦]، فإنَّ الربا يزيدُ في الدنيا ويكثر، ويَمْحَقُهُ الله في الآخرة، ولا يَبْقَى منه لأهلِهِ شيءٌ».

أمَّا الصدقاتُ، فإنَّ الله يربِّيها في الدنيا والآخرة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **(مَنْ تَصَدَّقَ بِعِدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، ولا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا طَيِّبًا، فَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ)**[٢].

---

(١) قاله في الدُّر المنثور (٢/١٠٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب: الرياء في الصدقة، رقم (١٣٤٤).



المَبۡحَثُ ٱلسَّابِعُ

افتراءاتُ المُشْرِكِينَ في التحليلِ والتحريمِ

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التحريمُ والتحليلُ بالتحكُّمِ والهوى.

المطلب الثاني: تحريمُ بعضِ الأنعامِ والزروعِ على بعضهم.

المطلب الثالث: تحريمُ جُزْءٍ من الأنعام.

المطلب الرابع: تركُ التسميةِ على الأنعام.

المطلب الخامس: تحريمُ اللَّبَنِ، وأَجِنَّةِ الأنعامِ على النساء.

المطلب الأول

التحريمُ والتحليلُ بالتحكُّمِ والهوى

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

أبانَ اللهُ ﷻ عن بعضِ ما كان عليه المُشْرِكونَ من الضلالِ والجهلِ؛ وذلك أنهم افترَوْا على اللهِ كذبًا، وشَرَعُوا ما لم يأذنْ به الله، ومنه ما ذَكَرَهُ اللهُ تعالى في هذه الآية.

وكان لفعلهم هذا صُوَرٌ عديدةٌ، منها:

الصورة الأولى: أن المشركينَ يجعلونَ للهِ مِنْ حروثهم وأنعامهم نصيبًا، وللأوثانِ نصيبًا؛ فما كان للصنمِ أنفقوه عليه، وما كان للهِ أطعمُوهُ الصبيانَ والمساكين، ولا يأكلون منه البتةَ، ثم إنْ سقَطَ ما جعلوه لله في نصيب الأوثان، تركوه، وقالوا: إنَّ اللهَ غنيٌّ عن هذا، وإنْ سقَطَ ما جعلوه للأوثانِ في نصيبِ الله، أخذوه وردُّوه إلى نصيبِ الصنم، وقالوا: إنه فقير!

قال ابنُ عباس: «كانوا إذا أدخَلُوا الطعامَ، فجعَلُوهُ حُزَمًا؛ جعَلُوا منها لله سَهْمًا، وسهمًا لآلهتهم، وكان إذا هبَّت الريحُ من نحوِ الذي جعلوه لآلهتهم إلى الذي جعلوه لله، رَدُّوهُ إلى الذي جعلوه لآلهتهم، وإذا هبَّت الريحُ من نحو الذي جعلوه لله إلى الذي جعلوه لآلهتهم، أقرُّوه ولم يردُّوه؛ فذلك **قوله:** ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾»[1].

---

(١) أخرجه الطَّبَري (٨/ ٤٠) عن عتاب بن بشير، عن خصيف، عن عكرمة، عنه، به.

الصـورة الثـانيـة: كانوا إذا هلَكَ ما لأوثانهم، أَخَذُوا بَدَلَهُ ممَّا لله، ولا يفعلون مثلَ ذلك فيما لله ﷻ(١).

الصورة الثـالـثـة: قال ابن عباس: «**المعنى**: أنه إذا انفجَرَ من سَقْيِ ما جعلوهُ للشيطانِ في نصيبِ الله، سَدُّوه، وإن كان على ضِدِّ ذلك، تركوه»(٢).

الصورة الـرابـعـة: «إذا أصابهم القَحْطُ، استعانوا بما لله، ووفَّروا ما جعلوه لشركائهم»(٣).

الصورة الخامسة: «كانوا يَعْزِلُونَ من أموالهم شيئًا، فيقولون: هذا لله، وهذا لأصنامهم التي يعبدون، فإنْ ذهَبَ بعيرٌ مما جعَلُوا لشركائهم يُخالِطُ ما جعلوا لله، رَدُّوهُ، وإنْ ذهب شيءٌ مما جعلوا للهِ يخالطُ شيئًا مما جعلوا لشركائهم، تَرَكُوه، فإنْ أصابتهم سَنَةٌ، أكلوا مما جعلوا لله، وترَكُوا ما جعَلُوا لشركائهم؛ **فقال الله تعالى**: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]»(٤).

الصـورة السادسـة: «إن زكا ونما نصيب الآلهةِ، ولم يَزْكُ نصيبُ اللهِ، تركوا نصيبَ الآلهةِ لها، وقالوا: لو شاءَ زكَّى نصيبَ نفسه، وإنْ زكا نصيبُ الله، ولم يَزْكُ نصيبُ الآلهة، قالوا: لا بدَّ لآلهتنا مِنْ نفقةٍ، فأخذوا نصيبَ اللهِ، فأعطَوْهُ السَّدَنَةَ!»(٥).

---

(١) عزاه الرازي في تفسيره (١٣/ ١٦٨)، والجصاص في أحكام القرآن (٤/ ١٧٤) للحسن البصري، والسُّدِّيِّ، ولم أره في غيرهما.
(٢) أخرجه الطَّبَري (٨/ ٤٠) عن علي بن أبي طلحة، عنه، به.
(٣) نسبه الرازي في تفسيره (١٣/ ١٦٨) لقتادة، ولم أجده.
(٤) قاله قتادة؛ فيما أخرجه عبد الرزاق في تفسيره، عن معمر، عن قتادة، به (٢/ ٢١٨)، ومن طريقه أخرجه الطَّبَري (٨/ ٤١).
(٥) نسبه الرازي في تفسيره (١٣/ ١٦٨) لمقاتل، ولم أجده.

فقوله: ﴿وَجَعَلُواْ﴾؛ **أي:** صَرَفُوا، وعيَّنوا لله نصيبًا.

ومعنى: ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾؛ **أي:** ممَّا أنشأَ، وأُطْلِقَ على الإنماءِ إنشاءٌ؛ لأنَّ في الإنشاءِ تكثيرًا وإنماءً[1].

فتضمَّنتِ الصُّوَرُ السابقةُ أمرين:

أولهما: افتراؤُهُمْ في التحليلِ والتحريم، فهم يحرِّمون بعضَ ما رَزَقَهُمُ الله، ويُحِلُّونَ بعضَهُ دون إذنٍ من الله؛ وهذا ما جاء به القرآنُ في موطنٍ آخَرَ، **قال تعالى:** ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

ثانيهما: أنهم يَنْذُرُونَ لأصنامِهِمْ ممَّا رزَقَهُمُ الله جهلًا وافتراء؛ وقد أشارَ القرآنُ لهذا في موطنٍ آخَرَ؛ **فقال الله تعالى:** ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦]، فتوعَّدهم أن يسألهم، والسؤالُ للتوبيخِ والتقريع[2].

وقد أبطَلَ اللهُ تعالى ما افتَرَوْهُ في التحليلِ والتحريم، وفي تخصيصِ جزءٍ مِنْ رزقِ اللهِ لهم ولأصنامِهِمْ بعدةِ أساليبَ:

أولها: بذمِّ ما تحكُمُ به أهواؤُهم، وآراؤُهم؛ **قال تعالى:** ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

وذكَرَ العلماءُ في كيفيةِ هذه الإساءةِ وجوهًا كثيرة[3]:

الأول: أنهم رجَّحوا جانبَ الأصنامِ في الرعايةِ والحفظِ على جانبِ اللهِ تعالى؛ وهو سَفَهٌ.

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٥٦٤).
(٢) أضواء البيان (٢/ ٣٨٧).
(٣) التفسير الكبير (١٣/ ١٦٨).

الثانــي: أنهم جعَلُوا بعضَ النصيبِ لله، وجعَلُوا بعضَهُ لغيره، مع أنه تعالى الخالقُ للجميع؛ وهذا أيضًا سَفَهٌ.

الثالـث: أن ذلك الحكمَ حُكْمٌ أَحْدَثُوهُ مِنْ قِبَلِ أنفسهم، ولم يَشْهَدْ بصحتِهِ عقلٌ ولا شرع؛ فكان أيضًا سفهًا.

الـرابـع: أنه لو حَسُنَ إفرازُ نصيبٍ للأصنامِ، لَحَسُنَ إفرازُ نصيبٍ لكل حَجَرٍ ومَدَرٍ.

الخامس: أنه لا تأثيرَ للأصنامِ في حصولِ الحَرْثِ والأنعام، ولا قدرةَ لها أيضًا على الانتفاعِ بذلك النصيب، فكان إفرازُ النصيبِ لها عبثًا.

فثبَتَ بهذا الوجوه: أنهم ساءَ ما يَحْكُمُونَ.

الأسلوب الثاني: وَصْفُ فِعْلِهِم بالمفتَرَى بدونِ إذنٍ من الله؛ فقال: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

فناقَشَ فِعْلَهُمْ على طريقةِ السبرِ والتقسيم؛ إذْ لا يخلو فعلُهُمْ هذا من أمرين:

الأول: أنْ يكونَ اللهُ تعالى أَذِنَ لهم به.

والثاني: أن يكونَ مفترًى على الله، لم يَأْذَنْ به، ولم يَأْمُرْ به.

والأولُ منتفٍ، فتعيَّنَ الثاني.

الأسلوب الثالث: توعُّدُهُمْ بما سيَلْحَقُ كلَّ مَنِ افترى على الله كذبًا يومَ القيامة؛ فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [يونس: ٦٠].

الأسلوب الرابع: أنَّ عَمَلَهُمْ باطلٌ لا يُقْبَلُ منهم، بل سيكونُ عليهم وِزْرُهُ، وهذا شأنُ كلِّ عبادةٍ نُسِبَتْ للشرعِ كذبًا، وزورًا؛ كما هو شأنُ كلِّ عبادةٍ صُرِفَتْ لغيرِ الله تعالى.

ففي الصحيح، عن النبي ﷺ، عن الله تعالى؛ أنه قال: (**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**)[١].

«فما جعَلَهُ المشركون، وتقرَّبوا به لأوثانهم؛ فهو تقرُّبٌ خالصٌ لغيرِ اللهِ ليس لله منه شيءٌ، وما جعلوه لله على زعمهم، فإنه لا يصلُ إليه؛ لكونِهِ شركًا؛ بل يكونُ حظَّ الشركاءِ والأنداد؛ لأن اللهَ غنيٌّ عنه لا يقبلُ العملَ الذي أُشْرِكَ به معه أحدٌ من الخلق»[٢].

والمقصودُ من حكايةِ أمثالِ هذه المذاهب الفاسدةِ: أنْ يُعْلَمَ أنَّ شَرْعَ اللهِ تعالى لا يكونُ إلا عن طريقِهِ، وعن طريقِ رُسُلِهِ، فكلُّ عبادةٍ وقُرْبة فلا بدَّ أنْ يكونَ مأذونًا فيها؛ إمَّا بطريقٍ خاصٍّ، أو بطريقٍ عامٍّ من الشارعِ.

وأن يَعْرِفَ الناسُ قِلَّةَ عقولِ مَنِ افتَرَى على الله، وعلى شريعتِهِ شيئًا لم يَأْذَنْ به، وألَّا يُلْتَفَتَ إلى كلامهم البتةَ[٣].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن (١/ ٢٥٧) بتصرف يسير.

(٣) انظر: التفسير الكبير (١٣/ ١٦٨).

المَطْلَبُ الثَّانِي

تحريمُ بعضِ الأنعامِ والزروعِ على بعضهم

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨، ١٣٩].

يُخْبِرُ ـ عز ذكره ـ أنَّ المشركين حرَّموا بعضَ الأنعام، وبعضَ الحرثِ، وأوقَفُوهُ على جهاتٍ معينة، لا يَخْرُجونَ عنها.

فقيل: أوقَفُوهَا للشياطين، وقيل: أوقَفُوهَا لآلهتهم، وقيل: أوقَفُوهَا لِسَدَنَةِ البيت.

قال قتادةُ: «تحريمٌ كان عليهم من الشياطينِ في أموالهم، وتغليظٌ وتشديد، ولم يكنْ مِنَ اللهِ تعالى»[(١)].

قال ابنُ عباس: «الحِجْرُ: ما حرَّموا مِنَ الوصيلةِ، وتحريمُ ما حرَّموا»[(٢)].

وقال مجاهدٌ: «الأنعامُ السائبةُ والبحيرةُ التي سَمَّوْا»[(٣)].

فقوله: ﴿حِجْرٌ﴾[(٤)]:

---

(١) أخرجه الطَّبَري (٨/ ٤٦).

(٢) أخرجه الطَّبَري (٨/ ٤٦)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٣٩)؛ من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، به.

(٣) أخرجه الطَّبَري (٨/ ٤٤) من طريق ابن أبي نجيح، عنه، به.

(٤) عن ابن عباس: أنه كان يقرأها: «وحَرْثٌ حِرْجٌ»؛ أخرجه ابن جرير الطَّبَري (٨/ ٤٥). =

قال قتادة: «حَرَامٌ»(١).

والحِجْرُ: اسمٌ للمحجرِ الممنوع؛ مثلُ: ذِبْحٍ للمذبوح؛ فمنعُ الأنعامِ منعُ أكلِ لحومها، ومنعُ الحَرْثِ منعُ أكلِ الحَبِّ والتمرِ والثمار؛ ولذلك قال: ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ [المائدة: ١٣٨].

والحَرْثُ والحِرَاثةُ: العمَلُ في الأرض: زَرْعًا كان أو غرسًا، وقد يكونُ الحرثُ نفسَ الزرع، وبه فُسِّرَ **قولُهُ تعالى**: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧].

والحَرْثُ: الزرعُ... **والحَرْثُ**: الكَسْبُ والفعلُ»(٢).

ويطلقُ على الأرضِ المزروعةِ والمغروسة، وإن لم يكنْ بها حرثٌ؛ ومنه **قوله تعالى**: ﴿أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ﴾ [القلم: ٢٢]؛ فسمَّاه حَرْثًا في وقتِ جُذَاذِ الثمار.

قال الضحاك: «**الحَرْثُ**: الزرعُ الذي جعلوه لأوثانهم»(٣).

ومعنى: ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾؛ **أي**: لا يأكُلُ لحمَهَا إلا من نشاء، وهم الرجالُ دُونَ النساء.

= وعزاه في الدُّر المنثور (٣/ ٣٦٤) لسنن سعيد بن منصور، ولم أجده في المطبوع منه، لكن وجدتُ عن ابن الزبير ﷺ أنه كان يقرأ بهذه القراءة؛ فأخرج سعيد بن منصور (٥/ ٩٢)، قال: حدثنا سعيد، قال: نا سفيان، عن عبيد الله بن أبي يزيد، سمع ابن الزبير يقرأ: «أنعامٌ وحَرْثٌ حِرْجٌ». قال الطَّبَري: «ومعنى الحِجْر واحد، وهذا كما قالوا: جذَبَ وجَبَذَ، وناء ونأى، ففي الحِجْرِ إذَنْ لغاتُ ثلاث: حِجْرٌ بكسر الحاء والجيم قبل الراء، وحُجْرٌ بضمِّ الحاء والجيم قبل الراء، وحِرْجٌ بكسر الحاء والراء قبل الجيم».

وقرأ قتادة، والحسن البصري: «حُجْرٌ»؛ كما في تفسير الطَّبَري (٩/ ٥٨٠).

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره، عن معمر، عن قتادة (٢/ ٢١٨)، ومن طريقه الطَّبَري في تفسيره (٨/ ٤٦).

(٢) لسان العرب (حرث) (٢/ ١٣٤) بتصرف.

(٣) عزاه له الجصاص في أحكام القرآن (٤/ ١٧٤)، ولم أره في غيره.

وقوله: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٨] مُعتَرِضٌ بينَ: ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾، وبين: ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ [الأنعام: ١٣٨].

وفائدته: التنبيهُ على أنَّ هذه الأعمالَ لم يَأْذَنْ بها الله، وإنما هي مِنْ مَزَاعِمِهِمُ الباطلة.

المطلب الثالث

تحريمُ جُزْءٍ من الأنعام

قال تعالى: ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ [الأنعام: ١٣٨].

أي: حرَّموا ركوبها، فكانوا لا يركبونها، مع أنهم ينتفعونَ بنتاجها، وبِرَسَلها(١).

وهذه الأنعامُ التي حرَّموا ركوبَهَا هي: البَحيرةُ، والسائبةُ، والوصيلة، والحَامُ(٢).

وهي المذكورةُ في **قوله تعالى:** ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

قال سعيد بن المسيب: «**البحيرة من الإبل:** التي يَمْنَعُ دَرُّها للطواغيت، **والسائبةُ من الإبل:** كانوا يسيِّبونها لطواغيتهم، **والوصيلةُ من الإبل:** كانتِ الناقةُ تبكر بأنثى، ثم تثنِّي بأنثى؛ فيسمُّونها: الوصيلةَ، يقولون: وصَلَتِ اثنتَيْنِ ليس بينهما ذَكَرٌ؛ فكانوا يَجْدَعُونها لطواغيتهم، أو يذبحونها ـ الشكُّ من أبي جعفر ـ **والحامُ:** الفحلُ من الإبلِ كان يُضْرَبُ الضرابَ المعدود، فإذا بلَغَ ذلك، قالوا: هذا حَامٌ، قد حَمَى ظهرَهُ، فتُرِكَ، فَسَمَّوْهُ الحامَ»(٣).

---

(١) **انظر:** جامع البيان (٨/ ٤٥)، والرَّسَل: القَطِيعُ من كلِّ شيء، والجمعُ: أَرْسَال. **انظر:** لسان العرب (رسل) (١١/ ٢٨١).

(٢) **انظر:** جامع البيان (٧/ ٩١)، معاني القرآن، للنحاس (٢/ ٤٩٦)، زاد المسير (٣/ ١٣٢).

(٣) أخرجه الطَّبَري (٧/ ٩١) من طريق معمر، عن الزهري، عنه، به.

قال في المحرَّر الوجيز: «كانتْ للعربِ سُنَنٌ: إذا فعَلَتِ الناقةُ كذا من جَوْدةِ النسلِ، والمواصلةِ بينَ الإناثِ ونحوه، حُرِّمَ ظهورُها؛ فلم تُرْكَبْ، وإذا فعَلَ الفحلُ كذا وكذا، حُرِّمَ، فعَدَّدَ اللهُ ذلك على جهة الردِّ عليهم؛ إذْ شرَّعوا ذلك برأيِهِمْ وكَذِبِهِمْ»[1].

وتأمَّلْ كيف ختَمَ الآيةَ بقوله: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]؛ فعَدَّ فِعْلَهم، وتقليدَهُمْ لآبائهم في هذه الافتراءاتِ: جَهْلًا، وعَمًى! ولذلك قال بعد هذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

(١) المحرر الوجيز، لابن عطية (٢/ ٣٥١).

المطلب الرابع

تركُ التسميةِ على الأنعامِ

قال تعالى: ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

فسَّر امتناعَهُم عن ذكرِ اللهِ على هذه الأنعامِ بأنهم لا يَذْكُرُونَ اسمَ الله عليها؛ إذا حَجُّوا عليها، أو ولَّدوها، أو إنْ نحروها[١]، أو عند حَلْبِها.

روى عاصمُ بنُ أبي النجود[٢]، قال: «قال لي أبو وائلٍ[٣]: أتدري ما أنعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسمَ اللهِ عليها؟

قال: قلتُ: لا.

قال: أنعامٌ لا يَحُجُّونَ عليها»[٤].

قال مجاهدٌ: «كان مِنْ إبلهم طائفةٌ لا يَذْكُرُونَ اسمَ اللهِ عليها، ولا في شيءٍ من شأنها؛ لا إنْ رَكِبُوها، ولا إنْ حلَبُوا، ولا إنْ حَمَلُوا، ولا إنْ مَنَحُوا، ولا إنْ عَمِلُوا شيئًا»[٥].

---

(١) بهذا فسره السُّدِّي؛ فيما رواه ابن أبي حاتم عنه من طريق أسباط (٤/ ١٣٩٤).

(٢) هو: الإمام المُقرئ الكبير عاصم بن بَهْدَلة بن أبي النجود؛ قال فيه أحمد بن حنبل: «رجلٌ، صالحٌ، خيرٌ، ثقةٌ». انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٥٦).

(٣) هو: الإمام شَقِيق بن سَلَمة الأسدي، أدرك النبي ﷺ، ولم يره، وحدَّث عن كبار الصحابة، كان عالمًا، عابدًا. انظر: الثقات، لابن حبان البستي (٤/ ٣٥٤)، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٦٢).

(٤) أخرجه الطَّبَري (٨/ ٤٧) من طريق سفيان، قال: حدثنا أبو بكر بن عياش، عن عاصم، به.

(٥) أخرجه الطَّبَري (٨/ ٤٧) من طريق ابن جريج، عن مجاهد، به.

وقد نصَّ القرآنُ العظيمُ على أنَّ المشركينَ كانوا لا يذكُرُونَ اسمَ اللهِ عند تذكيتهم للأنعام؛ فقال: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١١٨ ـ ١٢١].

فعن ابنِ عباس، قال: «لمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، أرسَلَتْ فارسُ إلى قريشٍ أن خَاصِموا محمَّدًا، وقولوا له: ما تَذْبَحُ أنتَ بِيَدِكَ بِسِكِّينٍ، فهو حلالٌ، وما ذَبَحَ اللهُ بشمشيرٍ من ذهبٍ، فهو حرامٌ، فنزلَتْ هذه الآيةُ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾»، قال: «الشياطينُ مِنْ فارس، وأولياؤُهُمْ من قريش»[(١)].

وعنه: «قالوا يقولون: ما ذَبَحَ اللهُ، فلا تأكلوه وما ذبَحْتُمْ أنتم، فكُلُوهُ؛ فأنزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾»[(٢)].

وعنه: عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس، قال: «جاءت اليهودُ إلى النبيِّ ﷺ، فقالوا: نأكُلُ مما قتَلْنَا، ولا نأكُلُ مما قتَلَ اللهُ؛ فأنزَلَ الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾، إلى آخرِ الآية»[(٣)].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، رقم (١١٦١٤) من طريق أبان، عن عكرمة، عنه، به.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الضحايا، باب في ذبائح أهل الكتاب، رقم (٢٨١٨)، وابن ماجه في كتاب الذبائح، باب التسمية عند الذبح، رقم (٣١٧٣)، وأخرجه الحاكم في المستدرك، رقم (٧٥٦٤)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرِّجاه»، وأخرجه البيهقي، رقم (١٨٦٧٦)؛ كلهم من طريق سماك، عن عكرمة، عنه، به، قال الحافظ في فتح الباري (٩/ ٦٢٤): إسناده صحيح.

(٣) أخرجه أبو داود، باب في ذبائح أهل الكتاب، رقم (٢٨١٩).

قال قتادة: «جادَلَهُمُ المشرِكونَ في الذبيحةِ، فقالوا: أمَّا ما قتَلْتُمْ بأيديكم، فتأكُلُونَهُ، وأمَّا ما قتَلَ الله، فلا تأكلونه ـ يعني الميتةَ ـ فكانتْ هذه مجادلَتَهُمْ إياه»(١).

قال عِكْرمةُ: «كان مما أَوْحَى الشياطينُ إلى أوليائهم مِنَ الإنس: كيف تعبدونَ شيئًا لا تَأْكُلُونَ مما قتَلَ، وتأكلونَ أنتم ما قتَلْتُمْ؟! فروي الحديث حتى بلَغَ النبيَّ ﷺ، فنزَلَتْ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]»(٢).

فعظَّم اللهُ ـ جلَّ شأنه ـ ضلالَ ما كان عليه أهلُ الجاهلية مِنْ أكلِ المَيْتةِ، وتَرْكِ تسميةِ اللهِ على ما ذَبَحُوا، والأكلِ مما لم يُذْكَرِ اسمُ اللهِ عليه؛ **ولذلك فقد تضمَّنتْ هذه الآيات، منها:**

أنَّه أَمَرَ المؤمنينَ بالأكلِ ممَّا ذُكِرَ اسمُ اللهِ تعالى عليه، بصيغةِ الشرط.

وأنكَرَ على مَنْ تردَّد عن الأكلِ ممَّا ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه، بعدَ أن فصَّل وبيَّن لهم الحلالَ من الحرام.

وبيَّن لهم أنَّ المخالِفَ لهم في هذا ممَّن ضَلَّ باتباعِهِ لهواه.

ونهاهم عن طاعةِ المشركينَ في تحليلِ المَيْتة، وفي الأكلِ ممَّا لم يذكر اسمُ الله عليه، وفي تركِ الأكلِ مما ذُكِرَ اسمُ الله عليه.

وكذلك رهَّبهم من طاعةِ المشركين، **وتقديرُ الكلام:** واللهِ، إنَّكم لَمُشرِكُونَ، فأقسَمَ اللهُ تعالى(٣) بأنَّ مَنْ أطاعَ المشركينَ في تحليلِ الميتة؛ بأنه مشركٌ مثلهم.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢١٧) عن معمر، عنه، به.

(٢) أخرجه الطَّبَري (٨/ ١٦) بسنده عن عنبسة، عن سماك، عنه، به.

(٣) وجه القسم: أنَّ تقديرَ الكلامِ: «فإنكم لمشركون»، لكنْ لمَّا اجتمَعَ قسَمٌ، وشرطٌ، حُذِفَتِ الفاء.

ووجهُ الإشراكِ: أنَّ مَنْ أطاعَ غيرَ اللهِ تعالى في تحليلِ الحرامِ، أو تحريمِ الحلالِ؛ فقد وقَعَ في شركِ الطاعةِ، فعن عَدِيٍّ بن حاتم رضي الله عنه، قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ، وفي عُنُقِي صليبٌ من ذَهَبٍ، قال: فسمعتُهُ يقول: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّهم لم يكونوا يَعْبُدُونهم، قال: **(أَجَلْ، وَلَكِنْ يُحِلُّونَ لَهُمْ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيَسْتَحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّ اللهُ فَيُحَرِّمُونَهُ؛ فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ لَهُمْ)**[١].

قال الزَّجَّاج: «وفي هذا دليلٌ على أنَّ كلَّ من أَحَلَّ شيئًا مما حَرَّمَ اللهُ، أو حرَّم شيئًا مما أَحَلَّ الله؛ فهو مشركٌ»[٢].

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير، باب: ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٩٥)، وقال: حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف، وأخرجه الطبراني في معجمه، رقم (٢١٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره، رقم (١٠٠٥٧)، والطَّبَري في تفسيره (١٠/ ١١٤)، والبيهقي في سننه، رقم (٢٠١٣٧)؛ واللفظ له.

(٢) نقله عنه الذهبي في الكبائر (ص٢١٩).

المَطْلَبُ الخَامِسُ

تحريمُ اللَّبَنِ وأَجِنَّةِ الأنعامِ على النساءِ

قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ [الأنعام: ١٣٩].

وقد اختلَفَ السلفُ في الذي كانوا يحرِّمونه على نسائهم:

فقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: «اللبَنُ كانوا يحرِّمونه على إناثهم، ويُشْرِبُونَهُ ذُكْرانَهم؛ كانت الشاةُ إذا ولَدَتْ ذَكَرًا، ذبحوه، فكان للرجالِ دُونَ النساء، وإن كانتْ أنثى، تُرِكَتْ فلم تُذْبَحْ، وإن كانت ميتةً، فهم شركاء»[(١)].

وقال قتادة: «ألبانُ البحائرِ[(٢)] كانتْ للذكورِ دُونَ النساء، وإنْ كانتْ ميتةً، اشتَرَكَ فيها ذَكَرُهم وأنثاهم»[(٣)].

وقال مجاهد: «السائبةُ، والبحيرةُ»[(٤)].

وقال السُّدِّيُّ: «فهذه الأنعامُ ما وُلِدَ منها مِنْ حي، فهو خالصٌ للرجال دون النساء[(٥)]، وأمَّا ما وُلِدَ من ميت، فيأكلُهُ

---

(١) أخرجه ابن جرير الطَّبَري (٤٨/٨) من طريق أبي إسحاق، عن عبد الله بن أبي الهُذَيْل، عنه، به. وانظر: الدُّر المنثور (٣٦٦/٣)

(٢) البحائر: جمعُ البحيرة، والبحيرةُ سبَقَ التعريف بها في المتنِ مِنْ كلامِ سعيد بن المُسَيَّب (ص٤٤٢).

(٣) أخرجه الطَّبَري (٤٨/٨) من طريق سعيد، عنه، به.

(٤) أخرجه ابن جرير الطَّبَري (٤٨/٨) من طريق ابن أبي نجيح، وجُريج، عنه، به.

(٥) بهذه فسَّره مجاهد؛ فيما أخرجه عنه الطَّبَري (٤٩/٨) من طريق ابن جُرَيْج، وفسَّره ابن زيد بالبنات؛ أخرجه الطَّبَري في نفس الموضع، من طريق ابن وهب، عنه، به، وعمومُ لفظ النساء للبنات، والأزواج هو الموافقُ للغة العرب؛ فإن «الأزواج إنما هي نساؤهم في كلامهم، وهن لا شك بناتُ مَنْ هنَّ أولادُهُ، وحلائلُ مَنْ هُنَّ أزواجه»؛ قاله الطَّبَري.

الرجالُ والنساء»[١].

وقال غيرُهم: أرادَ بها الألبانَ والأجنةَ جميعًا.

والخالصُ: هو الذي يكونُ على معنًى واحدٍ لا يَشُوبُهُ شيءٌ من غيره[٢].

والقولُ بالعمومِ أولى من التخصيصِ؛ قال الطبري: «وأولى الأقوالِ في تأويلِ ذلك بالصوابِ: أنْ يقال: إنَّ اللهَ ـ تعالى ذكره ـ أخبَرَ عن هؤلاءِ الكَفَرَةِ أنهم قالوا ـ في أنعامٍ بأعيانها ـ: ما في بطونِ هذه الأنعامِ خالصةٌ لذكورِنا دُونَ إناثنا، واللَّبَنُ مما في بطونها، وكذلك أجنتُهَا، ولم يُخصِّصِ اللهُ بالخبرِ عنهم أنهم قالوا: بعضُ ذلك حرامٌ عليهنَّ دونَ بعض؛ وإذْ كان ذلك كذلك، فالواجبُ أن يقال: إنهم قالوا: ما في بطونِ تلكَ الأنعامِ مِنْ لَبَنٍ، وجنينٍ، حِلٌّ لذكورهم، خالصةٌ دُونَ إناثهم، وإنهم كانوا يُؤْثِرُونَ بذلك رجالَهُمْ إلا أن يكونَ الذي في بطونها من الأجنةِ مَيِّتًا؛ فيشتركُ حينئذٍ في أكلِهِ الرجالُ والنساء»[٣].

وقد أبطَلَ القرآنُ العظيم هذه الافتراءاتِ من طريقين:

أولـهـمـا: بتهديدهم على هذه التشريعات التي افترَوْها؛ فقال: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٩]؛ أي: كَذِبَهُمْ[٤]؛ كما **قال سبحانه**: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦ ـ ١١٧].

وثانيهما: بتنزيهِ اللهِ تعالى أن يكون أمر بمثلِ هذه الافتراءاتِ؛

---

(١) أخرجه الطَّبَري (٨/ ٤٨) من طريق أسباط، عنه، به.
(٢) معاني القرآن، للنحاس (٤/ ١٧٥).
(٣) جامع البيان (٨/ ٤٨).
(٤) قاله مجاهد، وقتادة، وغيرهما من المفسِّرين. **يُنظر**: جامع البيان (٨/ ٥٠).

فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]، فهذه الأفعالُ لا يمكنُ أنْ يَشْرَعَهَا مَنْ هو حكيمٌ في أمره، ونهيِهِ، ومن هو عليمٌ بِخَلْقه.

ولذلك قال ابنُ عباسٍ لسعيد بن جُبَيْر: «إذا سرَّك أن تَعْلَمَ جهلَ العرب، فاقرأْ ما فوقَ الثلاثينَ ومئةٍ في سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، إلى قوله: ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]»(١).

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب قصة زمزم، وجهل العرب، رقم (٣٣٣٤).



الْفَصْلُ الثَّالِثُ

المَقُولاتُ المتعلِّقةُ بالسُّلُوكِ والأخلاقِ

وفيه اثنا عشَرَ مبحثًا:

- المبحث الأول: القولُ على اللهِ بلا عِلْمٍ.
- المبحث الثاني: القولُ المغايرُ للفعلِ.
- المبحث الثالث: نسبةُ النِّعَمِ للنَّفْسِ.
- المبحث الرابع: الاغترارُ بالدنيا ونَعِيمِها.
- المبحث الخامس: التمنِّي بدونِ عَمَلٍ.
- المبحث السادس: القَسَمُ باللهِ كَذِبًا.
- المبحث السابع: تركُ الأمرِ بالمعروفِ، والنهيِ عن المُنْكَرِ.
- المبحث الثامن: مَدْحُ النَّفْسِ.
- المبحث التاسع: كثرةُ الأسئلةِ.
- المبحث العاشر: التعلُّقُ المُطْلَقُ بالدنيا.
- المبحث الحادي عشر: ادعاءُ العبدِ مَنْزِلَةً لم يَصِلْ لها.
- المبحث الثاني عشر: المَنُّ بالعَمَلِ الصَّالِحِ.



المَبْحَثُ الأَوَّلُ

القولُ على اللهِ بلا عِلْمٍ

مِنَ الصفاتِ الذميمةِ التي نهى عنها القرآنُ عن طريقِ ذكرِ المقولةِ وإبطالِها: نَهْيُ المرءِ عن الكلامِ فيما لا عِلْمَ له به؛ حفظًا لمداركِ العلمِ عن التخمينِ والتخرُّصِ.

قال سبحانه ـ في الإنكار على أهلِ الكتابِ دعواهم احتكارَ دخولِ الجنةِ على مَنْ كان يهوديًا أو نصرانيًا ـ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢].

فأخبَرَ سبحانه أنَّ اليهودَ يَحْصُرُونَ دخولَ الجنةِ فيهم، والنصارى كذلك[1]؛ بدليلِ **قوله تعالى:** ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[2] [البقرة: ١١٣]، «فلَفَّ بين القولَيْنِ؛ ثقةً بأنَّ السامعَ يَرُدُّ إلى كلٍّ فريقٍ قولَهُ، وأمنًا من الإلباسِ؛ لِمَا عُلِمَ من التعادي بين الفريقَيْنِ، فجمَعَ القرآنُ بين قولَيْهما على طريقةِ الإيجاز، بجمعِ ما اشتَرَكَا فيه، وهو نفيُ دخولِ الجنةِ

(١) انظر: جامع البيان (١/ ٤٩٢)، الكشاف (١/ ٢٠٣)، التفسير الكبير (٤/ ٣).

(٢) من اللطائف: أن هذه الآية هي الآية التالية لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١].

عن المستثنى منه المحذوفِ»[١].

فردَّ اللهُ عليهم دعواهم الكاذبةَ من أربعةِ طرق:

أوَّلها: توبيخُهم على دعاويهم الكاذبةِ؛ **فقال**: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: ١١١]: **والأماني**: جمعُ أمنيَّة، وهي ما يُمنُّون به أنفسَهُمْ من الباطل، ويقالُ لكلِّ كلامٍ لا حقيقةَ له: أمنيَّة[٢].

قال قتادةُ: «أمانيُّ تَمَنَّوْها على اللهِ كاذبةٌ»[٣].

ثانيها: المطالبةُ بالبرهانِ والحجةِ على دعواهم؛ **فقال**: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

فكلُّ دعوى لا دليل عليها، ولا برهان، ولا حُجَّة؛ فهي كاذبةٌ لا يلتفتُ إليها.

ثالثها: نقضُ قولهم؛ وذلكَ بالاستدراكِ عليهم في قيلهم؛ **فقال**: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢].

فمعنى الاستدراكِ: ليس الأمرُ كما تقولون مِنْ حصرِ دخولِ الجنةِ بكم، بل دخولُ الجنةِ لا يكونُ إلا لِمَنْ أسلَمَ، وحَسُنَ إسلامه.

ووجهُ نقض دعواهم، وإبطالِهَا: أنهم ادعَوْا أنهم وَحْدَهُمْ مَنْ يدخُلُ الجنةَ؛ **فقرَّر**: أنَّ دخولَ الجنةِ لا يكونُ إلا لمن أسلَمَ وجهَهُ لله وهو مُحْسِنٌ، وهم ليسوا كذلك؛ فإذَنْ هم لن يدخلوا الجنة!

وقد يَحتمِلُ أنْ يكونَ الأسلوبُ للتحضيضِ لهم على اتباعِ النبيِّ ﷺ؛

---

(١) النص من الكشاف (١/٢٠٣)، والتحرير والتنوير (١/٣٨٨).

(٢) **انظر**: لسان العرب (منى) (١٥/٢٩٥).

(٣) أخرجه الطَّبَري (١/٤٩٢)، قال: حدثنا بشر بن معاذ، قال: ثنا يزيد بن زريع، قال: ثنا سعيد، عنه، به.

«كأنه قيل لهم: أنتم على ما أنتم عليه لا تَفُوزُونَ بالجَنَّة، بلى إنْ غيَّرتم طريقَتَكُمْ، وأسلَمْتُمْ وَجْهَكم لله، وأحسَنْتُمْ، فلكُمُ الجنةُ؛ فيكونُ ذلك ترغيبًا لهم في الإسلامِ، وبيانًا لمفارقةِ حالِهِمْ لحالِ مَنْ يدخُلُ الجنةَ؛ لكي يقلعوا عما هم عليه، ويعدلوا إلى هذِهِ الطريقة»(١).

رابعها: التحدِّي؛ وذلك بِطَلَبِ المباهلة(٢)، وقد سبَقَ بيانُ ذلك.

وقال في وصفِ اضطرابِ الناسِ في أصحابِ الكَهْف:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢].

والرجمُ: هو القولُ بالظَّنِّ، والحَدْس(٣).

قال قتادةُ: «قذفًا بالظنِّ»(٤).

فقوله: ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾؛ **أي**: حَدْسًا، وظنًّا، بلا برهان ولا يقين.

وفي هذا التعقيب إبطالٌ لقولهم؛ فالقولُ الذي يصدُرُ بلا برهانٍ، ولا استدلالٍ، ولا غلبةِ ظنٍّ، قولٌ لا اعتبارَ له، ولا وَزْنَ؛ فقد حكى اللهُ تعالى عنهم ثلاثةَ أقوال، ضعَّف القولين الأولين، وسكَتَ عن الثالث(٥)؛

---

(١) التفسير الكبير (٤/ ٤).

(٢) سبق تعريفها (ص١٠٥).

(٣) لسان العرب (١٢/ ٢٢٧).

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٤٠٠) عن معمر، عنه، به.

(٥) رجَّح أكثرُ العلماء: أن عدد أصحابِ الكهف سبعةٌ وثامنُهم كلبُهم؛ لإقرار الله تعالى تلك المقولةَ، وقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن مسعود ﷺ، أنه قال: «إنا مِنَ القليلِ؛ كانوا سبعةً». **انظر**: الدُّر المنثور (٥/ ٣٧٦)، ولم أره في تفسير ابن أبي حاتم، وبهذا قال ابن عباس ﷺ؛ فيما أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٤٠٠) من طريق عكرمة، وابن جرير الطَّبَري (١٥/ ٢٢٦) من طريق قتادة، وابن جُرَيْج، وأخرجه الطبراني في الأوسط (/ ٦١١٣)؛ ولفظه: «قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: «أَنَا مِنْ أُولَئِكَ الْقَلِيلِ، مكسمليثا، وَتَمْليخا، وَهُوَ الْمَبْعُوثُ بِالْوَرِقِ إِلَى الْمَدِينَةِ، ومرطولس، ويثبونس، =

فدل على صحته؛ لأن القرآن لا يسكُتُ على باطل[١].

فأبطَلَ اللهُ قولَ الخائضينَ في عَدَدِهِمْ، وأَمَرَ نبيَّه ﷺ بأمرَيْن:

□ رَدُّ العلم إلى اللهِ تعالى؛ إذْ لا احتياجَ إلى الخوضِ في مثلِ ذلك بلا علمٍ[٢]: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ [الكهف: ٢٢].

□ النهيُ عن سؤالِهم فيما لا دليلَ معهم فيه ولا برهانَ؛ فقال: ﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٢٢].

وخلاصةُ هذا المبحثِ: أنَّ القرآنَ نَهى عن تعرُّضِ العبدِ لِمَا لا علمَ به، **وقال:** ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦].

قال قتادةُ: «لا تقلْ: سمعتُ ولم تَسْمَعْ، ولا تقلْ: رأيتُ ولم تَرَ؛ فإنَّ اللهَ سائلُكَ عن ذلكَ كلِّه»[٣].

= وذرتونس، وكفاشطيطوس، ومنطنواسيسوس، وَهُوَ الرَّاعِي، وَالْكَلْبُ اسْمُهُ قِطْمِير، دُونَ الْكُرْدِيِّ، وَفَوْقَ الْقِبْطِيِّ، لَا أَظُنُّ فَوْقَ الْقِبْطِيِّ». قال في الدُّر المنثور (٥/ ٣٧٦): «إسناده صحيح»، قال الكرماني في أسرار التكرار (١/ ١٣٢): «فإن قيل: وقد قال في الثالث: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾؟ فالجواب: تقديره: قل ربي أعلم بعدَّتهم، وقد أخبَرَكُمْ أنهم سبعة، وثامنُهم كلبُهم؛ بدليل قوله: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾؛ ولهذا قال ابن عباس: «أنا مِنْ ذلك القليلِ؛ فعَدَّ أسماءهم».

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦٧)، تفسير القرآن العظيم (١/ ٥)، أضواء البيان (٣/ ٢٥٢).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم (٣/ ٧٩).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٧٨) عن طريق معمر، عنه، به، والطَّبري (١٥/ ٨٦).



المَبۡحَثُ ٱلثَّانِي

القولُ المُغَايِرُ للفِعْلِ

ذَمَّ اللهُ تعالى شأنُهُ مَنْ خَالَفَ فعلُهُ قولَهُ، وباطنُهُ ظاهرَهُ، وعَدَّ هذا من النفاقِ البغيضِ الذي يهوي بصاحبِهِ في الدركِ الأسفلِ من النار.

ولمَّا كانتْ مخالفةُ الباطنِ للظاهرِ تَنِمُّ عن مُخادَعةٍ، وتدليسٍ؛ فقد تعدَّدتْ طرقُ القرآنِ العظيمِ في بيانِ فسادِ هذا السلوكِ، والتحذيرِ منه.

وقد وقَعَ في هذا السلوكِ البغيضِ لله تعالى طوائفُ شتَّى؛ فهم بين مستقلٍّ، ومستكثرٍ؛ فأعظمُهُمْ إثمًا، وأَسْوَؤُهم عاقبةً: هم المنافقونَ الذين وصَلَتْ مخادعتُهُمْ إلى أصلِ الإيمان؛ فأظهَرُوا الإسلامَ، وأبطنوا الكُفْرَ، **وسوف أستعرضُ في هذا المبحثِ مقولاتِ المنافقين، ومقولاتِ بعضِ المسلمين:**

- **أولًا: المنافقونَ؛ حَيْثُ ذمَّهم اللهُ تعالى في بابِ المَقَالاتِ في آيتَيْنِ:**

الآية الأولى

قولُهُ تعالى شأنه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

يُخْبِرُ جلَّ ذكرُهُ عن المنافقين أنَّهم جَمَعُوا بين خَصْلَتَيْن ذميمتَيْن، «فجَمَعُوا بين العملِ بالفسادِ في الأرضِ، وإظهارِهِمْ أنه إصلاحٌ؛ قلبًا للحقائق، وجَمْعًا بين فعلِ الباطلِ واعتقادِهِ حقًّا؛ وهذا أعظمُ جنايةً ممن

يعملُ بالمعصيةِ معَ اعتقادِ أنها معصيةٌ؛ فهذا أقربُ للسلامةِ وأرجى لرجوعه»(١).

والفسادُ: خروجُ الشيءِ عن كونِهِ مُنْتَفَعًا به، ونقيضُهُ الصلاحُ، **والإفسادُ في الأرض**: العمَلُ فيها بما نهى اللهُ عنه، وتضييعُ ما أمَرَ اللهُ بحفظه.

فأخبَرَ أنهم إنْ نُصِحُوا، ووُعِظُوا بتَرْكِ ما يُحْدِثُونَهُ من الفسادِ في الأرض، أجابوا بنقيضِ ما رُمُوا به، فقالوا: إنما نحنُ مصلحون.

وقد قال ابنُ مسعودٍ عن فسادهم المقصود: «هو الكُفْرُ، والعملُ بالمعصية»(٢).

وكذلك قال أبو العالية: «لا تَعْصُوا في الأرضِ، وكان فسادُهُمْ ذلك معصيةَ اللهِ؛ لأنه مَنْ عصى اللهَ في الأرض، أو أمَرَ بمعصيةِ الله، فقد أفسَدَ في الأرض؛ لأنَّ صلاحَ الأرضِ والسماءِ بالطاعة»(٣).

ووجهُ إفسادِ المعاصي للأرضِ: «أنَّ الشرائعَ سُنَنٌ موضوعةٌ بين العباد، فإذا تمسَّك الخلقُ بها، زالَ العدوان، ولزمَ كلُّ أحدٍ شأنَهُ، فحُقِنَتِ الدماءُ، وسكَنَتِ الفِتَن، وكان فيه صلاحُ الأرض، وصلاحُ أهلها، أما إذا ترَكُوا التمسُّكَ بالشرائع، وأقدَمَ كلُّ أحدٍ على ما يهواه؛ لَزِمَ الهَرْجُ، والمَرْج، والاضطرابُ؛ ولذلك **قال تعالى**: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢].

فنبَّههم على أنهم إذا أعْرَضُوا عن الطاعة، لم يَحْصُلُوا إلا على الإفسادِ في الأرض»(٤).

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن (ص٤٢) بتصرف.

(٢) أخرجه الطَّبَري (١/ ١٢٦).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٤٤ ـ ٤٥).

(٤) نقله الرازي عن القفال. **انظر**: التفسير الكبير (٢/ ٦٠).

وقال ابنُ عباسٍ في تفسيرِ فسادِهم: إنَّهم كانوا يقولون: «إنما نريدُ الإصلاحَ بين الفريقَيْنِ؛ من المؤمنينَ، وأهلِ الكتاب»[١].

فسمَّى مداراةَ المنافقينَ للكافرين، ومخالَطَتَهُمْ معهم: إفسادًا؛ «لأنَّهم لمَّا مالوا إلى الكفرِ، مع أنهم في الظاهرِ مؤمنونَ، أوْهَمَ ذلك ضعفَ الرسولِ ﷺ، وضعفَ أنصارِهِ، فكان ذلك يُجَرِّئُ الكَفَرَةَ على إظهارِ عداوةِ الرسول، ونَصْبِ الحربِ له، وطَمَعِهِمْ في الغَلَبَة، وفيه فسادٌ عظيمٌ في الأرض»[٢].

ولا شكَّ أنَّ فسادهم يَعُمُّ كلَّ ما ذُكِرَ.

طريقة القرآن العظيم في إبطال قولهم:

أبطَلَ القرآنُ العظيمُ دعوى المنافقينَ بطريقِ قَلْبِ الدعوى عليهم.

فالإصلاحُ الذي يَدَّعونه، هو الفسادُ بعينِهِ؛ **قال تعالى:** ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢].

فحصَرَ الفسادَ في تصرُّفاتهم رَدًّا على حَصْرِهِمُ الصلاحَ في أنفسهم؛ وذلك لأنَّ الكفرَ باللهِ تعالى، ومعاداةَ أوليائِهِ، وموالاةَ أعدائِهِ، ونشرَ الشُّبَهِ، والإرجافَ بين المسلمين: مِنْ أعظم الذنوب، ومِنْ أكبرِ الإفساد.

ومِنْ بلاغةِ الردِّ عليهم[٣]: أنه جاء بطريقٍ مِنْ طرقِ القصر، هو أبلغُ فيه مِنَ الطريقِ الذي قالوه؛ لأنَّ تعريفَ المسنَدِ يفيدُ قَصْرَ المسنَدِ على المسند إليه؛ **فيفيدُ قولُهُ:** ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ قَصْرَ الإفسادِ عليهم؛ بحيثُ لا يوجدُ في غيرهم، وذلك ينفي حَصْرَهُمْ أنفسَهُمْ في الإصلاحِ وينقضُهُ.

وقد أكَّد سبحانه فسادَهُمْ:

- بحرفِ «أَلَا» للتنبيه؛ إعلانًا لوصفِهِمْ بالإفساد.

---

(١) أخرجه الطَّبَري من طريق سعيد بن جُبير (١/ ١٢٦)، وابن أبي حاتم (١/ ٤٥).

(٢) التفسير الكبير (٢/ ٦٠).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (١/ ١٦٨).

- باستعمال ضميرِ الفَصْلِ المفيدِ تأكيدَ قَصْرِ الفسادِ عليهم.

- بدخولِ «إنَّ» على الجملةِ، وقَرْنِهَا بـ«أَلَا» المفيدة للتنبيه؛ وذلك من الاهتمامِ بالخبرِ وتقويتِهِ؛ دَلَالةً على سخطِ اللهِ تعالى عليهم؛ فإنَّ أدواتِ الاستفتاحِ مثلُ: «أَلَا» و«أَمَا» لـمَّا كان شأنُها أنْ ينبَّه بها السامعونَ، دلَّت على الاهتمامِ بالخبرِ وإشاعتِهِ وإعلانِهِ؛ فلا جرَمَ أنْ تَدُلَّ على أبلغيَّةِ ما تضمَّنه الخبَرُ من مدحٍ أو ذمٍّ أو غيرهما؛ ويدلُّ ذلك أيضًا على كمالِ ظهورِ مضمونِ الجملةِ للعيَانِ؛ لأنَّ أدواتِ التنبيهِ شارَكَتْ أسماءَ الإشارةِ في تنبيهِ المخاطَب.

الآية الثانية

قال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ...﴾ [البقرة: ١٣].

والكافُ **في قوله تعالى:** ﴿ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ هي للتشبيه، أو للتعليل(١).

وقد روى مُرَّةُ الهَمَذانيُّ(٢)، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ، قالوا: «﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ يعنونَ: أصحابَ النبي ﷺ»(٣).

وإنما سمَّى المنافقون المسلمينَ بالسُّفَهاءِ(٤)؛ لأمرين:

أحدهما: أنهم كانوا كافرينَ بما كان عليه النبيُّ ﷺ، ويعتقدونَهُ

---

(١) **انظر:** تفسير أبي السعود (١/ ٤٥)، التحرير والتنوير (١/ ١٦٩).

(٢) **هو:** مُرَّةُ بن شَرَاحيل الهَمْداني، أبو إسماعيل الكوفي، يُسمى بـ«مرة الطيب». قال الحافظ: «ثقةٌ عابدٌ، من الثانية»، مات سنة (٧٦هـ). **انظر:** تقريب التهذيب (ص٥٢٥).

(٣) أخرجه الطَّبَري (١/ ١٢٨).

(٤) **يُنظر:** التفسير الكبير (٢/ ٦٢).

باطلًا، والباطلُ لا يَقْبَلُهُ إلا السَّفيهُ، فلهذه الأسبابِ نَسَبُوهُم إلى السَّفَاهة.

الثاني: أنَّ المنافقينَ كانوا مِنْ أهلِ الرياسةِ والغنى، بينما كان أكثَرُ المؤمنين فقراءَ؛ فكَرِهُوا أن يجتمعوا معهم في دِينٍ واحد.

ولمَّا كان المنافقون يَظْهَرُ منهم بين الفَيْنةِ والأخرى ما يَرِيبُ المؤمنين، كان بعضُ المؤمنينَ يُناصِحُهم ويَحُضُّهم على أن يؤمنوا إيمانًا كإيمانِ المؤمنين؛ فكان جوابُهُمْ: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: ١٣].

وهذه حجةُ المنافقين في كلِّ زمانٍ ومكان؛ فهم إلى اليومِ يُظْهِرُونَ من الأقوالِ الشنيعة، والآراءِ الخبيثةِ، ما يعدُّونه صلاحًا، فإذا قيل لهم: أَلَا تستقيمون، وتؤمنونَ كما آمَنَ الناس؟! قالوا: أنؤمنُ كإيمانِ هؤلاء الظاهريِّين! النَّصِّيين! الجامدين! إلى قائمةٍ عريضةٍ من التهكُّم والاحتقار.

فأبطَلَ القرآنُ قولَهُمْ بالقَلْب، والمعارَضَةِ: فقلَبَ عليهم دعواهم **بقوله**: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

فبيَّن: أنهم السفهاءُ على الحقيقة؛ **لأنَّ حقيقةَ السَّفَهِ**: خِفَّةُ الرأي، وجهلُ الإنسانِ بمصالحِ نفسه، وسَعْيُهُ فيما يضرُّها، مع ظنِّه أنه يُحْسِنُ صنعًا، فيُضَيِّعُ، وهو يَظُنُّ أنه يَحْفَظُ، وهذه الصفةُ منطبقةٌ عليهم، وصادقةٌ عليهم؛ **كما أنَّ العقلَ والحِجَا**: معرفةُ الإنسانِ بمصالحِ نفسه، والسعيُ فيما ينفعه، وفي دَفْعِ ما يضرُّه، وهذه الصفةُ منطبقةٌ على الصحابةِ والمؤمنين، وصادقةٌ عليهم؛ فالعِبْرةُ بالحقائق، لا بالدعاوى المجرَّدة، والأقوالِ الفارغة(١).

---

(١) **انظر**: جامع البيان (١/ ١٢٩)، التفسير الكبير (٢/ ٦٢)، تيسير الكريم الرحمٰن (ص٤٢).

وعبَّر بـ ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾؛ فأدخَلَ الألفَ واللامَ؛ لإفادةِ حصرِ السَّفهِ والفسادِ فيهم، وأكَّده بـ «إنَّ»، وبـ «إلَّا» التي تقتضي الاستئنافَ، وتنبيهَ المخاطَب.

واعلَمْ: أنَّ لفظَ ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ يصلُحُ إطلاقُهُ على كلِّ الكفار؛ يدُلُّ على ذلك **قولُهُ تعالى**: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

• ثانيًا: مقولاتُ بعضِ المسلمين:

كما عاتَبَ اللهُ تعالى شأنُهُ بعضَ المؤمنينَ على مخالَفَةِ أفعالِهِمْ لأقوالهم؛ **فقال سبحانه**: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٢ ـ ٤].

والنداءُ وإنْ كان عامًّا، إلَّا أنه مِنَ العموم المراد به الخصوصُ؛ فإنَّ ما عوتبوا به، لم يكنْ فعلًا عامًّا، وإنما وقَعَ مِنْ بعضهم؛ ففي الآيةِ الرابعةِ مِنْ هذه السورةِ إيحاءٌ للفعلِ الذي وقعَتْ فيه المخالفةُ، وهو عدَمُ الوفاءِ بالعهد الذي قطَعُوهُ على أنفسهم مِنْ قبلُ؛ فاستَوْجَبُوا لذلك العتابَ عليه، كما تبيَّن أن الذين وَفَوْا بالعهدِ، استَوْجَبُوا الثناءَ على الوفاء.

وقد بيَّن سبحانَهُ ما عاتَبَهُمْ به هنا في سورةِ النساءِ أوضَحَ تبيين؛ **فقال سبحانه**: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

فإنَّهم قيل لهم: كُفُّوا أيديَكُمْ عن القتالِ حتى يُؤْذَنَ لكم فيه؛ فتَمَنَّوا الإذنَ فيه، فلمَّا كُتِبَ عليهم، رَجَعُوا وتَمنَّوا لو أُخِّرُوا إلى أجلٍ قريب!

عن ابن عباس؛ أنَّ عبدَ الرحمٰنِ بنَ عوفٍ وأصحابًا له أَتَوُا النبيَّ ﷺ بمكةَ، فقالوا: «يا نبيَّ الله، كنا في عِزٍّ ونحنُ مشركون، فلما آمَنَّا صِرْنا أذلَّةً، قال: (إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلَا تُقَاتِلُوا الْقَوْمَ)، فلمَّا حوَّله اللهُ إلى المدينةِ، أمرَهُ بالقتال، فكفُّوا، فأنزَلَ اللهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]»[١].

قال عكرمةُ في الآية: «نزَلَتْ في أناسٍ من أصحابِ رسول الله ﷺ»[٢].

وقد ورَدَ عن قتادةَ تفصيلٌ أدَقُّ، قال: «كان أناسٌ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، وهو يومئذٍ بمكَّةَ قبلَ الهجرة، تسرَّعوا إلى القتالِ، فقالوا لنبيِّ الله ﷺ: ذَرْنا نتخذْ مَعَاوِلَ فنقاتِلَ بها المشركينَ بمكةَ؛ فنهاهم نبيُّ الله ﷺ عن ذلك، قال: (لَمْ أُومَرْ بِذَلِكَ)، فلمَّا كانتِ الهجرةُ، وأُمِرَ بالقتالِ، كَرِهَ القومُ ذلك، فصنعوا فيه ما تسمعون؛ فقال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾»[٣].

---

(١) أخرجه ابن جرير الطَّبَري في تفسيره (٥/ ١٧٠)، وأخرجه النسائي في الجهاد، باب وجوب الجهاد، رقم (٣٠٨٦)، والحاكم، رقم (٢٣٧٧)؛ من حديث علي بن الحسن بن شقيق، به، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرِّجاه».
ويجُدُر التنبيهُ هنا على أن الظاهرَ من سياق الآيات في سورة النساء: أن المراد بها هم المنافقون؛ فالآياتُ السابقةُ لهذا العتاب، والآياتُ اللاحقةُ، كلُّها في الكلامِ على المنافقين، فيكونُ الكلام مُنصبًا في الأصلِ على المنافقين، ولا يمنعُ أن يقَعَ في هذه الصفة من حيثُ العمومُ بعضُ المؤمنين، وإن لم يُطابقوهم في جميعِ الأوصافِ المتعلِّقة بهذه الخصلة؛ خاصَّةً إذا علمنا أن الصحابة والتابعين يقولون: نزلت هذه الآية في كذا، «ويكونُ المرادُ بذلك: أنها دلَّت على هذا الحكم، وتناولته، وأريدَ بها هذا الحكْم»؛ كما حرَّر ذلك شيخُ الإسلام ابن تيمية في مقدمة التفسير.

(٢) أخرجه ابن جرير الطَّبَري في تفسيره (٥/ ١٧٠)، وانظر: الدُّر المنثور (٢/ ٥٩٤).

(٣) المرجع السابق (٥/ ١٧١).

قال السُّدِّيُّ: «لم يكنْ عليهم إلا الصلاةُ والزكاةُ، فسألوا اللهَ أنْ يَفْرِضَ عليهم القتالَ، فلمَّا فُرِضَ عليهم القتالُ، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧].

فقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ [النساء: ٧٧] الخطابُ للنبيِّ ﷺ وفيه تعجُّبٌ من قومٍ طُلِبَ منهم أن يكفُّوا عن الجهاد، ويمتنعوا عنه، وينشغلوا بإقامةِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، بمفهومِهَا الشامل؛ كتحقيقِ التوحيدِ، وتزكيةِ النفسِ، وبَذْلِ الصدقة...

فلمَّا كُتِبَ عليهم القتالُ بعدَ هذه الفترةِ مِنَ التربيةِ الروحيَّةِ، والإيمانيَّة؛ إذا بهم يَنْكُصُونَ عنه خشيةً من الناس؛ فعاتَبَهُمُ اللهُ تعالى **قائلًا لهم:**

﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]؛ **أي:** آخرةُ المتقي خيرٌ من دنياه.

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]؛ **أي:** مِنْ أعمالكم، بل تُوَفَّوْنَها أتمَّ الجزاء؛ وهذه تسليةٌ لهم عن الدنيا، وترغيبٌ لهم في الآخرة، وتحريضٌ لهم على الجهاد(١).

وجوابُ «لَوْ» محذوفٌ؛ اعتمادًا على دَلَالةِ ما قبله عليه؛ **أي:** ولو كنتم في بروجٍ مشيدةٍ يُدْرِكْكُمْ الموتُ(٢).

فبيَّن تعالى أنه لا خَلَاصَ لهم من الموت، والجهادُ موتٌ مُستعقِبٌ لسعادةِ الآخرة، فإذا كان لا بدَّ من الموتِ، فبِأنْ يقَعَ على وجهٍ يكونُ مستعقبًا للسعادةِ الأبدية، كان أَوْلَىٰ من ألَّا يكونَ كذلك؛ ونظيرُ هذه

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٣٣). (٢) تفسير أبي السعود (٢/ ٢٥٠).

الآيـة قـولُـهُ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦].

والبروجُ في كلامِ العربِ: هي القصورُ والحُصُون، وأصلُهَا في اللغةِ من الظهور(١)؛ **فقوله**: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]؛ **أي**: حَصِينةٍ مَنِيعةٍ عالية، رفيعة، لا تغني من حذر، ولا تُحصِّنُ من الموت.

فأنتم صائرون إلى الموتِ لا محالةَ، ولا ينجو منه أحدٌ منكم، جاهَدَ أو لم يُجاهِدْ؛ فإنَّ له أجلًا محتومًا، ومقامًا مقسومًا؛ **كما قال تعالى**: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ الآيةَ [الرحمٰن: ٢٦].

وقد أبطَلَ القرآنُ العظيمُ هذا القولَ بعدَّة طرق:

أولـهـا: ذَمُّ مقالتهم؛ حيثُ جاءتْ في سياقِ الذمِّ، والتنفيرِ من سلوكهم المَشِين؛ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾ [النساء: ٧٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

ثـانيـهـا: تحريضُهُمْ على العمل، وأنَّ في إتباعِ القولِ العملَ سعادةَ الدنيا والآخرة: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

ثـالثـهـا: تحذيرُهُمْ مِنْ مشابَهةِ المغضوبِ عليهم والضالِّين؛ كالمنافقين؛ **حيثُ قال سبحانه بعد تلكَ الآياتِ في وصفِ المنافقين، وذمِّهم**:

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

---

(١) انظر: لسان العرب، مادة (برج) (٢/ ٢١٢).

وتحذيرُهُمْ من مشابهةِ اليهود، والنصارى؛ فإنَّ الله تعالى بعدَ أنْ نهى المؤمنينَ عن هذه الخَصْلةِ الذميمة، ذكَرَ اليهودَ، **فقال:**

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

فذمَّهم على إيذائِهِ مع عِلْمهم بأنه رسولُ الله؛ فكان جزاؤُهم أنْ زاغَ اللهُ قلوبهم؛ لأنهم قومٌ فاسقون.

وقال في النصارى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

فمع معرفتهم برسولِ اللهِ ﷺ كذَّبوه، وتولَّوْا عن طاعته، فكان وصفُهُمْ وجزاؤهم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٧ ـ ٨].



المَبحَثُ الثَّالِثُ

نِسْبةُ النِّعَمِ لِلنَّفْسِ

ذكَرَ اللهُ تعالى هذه المقولةَ عن الكفَّارِ عمومًا، وقَارُونَ(١) خصوصًا، وقد ذَمَّ اللهُ تعالى تلك المقالةَ؛ لما تنطوي عليه مِنْ نسيانِ حَقِّ المُنْعِمِ سبحانه، والكُفْرِ به، وتزكيةِ النفس، وادعاءِ أفضليَّتها.

الآية الأولى

قال تعالى عن قَارُونَ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

هذا طَرَفٌ مما قاله قارونُ لقومه عندما قالوا له: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]؛ «لأنه لا يَفْرَحُ بالدنيا إلا مَنْ رَضِيَ بها واطمأنَّ، وأمَّا مَنْ قلبُهُ إلى الآخرة، ويعلمُ أنه مُفارِقٌ ما فيه عن قريبٍ، لم تحدِّثه نفسُهُ بالفَرَحِ»(٢).

فقال ـ كما ذكَرَ اللهُ تعالى هنا ـ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾.

---

(١) قارون: هو: قارون بن يصفد بن يصهر، ابن عم موسى ﷺ؛ فقد روى ابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٠٥) عن ابن عباس؛ أنه كان ابنَ عَمِّ موسى، قال: وكذا قال قتادة، وإبراهيم النخعي، وعبد الله بن الحارث، وسماك بن حرب. انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٩)، فتح الباري (٦/ ٤٤٨).

(٢) الكشاف (٣/ ٤٣٥).

قال قتادة: «على خَيْرٍ عندي»[١]، «أي على علمٍ عَلِمَهُ اللهُ مني؛ فرضيَ بذلك عني، وفضَّلني بهذا المالِ عليكم؛ لِعِلْمِهِ بفضلي عليكم»[٢].

وقوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]:

إمَّا أنه ادعى أنَّ عنده عِلْمًا استوجَبَ به أن يكونَ صاحبَ ذلكَ المالِ[٣].

أو أنه أرادَ: أُوتِيتُهُ على علمٍ من الله، وتخصيصٍ مِنْ لَدُنْهُ قَصَدَني به؛ قال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: «لولا رضا اللهِ عني ومعرفتُهُ بفضلي، ما أعطاني هذا المالَ، وقرأَ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ﴾ [القصص: ٧٨]؛ وهكذا يقولُ من قَلَّ علمُهُ إذا رأى من وسَّع اللهُ عليه: لولا أنْ يَسْتَحِقَّ ذلك، لَمَا أُعْطِيَ!»[٤].

فأبطَلَ اللهُ تعالى دعواه مِنْ وجهَيْن:

أولهما: أنَّ المالَ والغنى لا يمنع الكافرَ مِنْ عذاب الله؛ **فقال:** ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ﴾ [القصص: ٧٨].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٣/ ١٧٤)، وابن أبي حاتم (٩/ ٣٠١٢)، والطَّبَري (٢٠/ ١١٣).

(٢) جامع البيان (٢٠/ ١١٣).

(٣) اختلَفَ المفسِّرون في العلم الذي أشار إليه ما هو؛ فقال بعضُهم: علمُ التوراةِ وحفظُها، قالوا: وكانت هذه مغالطةً ورياء، وقال أبو سليمان الداراني: أراد العلمَ بالتجارب، ووجوهِ تثميرِ المال، فكأنه قال: أوتيتُهُ بإدراكي وبسعيي، وقال ابن المُسَيَّب: «أرادَ عِلْمَ الكيمياء»، قال ابن كثير: «وهذا القولُ ضعيف؛ لأن علم الكيمياءِ في نفسه علمٌ باطل؛ لأن قلبَ الأعيانِ لا يَقْدِرُ أحدٌ عليه إلا اللهُ ﷻ... وقال بعضُهم: إن قارون كان يعرف الاسمَ الأعظَمَ، فدعا الله به، فتموَّل بسببه؛ والصحيح المعنى الأول؛ ولهذا قال الله تعالى رادًّا عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾». تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٠٠). وانظر: المحرر الوجيز (٤/ ٣٠٠).

(٤) وهو القول الذي ارتضاه الحافظ ابن كثير. انظر: تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٠٠).

فهو لجهلِهِ، وقلةِ عِلْمِهِ ظَنَّ أنَّ المالَ مانعٌ من التعرُّضِ لعذابِ اللهِ وسَخَطِهِ! فنبَّهه القرآنُ على خطئِهِ في اغتراره، وعارَضَ مَنْـزِعَهُ بأنَّ اللهَ تعالى قد أهلَكَ مِنَ الأممِ والقرونِ والملوكِ مَنْ هو أشدُّ مِنْ قارونَ قوةً، وأكثرُ جمعًا: إمَّا للمال، وإما للحاشية والغاشية، ومعلومٌ أنَّ مَنْ كان اللهُ عنه راضيًا، فمحالٌ أن يُهْلِكَهُ، وإنما يُهْلِكُ مَنْ كان عليه ساخطًا[1].

وفي **قوله تعالى**: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ [القصص: ٧٨] لطيفةٌ بديعة؛ فإنَّ قارونَ قال في نسبةِ النعم لنفسه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، فقيل: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾؛ ففاته هذا العلمُ النافعُ حتى يقي به نفسَهُ مصارعَ الهالكين[2].

الوجه الثاني: أنَّ النعيمَ الحقيقيَّ، والفوزَ العظيمَ، هو الفوزُ بالدارِ الآخرة، ولا ينالُهَا إلا مَنْ كان مؤمنًا، شاكرًا، متواضعًا لله تعالى؛ **فقال سبحانه**: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

الآية الثانية

قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

التخويلُ: هو التفضُّلُ مِنْ غيرِ جزاء[3]، **فالمعنى**: نحنُ نَتفضَّلُ عليه منةً، ونِحْلةً، وهو يظنُّ أنه إنما وجَدَهُ بالاستحقاق، وليس الأمرُ كما يَظُنُّ، بل هو امتحانٌ، واختبارٌ.

قال مجاهدٌ: «أعطيناه»[4].

---

(١) **انظر**: جامع البيان (٢٠/ ١١٤)، المحرر الوجيز (٤/ ٣٠٠).

(٢) **انظر**: الكشاف (٣/ ٤٣٦).

(٣) **انظر**: معاني القرآن، للنحاس (٦/ ١٨٢)، التفسير الكبير (٢٦/ ٢٥٠).

(٤) تفسير مجاهد (٢/ ٥٥٩).

وقال أبو عُبَيدةَ: «كلُّ مالٍ أُعْطِيتَهُ، فقد خُوِّلْتَهُ»[(١)].

ومعنى: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: يحتملُ عدةَ معانٍ[(٢)]:

أي: إنما أوتيتُهُ على علمِ اللهِ بكوني مُسْتحِقًّا لذلك، قال مجاهدٌ: «أي: على شرف»[(٣)].

وقال قتادة: «أي: على خيرٍ عندي»[(٤)].

أو: إنما أوتيتُهُ على علمي بكوني مُسْتَحِقًّا له.

أو: إنما أوتيتُهُ على علمٍ بطُرُقِ اكتسابه؛ وذلك مثلُ أنْ يكونَ مريضًا، فيعالج نفسه، فيقول: إنما وجدتُ الصحةَ لعلمي بكيفيَّةِ العلاجِ، وإنما وجدتُ المالَ لعلمي بكيفيةِ الكسب.

وقيل: أي: لفضلِ علمي.

فأبطَلَ اللهُ تعالى هذه الدعوى مِنْ أربعة طرق:

أولها: بيانُ ضعفِ الإنسان، وقلةِ حيلته، وخُبْثِ سريرته؛ وذلك لأنه في حالِ الضعفِ والعجز يَلْجأُ إلى الله، ويرتمي ببابه، ويدعوهُ على كلِّ أحواله، قائمًا، وقاعدًا، وعلى جَنْبه، وفي حالِ السَّرَّاءِ ينسى كلَّ ذلك، وهذه مأخوذةٌ من دَلَالةِ السياق؛ فإنَّ اللهَ تعالى صدَّر الآية بقوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ [الزمر: ٤٩]، وقال في سورة يونس بأبلغ تصوير، كأنك تشاهده: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

---

(١) انظر: معاني القرآن، للنحاس (٦/ ١٨٢).

(٢) انظر: جامع البيان (٢٠/ ١١٣)، التفسير الكبير (٢٦/ ٢٥١).

(٣) تفسير مجاهد (٢/ ٥٥٩).

(٤) ورجَّحه النحاس في معاني القرآن (٦/ ١٨٣).

الطريق الثاني: أنَّ المالَ، والغنى فتنةٌ للعبد، يفتتنُ بالمال والغنى؛ ليرى كيف يَصْنَعُ؛ **قال تعالى**: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩]، فبيَّن أنَّ النعمة التي يُنْعِمُ بها على العبدِ لا تكونُ لفضله، ولا لأحقِّيته بها، وإنما لاختبارِهِ، وامتحانِهِ.

الطريق الثالث: بيانُ عاقبةِ المُنْكِرِينَ لنعم الله، الذين يستعملونها في معاصيه؛ **فقال سبحانه**: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٥٠ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥٠، ٥١].

أي: ما أغنى عنهم ذلك الاعتقادُ الباطل والقولُ الفاسد، الذي اكتسبوه مِنْ عذابِ الله شيئًا، بل أصابهم سيئاتُ ما كَسَبُوا.

وفي الأسلوب: تهديدٌ ووعيدٌ للمخاطبين.

الطريق الرابع: بيانُ مصدرِ النعم، ومُولِيها لِخَلْقه، وأنه اللهُ تعالى، يعطي، ويَبْسُطُ الرزقَ لمن يشاء، ويمنعُ، ويضيِّق على مَنْ يشاء؛ لِحِكَمٍ وغاياتٍ يعلمها.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: ٥٢].

قال الرازي رَحِمَهُ اللهُ: «**يعني**: أَوَ لَمْ يعلموا أنَّ الله تعالى هو الذي يبسُطَ الرزقَ لمن يشاءُ تارَةً، ويقبضُ تارةً أخرى، والدليلُ عليه: أنا نرى الناسَ مختلفينَ في سَعَةِ الرزقِ وضيقِهِ، ولا بدَّ له من سبب، وذلك السببُ ليس هو عقلَ الرجلِ وجَهْلَهُ؛ لأنا نرى العاقل القادرَ في أشدِّ الضيق، ونرى الجاهلَ المريضَ الضعيفَ في أعظمِ السعة، وليس ذلك أيضًا لأجلِ الطبائعِ والأنجم والأفلاكِ؛ لأن في الساعةِ التي وُلِدَ فيها ذلك المَلِكُ الكبير، والسلطانُ القاهرُ، قد وُلِدَ فيه أيضًا عَالَمٌ من الناس،

وعَالَمٌ من الحيواناتِ غيرِ الإنسان، ويُولَدُ أيضًا في تلك الساعةِ عَالَمٌ من النبات، فلمَّا شاهدنا حدوثَ هذه الأشياءِ الكثيرةِ في تلكَ الساعةِ الواحدةِ مع كونها مختلفةً في السعادةِ والشقاوة؛ علمنا أنه ليس المؤثِّرُ في السعادةِ والشقاوةِ هو الطالعَ، ولما بطَلَتْ هذه الأقسامُ، علمنا أنَّ المؤثِّرَ فيه هو اللهُ سبحانه، وصحَّ بهذا البرهانُ العقليُّ القاطعُ على صحَّةِ **قوله تعالى**: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الزمر: ٥٢].

كما قال الشاعر:

فَلَا السَّعْدُ يَقْضِي بِهِ المُشْتَرِي ... وَلَا النَّحْسُ يَقْضِي عَلَيْنَا زُحَلْ
وَلَـٰكِنَّهُ حُكْمُ رَبِّ السَّمَاءِ ... وَقَاضِي القُضَاةِ تَعَالَى وَجَلّ»[1]

---

(١) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٥١).



المَبحثُ الرَّابِعُ

الاغترارُ بالدنيا ونَعِيمِهَا

ذَكَرَ اللهُ تعالى عن المشركينَ أنهم كذَّبوا الرسلَ؛ لأنَّهم كانوا أقلَّ منهم حُظْوةً في الدنيا؛ فعابَهُمُ اللهُ تعالى بهذا القولِ، وردَّ عليهم.

وقد أتينا على أقوالِهِمْ في المقولاتِ المتعلِّقةِ بالأنبياء، لكني أَخُصُّ هذا المبحثَ بالمقولاتِ المتعلِّقةِ بموقفِ المشركينَ مِنْ أتباعِ الأنبياء، **وقد ذكَرَ الله تعالى موقفَ كُبَراءِ المشركينَ مِنْ ضعفاءِ المسلمينَ في خمسةِ مواضع:**

الموضع الأول: قولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

الموضع الثاني: قولُهُ تعالى عن بني إسرائيل: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧].

وهذه المقولة قالها قومُ فِرْعون، استَنْكَفُوا أنْ يَتَّبِعُوا موسى وهارونَ؛ بِحُجَّةِ أنهما من بني إسرائيلَ، وقد كانوا لهم مطيعين متذلِّلين، يأتمرون لأَمرِهِمْ ويَدِينُونَ لهم.

قال ابن جرير: «والعرَبُ تسمِّي كلَّ مَنْ دان لِمَلِكٍ عابدًا له»[١].

ومِنْ لطائفِ التعبيرِ القرآنيِّ في الآية: إفادةُ الحصرِ؛ **أي:** لنا عابدون، لا لِغَيْرنا[٢].

---

(١) جامع البيان (١٨/ ٢٥).

(٢) انظر: روح المعاني (١٨/ ٣٦).

فصدَّهم هذا الكِبْرُ عن الاستجابةِ لموسى، والاهتداءِ بِهَدْيِ اللهِ تعالى.

الموضع الثالث: قولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣].

فأخبَرَ سبحانه أنه فتَنَ العباد بعضَهُمْ ببعض؛ ففتن الكافرَ بالمسلم، وفتَنَ المسلمَ بالكافر، كما **قال سبحانه:** ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

«ومعنى هذا: أنَّ كلَّ واحدٍ مُخْتَبَرٌ بصاحبِهِ، فالغَنِيُّ ممتحنٌ بالفقير، فعليه أن يواسيه ولا يَسْخَرَ منه، والفقيرُ ممتحنٌ بالغنيِّ، وعليه ألَّا يحسُدَهُ ولا يأخُذَ منه إلا ما أعطاه، وأن يَصْبِرَ كلٌّ واحدٍ منهما على الحق»[(١)].

فمِن ابتلاءِ الكافرِ بالمسلمِ: أنَّ هؤلاءِ الكفَّارَ لِمَا هم فيه من الترف، وسَعَةِ الرِّزْقِ، ظنوا أنهم محبوبونَ لله، مُصْطَفَوْنَ عنده؛ ولذا لمَّا رأوا أنَّ أتباعَ النبيِّ ﷺ من الضعفاءِ البُسَطاء، أنكروا أنْ تكونَ دعوةُ النبيِّ ﷺ دعوةَ حقٍّ وخيرٍ؛ إذْ لو كانتْ خيرًا، لكانوا هم أولى الناسِ بها؛ ولذا قالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾.

والهمزةُ للإنكار؛ أي: كيف يَمُنُّ اللهُ على أولئكَ الضعفاءِ بخيرٍ لم يشملهم!

فعن عكرمةَ، قال: «جاء عُتْبَةُ بنُ ربيعةَ، وشَيْبَةُ بنُ ربيعةَ، ومُطْعِمُ بن عدي، والحارثُ بنُ نَوْفَلُ، وقرظةُ بنُ عبدِ عمرو بن نوفلٍ، في أشرافٍ من بني عبد مناف، من الكفار، إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب، لو أنَّ ابنَ أخيك يَطْرُدُ عنه موالِيَنَا وحلفاءَنَا، فإنَّما هم عبيدُنا وعُسَفَاؤُنا،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٤٣٣). وانظر: التفسير الكبير (١٢/ ١٩٧)، أضواء البيان (٧/ ٢٢٠).

كان أعظَمَ في صدورنا، وأطوَعَ له عندنا، وأدنى لاتِّباعِنَا إياه وتصديقِنا له، قال: فأتى أبو طالب النبيَّ ﷺ، فحدَّثه بالذي كلَّموه به، فقال عمرُ بنُ الخطَّاب: لو فَعَلْتَ ذلك حتى تنظُرَ ما الذي يريدونَ، وإلامَ يصيرونَ من قولهم؛ فأنزَلَ اللهُ تعالى هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥١ ـ ٥٣]»[١].

الموضع الرابع: قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

فأخبَرَ اللهُ تعالى عنهم: أنَّهم ـ مع سماعِهِمْ لآياتِ اللهِ البيِّناتِ في معانيها، والمُحْكَماتِ في دلائلها، والمعجزات عن أن يعارضوها[٢] ـ لم يمنعهم مِنَ الإيمانِ بها سوى الاعتدادِ بحالهم في الدنيا، وحالِ أتباعِ النبيِّ؛ فقالوا: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

قال ابنُ عباس ﷺ: «المَقَامُ[٣]: المَنْزِلُ، والنَّدِيُّ: المجلسُ، والنعمةُ والبهجةُ التي كانوا فيها، وهو كما قال اللهُ لقومِ فرعونَ حين أهلَكَهُمْ، وقَصَّ شأنَهُمْ في القرآنِ؛ فقال: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٢٥].

---

(١) أخرجه الطَّبَري (٧/ ٢٠٢)، وهو مرسل ـ كما ترى ـ من عكرمة. وانظر: لباب النقول، للسيوطي (١/ ١٠١).

(٢) يُنظر: جامع البيان (١٦/ ١١٥)، التفسير الكبير (٢١/ ٢١٠)، أضواء البيان (٣/ ٤٨٣).

(٣) ﴿مُقَامًا﴾: قرأ ابن كثير بضم الميم؛ والمعنى: محل الإقامة، وهو المنازل والأمكنة التي يسكنونها، وقرأ الجمهور: ﴿مَّقَامًا﴾ بفتح الميم، مكان القيام، وهو موضع قيامهم، وهو مساكنهم ومنازلهم. انظر: السبعة في القراءات، لابن مجاهد (١/ ٤١١)، التيسير، لأبي عمرو الداني (ص١٢١)، حجة القراءات، لابن زنجلة (١/ ٤٤٦).

فالمَقَامُ: المسكنُ والنعيمُ، **والنَّدِيُّ**: المجلسُ والمجمعُ الذي كانوا يجتمعون فيه، وقال اللهُ فيما قَصَّ على رسولِهِ في أمرِ لوط؛ إذ قال: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، **والعربُ تسمِّي المجلس: الناديَ**»[١].

قال قتادةُ: «خَيْرٌ مكانًا، وأحسَنُ مجلسًا، وقرَأَ: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ [العلق: ١٧]، قال: مَجْلِسَهُ»[٢].

الموضع الخامس: قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

قال قتادة: «قال ذلكَ ناسٌ من المشركين، قالوا: نحنُ أَعَزُّ، ونحنُ، ونحنُ، فلو كان خيرًا، ما سبَقَنَا إليه فلانٌ، وفلانٌ؛ قال الله: يَخْتَصُّ برحمتِهِ مَنْ يشاء»[٣].

والمعنى: لو كان القرآنُ خيرًا، ولو كان ما يدعو له محمَّدٌ خيرًا، لَمَا سَبَقَنا إليه هؤلاءِ الضعفاءُ[٤].

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، **وقال تعالى**: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ

---

(١) أخرجه الطَّبَري (١٦/ ١١٦).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ١١) عن معمر، عنه، به، ومن طريقه الطَّبَري في تفسيره (١٦/ ١١٦).

(٣) أخرجه عبد الرزاق، عن معمر، عنه، به (٣/ ٢١٦)، وأخرجه الطَّبَري عن طريق معمر أيضًا (٢٦/ ١٣).

(٤) انظر: جامع البيان (٢٦/ ١٣)، تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٣٦)، أضواء البيان (١/ ٤٧٩).

عَهۡدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدًا﴾ [مريم: ٧٧ ـ ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلًا وَأَوۡلَٰدًا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، **وقال:** ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [فصلت: ٥٠].

فزعَمَ: أنَّ ما أُعْطِيَ مِنَ المالِ والأولادِ والجاهِ في الدنيا دليلٌ على أنه سيعطى مِثْلَهُ في الآخرةِ؛ فكذَّبه اللهُ في ذلك؛ **فقال:** ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]، ومثلُهُ: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرًا مِّنۡهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

وأمَّا احتقارُ الكفارِ لضعفاءِ المؤمنينَ وفقرائِهم؛ وزَعْمُهم أنهم أحقَرُ عندَ اللهِ مِنْ أن يصيبهم بخيرٍ، وأنَّ ما هم عليه لو كان خيرًا، لَسَبَقَهُمْ إليه أصحابُ الغنى، والجاهِ، والولَدِ من الكفارِ؛ فقد دلَّت عليه آياتٌ أُخَرُ.

طرقُ إبطالِ القرآنِ لمقالتهم:

أولًا: بيانُ سببِ امتنانِ اللهِ تعالى على المؤمنينَ بالإيمان به، وهو علمُهُ تعالى بمَنْ يستحقُّ النعمة، فيشكُرُها ويقدِّرها؛ **فقال تعالى ردًّا على الكافرين:** ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، «**أي:** بالذين يشكُرُونَ نعمتَهُ إذا مَنَّ عليهم بالهداية، **والمعنى:** إنما يهدي اللهُ مَنْ يعلمُ أنه يشكُرُ، والاستفهامُ في ﴿أَلَيۡسَ﴾ **معناه:** التقريرُ؛ **أي:** إنه كذلك»[(١)].

ثانيًا: توبيخُهُمْ في الدنيا مِنْ خلالِ عَرْضِ مقولاتهم، ورَدِّ اللهِ تعالى عليهم بها.

ثالثًا: توبيخُ الله تعالى لهم يَوْمَ القيامةِ على احتقارِهِمْ للمؤمنين في الدنيا:

---

(١) زاد المسير (٣/٤٨).

فأولُ مواطنِ الاحتقار: إذا دخَلَ أصحابُ الجنةِ الجنةَ، وأصحابُ النارِ النارَ، قال أهلُ الأعرافِ لأصحابِ النار: ﴿أَهَٰؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

فإذا دخَلُوا النار، وبَّخهم اللهُ تعالى على استهزائِهِمْ بالمؤمنين، وتفريطِهِمْ في حَقِّ ربِّ العالمين؛ **قال تعالى مُخْبِرًا عنهم:**

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧ ـ ١١١].

فقولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ «استئنافٌ قُصِدَ منه إغاظتُهم بمقابلةِ حَالِهِمْ يومَ العذاب، بحالِ الذين أنعَمَ اللهُ عليهم، وتحسيرُهُمْ على ما كانوا يُعَامِلُونَ به المسلمين»[(١)].

وقوله: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾: **السُّخْرِيُّ[(٢)] ـ بالضم والكسر[(٣)] ـ مصدرُ سَخِرَ منه:** إذا استهزأ به على سبيلِ الاحتقار.

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٩).

(٢) قرأ نافع، وحمزة، والكسائي: ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضم السين، وقرأ الباقون: ﴿سِخْرِيًّا﴾ بكسرها، ومعنى القراءتين واحد، وهو سخريةُ الكفارِ واستهزاؤُهم بضعفاء المؤمنين. **انظر:** السبعة، لابن مجاهد (ص٥٥٦)، التيسير، لأبي عمرو الداني (ص١٣٠)، حجة القراءات، لابن زنجلة (١/ ٦١٧).

(٣) وفرَّق بعض أهل العلم بينهما؛ قال الحسن، وقتادة، وأبو عمرو بن العلاء: السُّخْرِيّ بالضم: ما كان من جهة التسخير، والسِّخْرِيّ بالكسر: ما كان من الهزؤ. **انظر:** معاني القرآن، للنحاس (٤/ ٤٨٩)، لسان العرب (٤/ ٣٥٣)، قال في أضواء البيان (٥/ ٣٦٠): «ومعنى القراءتين واحد، وهو سخريةُ الكفارِ واستهزاؤُهم بضعفاء المؤمنين كما بينا، وممَّن قال بأن معناهما واحد: الخليل، وسيبويه؛ وهو الحق ـ إن شاء الله تعالى ـ. =

قال الزمخشري[١]: «في ياءِ النسبِ زيادةٌ في الفعل»[٢].

ومعناه: أنَّ الياءَ المشدَّدةَ في آخرِهِ تدلُّ على زيادةِ سُخْرِيَّتِهِمْ منهم ومبالغتِهِمْ في ذلك.

رابعًا: تحسُّرُ الكافرين، وتلاوُمُهُمْ فيما بينهم في النار؛ **فقال:** ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [ص: ٦٢ ـ ٦٣]، فقد قال غير واحد: إنَّ الرجالَ الذين كانوا يعدُّونهم من الأشرار هم ضعفاءُ المسلمينَ الذين كانوا يَسْخَرُونَ منهم في دار الدنيا، ويزعمونَ أنَّهم أحقَرُ مِنْ أنْ ينالهم اللهُ بخيرٍ، ويَدُلُّ له قوله: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾.

اختُلِفَ في معنى **قوله:** ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ تبعًا للقراءات الواردةِ في الآية[٣]:

فقَرَأَ نافعٌ، وابنُ كَثِير، وابنُ عامر، وعاصمٌ: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾ بهمزة قطعٍ هي همزةُ الاستفهام، وحُذِفَتْ همزةُ الوصل؛ لأنها لا تَثْبُتُ مع همزةِ الاستفهامِ، وتكونُ جملةُ ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾ بدلًا من جملةِ: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾.

= وعن الكسائي والفراء: أنَّ السِّخْريَّ بكسر السين: من قبيل ما ذكرنا من الاستهزاء، وأن السُّخريَّ بضم السين: من التسخير الذي هو التذليل والعبودية»، وهو نصُّ ما ذكره الزمخشري في الكشاف (٣/ ٢٠٨)، ورجَّحه ابن عاشور في التحرير والتنوير (٢٢/ ٤٣٥).

(١) **هو:** محمود بن عمر بن محمد بن عمر، أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي، نحويٌّ، لغويٌّ، متكلِّمٌ على مذهب المعتزلة، كان يُلقَّبُ «جارَ الله»؛ لأنه جاور بمكة زمانًا. **انظر:** طبقات المفسرين، للسيوطي (ص١٢١).

(٢) الكشاف (٣/ ٢٠٨).

(٣) **انظر:** السبعة في القراءات، لابن مجاهد (١/ ٥٥٦)، التيسير في القراءات السبع، للداني (ص١٥٢)، حجة القراءات، لابن زنجلة (١/ ٦١٨).

فيكونُ المعنى: إنكارُهُمْ على أنفسهم، وتأنيبُهَا في الاستسخار منهم.

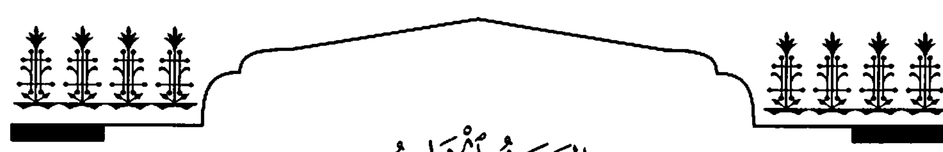
وقرأ أبو عمرو، وحمزةُ، والكسائيُّ، ويعقوبُ، وخلَفٌ: ﴿اتَّخَذْنَاهُمْ﴾ بهمزةِ وصلٍ على أنَّ الجملةَ صفةٌ ثانيةٌ لـ﴿رِجَالًا﴾؛ وعليه تكونُ ﴿أم﴾ منقطعةً للإضرابِ عن قولهم: ﴿اتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾؛ **أي**: بل زاغتْ عنهم الأبصارُ[1].

خامسًا: عكسُ ظَنِّ الكافرين؛ حيثُ يدخُلُ هؤلاءِ الضعفاءُ الفقراءُ، المؤمنونَ باللهِ: الجَنَّةَ، فيضحكون؛ اغتباطًا بنعمةِ اللهِ عليهم أن أدخَلَهُمْ الجنةَ، ومجازاةً للمجرمين؛ **قال تعالى**: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٤ ـ ٣٦]، **وقال تعالى**: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢].

سادسًا: بيانُ أنَّ الدنيا لا يَغْتَرُّ بها إلا جاهلٌ، ولا يَرْكَنُ إليها إلا مغرورٌ، ولا يَفْرَحُ بها إلا سَاذَجٌ؛ **قال سبحانه**: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

---

(١) **انظر**: الكشاف (٤/ ١٠٤)، التحرير والتنوير (٢٢/ ٤٣٦).



المَبحَثُ الخَامِسُ

التمنِّي بدُونِ عَمَلٍ

قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

جاءتْ هذه الآيةُ في سياق الكلام عن اليهود، وما حصَلَ لهم بعدَ أنْ فرَّقهم اللهُ تعالى في الأرض؛ **قال تعالى**: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

فأخبَرَ أنه فرَّق بني إسرائيلَ في الأرضِ جماعاتٍ شتَّى متفرِّقين.

وقوله: ﴿مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾؛ **يعني**: مَنْ يؤمنُ باللهِ ورسله، ﴿وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾: **يعني**: دُونَ الصالح.

«وإنما وصَفَهُمُ اللهُ جلَّ ثناؤه بأنهم كانوا كذلك قبلَ ارتدادِهِمْ عن دينهم، وقبلَ كُفْرِهم بربِّهم، وذلك قبلَ أن يَبْعَثَ فيهم عيسى بنَ مريمَ، صلواتُ الله عليه»[1].

وقوله: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾؛ **أي**: واختَبَرْنَاهم بالرخاءِ في العيش، والخَفْضَ في الدنيا، والدَّعَةِ والسَّعَةِ في الرزق، وهي الحسناتُ التي ذكَرَهَا جلَّ ثناؤه.

---

(١) قاله الإمام أبو جعفر الطَّبَري. جامع البيان (٩/ ١٠٦).

ويعني بالسيئات: الشِّدَّةَ في العيش، والشَّظَفَ فيه، والمصائبَ والرزايا في الأموال؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]؛ ليرجعوا إلى طاعةِ ربِّهم، ويُنِيبُوا إليها، ويتوبوا مِنْ معاصيه(١).

قال ابنُ عباس: «أقوامٌ يُقْبِلُونَ على الدنيا فيأكلونها، ويَتَّبِعُونَ رُخَصَ القرآن، ويقولون: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، ولا يَعْرِضُ لهم شيءٌ من الدنيا إلا أخذوه، ويقولون: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾»(٢).

قال مجاهدٌ: «ما أشرَفَ لهم شيءٌ من الدنيا حلالًا، أو حرامًا يشتهونه، أَخَذُوهُ، ويَتمنَّوْنَ المغفرةَ، وإنْ يجدوا آخَرَ مثلَهُ يأخذونَهُ»(٣).

قال قتادةُ: «أمانيُّ تَمَنَّوْها على الله، وغِرَّةٌ يغترُّون بها»(٤).

قال سعيدُ بنُ جُبَيْر: «كانوا يَعْمَلُونَ بالذنوب، ويقولون: سيُغْفَرُ لنا»(٥).

والخَلْفُ: مَنْ يخلُفُ المتقدِّمَ، سواءٌ خَلَفَهُ بخيرٍ أو بِشَرّ(٦).

---

(١) المرجع السابق.

(٢) قال في الدُّر المنثور (٣/ ٥٩٣): أخرجه أبو الشيخ.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري (٩/ ١٠٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٠٨)؛ من طريق ابن أبي نُجيح، عنه، به.

(٤) قال في الدُّر المنثور (٣/ ٥٩٤): أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره (٢/ ٢٤٠)، وابن جرير الطبري (٩/ ١٠٦)؛ من طريق فُضيل، عن منصور، عنه، به.

(٦) قال الزجاج في معاني القرآن (٢/ ٤٥٦): «الخَلَفُ ما أُخْلِفَ عليك مما أُخِذَ منك؛ فلهذا السبب يقال للقرن الذي يجيء في إثرِ قرنٍ: خَلَف، ويقالُ فيه أيضًا: خَلْفٌ، وقال أحمد بن يحيى: الناسُ كلُّهم يقولون: خَلَفُ صِدْقٍ، وخَلْفُ سوء، وخُلْفٌ للسوء لا غير. وحاصلُ الكلام: أن من أهل العربية من قال: الخَلْف والخَلَفُ قد يذكر في الصالح وفي الرديء، ومنهم من يقول: الخَلْفُ مخصوصٌ بالذم؛ قال لبيد:

ذَهَبَ الذينَ يُعاشُ في أَكْنافِهِمْ وبَقِيتُ في خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ

ومنهم من يقول: الخَلْفُ المستعملُ في الذَّمِّ مأخوذٌ من الخُلْفِ، وهو الفسادُ، يقال =

وقوله: ﴿عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٦٩] العَرَضُ: ما يَعْرِضُ ويَعِنُّ، ولا يَثْبُتُ[١].

ومعنى الآية: فخلَفَ مِنْ بعدِ هؤلاءِ المذكورين قبلًا، قومُ سُوءٍ، تعلَّموا التوراة، وعَلِمُوا ما فيها، يتهافتونَ على حُطَامِ الدنيا، وما يُتَمتَّعُ به منها.

وقد أبطَلَ القرآنُ العظيمُ مقولَتَهُمْ هذه مِنْ ستةِ أوجه:

الأول: سياقُ مقالتهم في مَعْرِضِ الذَّمِّ، فذَمَّ ما هم عليه؛ فأفاد أنَّ مقالتهم هذه في هذا السياقِ مذمومةٌ، مع أن حسنَ الظنِّ بالله تعالى محمودٌ.

الثاني: بيان خِسَّة ما أخذوه، **فقال**: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾؛ **فقوله**: ﴿ٱلْأَدْنَىٰ﴾: تخسيسٌ له، وتحقير.

و﴿ٱلْأَدْنَىٰ﴾: إمَّا مِنَ الدنوِّ بمعنى القُرْب؛ لأنه عاجلٌ قريب، وإمَّا مِنْ دُنُوِّ الحالِ وسقوطِها وقِلَّتِها، والمرادُ: ما كانوا يأخذونَهُ مِنَ الرِّشَا في الأحكامِ على تحريفِ الكلامِ، ثم حكى تعالى عنهم أنَّهم يستحقرونَ ذلك الذنب، ويقولون: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩].

الثالث: الإخبار عن إصرارهم على الذنوب؛ **فقال**: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

قال الحَسَنُ: «هذا إخبارٌ عن حِرْصِهم على الدنيا، وأنهم لا يستمتعونَ منها».

= للرديءِ من القول: خُلْفٌ، ومنه المثل المشهور: سكت أَلْفًا، ونطق خُلْفًا». **وانظر**: جامع البيان، للطبري (٩/ ١٠٥).

(١) قال أبو عبيدة: «جميعُ متاعِ الدُّنيا عَرَضٌ ـ بفتح الراء ـ يقال: الدُّنيا عَرَضٌ حاضر، يأكل منها البرُّ والفاجر، والعَرْضُ ـ بسكون الراء ـ ما خالف العين؛ أي: الدراهمُ والدنانير، وجمعُهُ عروضٌ، فكان كلُّ عَرْضٍ عَرَضًا، وليس كل عَرَضٍ عَرْضًا». لسان العرب (عرض) (٧/ ١٦٨)، النهاية، لابن الأثير (٣/ ٢١٤). **وانظر**: جامع البيان، للطبري (٩/ ١٠٥).

قال في المحرَّر الوجيز: «ذَمٌّ لهم باغترارِهِمْ وقولِهِمْ: سيُغْفَرُ، مع علمِهِمْ بما في كتابِ اللهِ من الوعيدِ على المعاصي، وإصرارِهِمْ عليها، وأنهم إذا أمكنتهم ثانيةً، ارتكبوها؛ فهؤلاءِ عَجَزَةٌ... قطعوا بالمغفرةِ وهم مُصِرُّونَ، وإنما يقولُ: سيُغْفَرُ لنا، مَنْ أقلَعَ ونَدِمَ»[1].

الرابع: أنَّ تمنِّيهم الباطلَ، مخالفٌ للميثاقِ الذي أخَذَهُ اللهُ عليهم؛ بألَّا يقولوا على اللهِ إلا الحقَّ؛ **فقال**: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

الخامس: تبيينُ أنهم لم يَنْسُوا الميثاقَ الذي خالفوه، بل هم دَرَسُوهُ، ويذكُرُونَهُ، **فقال تعالى**: ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾؛ **أي**: فهم ذاكرون لِمَا أُخِذَ عليهم؛ لأنهم قد قرؤوه ودَرَسُوه.

السادس: تذكيرٌ لهم بحُسْنِ جزاءِ مَنِ امتثَلَ لأمرِ الله تعالى، ووقَفَ عند حدودِهِ؛ **فقال**: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

والمرادُ: أنهم ارتكبوا المحرَّمات، مع قولهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩] هذا الذنبُ مع الإصرارِ؛ وهذا القولُ باطل؛ ولذا ذمَّهم على هذه الحالِ التي ارتكبوا الذنوبَ عليها.

---

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٤٧٢).



المَبْحَثُ السَّادِسُ

القَسَمُ باللهِ كَذِبًا

قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٥٣].

هذه مقولةٌ كاذبةٌ من مقولاتِ المنافقين؛ وذلك أنَّهم كانوا يتظاهرونَ بطاعةِ الرسولِ ﷺ، وأنهم لا يتمنَّعون من الخروجِ معه للجهادِ في سبيلِ اللهِ تعالى!

قال مقاتلٌ: «ذلك مِنْ شأنِ الجهاد ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾ قال: يأمرُهُمْ ألَّا يَحْلِفُوا على شيء ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾، قال: أمرَهُمْ أنْ يكونَ منهم طاعةٌ للنبيِّ ﷺ مِنْ غيرِ أن يقسموا»[١].

قال مجاهدٌ في قوله: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾: «قد عرفتُ طاعتَكُمْ إِلَيَّ؛ أنكم تَكْذِبون»[٢].

فردَّ عليهم القرآنُ الكريمُ بتأديبهِمْ، ومطالبتِهِمْ بمصداقِ القول؛ وهو العملُ؛ فقال سبحانه: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾، ولو كان قَسَمُهُمْ كما يجبُ، لم يجزِ النهيُ عنه؛ لأنَّ مَنْ حلَفَ على القيامِ بالبِرِّ والواجب؛ لا يجوزُ أن ينهى عنه، وإذا ثبتَ ذلك، ثبتَ أنَّ قَسَمَهُمْ كان لنفاقهم، وأنَّ باطنَهُمْ خلافُ ظاهرهم، ومَنْ نوى الغَدْرَ لا الوفاءَ، فقَسَمُهُ لا يكونُ إلا قبيحًا»[٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٢٥). (٢) أخرجه الطَّبَري (١٨/ ١٥٧).

(٣) التفسير الكبير (٢٤/ ٢١).

ثم قال لهم: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ [النور: ٥٣]؛ أي: المطلوبُ منكم طاعةٌ معروفة، لا أيمانٌ كاذبة؛ فهو خبرٌ لمبتدأٍ محذوف، أو: طاعةٌ معروفةٌ أمثلُ مِنْ قَسَمِكُمْ بما لا تَصْدُقُون، فهو مبتدأٌ خبرُهُ محذوف[١].

وقيل: «طاعةٌ معروفةٌ بنيَّةٍ خالصةٍ أفضلُ وأمثلُ مِنْ يمينٍ باللسانِ لا يوافقُهَا الفعل»[٢].

قال البغويُّ: «هذه طاعةٌ بالقولِ وباللسانِ، دُونَ الاعتقاد، وهي معروفةٌ؛ يعني: أمرٌ عُرِفَ منكم أنكم تكْذِبون، وتقولون ما لا تفعلون»[٣].

وقال في البُرْهان: «وزعَمَ النوويُّ أنَّ التقديرَ: لِيَكُنْ منكم طاعةٌ معروفة»[٤].

ثم ختَمَ الآيةَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٥٣]، «أي: بصيرٌ لا يخفى عليه شيءٌ مِنْ سرائركم، وإنه فاضحُكُمْ لا محالةَ، ومجازيكم على نفاقكم»[٥].

وقد أبطَلَ اللهُ تعالى قَسَمَهُمُ الكاذبَ به مِنْ ثلاثةِ أوجه:

الأول: نهيُهُمْ عن القَسَم، ولا ينهى اللهُ إلا عن باطلٍ.

الثاني: بيانُ حقيقةِ الطاعة، وأنها الامتثالُ بالقَوْلِ والفعلِ، لا بالقولِ فحسبُ.

الثالث: ذمُّهم في سياقِ الكلام؛ حيثُ قال قبلَ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

وقال في الآية التي بعدها: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ

---

(١) انظر: الكشاف (٣/ ٢٥٥)، تفسير ابن جُزي (٣/ ٧٢).
(٢) تفسير البغوي (٣/ ٣٥٣). (٣) المرجع السابق (٣/ ٣٥٢).
(٤) البرهان، في علوم القرآن (٣/ ٢٠٤). (٥) التفسير الكبير (٢٤/ ٢١).

فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

فأمرَهُمْ بطاعتِهِ وطاعةِ رسولِهِ ﷺ، ورهَّبهم من التولِّي عن طاعته، ثم حضَّهم على الطاعةِ الحقيقيَّة، التي تحصُلُ بها الهدايةُ.



المَبحَثُ السَّابِعُ

تركُ الأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المُنكَر

الأمرُ بالمعروف، والنهيُ عن المنكر: مِنْ أصولِ المِلَّة، وقواعدِ الدين، وقد تواتَرَتِ الآياتُ والأحاديثُ في تأكيدِ ذلك.

ومن المقولاتِ التي ذكَرَها القرآنُ في هذا الشأن **قولُهُ تعالى عن أصحابِ السبت**: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣، ١٦٤].

عن ابن عباسٍ قال: «هي قريةٌ على شاطئِ البَحْرِ بينَ مِصْرَ والمدينةِ، يقالُ لها: «أَيْلَة»، فحرَّم اللهُ عليهم الحِيتَانَ يوم سَبْتِهِم، وكانت الحيتانُ تأتيهم يومَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا في ساحلِ البحر، فإذا مضى يومُ السبتِ، لم يَقْدِرُوا عليها. فمضى على ذلكَ ما شاء الله، ثم إنَّ طائفةً منهم أخذوا الحيتانَ يَومَ سَبْتِهم، فنَهَتْهُمْ طائفةٌ، وقالوا: تأخذونها وقد حرَّمها اللهُ عليكم يَوْمَ سبتكم؟ فلم يزدادوا إلا غيًّا...»(١).

وقد أشار اللهُ تعالى لهذه القصةِ في أكثرَ مِنْ موطنٍ من كتابه؛ **فقال تعالى**: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً

---

(١) أخرجه ابن جرير الطَّبَري (٩/ ٩٣) من طريق علي بن أبي طلحة، عنه، به.

خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧]، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ١٥٤].

وموطنُ الشاهدِ مِنْ هذه القصةِ **قولُ اللهِ تعالى عن فِرْقَةٍ منهم**: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤].

أي: لِمَ تَنْهَوْنَ هؤلاءِ، وقد عَلِمْتُمْ أنهم قد هَلَكُوا، واستحقُّوا العقوبةَ مِنَ اللهِ؛ فلا فائدةَ في نهيكم إياهم.

فأجابتِ الفرقةُ الناهيةُ: ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]:

أي: نعتذرُ بنَهْيِهِم معذرةً[1] إلى الله، ولعلَّهم يتقون؛ فينتهوا عن إتيانِ معصيةِ الله تعالى.

«والمَعْذِرَةُ: ـ بفتحِ الميمِ، وكسرِ الذال ـ مصدرٌ ميميٌّ للفعل: (اعتذَرَ)؛ على غير قياس، **ومعنى**: اعتَذَرَ: أظهرَ العُذْرَ ـ بضمِّ العينِ، وسكونِ الذال ـ **والعُذْرُ**: السبَبُ الذي تبطُلُ به المؤاخذةُ بذنبٍ، أو تقصيرٍ، فهو بمنزلةِ الحجةِ التي يبديها المؤاخَذُ بذنب؛ ليظهرَ أنه بريءٌ مما نُسِبَ إليه، أو متأوِّلٌ فيه، ويقالُ: عَذَرَهُ: إذا قَبِلَ عذره، وتحقَّق

---

(١) قوله تعالى: ﴿مَعْذِرَةً﴾ يُقرأُ بالرفع والنصب:
فالحجةُ لمن قرأه بالرفع: أنه أراد أحدَ وجهَيْنِ من العربية؛ إمَّا أن يكون أراد قالوا: موعظتُنا إياهم معذرةٌ؛ فتكون خبرَ ابتداءٍ محذوف، أو يضمر قبل ذلك ما يرفعه؛ كقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ [النور: ١١] يريدُ: هذه سورةٌ. **انظر**: السبعة، لابن مجاهد (ص٢٩٦)، التيسير، لأبي عمرو الداني (ص٩٤).
والحجةُ لمن نصب: أن الكلام جواب؛ كأنه قيل لهم لم تعظون قومًا هذه سبيلهم؟ قالوا: نعظهم اعتذارًا ومعذرة. **انظر**: حجة القراءات، لابن زنجلة (١/ ٣٠٠)، الحجة في القراءات السبع، لابن خالويه (١/ ١٦٦).

براءته، ويعدَّى فعلُ الاعتذارِ بـ«إِلَىٰ»؛ لِمَا فيه من معنى الإنهاءِ والإبلاغ»[١].

فلمَّا لم ينتهوا عن معصيتهم، كان القَدَرُ الإلهيُّ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

فأخبَرَ اللهُ تعالى أنه أنجى الذين يَنْهَوْنَ عن السوءِ، ويعظونَ الفِرْقَةَ الظالمة، وأخَذَ الظالمينَ بعذابِ أليمٍ وجيعٍ، بسببِ ظُلْمهم وتعدِّيهم.

فاشتَمَلَتِ الآياتُ على ذكرِ ثلاثِ فرقٍ:

- فرقةٌ ارتكَبَتِ المحذورَ، واحتالوا على اصطيادِ السَّمْكِ يومَ السبت.
- وفرقةٌ نهَتْ عن ذلكَ، واعتزلتهم.
- وفرقةٌ سكَتَتْ، فلم تفعلْ، ولم تَنْهَ، ولكنَّها قالت للمُنْكِرةِ: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤]؛ **أي**: لِمَ تَنْهَوْنَ هؤلاءِ، وقد علمتم أنهم قد هَلَكُوا، واستحقُّوا العقوبةَ من الله؛ فلا فائدةَ في نهيكم إياهم.

ولذا اختَلَفَ المفسِّرونَ في هؤلاءِ الساكتين، هل نَجَوْا مع مَنْ نجا، أو هلكوا مع مَنْ هلك؟

فذهَبَ أكثَرُ المفسِّرين[٢]، وعلى رأسِهِمُ ابنُ عباس رضي الله عنهما، وعكرمةُ: إلى أنهم نَجَوْا مع مَنْ نجا.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: «هي قريةٌ على شاطئِ البحرِ بينَ مِصْرَ والمدينة، يقال لها: «أَيْلَة»، فحرَّم اللهُ عليهمُ الحِيتَانَ يومَ سَبْتِهم، وكانت

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ١٦٣).

(٢) وهو قولُ ابنِ جريرِ الطَّبَري، وابن عطية، والرازي، وابن كثير، وغيرهم. **انظر**: جامع البيان (٩/ ٩٦)، الكشاف (٢/ ١٦٢)، التفسير الكبير (١٥/ ٣٣)، المحرر الوجيز (٢/ ٤٦٨)، تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٥٨)، أضواء البيان (٤/ ٢٢٢).

الحيتانُ تأتيهم يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا في ساحلِ البحر، فإذا مضى يومُ السبتِ، لم يَقْدِرُوا عليها. فمضى على ذلكَ ما شاء الله، ثُمَّ إنَّ طائفةً منهم أخَذُوا الحيتانَ يَوْمَ سَبْتِهم، فنهَتْهُمْ طائفةٌ، وقالوا: تأخذونَهَا وقد حرَّمها اللهُ عليكم يومَ سَبْتِكم؟ فلم يزدادوا إلا غيًّا وعُتُوًّا، وجعَلَتْ طائفةٌ أخرى تنهاهم، فلمَّا طالَ ذلك عليهم، قالتْ طائفةٌ من النهاةِ: تعلمونَ أنَّ هؤلاءِ قومٌ قد حَقَّ عليهم العذابُ، ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤]، وكانوا أشدَّ غضبًا للهِ مِنَ الطائفةِ الأخرى؟ فقالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤] وكلٌّ قد كانوا ينهون، فلمَّا وقَعَ عليهم غضَبُ اللهِ، نجتِ الطائفتان اللتان قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ والذين قالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ وأهلَكَ اللهُ أهلَ معصيتِهِ الذين أخَذُوا الحيتانَ، فجعَلَهُمْ قِرَدةً»[1].

وكان ابنُ عباسٍ ﵄ يَذْهَبُ إلى أنهم هلَكُوا مع مَنْ هلَكَ، لكنْ لمَّا بيَّن له تلميذُهُ عكرمةُ أنَّ الآيةَ تدلُّ على نجاتهم، رجَعَ لقوله[2]، وحكي عنه التوقُّف في أمرهم.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطَّبَري (٩/ ٩٥).

(٢) فأخرج ابن جرير الطَّبَري (٩/ ٩٦) بسنده، من طريق عكرمة، عن ابن عباس؛ أنه قال: «إنَّ الله إنَّمَا افْتَرَضَ على بني إسْرَائِيلَ الْيَوْمَ الَّذِي افْتَرَضَ عَلَيْكُم يَوْم الْجُمُعَة، فخالفوا إِلَى يَوْم السبتِ، فعظَّموه، وَتَركُوا مَا أمروا بِهِ، فَلَمَّا ابتدعوا السبت، ابتلوا فِيهِ فَحرِّمت عَلَيْهِم الْحيتَانُ. وَهِي قَرْيَةٌ يُقَال لَهَا: مَدْيَن أَيْلَة وَالطور، فَكَانُوا إذا كَانَ يَوْمُ السبتِ، شرِّعت لَهُم الْحِيتَان ينظرُونَ إِلَيْهَا فِي الْبَحْر، فَإِذا انْقَضى السبتُ، ذهَبَتْ فَلَمْ تُرَ حَتَّى مثلِهِ من السبتِ الْمُقْبِل، فَإِذَا جَاءَ السبتُ، عَادَتْ شُرَّعًا. ثمَّ إِن رجلًا مِنْهُم أَخَذَ حوتًا فحَزَمَهُ بخيط، ثمَّ ضرَبَ لَهُ وتدًا فِي السَّاحِل وربَطَهُ وَتَركَهُ فِي المَاء، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، جَاءَ فَأَخَذَهُ، فَأَكله سِرًّا، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، وهم يَنْظُرُونَ وَلَا يتناهوْنَ إِلَّا بَقِيَّةٌ مِنْهُم، فنهوهم، حَتَّى إِذا ظَهَرَ ذَلِكَ فِي الأَسْوَاقِ عَلَانيَةً، قَالَتْ طَائِفَةٌ للَّذِينَ ينهونهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ فِي سَخَطِنا أَعْمَالهم، =

....

= ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فكَانُوا أثلاثًا: ثُلُثًا: نَهى، وَثُلُثًا: قَالُوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾، وَثُلُثًا: أَصْحَابُ الْخطِيئَة، فَمَا نجا إلَّا الَّذين نَهَوْا، وَهلَكَ سَائِرُهُمْ، فَأَصْبَحَ الَّذينِ نَهَوْا ذَاتَ غَدَاةٍ فِي مجَالِسهِمْ يتفقَّدون النَّاسَ لَا يَرَوْنَهم، وَقد باتوا من ليلتهم، وغلَقوا عَلَيْهِم دُورَهُمْ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: إن للنَّاس شَأْنًا؛ فانظروا مَا شَأْنُهُمْ فَاطَّلَعُوا فِي دُورِهِمْ، فَإِذا الْقَوْمُ قد مُسِخُوا يعْرفُونَ الرجل بِعَيْنِه، وَإِنَّهُ لَقِرْدٌ، وَالْمَرْأَة بِعَيْنِهَا، وإِنَّها لَقِرْدَةٌ»، قال ابن كثير (٢/ ٢٦٠): «وهذا إسناد جيد عن ابن عباس؛ ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاة الساكتين أولى من القول بهذا؛ لأنه تبيَّن حالَهُمْ بعد ذلك، والله أعلم».

أما رجوعُهُ لقول عكرمة، فقد أخرج عبد الرزاق (٢/ ٢٤٠)، وابن جرير الطَّبَري (٩/ ٩٤)، والبيهقي في سننه (١٠/ ٩٢) عَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ: «جِئْتُ ابن عَبَّاسٍ يَوْمًا وَهُوَ يبكي وَإِذا الْمُصْحَفُ فِي حِجرِهِ، فَقُلْتُ: مَا يُبْكِيكَ يَا ابن عَبَّاسٍ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الوَرَقَاتُ، وَإِذا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، قَالَ: تَعْرِفُ أَيْلَة، قلتُ: نعم، قَالَ: فَإِنَّهُ كَانَ بهَا حَيٌّ من يهود سيقَتِ الْحيتَانُ إِلَيْهِم يَوْم السبت، ثمَّ غاصَتْ لَا يقْدرُونَ عَلَيْهَا حَتَّى يغوصوا عَلَيْهَا بعد كَدٍّ وَمَؤُونَةٍ شَدِيدَةٍ، وَكَانَت تأتيهم يَوْمَ السبتِ شُرَّعًا بِيضًا سِمَانًا كَأَنَّهَا الماخضُ، فَكَانُوا كَذَلِك بُرْهَةً من الدَّهْرِ. ثُمَّ إِنَّ الشَّيْطَانَ أوحى إِلَيْهِم، فَقَالَ: إِنَّمَا نُهِيتُمْ عَنْ أَكْلِهَا يَوْمَ السبتِ، فخُذُوها فِيهِ وكُلُوها فِي غَيرِهِ مِنَ الْأَيَّام، فَقَالَتْ ذَلِك طَائِفَةٌ مِنْهُم، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: بل نُهِيتُمْ عَنْ أَكْلِهَا وَأَخْذِهَا وصَيْدِها فِي يَوْمِ السبتِ، فعَدَتْ طَائِفَةٌ بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتَزَلَتْ طَائِفَةٌ ذَاتَ الْيَمِينِ، وتنحَّت واعتَزَلَتْ طَائِفَةٌ ذَاتَ الْيَسَارِ وسكَتَتْ، وَقَالَ الأيمنون: وَيْلكُمْ، لَا تتعرَّضوا لعقوبةِ الله، وَقَالَ الأيسرون: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤]، قَالَ الأيمنون: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]؛ إن ينْتَهوا فَهُوَ أحب إِلَيْنَا أَلَّا يصابوا، وَلَا يهْلكُوا، وَإِنْ لم يَنْتَهُوا فمعذرةً إِلَى رَبِّكُم، فَمَضَوْا على الْخَطِيئَة، وَقَالَ الأيمنون: قد فَعلْتُمْ يَا أعدَاءَ اللهِ، وَاللهِ لَنُبَايِنَنَّكُمُ اللَّيْلَة فِي مدينتكم، وَاللهِ مَا أَرَاكُمْ تُصْبِحُونَ حَتَّى يُصَبِّحَكُمُ اللهُ بخسفٍ أَو قذفٍ أَو بعضِ مَا عِنْدَهُ من الْعَذَاب، فَلَمَّا أَصْبَحُوا، ضَربُوا عَلَيْهِم الْبَاب، وَنَادَوْا، فَلم يجابوا فَوضَعُوا سُلَّمًا، وعَلَوْا سُورَ الْمَدِينَةِ رَجُلًا فَالْتَفَتَ إِلَيْهِم، فَقَالَ: أيّ عبادَ الله؛ قِرَدَةٌ ـ وَاللهِ ـ تَعَاوى لَهَا أَذْنَابٌ، ففَتَحُوا فَدَخَلُوا عَلَيْهِم فَعرفتِ القِرَدَةُ أنسابَهَا مِنَ الإنسِ، وَلَا تَعْرِفُ الإنسُ أنسابَهَا مِنَ القردة، فَجَعَلَتِ القرودُ تَأتي نسيبَهَا مِنَ الإنسِ، فتَشَمُّ ثِيَابَهُ وتبكي، فَيَقُولُ: ألم ننهكم، فَتَقُولُ برأسها؛ أي: نعم، ثمَّ قَرَأَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، =

وقد أبطَلَ اللهُ تعالى مقولةَ الطائفةِ الكارهةِ لِمَا عَمِلَهُ أصحابُ السبتِ، والناهيةِ عن تذكيرِهِمْ بطريقَيْنِ:

الطريق الأول: سكوتُ القرآنِ عن بيانِ حالهم، فذكَرَ حالَ الطائفةِ الناهيةِ عن السوء، وذكَرَ حالَ الفرقةِ المعتدية، وسكَتَ عن هؤلاءِ، وقد سَبَقَ ذكرُ الخلافِ فيهم، والذي يظهرُ ـ والعلمُ عند الله تعالى ـ أنَّ لفظَ النجاةِ لا يَشْمُلهم، بل هو خاصٌّ بمن يَنْهَوْنَ عن السوء، وهذا ما يدلُّ عليه لفظُ الآية: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، فلم يقلْ: أنجينا المؤمنين، أو الطائعين، وإنما خَصَّ بالنجاةِ الذين كانوا يَنْهَوْنَ الظَّلَمةَ، ويعظونهم، وهذا لا يَلْزَمُ هَلاكُهم، بل هم إلى النجاةِ أقربُ؛ فإنهم كانوا كارهينَ لما كان عليه المعتدون؛ بدليلِ وصفهم لهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، ولكنَّ القرآنَ سكَتَ عن مصيرهم ترهيبًا مِنْ فعلهم، وحثًّا للمسلمينَ على أداءِ هذه الشعيرةِ العظيمة، وعَدَم التهاوُنِ بها؛ فكان في السكوتِ عن مصيرِهِمْ إبطالٌ لمقولتهم، وتحذيرٌ بليغٌ منها، والله تعالى أعلم.

الطريق الثاني: أنَّ في الأمرِ بالمعروفِ، والنهي عن المنكرِ إعذارًا إلى الله تعالى، ورجاءَ استجابةِ صاحبِ المنكر، وهذا ما ردَّت به الفرقةُ الناهيةُ عن السوء على دعوى الساكتين: ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

= قال: أَلِيم وجيع. قال: فَأَرَى الَّذِينَ نَهَوْا قَدْ نَجَوْا، وَلَا أَرَى الْآخَرِينَ ذُكِرُوا، وَنَحْنُ نَرَى أَشْيَاءَ نُنْكِرُهَا وَلَا نَقُولُ فِيهَا. قَالَ عِكْرِمَةُ: فَقُلْتُ: جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ؛ أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ قَدْ كَرِهُوا مَا هُمْ عَلَيْهِ وَخَالَفُوهُمْ، وَقَالُوا: لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ، قَالَ: فَأَمَرَ بِي، فَكُسِيتُ ثَوْبَيْنِ غَلِيظَيْنِ». وأخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٣٥٢)، وقال: «هذا حديثٌ صحيح الإسناد، ولم يُخرِّجاه».



المَبْحَثُ الثَّامِنُ

مَـدْحُ النَّفْـسِ

نَهَى اللهُ تعالى في كتابِهِ عن المقولاتِ التي فيها تزكيةُ المرءِ لنفسه، وادعاؤُهُ ما ليس له، وذلك في آيتَيْنِ من كتابه:

الآية الأولى

قـولُـهُ تـعـالـى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

سَبَقَ في بدايةِ هذا الفصلِ[1] تفصيل الكلام على هذه الآية، وسَوْفَ أشيرُ في هذا المبحثِ إلى وجهِ الاستدلالِ بهذه الآيةِ على المبحثِ الذي نحنُ بصددِ الكلامِ عليه، وطريقةِ القرآنِ في الرَّدِّ على تلك الدعاوى.

فزعَمَ اليهودُ أنهم وَحْدَهُمْ مَنْ سَيَدْخُلُ الجنةَ، كما زعَمَتِ النصارى مثلَ ذلك؛ **فَرَدَّ عليهم القرآنُ بأمرَيْنِ:**

الأول: تكذيبُهُمْ في هذا الزعمِ، وعَدُّ ما قالوه أَمَانِيَ تَمَنَّوْها لا حقيقةَ لها، ولا برهانَ عليها.

والأماني: جمعُ أمنيَّة، وهي ما يُمَنُّونَ به أنفسَهُم من الباطلِ، ويقالُ لكلِّ كلامٍ لا حقيقةَ له: أُمْنِيَّةٌ[2]، قال قتادة: «أماني تَمَنَّوْها على اللهِ كاذبةٌ»[3].

---

(١) **انظر:** (ص٤٥٣) من البحث.

(٢) **انظر:** لسان العرب (منى) (١٥/ ٢٩٥).

(٣) أخرجه الطَّبَري (١/ ٤٩٢)، قال: حدثنا بشر بن معاذ، قال: ثنا يزيد بن زريع، قال: ثنا سعيد، عنه، به.

الثاني: أنه امتدَحَ مَنْ أسلَمَ وجهَهُ للهِ تعالى، وهو مُحْسِنٌ في إسلامِهِ، صادقٌ في إيمانه، وهذا إيماءٌ إلى أنهم ليسوا كذلك، فإنَّ مَنِ ادعى منزلةً ليستْ له، فهو كاذبٌ في دعواه، أو مخطئٌ فيها.

الآية الثانية

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

فهذه دَعْوَى أخرى مِنْ دعاويهم الكثيرةِ، وطريقةُ القرآنِ في ذكرِ هذه المقولة، كطريقتِهِ في ذكرِ المقولةِ السابقة؛ فاليهودُ لا يعتقدون النصارى أبناءَ الله، وأحبابًا له، كما أنَّ النصارى لا يعتقدون في اليهودِ ذلك، **والمعنى**: ادَّعَتِ اليهودُ: أنَّهم أبناءُ الله، وأحباؤُهُ، كما ادَّعَتِ النصارى لأنفسِهِمْ مثلَ ذلك.

وعن عِكْرِمةَ، أو سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ ﵄، قال: «أتى رسولَ اللهِ ﷺ نعمانُ بنُ أضاء، وبحري بن عمرو، وشأس بن عدي، فكلَّموه، فكلَّمهم رسولُ اللهِ ﷺ، ودعاهم إلى الله، وحذَّرهم نِقْمَتَهُ، فقالوا: ما تُخَوِّفُنا يا محمَّدُ، نحنُ واللهِ أبناءُ اللهِ وأحباؤُهُ؛ كقول النصارى؛ فأنزَل اللهُ جلَّ وعز فيهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ إلى آخر الآية [المائدة: ١٨][(١)].

---

(١) أخرجه الطَّبَري في تفسيره (٦/ ١٦٤)، قال: حدثنا أبو كريب، قال: ثنا يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، قال: ثني محمد بن أبي محمد، مولى زيد بن ثابت، قال: ثني سعيد بن جبير، أو عكرمة، عنه، به، وعزاه ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٦)، والسيوطيُّ في الدُّر المنثور (٣/ ٤٤) لابن أبي حاتم، ولم أره فيه. قال ابن حجر: «وفي تفسير محمد بن إسحاق: عن محمد بن جعفر بن الزبير: نزَلَتْ في نصارى نجران، قالوا: إنما نعبُدُ المسيحَ حُبًّا لله وتعظيمًا له»، وفي تفسير الضَّحَّاك عن =

وقد أبطَلَ اللهُ تعالى مَقُولَتَهُمْ هذه من ثلاثةِ طُرُق:

الطريق الأول: من خلال ما يعتقدونه(١)؛ حيث كان مِنْ عقائدهم أنهم سيعذَّبون بُرْهَةً من الدهر، ثم يَخْرُجونَ من النارِ:

فأمَّا اليهودُ: فقد أخبَرَ اللهُ تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

قال قتادةُ: «قالوا: لن تَمَسَّنَا النارُ إلا تَحِلَّةَ القَسَمِ التي نَصَبْنا فيها العجلَ، ثم ينقطعُ القَسَمُ والعذابُ عنا»(٢).

وكتبُهُمْ طافحةٌ بذكرِ العذابِ في الدنيا والآخرة.

«وأما النصارى: فيعتقدون أنَّ بني آدَمَ كلَّهم استحقُّوا العذابَ الأخروي بخطيئةِ أبيهم آدَمَ، فجاءَ عيسى بنُ مريم مخلِّصًا وشافعًا، وعرَضَ نفسَهُ للصلبِ، ليُكَفِّرَ عن البَشَرِ خطيئَتَهُمُ الموروثةَ، وهذا يلزمهم الاعتراف بأنَّ العذابَ كان مكتوبًا على الجميعِ لولا كَفَّارَةُ عيسى؛ فحصَلَ الردُّ عليهم باعتقادِهِمْ به، بَلْهَ اعتقادنا»(٣).

قال السُّدِّيُّ: «قالوا: إنَّ الله أوحى إلى إسرائيلَ: إنَّ وَلَدَكَ بِكْرِي

= ابن عباس: «أنها نزَلَتْ في قريش، قالوا: إنما نعبد الأصنامَ حُبًّا لله لتقرِّبنا إليه زلفى فنزلت». انظر: فتح الباري (١٠/ ٥٥٨).

(١) انظر: جامع البيان (٦/ ١٦٥)، التحرير والتنوير (٥/ ٤٥٦)، وفيه: «وليس المقصودُ من هذا أن يَرُدَّ عليهم بوقوعِ العذابِ عليهم في نفسِ الأمر، من تقديرِ العذاب لهم في الآخرةِ على كُفْرِهم؛ لأن ذلك لا يعترفون به؛ فلا يصلُحُ للرَّدِّ به؛ إذ يَصيرُ الردُّ مصادرةً، بل المقصودُ الردُّ عليهم بحصولِ عذابٍ يعتقدون حصولَهُ في عقائد دينهم، سواءٌ كان عذابَ الآخرةِ أم عذابَ الدُّنيا».

(٢) أخرجه ابن جرير الطَّبَري (٣/ ٢١٩)، قال: حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عنه، به؛ وهو قول الربيع، قال ابن جرير الطَّبَري (٣/ ٢١٩): «حدثني المثنى، قال: ثنا إسحاق، قال: ثنا عبد الله بن أبي جعفر، عن أبيه، عنه، به».

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ٣٥٤) بتصرف.

من الوَلَدِ، فأُدْخِلُهُمُ النارَ، فيكونون فيها أربعينَ يومًا حتَّى تطهِّرهم، وتأكُلَ خطاياهم، ثم ينادي منادٍ: أَخْرِجُوا كلَّ مختونٍ من بني إسرائيل»[١].

ومقتضى هذا التقريرِ: أنَّكم - يا مَعْشَرَ اليهودِ والنصارى - تعتقدون أنكم ستعذَّبون إمَّا في الدنيا، أو في الآخرة، وهذا منافٍ لدعواكم أنكم أبناءُ اللهِ وأحباؤُهُ؛ إذِ المحبُّ لا يعذِّب حبيبه، فإذا ثَبَتَتِ المقدِّمةُ الأولى؛ ثبَتَتِ المقدِّمةُ الثانية، وهي أنكم لَسْتُمْ بأبناءِ لله، ولا بأحبابٍ له.

الطريقُ الثاني: أنكم بَشَرٌ من البشر، وهذه كالنتيجةِ المستَخْلَصَةِ من البرهانِ السابقِ، فقال: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨]؛ **أي**: ينالُكُمْ ما ينالُ سائِرَ البشر.

الطريق الثالث: ذَمُّ القرآنِ العظيم لِمَنْ يَمْدَحُ نفسَهُ، ويصفُها بالصلاحِ والفلاحِ؛ **قال تعالى**: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩].

قال قتادةُ: «هم أعداءُ اللهِ اليهودُ زَكَّوْا أنفُسَهُمْ بأمرٍ لم يَبْلُغُوهُ؛ فقالوا: نحنُ أبناءُ اللهِ وأحباؤُهُ، وقالوا: لا ذنوبَ لنا»[٢].

---

(١) أخرجه الطَّبَري (٦/ ١٦٤)، قال: حدثني محمد بن الحسين، قال: ثنا أحمد بن مفضل، قال: ثنا أسباط، عنه، به.

(٢) أخرجه الطَّبَري (٥/ ١٢٦)، قال: حدثنا بشر بن معاذ، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عنه، به؛ وكذا قال الحسن، والضَّحَّاك، والسُّدِّي. **انظر**: الآثار عنهم، في جامع البيان (٥/ ١٢٦ ـ ١٣٠)، تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٩٧٢).



المَبْحَثُ التَّاسِعُ

كَـثْـرَةُ الأسـئـلـةِ

ذمَّ اللهُ تعالى كثْرَةَ الأسئلةِ الناشئة عن التنطُّع، أو التكذيبِ والعناد، وكلا الأمرَيْنِ مذمومٌ، وقد أبطَلَ اللهُ تعالى هذا السلوكَ، سواءٌ صدَرَ من أتباعِ الرسل، أو مِنْ أعدائهم.

• **ومِنْ ذلك: سؤالُ اليهودِ لموسى ﷺ أن يغير ما أنعَمَ اللهُ عليهم مِنْ أصنافِ الأطعمة.**

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

فذكَرَ في هذه الآياتِ ما كان عليه بنو إسرائيلَ مِنْ كثرةِ السؤال، والتعنُّتِ فيه، والاختلافِ على أنبيائهم، وإنكارَ اللهِ تعالى شأنُهُ عليهم، وعَدَّهُ تَعَنُّتَهُمْ مع نبيِّهم موسى ﷺ معصيةً تضافُ إلى معاصيهم الكثيرة.

قال قتادة: «كان القومُ في البَرِّيَّة، قد ظَلَّلَ عليهم الغمامَ، وأنزَلَ عليهم المَنَّ والسلوى، فمَلُّوا ذلك، وذكَرُوا عيشًا كان لهم بمِصْرَ؛ فسألوه موسى؛ **فقال الله تعالى:** ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾»(١).

---

(١) أخرجه الطَّبَري (٣٠٩/١)، قال: حدثنا به بشر بن معاذ، قال: حدثنا يزيد بن زريع، =

وقال ابنُ زيد: «كان طعامُ بني إسرائيلَ في التِّيهِ واحدًا، وشرابُهُمْ واحدًا، كان شرابُهُمْ عَسَلًا ينـزلُ لهم مِنَ السماء، يقالُ له: المَنُّ، وطعامُهُمْ طيرٌ يقال له: السَّلْوَى، يأكلون الطَّيْرَ، ويشربون العسَلَ، لم يكونوا يعرفون خُبْزًا ولا غيره»[1].

وإنما قالوا: على طعام واحد، وهم يأكُلُونَ المَنَّ والسلوى؛ لأنه لا يتَبدَّلُ ولا يتغيَّرُ كلَّ يومٍ، فهو مأكلٌ واحد[2].

فالبقولُ، والقِثَّاءُ، والعَدَسُ، والبَصَلُ كلُّها معروفة، وأمَّا الفُومُ، فقد اختَلَفَ السلفُ في معناه، فقيل: هو الثُّومُ[3]، وقيل: هو الحِنْطة[4].

والاستبدالُ: وضعُ الشيءِ موضعَ الآخر، **فمعنى الآية**: أتستبدلونَ البَقْلَ، والقِثَّاءَ، والفُومَ، والعَدَسَ، والبَصَلَ التي هي أدنى، بالمَنِّ والسلوى الذي هو خَيْرٌ؟!

والخطابُ في هذه الآياتِ لليهودِ المعاصرين للنبيِّ ﷺ حينَ نزولِ

= قال: حدثنا سعيد، عن قتادة، وأخرجه الصنعاني في تفسيره بلفظ مقارب (١/ ٤٧).

(١) أخرجه الطَّبَري (١/ ٣٠٩)، قال: حدثني يونس بن عبد الأعلى، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أنبأنا ابن زيد، بأن طعامهم كان المن والسلوى؛ قاله جميع المفسِّرين. انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٢٢)، جامع البيان (١/ ٣١٠)، الجامع لأحكام القرآن (١/ ٤٢٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٠٢)، قال الحافظ ابن حجر: «لأن المراد بالوَحْدة دوامُ الأشياءِ المذكورةِ من غير تبدُّل، وذلك يصدُقُ على ما إذا كان المطعومُ أصنافًا؛ لكنها لا تتبدَّل أعيانها». فتح الباري (١٠/ ١٦٤)، أو لأن العرَبَ تعبِّر عن الاثنين بلفظ الواحد؛ كما تعبِّر عن الواحد بلفظ الاثنين، وقيل: كانوا يأكلون أحدهما بالآخر؛ فكانا كطعامٍ واحدٍ. انظر: الكشاف (١/ ١٧٣)، التفسير الكبير (٣/ ٩٢)، تفسير البغوي (١/ ٧٨).

(٣) ففي قراءة ابن مسعود: «وثُومِها» بالثاء. انظر: تفسير الطَّبَري (١/ ٣١٣).

(٤) تُنظر الآثار في تفسير الصنعاني (١/ ٤٧)، تفسير الطَّبَري (١/ ٣١٣)، تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٢٣).

القرآن، تذكِّرهم بأفعالِ أسلافهم، تذكيرًا لهم بِنِعَمِ اللهِ تعالى عليهم، وإثباتًا لصدقِ نبوَّةِ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، وتحذيرًا للجماعةِ المُسْلِمَةِ من التشبُّهِ بهم في سَخَطِ اللهِ تعالى، من التعنُّتِ، والاختلافِ على نبيِّهم، كما أنَّ فيها: تسليةً للنبيِّ ﷺ الذي كان يعاني الأَمَرَّيْنِ من اليهود؛ من تعنُّتِهِم، وتكذيبِهِمْ، وكثرةِ جدالهم.

وقد ذَمَّ اللهُ تعالى مقالتَهُمْ هذه؛ لِمَا فيها مِنْ تبرُّمِهِمْ، وكثرةِ سؤالهم، وعَدَمِ رضاهم بما رزَقَهُمُ اللهُ تعالى من ثلاثة أوجه:

١ - أنه عَدَّ مقولَتَهُمْ هذه مِنْ ضمنِ الجناياتِ التي ارتَكَبُوها، والحماقاتِ التي عاودوها، فساق قِصَّتَهُمْ هذه ضمنَ شنائِعِهِمُ الكثيرة؛ من كُفْرٍ بآياتِ الله، وتقتيلٍ لرسله، وإصرارٍ على الاعتداءِ والعصيانِ: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾؛ أي: وُضِعَتْ عليهم، وأُلْزِمُوا بها شَرْعًا وقَدَرًا؛ فلا يزالون مُستَذَلِّين؛ مَنْ وَجَدَهُمُ استَذَلَّهُمْ، وأهانهم، وضرَبَ عليهم الصَّغَار، وهم مَعَ ذلك في أنفسِهِمْ أذلَّاءُ متمسكنون، فاليهوديُّ مهما حاز مِنَ المالِ، لا تراه إلا كالفقيرِ المسكين؛ لِحِرْصِهِ على المال، والشَّرَهِ في تحصيله[1].

٢ - التنبيهُ على ما في كلامهم مِنْ سُوءِ مَنْطِقِهم، وقلةِ أَدَبِهم مع اللهِ تعالى، ومع نبيِّه ﷺ؛ وهذا يُؤْخَذُ مِنْ قولِهِ عنهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١] فعَدُّوا ما مَنَّ اللهُ تعالى به عليهم شيئًا مكروهًا يحتاجُ إلى مصابرةٍ عليه!

كما يُؤْخَذُ سُوءُ أَدَبِهِمْ مع اللهِ تعالى مِنْ قولهم: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: ٦١]؛ فلم يقولوا: رَبَّنا.

---

(١) انظر: تفسير البغوي (١/ ٧٨)، تفسير القرآن العظيم (١/ ١٠٣).

٣ - إنكارُ موسى عليهم طَلَبَهُمْ؛ حيثُ استبدلوا رِزْقًا خصَّهم الله تعالى به، وجَعَلَهُ آيةً لهم، ومنةً خاصَّة، لا تَعَبَ في تحصيلِهِ ولا نَصَبَ، مضمونَ الحصول، دائمَ النـزول! بطعامٍ لهم كَدٌّ في تحصيله؛ **فقال:** ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، **وأصلَ الدُّنُوِّ:** القُرْبُ في المكان؛ فاستُعِيرَ للخِسَّةِ، كما استُعِيرَ البُعْدُ للشَّرَفِ والرِّفْعة(١).

• ومِنْ تَنَطُّعِ اليهودِ في الأسئلةِ: كَثْرَةُ بَحْثِهم في أمرِ اللهِ تعالى لهم بِذَبْحِ بقرةٍ:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧ - ٧١].

---

(١) تفسير أبي السعود (١/ ١٠٧)، **وقد ذكر المفسِّرون أوجهًا لدنوِّ ما طلبوه: الأول:** أن البقول لما كانت لا خَطَر لها بالنسبة إلى المن والسلوى؛ كانا أفضل. **الثاني:** لمَّا كان المن والسلوى طعامًا مَنَّ الله به عليهم، وأمرهم بأكله، وكان في استدامةِ أمرِ الله وشكرِ نعمتِهِ أجرٌ وذخرٌ في الآخرة، والذي طلبوه عارٍ من هذه الخصائل؛ كان أدنى في هذا. **الوجه الثالث:** لمَّا كان ما مَنَّ الله به عليهم أطيَبَ وألذَّ من الذي سألوه؛ كان ما سألوه أدنى في هذا الوجه لا محالة. **الرابع:** لمَّا كان ما أعطوا لا كلفةَ فيه ولا تعب، والذي طلبوه لا يجيء إلا بالحَرْثِ والزراعةِ والتعب؛ كان أدنى. **الخامس:** لمَّا كان ما ينزل عليهم لا مِرْيَةَ في حِلِّه. وخلوصِهِ؛ لنزوله من عند الله، والحبوب والأرض يتخلَّلها البيوع والغصوب، وتدخلها الشبه؛ كانت أدنى من هذا الوجه. **انظر:** الجامع لأحكام القرآن (١/ ٤٢٨).

فسيقت هذه الآيةُ؛ لبيانِ تنطُّعِ اليهود، وكثرة مساءلتهم، واختلافِهِمْ على أنبيائهم، وعِصْيانِهِمْ لأمرِ اللهِ تعالى في غالبِ أحوالهم.

قال أبو العالية: «كان رجلٌ من بني إسرائيل، وكان غنيًّا، ولم يكنْ له ولدٌ، وكان له قريبٌ وكان وارثَهُ، فقتَلَهُ ليرثه، ثم ألقاهُ على مجمعِ الطريق، وأتى موسى، فقال له: إنَّ قريبي قُتِلَ، وأتى إليَّ أمرٌ عظيم، وإني لا أجدُ أحدًا يبيِّن لي مَنْ قتَلَهُ غيرَكَ يا نبيَّ الله. قال: فنادى موسى في الناس: أنشُدُ اللهَ مَنْ كان عنده مِنْ هذا علمٌ إلا بيَّنه لنا. فلم يكن عندهم علمه، فأقبَلَ القاتلُ على موسى، فقال: أنتَ نبيُّ الله، فاسألْ لنا ربَّك أن يبيِّن لنا. فسألَ ربَّه، فأوحى اللهُ إليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، فعَجِبُوا، وقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ﴾ [البقرة: ٦٧، ٦٨]؛ يعني: هَرِمَةٌ، ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ [البقرة: ٦٨]؛ يعني: ولا صغيرةٌ، ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]؛ أي: نصف بينَ البكرِ والهَرِمة، ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ [البقرة: ٦٩]؛ أي: صافٍ لونُها، ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٩]؛ أي: تعجبُ الناظرين، ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۝ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ [البقرة: ٧٠، ٧١]؛ أي: لم يذلِّلها العملُ، ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٧١]؛ يعني: ليستْ بذلولٍ، فتثيرَ الأرضَ، ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ [البقرة: ٧١]، يقولُ: ولا تعملُ في الحرثِ، ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ [البقرة: ٧١]؛ يعني: مسلَّمةٌ من العيوبِ، ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧١]، يقولُ: لا بياضَ فيها، ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١].

قال: ولو أنَّ القومَ حين أُمِرُوا أن يذبحوا بقرةً، استعرضوا بقرةً من البقرِ، فذبحوها، لكانتْ إياها، ولكنَّهم شدَّدوا على أنفسهم، فشدَّد اللهُ عليهم. ولولا أنَّ القومَ استثنوا، فقالوا: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ

لَمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠]، لَمَا هُدُوا إليها أبدًا. فبلَغَنا أنهم لم يجدوا البقرةَ التي نُعِتَتْ لهم إلا عند عجوزٍ عندها يتامى، وهي القيِّمةُ عليهم، فلمَّا عَلِمَتْ أنهم لا يَزْكُو لهم غيرها، أَضْعَفَتْ عليهم الثمنَ، فأتوا موسى، فأخبَرُوهُ أنهم لم يجدوا هذا النعتَ إلا عندَ فلانةَ، وأنها سألتهم أضعافَ ثمنها، فقال لهم موسى: إنَّ اللهَ قد كان خفَّف عليكم، فشدَّدتم على أنفسكم، فأَعْطُوها رضاها وحُكْمَها. ففعلوا واشْتَرَوْها، فذبَحُوها. فأمرهم موسى أن يأخذوا عَظْمًا منها، فيضربوا به القتيلَ، ففعَلُوا، فرجَعَ إليه رُوحُهُ، فسمَّى لهم قَاتِلَهُ، ثم عاد ميتًا كما كان. فأخذوا قاتلَهُ وهو الذي كان أتى موسى فشكا إليه، فقتلَهُ الله على أسوأِ عَمَلِهِ»(١).

وما تضمَّنَتْهُ الآيةُ بسياقها يبيِّن سُوءَ ما اعتاد عليه هؤلاءِ اليهود، من قِلَّةِ مبادرتهم إلى أمرِ اللهِ تعالى، وطُولِ تنطُّعهم، وكثرةِ سؤالهم؛ حيثُ شدَّدوا على أنفسهم فشَدَّد اللهُ عليهم.

وفي مواجهةِ أمرِ موسى عليه السلام لهم بِذَبْحِ بقرة، باتهامِهِمْ له بالهُزُوِ بهم؛ إيماءً لِمَا كانوا عليه مِنْ سوءِ المنطق، وغلظةِ الطبع.

ولذا جاوَبَهُمْ قائلًا: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]؛ تنبيهًا على أنَّ الاستهزاءَ لا يصدُرُ إلا مِنْ جاهل، وهو ما لا يليقُ بمنصبِ النبوة(٢).

كما أن في ختام القصةِ **بقولِهِ تعالى**: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]؛ **أي**: فَذَبَحُوها، والحالُ أنهم كانوا قبلَ ذلك بمعزلٍ منه، أو

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١/ ٣٣٧) من طريق أبي جعفر، عن الربيع، عنه، به، وروي مثل هذا الأثر عن عَبِيدَة السَّلْماني؛ أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٣٦)، والبيهقي في الكبرى، رقم (١٢٠٢٨)؛ كلاهما من طريق هشام بن حسَّان، عن محمد بن سيرين، عنه، به.

(٢) **انظر**: التفسير الكبير (٣/ ١٠٩).

يكونُ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] اعتراضًا تذييليًّا على قِصَّتهم، ومآلُهُ استثقالُ استعصائهم واستبطائهم، وأنَّهم لفرطِ تطويلهم، وكثرةِ مراجعاتِهِمْ ما كاد ينتهي خيطُ إسهابهم فيها[(١)].

قال ابنُ عباس: «كادوا ألَّا يفعلوا، ولم يكنْ ذلك الذي أرادوا؛ لأنهم أرادوا ألَّا يذبحوها»[(٢)].

قال ابن كثير معقِّبًا: «يعني: أنهم مَعَ هذا البيان، وهذه الأسئلةِ والأجوبةِ والإيضاحِ، ما ذَبَحُوها إلا بعد الجَهْد، وفي هذا ذَمٌّ لهم، وذلك أنه لم يكنْ غَرَضُهُمْ إلا التعنُّتَ؛ فلهذا ما كادوا يذبحونها»[(٣)].

• **ومِنَ الأسئلةِ التي نبَّه القرآنُ على ذمِّها، والنهيِ عنها: السؤالُ عن وقتِ قيامِ الساعةِ.**

قال الله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦، ١٨٧]، **وقال سبحانه:** ﴿يَسْـَٔلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، **وقال:** ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢ ـ ٤٦].

قال ابن عباس: «قال ابنُ أبي قُشَيْر، وسمولُ بنُ زيدٍ

---

(١) تفسير أبي السعود ـ بتصرف ـ (١/ ١١٣). وانظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (١/ ١٦٥).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٣٥٤) من طريق بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عنه، به.

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ١١٢).

لرسولِ اللهِ ﷺ: يا محمَّدُ، أَخْبِرْنا متى الساعةُ إنْ كنتَ نبيًّا؛ فإنَّا نعلمُ متى هي؛ فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧]»[1][2].

وهذا سبَبُ إيرادي لهذه الآيةِ في هذا الموضع.

وقولُهُ: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾؛ أي: وقتَ قيامها.

وقد نَهَى اللهُ تعالى عن السؤالِ عن وقتِ قيامِ الساعة، وعلَّل ذلك بثلاثةِ أمور:

أولها: أنَّ علمَ وقتِ قيامِ الساعة متروكٌ لله تعالى؛ فهو العليمُ به، وأخفاه عن الناسِ لِحِكَم جِليلة، فالسؤالُ عنه بعدَ ذلك قلةُ فَهْم، وسوءُ أدب.

---

(١) أخرجه الطَّبَري (٩/ ١٣٧) قال: حدثنا أبو كريب، قال: ثنا يونس بن بكير، قال: ثنا محمد بن إسحاق، قال: ثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، قال: ثني سعيد بن جبير أو عكرمة، عنه، به.
عن قتادة قال: «قالت قريش لمحمد: إن بيننا وبينك قَرَابَةً فأسِرَّ إلينا متى الساعة؟ فقال الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧]»؛ أخرجه الطَّبَري (٩/ ١٣٧) قال: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، قال: ثنا محمد بن ثور، عن معمر، عنه، به.
ولا مانعَ أنْ يكونَ السؤالُ وقَعَ من المشركين، ووقع من اليهود كذلك، خاصَّةً أن المشركين كانوا كثيرًا ما يأخذون محاولاتهم في تعجيز النبيِّ ﷺ من اليهود.
وعن عائشة ﵂، قالت: «لم يَزَلْ رسولُ الله يُسْأَلُ عن الساعة، حتى نزَلَتْ: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٣]»؛ أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ٤٦)، وقال: «هذا حديث لم يخرج في الصحيحين، وهو محفوظٌ صحيحٌ على شرطهما معًا، وقد احتجا معًا بأحاديث ابن عيينة، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة ﵂»، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٣٤٧) عن ابن عيينة، عن الزهري، عن ابن الزبير، وأخرجه الشافعي في مسنده (١/ ٢٤١) عن ابن الزبير؛ من طريق ابن عيينة.
قال ابن أبي حاتم في علله (٢/ ٦٨): قال أبو زرعة: «الصحيح مرسل بلا عائشة»، وقال الحافظ ابن حجر: «وذكر الدارقطني في علله جماعة روَوه عن ابن عيينة، فأسندوه، وآخرين روَوه عنه، فأرسلوه، قال: وكأن ابن عُيَيْنة أسنده مرة، وأرسله أخرى». **انظر**: تخريج أحاديث الكشاف (٤/ ١٥١).

(٢) واختاره ابن جرير الطَّبَري، كما في تفسيره (٩/ ١٣٨).

وعن جابر بن عبد الله، قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ قبلَ أن يموتَ بشهر: (**تَسْأَلُونِ عَنِ السَّاعَةِ، وإنَّما عِلْمُهَا عندَ اللهِ، وأُقْسِمُ بِاللهِ، مَا عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ اليَوْمَ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ يَأْتِي عَلَيْهِ مِئَةُ سَنَةٍ**)(١).

الثاني: أن في إخفاءِ ساعتِهَا امتحانًا، وابتلاءً للعباد، فيُعْلَمُ المصدِّقُ لِمَا أخبَرَتْ به الرسل، الموقنُ بلقاءِ الله، من المكذِّبِ الجاحد؛ **قال سبحانه**: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥، ٤٦].

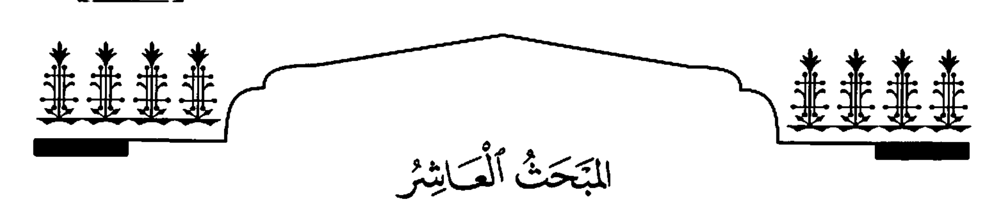
الثالث: أنَّ اللهَ تعالى شأنه قدَّر ألا تأتي الساعةُ للعبادِ إلا بغتةً؛ فالإخبارُ بموعدها ينافي هذه الحِكْمةَ: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقد ورَدَ في السُّنَّةِ ما يؤكِّد ذمَّ كثرةِ الأسئلة، ومخالفةِ الأنبياء؛ ففي الصحيح، من حديث أبي هريرة، قال رسولُ الله: (**فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ**)(٢).

---

(١) أخرج الإمام مسلم، باب قوله ﷺ: (**لا تَأْتِي مِئَةُ سَنَةٍ، وعَلَى الأَرْضِ نَفْسٌ منفوسةٌ اليومَ**)، رقم (٢٥٣٨).

(٢) أخرجه مسلم، باب: توقيره ﷺ، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، أو لا يتعلق به تكليف، وما لا يقع، ونحو ذلك، رقم (١٣٣٧).



المَبحَثُ العَاشِرُ

التَّعلُّقُ المُطلَقُ بالدُّنيا

قال الله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

ذكَرَ اللهُ تعالى شأنُهُ ذلكَ بعد قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

فأمَرَ المؤمنينَ أن يُكْثِرُوا مِنْ ذكرِ الله تعالى إن انتهَوْا مِنْ مناسكِ حَجِّهم، وأنْ يكونَ ذِكْرُهم له بِقَدْرِ ما كانوا يذكُرُونَ آباءهم في حَجِّهم في الجاهليَّة؛ فإنهم كانوا إذا اجتَمَعُوا في المشاعرِ، افتَخَرَ كلُّ واحدٍ بآبائه، وعدَّد مآثرَهُمْ، وفضائلَهُمْ[1]، وقد يكونُ هذا مثالًا ذكَرَهُ اللهُ لهم في أنفسهم؛ فإنَّ الصبيَّ لا يفارقُ لسانُهُ ذِكْرَ والديه، فيناديهم في كلِّ ما عَنَّ له[2]، فأرشَدَهُمْ اللهُ تعالى أن يُكْثِرُوا مِنْ ذكره تعالى، فهو المستحقُّ لكثرةِ الثناء، وإخلاصِ الدعاء.

---

(١) وهو قولُ عامَّة المفسِّرين، قال أنس ﷺ: «كانوا يَذْكُرُونَ آباءَهُمْ في الحجِّ، فيقول بعضُهم: كان أبي يُطْعِمُ الطعام، ويقولُ بعضُهم: كان أبي يَضْرِبُ بالسيف، ويقولُ بعضُهم: كان أبي جَزَّ نواصي بني فلان»؛ أخرجه الطبري (٢/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦) من طريق إسحاق بن يوسف، عن القاسم بن عثمان، عنه، به؛ وهو قول مجاهد، وقتادة، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وغيرهم من مفسِّري السلف. يُنظر: المرجع السابق، تفسير عبد الرزاق الصنعاني (١/ ٧٩). وانظر: الدر المنثور (١/ ٥٥٦ ـ ٥٥٨)، العُجاب، في بيان الأسباب، لابن حجر (١/ ٥١١ ـ ٥١٨).

(٢) أخرج الطبري من طريق محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس، أنه قال: «كما يذكر الأبناءُ الآباءَ»؛ وهو قول عطاء، والضَّحَّاك.

وأكّد ذلك بقوله: ﴿أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٠٠]؛ أي: ذكرًا هو أَشَدُّ من ذكرِكُمْ لآبائكم[١].

فقيل: إنَّ قوله: ﴿أَوۡ﴾ للتخيير، والإباحة[٢].

وقيل: معناه: بل أَشَدَّ ذكرًا؛ وذلك لأنَّ مفاخرَ آبائهم كانتْ قليلةً، أمَّا صفاتُ الكمالِ لله ﷻ، فهي غيرُ متناهية، فيجبُ أنْ يكونَ اشتغالُهُمْ بذكرِ صفاتِ الكمالِ في حقِّ الله تعالى أشد من اشتغالهم بذكر مفاخر آبائهم.

قال ابنُ عاشور: «أصلُ (أَوْ) أنها للتخيير، ولمَّا كان المعطوفُ بها في مثلِ ما هنا أَوْلَىٰ بمضمونِ الفعلِ العاملِ في المعطوفِ عليه، أفادَتْ (أَوْ) معنًى من التدرُّجِ إلى أعلى؛ فالمقصودُ: أن يذكروا اللهَ كثيرًا، وشبَّه أولًا بذكرِ آبائهم؛ تعريضًا بأنهم يشتغلون في تلكَ المناسكِ بذكرٍ لا ينفع، وأنَّ الأجدرَ بهم أن يعوِّضوه بذكرِ الله؛ فهذا تعريضٌ بإبطالِ ذكرِ الآباءِ بالتفاخُر.

ولهذا قال أبو علي الفارسي[٣]، وابنُ جني[٤]: إنَّ (أَوْ) في مثلِ هذا للإضرابِ الانتقالي، ونَفَيَا اشتراطَ تقدُّمِ نفيٍ أو شبهه، واشتراطَ إعادةِ العامل»[٥].

ثم ذكَرَ أنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يكونُ دعاؤه محصورًا في أمرِ الدنيا، دُونَ ذكرِهِ اِلآخرة، مع أنَّه لا نَصِيبَ له فيها.

---

(١) انظر: إعراب القرآن، للنحاس (١/ ٢٩٧)، معاني القرآن، له (١/ ١٤١)، مشكل إعراب القرآن، لمكي (ص١٢٤).

(٢) انظر: إعراب القرآن، للعكبري (ص١٦٤).

(٣) هو: الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي الفَسَوي، إمام في النحو واللغة، له مصنفات عديدة، منها: الحجة في علل القراءات، والإيضاح، والتكملة، وغيرها، توفي سنة (٣٧٧هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٦/ ٣٨٠).

(٤) هو: عثمان بن جني الموصلي، يُكنى بأبي الفتح، إمام في العربية، تَلْمَذَ على علي الفارسي، وله مصنفات كثيرة، منها: المحتسب في شواذ القراءات، وكتاب اللمع، والخصائص، وغيرها، توفي سنة (٣٩٢هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٧).

(٥) التحرير والتنوير (٢/ ٤٥٩).

قال ابنُ عباس: «كان قومٌ من الأعرابِ يجيئونَ إلى الموقفِ، فيقولون: اللَّهُمَّ، اجعلْهُ عام غَيْث، وعامَ خِصْب، وعامَ وِلَادٍ حَسَن، لا يذكُرُونَ مِنْ أمرِ الآخرةِ شيئًا؛ فأنزَلَ الله فيهم: «﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠]»[1].

ثم ذكَرَ الوجهَ الصحيحَ في الدعاء، وأنَّه يشملُ خَيْرَي الدنيا، والآخرةِ؛ فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وهذا تعليمٌ من الله تعالى للمؤمنين: أنْ يدعوا من فضلِ اللهِ تعالى في أمرِ دنياهم، وفي أمر أخراهم.

فإنَّ الحَسَنَةَ تَعُمُّ كلَّ خيرٍ يصلُ للعبدِ مِنْ طريقٍ مباح؛ ولذلك فسَّرها قتادةُ بالعافية[2]، وفسَّرها محمدُ بنُ كَعْب القُرَظي: بالزوجةِ الصالحة[3]، وفسَّرها الحسَنُ البصريُّ: بالرِّزْقِ الطيب، والعلمِ النافعِ في الدنيا[4]؛ وهذا تفسيرٌ بالمثال، لا بالحَدِّ المطابق.

وقد أبطَلَ القرآنُ هذه المقولةَ مِنْ طريقَيْن:

أولهما: سوءُ تصويرِ حالِ هذا المُهْتَمِّ بالدنيا، فهو يدعو للدنيا، وما له في الآخرة مِنْ خَلَاق.

ثانيهما: توجيهُهُمْ للدعاءِ الصحيح: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١].

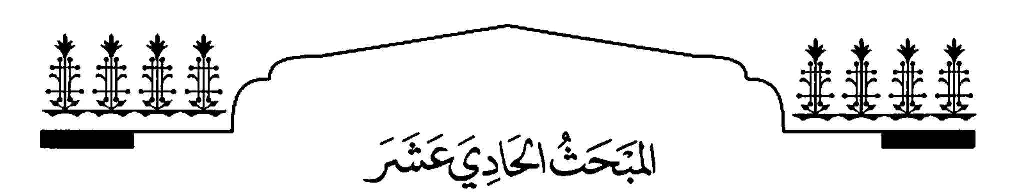
---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٣٥٧) من طريق سعيد بن جبير؛ وهو قول مجاهد، وقتادة، والسدي. يُنظر: المرجع السابق، جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢/ ٢٩٥ ـ ٢٩٧).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٣٥٧).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٣٥٧).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٣٥٧)، قال: حدثنا أسيد بن عاصم، ثنا الحسين بن حفص، ثنا سفيان، عن رجل، عنه، به.



المَبحَثُ الحَادِي عَشَر

ادعاءُ العَبْدِ مَنْزِلةً لم يَصِلْ إليها

قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

نزَلَتْ هذه الآياتُ في بني أَسَدِ بنِ خُزَيْمة[١].

وقد اختَلَفَ أهلُ العلمِ في الإسلامِ الذي أثبَتَهُ اللهُ تعالى لهم:

فذهَبَ بعضُ أهلُ العلمِ: أنَّ الإسلامَ هنا هو الإسلامُ اللغويُّ؛ ومنهم الإمامُ البخاري[٢]؛ وهو المفهومُ مِنْ كلامِ مجاهد، وقتادة.

قال مجاهد: «قال: استَسْلَمْنَا؛ مخافةَ القتلِ والسَّبْي»[٣].

قال قتادة: «لَعَمْرِي، ما عَمَّتْ هذه الآيةُ الأعرابَ؛ إنَّ من الأعرابِ لَمَنْ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ، ولكنْ إنما أُنْزِلَتْ في حَيٍّ من أحياءِ العربِ مَنُّوا بالإسلامِ على النبيِّ ﷺ، وقالوا: أَسْلَمْنا، ولم نُقَاتِلْكَ كما قاتَلَكَ بنو فلان؛ **فقال اللهُ:** ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾»[٤].

---

(١) **انظر**: جامع البيان، للطبري (٢٦/١٤١).

(٢) قاله ابن كثير. **انظر**: تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٢٠).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري (٢٦/١٤٢)، قال: حدثنا ابن حُمَيْد، قال: حدثنا مهران، عن سفيان، عن رجل، عن مجاهد، به.

(٤) المرجع السابق (٢٤/١٤٢)، من طريق بشر، قال: حدثنا يزيد، عن سعيد، عنه، به.

وذهَبَ جمهورُ العلماء، ومنهم: ابنُ عباس، وإبراهيمُ النخعي، وقتادةُ، واختارَهُ ابنُ جريرٍ: إلى أنَّ الإسلامَ هنا هو الإسلامُ الشرعيُّ الذي ينجو به العبدُ من الكفر.

وهذا هو الصوابُ ـ والله أعلم ـ فإنَّهم ادعَوْا لأنفسهم منزلةً لم يَصِلُوهَا بعدُ؛ فبيَّن اللهُ لهم، ولقَّنهم القولَ الصواب.

ومما يَدُلُّ على هذا القولِ دلالةً قطعيَّةً: قولُهُ تعالى في آخرِ الآيات: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

قال ابنُ سعد: وأخبَرَنا هشامُ بنُ محمَّد الكلبيُّ، عن أبيه، قالا: قَدِمَ عَشرَةُ رَهْطٍ من بني أسدِ بنِ خُزَيْمَةَ على رسولِ الله ﷺ في أولِ سنةِ تسعٍ، فقال حضرميُّ بنُ عامر: أتيناكَ نتدرَّعُ الليلَ البهيم في سنةٍ شَهْباءَ لم تبعث إلينا بعثًا، فنـزَلَتْ فيهم: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾.

قال ابنُ عباس: «قَدِمَ وَفْدُ بني أسدٍ على رسول الله ﷺ، فتكلَّموا، فقالوا: قَاتَلَتْكَ مُضَر، ولسنا بأقلِّهم عددًا، ولا أكلِّهم شوكةً، وَصَلْنا رَحِمَكَ، فقال لأبي بكر وعُمَرَ رضي الله عنهما: (**تَكَلَّمُوا هَكَذَا**)، قالوا: لا، قال: (**إِنَّ فِقْهَ هَؤُلَاءِ قَلِيلٌ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ**)، قال عطاءٌ في حديثِهِ: فأنزَلَ الله جلَّ وعزَّ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ الآيةَ»[(١)].

عن عبدِ اللهِ بنِ أبي أوفى، قال: «قال أناسٌ من العَرَبِ: يا رسولَ اللهِ، أسلَمْنا ولم نقاتلْكَ، وقاتَلَكَ بنو فلان؛ فأنزَلَ الله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾ الآيةَ»[(٢)].

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى، كتاب التفسير، باب: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾، رقم (١١٥١٩).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨/ ٧٨)، وقال: «لم يرو هذا الحديث عن إبراهيم بن =

فأثبَتَ لهم إيمانًا، لكنه ليس الإيمانَ المنفيَّ عنهم أولًا؛ لكنَّه هو الإسلامُ الذي أثبتَهُ لهم أولًا.

ومما يرجِّحُ أنَّ الإسلامَ في الآيةِ هو الإسلامُ الشرعيُّ: **قولُهُ تعالى:** ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

أي: لا يَنْقُصْكُمْ من أجرِ أعمالِكُم شيئًا، وهذه لا تكونُ إلا للمسلم[١].

فهؤلاءِ ادَّعَوْا منزلةً لم يَصِلُوها، ولا تليقُ بهم؛ **فنبَّههم القرآنُ على عدمِ جوازِ ذلك مِنْ خلال:**

أولًا: أنه منَعَ قولَهُمْ، **فقال:** ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ [الحجرات: ١٤].

ثانيًا: ثم لقَّنهم المقولة الصحيحةَ، **فقال:** ﴿وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

ثالثًا: دلَّهم على طريقِ الإيمانِ في حقِّهم، وأنه يَشْمَلُ طاعةَ اللهِ، وطاعةَ رسولِهِ ﷺ، والجهادَ في سبيلِ الله، **فقال:** ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٤، ١٥].

رابعًا: أنَّ اللهَ تعالى هو المُطَّلِعُ على غَيْبِ السمواتِ والأرض، الذي لا يخفى عليه شيءٌ؛ فهو العليمُ بكلِّ عبدٍ وما يستحقُّه؛ **فقال سبحانه:** ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦].

= السكسكي إلا الحجاج، ولا عن الحجاج إلا حفص؛ تفرَّد به سهل بن عثمان»، قال في مجمع الزوائد (٧/ ١١٢): «وفيه الحجاج بن أرطاة، وهو ثقة، ولكنه مدلس؛ وبقية رجاله رجال الصحيح».

(١) انظر: الدر المنثور (٧/ ٥٥٣).



المَبحثُ الثَّاني عَشَرَ

المَنُّ بِالعَمَلِ الصَّالِحِ

قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

يُخْبِرُ اللهُ تعالى عن قومٍ من الأعراب، وهم بنو أَسَدِ بنِ خُزَيْمةَ؛ أنهم كانوا يَمُنُّونَ على النبيِّ ﷺ إسلامَهُمْ جهلًا منهم.

قال ابنُ عباس: «قَدِمَ وفدُ بني أسدٍ على رسولِ الله ﷺ، فتكلَّموا، فقالوا: قاتَلَتْكَ مُضَر، ولسنا بأقلِّهم عددًا، ولا أكلِّهم شوكةً، وَصَلْنا رَحِمَكَ، فقال لأبي بكر وعُمَرَ رضي الله عنهما: **(تكلَّمُوا هَكَذَا)**، قالوا: لا، قال: **(إِنَّ فِقْهَ هَؤلَاءِ قَلِيلٌ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ)**، قال عطاءٌ في حديثِهِ: فأنزَلَ الله جلَّ وعزَّ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ الآيَةَ [الحجرات: ١٧]»(١).

عن عبدِ اللهِ بنِ أبي أوفى، قال: «قال أناسٌ من العرب: يا رسولَ اللهِ، أسلَمْنَا ولم نقاتلْك، وقاتَلَكَ بنو فلان؛ فأنزَلَ الله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾ الآيَةَ [الحجرات: ١٧]»(٢).

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى، كتاب التفسير، باب: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾، رقم (١١٥١٩).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨/ ٧٨)، وقال: «لم يرو هذا الحديث عن إبراهيم بن السكسكي إلا الحجاج، ولا عن الحجاج إلا حفص؛ تفرَّد به سهل بن عثمان»، قال في مجمع الزوائد (٧/ ١١٢): «وفيه الحجاج بن أرطاة، وهو ثقة، ولكنه مدلس؛ وبقية رجاله رجال الصحيح».

فَرَدَّ اللهُ تعالى عليهم قِيلَهُمْ مِنْ ثلاثةِ أوجه:

أولها: بمنعِ قولهم؛ **فقال:** ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسۡلَٰمَكُم﴾ [الحجرات: ١٧].

وثانيها: أنه نقَضَ قَوْلَهُمْ، وبيَّن لهم أنَّ المِنَّةَ للهِ تعالى عليهم؛ فهو الذي هداهُمْ للإيمانِ ابتداءً، فما مِنْ نعمةٍ إلا هو سببُهَا وجالبُهَا ﷻ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

ثالثها: تذكيرُهُمْ بأنَّ مَنْ يَعْلَمُ غيبَ السمٰواتِ والأرض، ولا يخفى عليه شيءٌ فيهما؛ هو العالمُ بعملِ كلِّ عبد، المُطَّلِعُ على سريرتِهِ وخبيئتِهِ؛ فمِنَ العبَثِ أنْ يُخْبِرَ العبدُ عالمَ الغيبِ والشهادةِ بعملِهِ الصالح؛ **فقال:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨].

فِهْرِسُ المَوْضُوعَات

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

مُلَخَّص البحث

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ الله، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أجمعين، أما بعد:

فهذا بحثٌ بعنوان: المَقُولاتُ التي أبطَلَها القرآنُ، ومنهجُهُ في إبطالِهَا، دراسةٌ تأصيليَّةٌ موضوعيَّة.

ويُعْنَى البحثُ: بجمعِ الآياتِ القرآنيَّةِ التي ذكَرَ القرآنُ فيها قولًا، فأبطَلَهُ بمُخْتَلِفِ الطُّرُقِ والأدِلَّةِ.

- **وتنبُعُ أهميَّةُ البحثِ:**

١ ـ لكونِهِ يُعالِجُ قضايا اهتَمَّ القرآنُ بتبيينها، والجوابِ عن الشُّبُهاتِ المُثارة حَوْلَها.

٢ ـ يَرْسُمُ طريقةَ القرآنِ في التعامُلِ مع أقوالِ المخالفين، والمنهجَ العلميَّ الصحيحَ في التعامُلِ مع المخالفين وأقوالهم.

- **وقد قَسَّمتُ البحثَ إلى بابَيْن:**

أولهما: بابٌ تأصيليٌّ في التحذيرِ من الشُّبُهات، وطريقةِ القرآنِ في التعاملِ معها، وبيانٍ لمنهجِ القرآنِ في عرضِ أقوالِ الخصوم، ومنهجِهِ في نَقْضِها.

وقد ظهَرَ جليًّا أنَّ القرآنَ في إبطالِهِ للأقوالِ المخالفةِ يُظْهِرُ وجهَ فسادِها، ويُحذِّرُ منها أشدَّ تحذير، ويدلُّ على القولِ الصواب، ويُرغِّبُ في القولِ به.

أما البابُ الثاني: فكانَ دراسةً موضوعيَّةً لآياتِ المقولاتِ التي أبطَلَهَا القرآن، رُتِّبَ على ثلاثةِ فصول:

الفصـل الأول: المَقُولاتُ المتعلِّقةُ بالعقائد.

الفصل الثانـي: المَقُولاتُ المتعلِّقةُ بالتشريعات.

الفصل الثالث: المَقُولاتُ المتعلِّقةُ بالسلوكِ، والأخلاق.

وسوف يَتبيَّنُ للقارئ اهتمامُ القرآنِ العظيمِ بتفنيدِ الأقوالِ الباطلةِ على اختلافِ دَرَجَتِها في البطلانِ والفساد، وعلى اختلافِ القائلين بها؛ فالقولُ الباطلُ ينبِّه على بطلانِهِ سواءٌ صدَرَ من مُنَاوِئ، أو موافق.

أسألُ اللهَ جَلَّتْ قدرتُهُ أن ينفعَ بهذا البحثِ كاتبَهُ، وقارئَهُ، والناظرَ فيه، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد، وعلى آلِهِ، وأصحابِهِ وسلَّم.

✍ د. وليد بن عبد المحسن العمري